

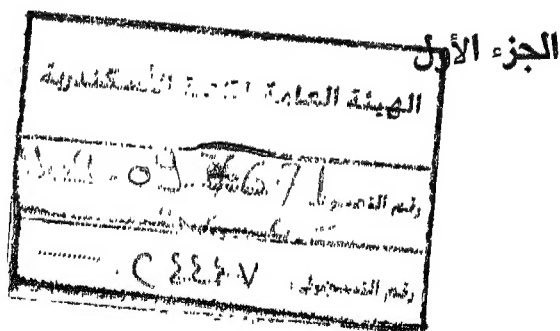
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

دار المسار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ٦١ هليوبولس

قِيمُ حَضَائِرِيَّةٍ فِي الْفَرَّانِ الْكَبِيرِ عَالَمٌ مَا قَبْلَ الْقَبْرَاتِ

تأليف
توفيق محمد سبع



دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ٦١ هليوبولس

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفه ، فقد ضممتي مجلس مع لفيف من الأخوة ذات ليلة - وكنا حين نلتقى نتحدث في كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويلا فيما بيننا ، وكان لنا صديق مفتون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقرأ من أفكار حول الغرب وتقدمه ، ونهضته العلمية الشاملة .. وينهى حديثه بعبارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها .. حتى عرف بها .. وهي قوله : لابد أن نكون منصفين - ونعترف بأننا استفدنا الكثير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا في هذه الأفكار ونؤكد له أن حضارة أوروبا مقتبسة من حضارة المسلمين .. يوم أتيحت لهم فرص التلاقى مع الشرق في فترات من الزمن أخصبها فترة الفتح الأندلسي الاسلامي .. الذي جعل أوروبا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا، وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التي ارتادها لفيف من الدارسين الأوروبيين .. وتلك حقيقة يقترنون هم بها .. بل ويتغنون بآثارها !!

هذا هو القول الحق !!

كنت أجلس بين المتناقشين صامتا لا أتكلم ، هارثا لا أنوثب - ولكن عقلي كان يشتعل ، وذهني كان يستوعب آراء ..

هؤلاء وهؤلاء .. كان يرتب المقدمات ويستخلص النتائج ، في
عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ..

وقلت لنفسي : لم لا أكتب في موضوع كهذا .. لأوقع
الحيف عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها ؟! ثم عقدت العزم
وانطلقت في المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد .. حتى امتلأت ..
ثم جاشت هذه الأفكار في نفسي وتحفرت للظهور .. فاعتمدت
على الله !! وشرعت أكتب .. وكان مقدرا أن أصدر جزءا واحدا ،
أستوحى مادته من القرآن .. ولكن القدر هيا فرصة الإقامة
بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا .. فكان ذلك
مددا غمرني بما لم أكن أتوقع من فكر ومعرفة .. وأمام هذا
الالهام الغامر كتب جزأين وقدمتهما الى مجمع البحوث
الاسلامية بالأزهر الشريف ..

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفور له المرحوم الدكتور
محمد عبد الرحمن بيصار أمين المجمع يومذاك .. والذي صار
فيما بعد شيخا للأزهر - حتى أصدر أمره بتقديم الجزأين
كليهما الى المطبعة - وقدم لهما بقلمه الخصب !! فما حل شهر
جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !!

وتقبلهما الناس بقبول حسن .. وأخذا حظهما من الثناء ،
والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص
على إعادة طبع هذا الكتاب .. واليوم .. وقد تهيأت الأسباب
أجدني سعيدا كل السعادة بإعادة الطبع ليبرز الكتاب في ثوب
جديد .. وقد أضيفت اليه بعض الأفكار .. وتم تنظيمه على
نحو بديع .. هأنذا أقدمه هدية الى الشباب الطامى الى المعرفة
ليجد فيه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضد آفات الغزو
الفكري والعقدي ..

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح له ، لقاء ما بذلت في
تأليفه من جهد ، وهو حسبى ونعم الوكيل ٥

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المملكة العربية السعودية - الرياض في غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ

يونيو سنة ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيبصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (١)

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا
الله ، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله محمد بن عبد الله ،
امام الهدى ، ورائد الخير ، وقائد الانسانية الى خير وجهة ،
وأقوم سبيل ، وعلى آله وأصحابه الذين أعز الله بهم الوجود
وحقق على أيديهم كرامة الحياة •

وبعد •

فيطيب لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، أن ينشر
البحوث الجادة حول القرآن وحضارته ، وبخاصة في تلك الفترة
التي أخذ الغزو الثقافى فيها يعمل عمله فى عقول الشباب بما
يصور لهم من حضارة الغرب ، ويزين من ثقافته ، وبعض ذلك
خليق أن يعصف بالقيم الإسلامية فى نفوس الشباب وفى
عقولهم ••

لهذا كانت الكتابة فى موضوع (حضارة القرآن وقيمته)
أمرا يفرض نفسه على المفكرين الإسلاميين ويضاعف من
أهميتها أننا اليوم نبني دولة العلم والايمان على تقوى من الله
ورضوان ••

(١) أصبح اماما اكبر للأزهر بعد ذلك رحمه الله

فهذه الدراسة أولا تؤكد لشباب الاسلام أن قيم الحضارة
القرآنية هي التي أنقذت الغرب من الجهالة ، وانتشلته من
التأخر ، وأمدته بالمعرفة الزكية الخصبة التي أخذ يستثمرها
في بناء حضارته ، فمن حق هذه الحضارة القرآنية أن تبرز
خصائصها ، وتتألق عناصرها ومقوماتها ، وتتجلى آثارها في
العالم كله ، وفي أوروبا بالذات ، قصدا الى احقاق الحق وازهاق
الباطل ، وبخاصة وأن كتاب الغرب المنصفين يعترفون بتلك
الحقائق !! ولقد أخذت حضارة الغرب اليوم تضطرب وتميد ،
من كثرة ما أمعنت في الفساد ، وأوغلت في الظلم ، وارتوت من
معين الشهوات ، فانفصلت بكل ذلك عن الله !!

وعلى الرغم من مظهرها الخادع ، ورونقها الزاهي ، فانها
تشكو العلل والأوصاب، وتورث أصحابها شقاء ولوعة، ولنتجـه
في ذلك الى الاحصاءات التي تصدر عن القوم أنفسهم حتى نكون
منصفين •

فقد ثبت أنهم فقدوا أعصابهم في جو الحديد والنار،
وتلاشت حضارتهم الانسانية في تلك الأجواء المادية ، وانطلقت
حيوانيتهم تعربد في جو الضلال والخمر والمخدرات ، وانتابتهم
الأمراض النفسية ، وكثرت بينهم الانتحارات ، وغشيهم الملل
وتورط القوم في دركات التفرقة العنصرية ولم يستطيع الرفه
المادى الذى غرق فيه القوم أن يعوضهم عن الايمان بالله !!

واذا وصلت حضارة الغرب الى هذا المستوى فان من المحتم
من هذه الحياة ، وتضاعفت آفات الجنون الجنسي ، الممزق ،
أنها ستغرب مهما اصطنعت القوة وغرقت في الترف واللذة ••
فمن المثير جدا أن تكثر الكتابات حول (قيم الحضارة القرآنية)
وأن تترجم ليأخذ العالم كله فكرا دقيقا عن مقومات تلك
الحضارة •

واذن ٠٠ فهذه الدراسة ستدعم الثقة في نفوس شبابنا
بحضارة القرآن وثقافته ومثله ، لتوجد لهم الحصانة الكافية
ضد الفكر المنحرف ، وأيضا فانها تعطي العالم كله تصورا عن
تلك الحضارة التي عاشتها البشرية من قبل ، تجربة واقعية ،
فأسعدتها ومكنت لها في الأرض ٠

ومن ناحية ثالثة فانها تعطي جماهير شعبنا المؤمن المتدين
تصورا دقيقا عن دولة العلم والايمان التي عاشتها آباؤهم من
قبل ليرتبط الحاضر المتطلع بالماضي الجليل ، وليتكامل التاريخ
في وجدان الأمة المسلمة ٠

وقد حدثنا المؤلف عن مجموعة ضخمة من الحضارات
القديمة التي وصفها القرآن ، ووضح لنا عناصرها وقيمها ،
وأكد لنا مقدرة العقل الانساني على الابتكار والابداع عبر
التاريخ ، ثم شرح من خلال العرض قوانين الحضارات ، وعوامل
ازدهارها وانتحارها ٠٠ وانتقل بنا الى توضيح ما كان يسود
العالم قبيل البعث الاسلامي من تفسخ وضلال ، وكيف أن الله
جلت قدرته قد تدارك هذا العالم برحمته فبعث اليه محمدا
صلوات الله عليه بالهدى ودين الحق ، ليرد الانسانية الى
كرامتها ورشدتها ، ووقف بنا عند هذا الحد ، ليتحدث الينا في
الجزء الثاني من هذا الكتاب ، عن البعث الجديد ، خصائصه ،
ونظام حضارته ٠

والمجمع اذ ينشر هذا الكتاب مؤمنا بأن فيه خيرا كثيرا لأنه
يجيء في وقته المناسب ، والنفوس ظامئة الى القرآن وحضارته،
والعالم كله يرنو الى هداه ، ومصر الكريمة المسلمة تبني دولة
العلم والايمان ٠

فلتكن هذه الدراسة وسيلة دعم لنفوس الشباب ، وإشارة
ضوء على طريق الدولة العصرية ، وسبيل وعى لحضارة القرآن
وقيمه ، تهديها الى العالم بأسره ، الظامى الى الهدى والخير •

والأمل كبير فى الله ، أن يمكن للاسلام فى الارض ، وأن
يكتب النصر المؤزر لأبنائه ، وأن يحقق لمصر الكريمة ما تصبو
اليه من نصر ومجد ورفعة لتسهم بالجهد الطيب المشكور فى
دعم حضارة القرآن ، لتحقق أعلامه من جديد على عالم مروع
بالظلم ، مقزع بالحرب ، مؤرق بتجار الدماء •
والله الموفق والهادى الى أقوم سبيل •

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

مقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على رسول الله دعا الى مجتمع أكرم تنتصر
فيه ارادة الرحمن، وتزدهر فيه مواهب الانسان، وتظله حضارة
القرآن ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله *

أما بعد ..

فقد يكون من المناسب أن أتصدى بالدراسة والتحليل – فى
هذا الجزء من الكتاب – لعالم ما قبل القرآن .. اذ ليس من
المعقول أن أبدأ فى وصف الحضارة القرآنية ، متجاهلاً حالة
العالم قبلها .. ليتبين القارىء من خلال العرض أى جهل كان
يسود ، وأى هوى كان يقود ، وأى ظلام كان يلف العالم قبل
نزول القرآن ..

واذن : فلن يكون الجزء الأول من الكتاب « عالم ما قبل
القرآن » الا مقدمة وتمهيداً لدراسة العالم الذى صنعه القرآن –
والحضارة التى أنشأها ..

ذلك لأن الحضارات الانسانية – حلقة محكمة السرد
لا انقطاع فيها ولا وهن .. فاذا أمكن اعطاء المعرفة عن الفترات
التي تسبق حضارة ما .. كانت الرؤيوة واضحة – والمعرفة
كاملة – والتصور دقيقاً .. على أن طبيعة النقلة الجبراة التى

أحدثها القرآن في الحياة – لابد في تصورها من دراسة ما كان عليه العالم قبلها من جهالة كثيفة وبربرية جموح !!

ان قيم الحضارة القرآنية لم تصنع ذلك التطور المذهل في حياة البشر – الا لأنها قد اكتسحت ضلالات العهود البائدة – ونسفت ما كان يسودها من خرافات – ووضعت مكان هذه الأنقاض هيكل حضارة قرآنية .. بنته على مهل وروية – وأسست على تقوى من الله ورضوان *

لقد كانت هذه الحياة – حائرة القصد ، خائرة العزم – جائرة السيرة .. ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرجت يدك لم تكذ تراها ..

ضلال في العقائد – وفساد في الشرائع – وانحراف في السلوك والطباع !! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !!

وكان هذا الفساد الشامل نتيجة لما حل بالعالم من كوارث ماحقة .. في خلقه وفي عقيدته وفي تصوره .. وكانت لمحات الضياء الخافت التي تنبعث من الديانات السماوية شاحبة الضوء باهتة النور .. لا تستطيع أن تزكى نفساً – أو تهذب طبعاً – أو تبني حياة !!

ان بعض هذه الديانات كان قد استوفى دوره التاريخي فتوارى خلف الظل – وبعضها قد انطمس نوره – وتبددت عظمه وغشيه القتام .. لأن أصحابه قد عمدوا الى تشويهه وتحريفه .. ففقد التأثير والفاعلية وأصبح مجرد رسم دارس، وطلال قديم لا يثير العظة ، ولا يحرك الضمير !! وهذا هو الذى حدث للديانتين الكبيرتين : اليهودية والنصرانية ..

أما اليهودية :

فبعد أن كانت دينا يوحى بالحنان والرحمة ويفيض على الوجود نسمات عذبة تجفف العرق عن الجباه - وتلطف من قساوة العيش وضراوة الحياة •• نراها قد تحولت على يد « شعب الله المختار » الى ديانة عنصرية لا ترعى في الانسانية الا ولا ذمة •• ثم جعلوها مادية قاسية - تعبد العجل - وتآكل السحت - وتتعامل بالربا - وتقتل أنبياء الله • وتشيع قالة السوء في المسيح عيسى بن مريم وأمه !! وقد سجل القرآن الكريم صحيفة سوابقم لتقرأ الانسانية اجرامهم على مر العصور •

وقد أعقبتها المسيحية •• فكانت مكملة لها •• ترتطب جفاف الحياة بمواعظها الآسرة - ورقائقها العذبة •• ويظهر أن الرهبان في بادئ الأمر كانوا نماذج رفيعة لركة الوجدان - ولطافة المشاعر •• ثم ما لبثوا - على مر الزمن أن تحولوا الى قساة غلاظ - يفرون من ميادين الحياة - الى الأديرة والكنائس • ليحيوا هناك حياة جافة ملؤها الكبت والقسوة والعنف •

[فقد كان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً - وانما يتسترون بشعرهم الطويل (١) - ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان معظمهم يسكن مغارات السباع والآبار ، والمقابر ويأكل الكلاً والحشيش - وكانوا يعدون نظافة الجسم منافية لطهارة الروح •• ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس - وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال من أحضان

(١) ص ١٦٨ من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندى (بتصرف) •

أمهاتهم ٠٠ لينشئوهم على الرهبنة والتقشف ٠٠ وأما الكبت فقد كانوا يمارسون منه أعنف أنواعه ٠٠ كانوا يعتبرون ظل المرأة رجساً - ويفرون منها ٠٠ لأن مجرد محادثتها تحبط أعمالهم [، ثم ماذا كان حال أوربا في هذه الفترة ؟

يقول ويلز : [لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس الى العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، فقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا ٠٠ وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة قديمة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال وأصبحت فريسة الدمار والفوضى والخراب] •

ولقد انحرفت الكنيسة الأوربية انحرافاً شائناً - عندما احترفت الكهانة - واحتكرت المعرفة - وتسلطت بالقهر والارهاب على العلماء ٠٠ فشردتهم - واضطهدتهم ، وقتلتهم - وأقامت لهم محاكم التفتيش !! وصادرت حرية الرأى وتبنت معارف رجعية ما أنزل الله بها من سلطان !!

ومن هنا نشأ العداء بين العلم والدين ٠٠ وانفصلا في رحلة الحياة ٠٠ فأما العلم فقد مضى قدماً يبتكر ويخترع ٠٠ ويبنى الحضارة بعيداً عن الله !! وأما الدين فقد تأخر في مضمار السباق وأسبغت عليه الكنيسة الجاهلة ثوب الكهانة والخرافة !!

ان هذا الوضع - لا أساس له في دين الاسلام ٠٠ اذ ليس في الاسلام كهانة تنفر الناس منه - ولا جهالة تزهدهم فيه ٠٠ وانما هو دين يدعو الى العلم ويحتضنه في رحلة الحياة ، لينشئ معه وبه حضارة وارفة الظلال تتناسق فيها المادة والروح ، ويلتقى فيها الايمان والطموح !!

لقد تحدثت في افاضة عن حالة الديانتين السماويتين قبل
نزل القرآن ٠٠ وأكدت أنهما كانتا لا تصلحان لبناء أية
حضارة ٠٠ بعد ما نالهما من عبث وتحريف !!

ثم عرضت بعد ذلك لبعض الحضارات البشرية القديمة
التي وضعها القرآن الكريم ٠٠ وقد كنت مشغولاً منذ الصبا
الباكر بدراسة هذه الحضارات التي يعرض القرآن لوصفها ٠٠
وصفاً رائعاً يفيض بالروعة والجمال ٠٠ « كحضارة عاد، وثمود -
ومدائن صالح - وحضارة داود وسليمان ٠٠ وبلقيس ٠٠ وسد
مأرب » ٠ وهذه الحضارات قد تجلّى فيها عنصر الجمال والابداع
٠ مما يجعلنا نؤمن بعبقريّة العقلية البشرية على مر القرون ٠٠
فهندسة الحدائق - وتوزيع المياه ، وإقامة السدود العالية -
والخزانات الكبيرة ٠٠ وبناء الهياكل والعمائر ٠٠ وفنون النحت
والعمارة ٠٠ كل ذلك قد تجلّى في هذه الحضارات ٠

وقد قيمة هذه الدراسة لتلك الحضارات : أنها تؤكد عبقرية
العقل الانساني على مر العصور ٠٠ وتبرز قانوناً عاماً طالما
تعرض له شراح الحضارات ٠٠ وهو أن الاستقامة على أمر الله ٠٠
والعمل بشرعه وهداه ٠٠ واتباع مناهج الرسل هي الوسائل
الأكيدة لضمان استمرار الحضارات حتى يأذن الله ٠٠ حتى اذا
انحل القوم - وأبطرتهم النعم ، وغرقوا في الترف - وتنكروا
لصوت الوحي ٠٠ وترهلوا بالرخاوة أخذهم الله أخذ عزيز
مقتدر [فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد (١)] ،
[فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم
جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم
بما كفروا (٢)] ، [فما بكث عليهم السماء والأرض وما كانوا
منظرين (٣)] ٠

(١) آية ١٣ ، ١٤ سورة الفجر .

(٢) آيتا ١٦ ، ١٧ من سورة سبأ .

(٣) آية ٢٩ من سورة الدخان .

هذا القانون - يكاد يكون عاما شاملا * لا مجاملة فيه ولا محاباة * تظل الحضارات مزدهرة في أحضان النبوات - وفي رحاب الايمان * حتى تنفصل عن الله ، فاذا هي حديث يروى وقصة تحكى ، وأثر يتحدث عنه الناس * وهو قانون له جلاله * وبخاصة عندما يستقى من كتاب الله العزيز الحميد *

ولقد سلكت في هذه الدراسة - كما هي طبيعتى - سبيل الأخذ عن القرآن * واستجلاء أنواره * واستخلاص نتائجه وأسراره * أعرض الآية - ثم أرهف السمع - والعقل والوجدان * لأستوعب الايحاء وأفقه الحكمة ، وأجد في التطبيق الاجتماعى ما تهيأت الظروف لتجد الحياة في القرآن ما يسدد خطاها ، ويهديها الى سواء السبيل * وليتعانقا معاً في وئام وسلام !

والقرآن قادر على أن يعطى في كل المجالات عطاء سخياً غير مجذوذ !!

وما كانت المعطيات الحضارية - التى نعم بها الرسول محمد [صلعم] والذين معه الا أثراً من آثار القرآن ، وما كانت المنجزات الحضارية الرائعة الا ترجمة حية لنظامه وأحكامه !!

وما استضاءت الحياة بنور الله - الا يوم انعكس ذلك النور من مرآة القرآن *

وما عرفت أوربا - وسائل العلم التجريبي - وآثاره في الحياة الا عن طريق القرآن * وما أنشأت حضارتها الا بعلوم القرآن ، وثقافة القرآن * وحضارة القرآن *

وما تخلف المسلمون عن الركب - وتحيفتهم المكاره -
وتخطفتهم الشياطين - وغشيتهم الغواشي ، الا يوم انفصلوا
عن القرآن ..

فاللهم - يا منزل القرآن - سدد خطا المسلمين على طريقه
- وبصرهم بروائع حضارته ، ووفقهم لأداء دورهم القيادي
في الحياة ۞

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الباب الأول

في معنى الحضارة والثقافة والمدنية

تتردد في مجال البحث الحضارى كلمات معينة - تبدو في بعض الأحيان غامضة - وهى كلمات [الحضارة والثقافة والمدنية] وهل هى متفقة فى المضمون أو مختلفة ؟ وما مدى اتفاقها أو اختلافها ؟ • •

وقد رأيت أن أفرد لها باباً من أبواب الكتاب - أتناولها فيه بوضوح من البيان - لتكون متألفة فى ذهن القارئ - وبخاصة أنها أخذت على مر الزمن معانى مختلفة - وتشابكت فى أطارها مجموعة من العناصر المعقدة • • كل ذلك يقتضينا أن نتتبعها فى مراحل تطورها لنعطى التصور الدقيق عنها •

وأهم هذه الكلمات هى كلمة « الحضارة » فماذا تعنى ؟

وكلمة « حضارة » من الكلمات النابذة التى حظيت بالبحوث الواسعة المستفيضة عبر التاريخ • • وأرهفت سمع الانسان على مر العصور •

نشأتها :

وقد نشأت هذه الكلمة أول الأمر بسيطة ساذجة •

كانت تعنى حياة أهل الحضرة المستقرة على ضفاف الأنهر
النضاحة بالنعيم ٠٠ أو على العيون والآبار ٠٠ وما تتسم به
هذه الإقامة من رقى مادي - ومعنوي ، في الأخلاق - والعادات -
والطبائع - والعقائد - ووسائل الحياة المختلفة ٠٠ من عمرانية
وسياسية وأخلاقية ٠٠

والمعروف أن حياة « الحواضر » حياة مستقرة تساعد
على ازدهار العلم والمعرفة ٠٠ وتعين على انشاء العمران ٠٠
لذا كانت كل هذه العوامل هي عناصر الحضارة .

وضدّها البداوة وهي تعنى : حياة أهل البدو المتنقلة -
التي تسكن الخيام وتعيش على رعى الأغنام والماشية -
وما تحويه من غلظة وخشونة وما تستتبعه من فظاظة الخلق
وجفوة الطبع ٠٠ وكل ما يفضى الى السفه والجهل - وبما
تتميز به من غارة وسلب ونهب واعتداء على منابت الكلا
ومواقع الغيث ٠٠

وقد سمي القرآن هذه الحياة « جاهلية » فقال منفراً منها
[أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم
يوقنون (١)] .

والبدو هم الأعراب الذين عناهم الله عز وجل بقوله :
[الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله
على رسوله والله عليم حكيم (٢)] .

ويتميز البدو بنفرتهم الشديدة من حياة التمدن -

(١) آية ٥٠ من سورة المائدة .
(٢) آية ٩٧ من سورة التوبة .

والتحضر وقد وصفهم ابن خلدون في المقدمة بالخشونة - والبعد
عن منازع الحضارة وطباع التمددين ..

الحضارة والبداءة في الشعر :

أفاض الشعر العربي في وصف أخلاق أهل الحضرة والبدو
أفاضة واسعة - توضح الفرق بينهما .. وما تتميز به كل
واحدة من طباع وأخلاق .

فمن ذلك ما قاله الشاعر القطامي (١) :

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا ؟ !
وكن اذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا اذا مالم نجد الا أخانا

فهذا شاعر مفتون بالبداءة - عازف عن الحضارة - يرى
في حياة السلب والنهب والاغارة والفروسية مجالا لنشاطه
الحيوى .. ولا يجد لديه مانعا من السطو على الأقرباء وأبناء
العم اذا أعوز الأمر واقتضت الحال ..

أما حياة الحضارة التى تنأى عن الاغارة والسلب ، وتميل
الى اللين والموادعة فان هذا الشاعر لا يرتضيها ..

وهكذا كانت حياة البدو قبل الاسلام .. فروسية وصعلكة
ونهباً وثرارات .. وتنقلا ورحلات .. وكراما للضيف -
واستلاباً لعابر السبيل .. فهى أخلاق متناقضة ..

(١) القطامي هو عمر بن شبيب النخعي التغلبي كان معاصراً للأختل
عمر أميرى مثله .

وهذه أيضا ميسونة بنت بحدل الكلابية - البدوية التي أعجب بها معاوية - فتزوجها ونقلها الى حياة القصور - وأغرقها في الترف - وأنجب منها ابنه « يزيد » ٠٠ ترى في هذه الحياة الجديدة زيفاً ٠٠ تضيق به نفسها - فلا تفتأ تحن الى البداوة وتذكر حياتها السمة - وأجواءها الطلقة ٠٠ وعيشتها البسيطة - التي تبتعد عن التكلف والتعمل ٠٠ وقد تزوج عليها - معاوية - قطبت منه أن يطلقها لترحل الى أهلها ففعل ٠٠ ولنستمع الى ميسونة تتحدث عن حياة البداوة بلهجة مؤثرة ٠٠ ونقارن بينها وبين حياة التحضر فتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحب الى من قصر منيف (١)
وكلب ينبج الطراق عنى	أحب الى من قسط ألوف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب الى من لبس الشفوف (٢)
وخرق (٣) من بنى عمى نحيف	أحب الى من علج (٤) عنيف
وأصوات الرياح بكل فج	أحب الى من نقر الدفوف
وأكل كسيرة في قعر بيتي	أحب الى من أكل الرغيف
فما أبغى سوى وطني بديلا	وحسبى ذاك من وطن شريف

فهل سمعت نغمة أرق من هذه النغمة ؟ وهل عهدت وفاء للوطن على خشونته وبساطته وضيق العيش فيه كهذا الوفاء ؟

وما من شك أن صدق اللهجة قد بلغ في الأبيات السابقة مبلغاً كبيراً ٠٠ وأنه لدليل على سمو هذه العاطفة عند العربي - فما بالك اذا كانت امرأة ؟

(١) منيف : شاطئ .

(٢) شفوف : حرير ناعم .

(٣) خرق : جواد كريم .

(٤) العالج : الغليظ العنيف وتقال للأعاجم .

حياة البداوة بمظاهرها البسيطة من خيمة تسمح للريح
أن تدخل وكلب يحرس تلك الخيمة .. وعباءة فضفاضة تأبسها
المرأة - وشاب نحيف من بنى عموماتها وكسيرة من الخبز
الجاف - كل ذلك أحب اليها وأعز عليها من حياة الحضارة ذات
الترف والنعيم ..

ان صدرها ليضيق بحياة القصور المشيدة - ومظاهر
الترف الباذخ من القط الألوف ولبس الشفوف - ونقر الدفوف -
وأكل الرغيف ..

وان زواجاً يجمعها بابن عمها البجوى النحيف لأحب اليها
من العليج العنيف ..

أرأيت من هذا كيف استطاعت هذه الشاعرة البدوية أن
تشيد بالبداوة وتمنحها درساً في الوطنية - وتصور لنا طبيعة
البادية السمحة وخلائقتها الصافية ؟

وكيف قابلتها بحياة الحضارة .. التي تضيق بها النفس -
وتود الفرار منها ! ؟

أما أنا فأرى ميسونة قد أبدعت في التصوير - وأجادت
في التعبير وسمت في العاطفة والشعور ومن هذا الاستعمال -
الذي نلمح فيه مقابلة بين الحضارة والبداوة قول جرير الشاعر
الأموي :-

كيف التلقى ؟ ولا بالقيظ محضركم
منا قريب ولا مبداك مبدانا !!

فالكلمتان : [مبدى - محضر] من البداوة والحضارة ..

والشاعر في هذا البيت من الشعر يبدى نوعاً من الحيرة ..
كيف يلتقى بمن يحبها ؟

وان مكانها لبعيد عنه سواء في البادية أو الحاضرة !!

فتكون البدوة مقابلة للحضارة في تصوير هذا الشاعر
الموجز المختصر •

وفي حديث لرسول الله [صلعم] يقول فيه [لا يبع حاضر
لباد] •

ينهى صلوات الله عليه أن يتعامل رجل من أهل الحاضرة
مع آخر من أهل البادية في البيع والشراء لما في ذلك من احتمال
الغش والخديعة •

وقد سئل ابن عباس في معنى الحديث فقال معناه « لا يكن
سمساراً له » •

وهو لا يخرج عن التوجيه السابق – من احتمال الغش
والمراوغة والخديعة لأن البدوى غفل ساذج •

وقال صاحب لسان العرب : الحاضر المقيم في المدن والقرى
وكذلك المقيم على الماء يقال له حاضر – والقوم حضار اذا
أقاموا أيضاً على الماء قال لبيد الشاعر :

فالواديان وكل مغنى فيهم وعلى المياه محاضر وخيام

وأقول : كلام صاحب اللسان صريح في أن الحضارة تقابل
البدوة – وفي أن الإقامة في المدن والقرى وعلى المياه هي
الحضارة • لأن ذلك يستدعى الاستقرار •• ويقتضى العمران
وقد أشار المؤرخون كثيراً الى أن الحضارة لا تنشأ الا على

السُّطَّانَ والسَّوَّاحِلَ وَبِجَوَارِ الْأَنْهَارِ وَصَدَّقَ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ :
[وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (١)] •

ويؤيد ذلك الواقع لتاريخي للحضارات القديمة كحضارات
سبأ - وعاد - وثمود •

تطور معنى الحضارة :

تنقلت هذه الكلمة عبر الزمن تنقلا مرحلياً - تدرج مع
اتساع آفاقها ، وكثرة عناصرها وتعدد مقوماتها وقيمتها • •
واختلافها من بلد الى بلد • • ومن أمة الى أمة • • فهناك
حضارات تأخذ شكلاً مادياً - وتبتعد عن الروحيات • • وهناك
حضارات تأخذ طابعاً روحياً - فتصبغ كل آثارها ومنجزاتها
بالصبغة الروحية • • وهكذا • •

على أنه بتقدم الزمن • • ظهرت للحضارات آفات عديدة -
جعلت الناس ينفرون منها ويضيقون بها • • لأنها ضد
طبيعتهم •

المتنبى والحضارة :

والشاعر أبو الطيب المتنبى - الذي ازدهر فنه في القرن
الرابع الهجري • • يوم انقسمت الدولة العباسية الى
دويلات • • تتنافس في الأدب ، وتتسابق في العلم • • وتتأنق
في الترف - هاله ما شاهد من زيف الحضارة ونفاقها • •
وكذبها وادعائها • • وبحثها بالقيم والفضائل • • • وأنها قد
غدت صناعية لا تستمد من الطبع ، ولا تعبر عن الفطرة
الانسانية في جوهرها النبيل الأصيل • •

(١) آية ٣٠ سورة الأنبياء •

وقد سجل رأييه في حضارة عصره . . . ورسم صورة صادقة لها في شعره . . . أعرب فيها عن مقتته لنماذج الجمال المصنوع في فتاة مجتمعه . . . وتمنى نموذج الجمال النظري المطبوع الذي لا تكلف فيه - ولا تصنع . . . فاستمع اليه يقول (١) :

من الجآذر في زى الأعاريب ؟ حمر الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجسه الحضر المستحسنات به كأوجسه البسوديات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بنظرية وفي البدواة حسن غيم مجلوب
افسدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكنهن صقيلات العراقيب

فأنت تستطيع أن تحكم بعد قراءة الأبيات السابقة بأن نماذج الجمال على عصر المتنبي قد صارت مصنوعة . . . وأنه يجتويها ويضيق بها - ويؤثر عليها جمال البادية المدبوع . . . وكأنما مسته نفحة من الهام الطبع - أو صفاء القريحة - فراح يتحدث بانفاضة واسهاب عن نموذج الحسن المصنوع - الذى هو سمة الحضارة الزائفة . . . وكأنما عانى من مضغ الكلام - وصبغ الحواجب - وصقل العراقيب - ووضع المساحيق . . . فسجل شعوره في مرارة وأسى . . .

وكل ذلك من سوآت الحضارة وآفاتها وانحرافها . . . وأين يقع هذا الجمال الزائف من جمال البدواة الذى ينأى عن الزيف والخداع ؟ !

ولو عاش المتنبي الى أيامنا هذه - ورأى فتاة اليوم لوجد

(١) القصيدة في مدح كافور سنة ٣٤٦ هـ - استهلها بالزل .

كل شىء فيها مصنوعة حديثها - وجمالها - ومشيتها -
وشعرها - وهديها - ونظفها . . بفضل منجزات « باريس »
ومنتجات « هوليوود » وتأثير وسائل الاعلام !!

وهكذا - تمضى الحضارة الصناعية فى خط ممتد من عهد
المتنبى الى عصرنا الحديث . . فيكون هذا الشعر قد أعطى
« الحضارة » تفسيراً جديداً . . . سبق به كل من تناولوه فى
عصره - وقبل عصره . . لأنه ضمنها معنى النفاق والزيغ . .
وربما كان النفاق هذا خلقاً ملازماً لكل حضارة مادية لا تقوم
على أساس من عقيدة وخلق . . وحضارة الغرب اليوم
مخصصة فى هذا اللون من الملح والتمويه والخداع . . .

وبهذا تكون كلمة « الحضارة » منذ ذلك العصر - قد
ارتبطت بمجموعة ضخمة من السلبيات .

ابن خلدون والحضارة :

ممن تناولوا هذه الكلمة بالشرح والتحليل العلامة الجليل
عبد الرحمن ابن خلدون - وقد عاش الرجل فى أواخر القرن
الثامن وأوائل التاسع الهجرى [٧٣٣ - ٧٠٨ هـ] وكان فى
مباحثه - وعلل حوادثه ووضع كتابه المشهور [بالعبر وديوان
المبتدأ والخبر] وهو ثلاثة كتب فى سبعة مجلدات - يمتاز هذا
الكتاب بما تضمنه من المقدمات الفلسفية فى صدور الفصول
عند الانتقال من دولة الى دولة .

تكلم باسهاب فى الاجتماع . . وعرض للحضارات المختلفة
من حيث نفعها أو ضررها . .

وقد بلور مفهوم الحضارة على أنها ذلك النمط من الحياة
المستقرة الذى يقتضى فنوناً من العيش والعلم والصناعة -

وإدارة شئون الحياة والحكم – وتوطيد حياة الدعة وأسباب
الرفاهية . . .

ومن آرائه في الحضارة – أنها تعبر عن القمة العالية للتقدم
الإنساني . .

وأنها بعد ذلك تمعن في الانحلال والتفرف والفساد فتنزلق
روايدا روايدا حتى تصل الى السفح يقول في ذلك : [ان
الحضارة غاية العمران ونهاية عمره – وانها مؤذنة بفساده] .

والجديد في كلام ابن خلدون – أنه أشار في تعريف
بالحضارة الى عناصر السياسة والحكم وتوطيد الحياة، وتطوير
الصناعة بالعلم . .

فهو أقرب الى التحليل العلمي من كل من سبقوه .

ولعله عندما تحدث عن سوءات الحضارة – يقصد الحضارة
المادية – البعيدة عن الله – لأن هذا اللون من الحضارة هو الذي
يزدهر – ثم ينتحر . .

فأما عندما تقوم الحضارة على دعائم قوية من المادة والروح
فإنها لا تؤذن بخراب العمران – ولا بنهاية عمره – بل تدعم
العمران – وتوسع قاعدته . . وتنشر العلم في آفاقه – والفضائل
في ربوعه . .

كما أن ابن خلدون – قد أشار بقوة الى الترف – وأنه
مقوض الحضارات وعدوها اللدود – ونظرته في ذلك صائبة قد
أشار اليها القرآن الكريم عندما حدثنا رب العزة والجلال عن

مصارع لظالمين فقال سبحانه « انهم كانوا قبل ذلك مترفين (١) »
وكقوله سبحانه فيمن أعرضوا عن الله : « ولكن متعتهم وآباءهم
حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (٢) » والآية الثانية تؤكد
أن المتأخر الحسى - والتترف المادى - يؤدى إلى الانحلال -
ويصرف القلب عن ذكر الله - وكفى بذلك دمارا للحياة
والأحياء !!

ويرى ابن خلدون - أن العرب بطبيعتهم أبعد الناس عن
التحضر والمدنية ولعله بذلك يقصد البدو المتخلفين - الذين
لا يفارقون البادية فمن أين لهم العلوم والمعارف والثقافات ؟ !

فأما العرب بالمفهوم العام - فهم أقدر الناس على
الاستيعاب الحضارى - وأفقه أهل الأرض لفلسفة المدنية
ولهم في ذلك مواهب وقدرات تشبه المعجزات !! كما أنهم
أساتذة العالم في « تمدين » الشعوب « وتحضيرها » .. بل إن
العالم الحديث لم يعرف الحضارة إلا عن طريقهم كما سنوضح
ذلك بعد ..

وبخاصة عندما ارتبطوا بالاسلام .. فمس مواهبهم
الأدبي .. وبعث مواهبهم الكامنة وحرك فيهم حوافز البحث
والنقضى .. وأطلق عقولهم وبصائرهم ، وحرر أفكارهم
وضمائرهم ، وفتح أمامهم الطريق لبحثوا ويكتشفوا ويرتادوا
ويرجعوا من رحلتهم المباركة ب زاد طيب من الايمان واليقين ..

نعم : لقد استطاع محمد صلوات الله وسلامه عليه أن يفجر
بينايع . حكمة والمواهب المبدعة والأسرار الخافية من القوم -
فانساه ، غيىها المبارك على أرض الوجود الجديدة فاهتزت
وربت وانبتت من كل زرع نضير ..

(٢) آية ١٨ سورة الفرقان

(١) آية ٤٥ سورة الواقعة

ان ابن خلدون قد أعطانا تصوراً واسعاً عن الحضارة -
وعناصرها - وآفاتهما * * ونتائجها فهي يضمنها معنى العلم -
وأساليب الحكم - وأنماط الاقتصاد والصناعة - ويجعل لذلك
كله ثمرة واقعية في الحياة هي التقدم والرفاهية *

فاذا غرق أصحابها في الترف فقد آذنت شميس حضارتهم
بمغيب ! !

وهو بذلك يشير الى ما يعرف « بالدورة الحضارية » وذلك
عندما تأخذ الحضارة زخرفها - وتزين، * * ثم تبدأ بعد ذلك في
الهبوط لأنها قد أدت الدور التاريخي ! ! لتحل محلها حضارة
أخرى - أقدر على التجاوب مع فطرة أناس *

واذا كان للرجل - بعض الآراء التي لا تستسيغها اليوم
فله عذره لأنه أول من راد هذه البحوث الحقيقة * *
ولعل من جاءوا بعده لم يضيفوا جديداً الى معنى
الحضارة * *

الكتاب المعاصر والحضارة :

يعرفها بعض الكاتبين بأنها [نظام اجتماعي يعين
الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي -] وتتألف من العناصر
الأربعة - الموارد الاقتصادية - والنظم السياسية والقيم
الخلقية - والعلوم والفنون والمعارف والفلسفات *

ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من دينية -
ولغوية وجغرافية *

ولانهيارها عوامل هي الانحلال - والفساد - والظلم -
والترف - وانتشار التشاؤم * وفقدان القيادات الصالحة *

وفي رأيي - أن الحضارات سلسلة متصلة . . يتأثر بعضها ببعض - ويمتص بعضها من بعض . . ولكل أمة جهدها في تشييد الصرح الحضارى . .

وترجع عظمة الحضارات الى متانة المقومات التى تقوم عليها وادساتير التى تستقى منها - والآثار العالمية التى تتركها . .

وخارذ الحضارات . . انما يعنى أصالة جوهرها - واتساع آفاقها - وعالمية رسالتها وانسانية نزعتها وواقعية مبادئها ،

وكل ذلك قد تضمنته حضاة القرآن الكريم . .

ومز أوجز التعريفات قول بعضهم [الحضارة تعنى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية فهى مجموع الحياة فى صورها ، أنماطها المادية والمعنوية] . .

وهو تعريف يشير الى جناحى الحضارة : وهما المادة والروح . . حتى ثلاثم فطرة الانسان - وتتجاوب مع مشاعره وعواطفه وقدراته . .

كما أنه يشير أيضاً الى عناصرها التى يمكن حصرها فى :

- (أ) تصور الحياة وغايتها
- (ب) المقومات الأساسية التى تقوم عليها
- (ج) المنهج الذى يستوعبها
- (د) النظام الاجتماعى الخاص

والانسان ركن أساسى من أركان الحضارة . . . لأنه

يستوعب المنهج - ويطبقه ويرتاد الحياة ويكتشف عناصرها
ويتخير النظام الذي يلائمه .

ومن الأسس البديهية في البحوث الحضارية أية حضارة
لا تقوم الا على أساس من الوجود - وهو الساحة الحضارية -
ومن الانسان - وهو الطاقة البانية - والمنهج . . وهو الذي
يمنح المعرفة - والعمران وهو الهيكل الحضارى .

حضارة الاسلام :

عندما طبقت شريعة الاسلام تطبيقا كاملا - ساد الأمة
الاسلامية نظام واحد وفكر واحد - واتجاه واحد . . لأنها
جميعاً تستمد من نبع واحد وتسقى بماء واحد وتكون من ذلك -
بعد الفتح الاسلامى لفارس والروم - . عالم موحد في روحه
وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ساد مايعرف في التعبير
العصرى « باتتلاف النغمة » . . ان هذا الذى حدث من التجانس
العام في عالم الاسلام يسمى : نظام الإسلام . .

أما الحياة التى بدأت ثم ترعرعت وازدهرت - ثم توطدت
وانتشرت في « ظل نظام الاسلام » ونطبقه بحركية ايجابية
بناءة - وطاقة متجددة دائبة - ونماء موصول مطرد في الزمان
والمكان والانسان فهو مايسمى « بالحضارة الاسلامية » .

يقول الدكتور خلف الله أحمد : [ان الحضارة الاسلامية
هى تلك الحضارة التى قامت على أساس رسالة سماوية هى
الاسلام . . ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى مأخوذة من
القرآن الكريم - ومن أقوال الرسول وأعماله] :

انها حضارة الهية في منهجها - وفي وجهتها - وفي
تصورها - وفي خط سيرها - يأخذ الانسان المسلم منهج ربه -

ويمضى به بانيا للحياة - مشيداً لعمرانها - متفاعلاً مع الكون
ماضياً معه في رحلة ميمونة مباركة قوامها الاستطلاع
والاستكشاف والبناء بالجهد والعرق - واستثمار المعرفة -
وصداقة عناصر الوجود • • وبذلك يؤدي المسلم رسالته في
الحياة • • • ويكون خليفة الله في أرضه •

يقول الدكتور حزين : [ان الحضارة الاسلامية حصيلة
تاريخ حياة المسلمين على أرضهم - وفي أوطانهم المتصلة في
النطاق الأوسط من الارض - بين المناطق الباردة التي تقطنها
كثرة من المسيحيين وغيرهم - وبين المناطق الاستوائية التي
يقطن أغلبها من أصحاب الديانات الأخرى والوثنيين] •

ويستطرد - فيقول : [لئن كان الاسلام قد يمتاز بأنه دين
بناء حضارى - فان واقع الأمر في الحضارة الاسلامية - أنها
استحدثت مقومتها الأولى والاساسية من الاسلام ذاته - واذا
كان ظهور الاسلام قد سبقه في جزيرة العرب وما جاورها
حضارات أقدم منه - كما سبقه أيضاً في البلاد التي انتشر
فيها ألوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلي أو الاقليمي
فان الاسلام استطاع أن يضيف على البلاد التي شملها جميعاً
لونا مشتركاً من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات
الانسانية والاجتماعية والسياسية حتى أصبح هناك قدر
حضارى مشترك بين المسلمين في مختلف أقطارهم وديارهم] •

وكلام الدكتور حزين يتناول ناحيتين من نواحي الحضارة
الاسلامية • • أولهما التعريف بها وقد حصره في المعارف
الاسلامية وثانيهما : توضيح الشمول الذى تتسم به تلك
الحضارة • • لأن كتابها الخالد وهو القرآن يرسم للمسلمين
سبيل تقدمهم - وطرائق عباداتهم ومعاملاتهم - وأسلوب
تعايشهم مع المجتمع • •

أى أنه لا يترك لهم شيئاً في أصول حياتهم - يخضع
للآراء المختلفة .. ولهذا اختلفت النعمة في هذا العالم الاسلامى
الكبير ..

يبقى بعد ذلك كله أن الحضارة الاسلامية لها شخصيتها
الحية المتحركة ونماؤها الدائم المتجدد - وتفاعلها المثمر
الخالق ، فهي في ذلك كله وجود واحد له في نمائه وتوقفه وفي
ومضه وغمضه - وفي انطلاقه وجموده مراحل وأطوار من التسامى
- والهبوط - لكنه لا يموت - ولا يتصور أن يموت - وليس
من طبيعته أن يموت .. لأنه محكوم بكتاب سماوى خالد -
دائم - مستمر الى يوم الدين وصدق الله اذ يقول : [انا نحن
نزلنا الذكر وانا له لحافظون (١)] .

والمسألة متوقفة على الاستمداد، والتطبيق بوعى وفاعلية .

وعلى قدر العمل بذلك - أو التخلي عنه يكون حظ الحضارة
الاسلامية من الازدهار أو الانحار .. فاذا أراد أصحابها بعد
الخمول الطويل ، أو النوم الثقيل أن يجددوها فما ذلك بعزيز
عليهم - بشرط أن تتجمع القوى ، وتنمى العزائم للعمل
المثمر ، والتطبيق الصارم ، عندئذ تعود الحضارة نامية مزدهرة
وهكذا دواليك ، وهذا هو سر المواجهة العارمة المحتدمة التى
تعرض ويتعرض لها الاسلام بينه وبين حضارات العالم
بأسره .. ثم تنحسر المواجهة عن قوة المد . الحضارى للاسلام
وقدرته على الانتصار ..

عالم ما قبل الاسلام :

من « أرشيف » الحضارات القديمة (تحليل ودراسة)

(١) آية ٩ سورة الحجر .

ان حصيلّة الدراسات التي قدمتها في صدر هذا الباب تتضمن بالنسبة الى أية حضارة أمرين أساسيين - فكرا يخطط - وعملا ينفذ . والفكر يكمن خلف العمل لا محالة . فكل هيكل ضخم ، أو معبد فخم ، أو قصر مشيد ، انما يعكس فكرا هندسيا قدقام على أساسه . وبعبارة أوضح عندما نريد أن نبني عمارة مثلا أو نخطط حديقة . فاننا نلجأ الى مهندس ليخطط التصميم على الورق ويبرز الفكر ممثلا في رسوم وأشكال . ثم يأتي بعد ذلك دور التنفيذ - فيتكفل العمل بهذا الدور ؛ فاذا قلنا مثلا : الحضارة السبئية القديمة فاننا نعني أثر هذه الحضارة الذي تصوره الآية الكريمة في قول الحق تبارك وتعالى : [لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حمت وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا . . . وهل نجازي الا الكفور (١) ٢٠]

ماذا نرى من خلال العرض القرآني لآثار تلك الحضارة ؟

نرى أنها حضارة تمثلت في وجود مادي ملموس - من هذه البساتين النضرة - ذات الأفياء والظلال - فهما جنتان عن يمين وشمال قد تجلت فيهما دقة الفن - وهندسة التنسيق - وجودة الثمار . . .

لكن القوم لم يشكروا لله أنعمه - ولذا انهارت تلك الحضارة الوارفة الظلال . بسبب فساد أهلها واعراضهم عن الله . . . غيروا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم وهذا سبيل كل حضارة تتنكر لله !! وبتأمل يسير نرى - أن القوم قد حققوا

(١) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة سبا .

جانبا واحدا من الحضارة وهو الجانب المادى •• أما الجانب
الروحي فقد ذهلوا عنه - وأهملوه •• ومحال أن تنهض حضارة
ما على جانب واحد !!

وكذلك عندما نقرأ قوله سبحانه في وصف حضارة عاد
[وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١)] وقوله : [ألم تركيف
فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد (٢)]
نحس من خلال الآيتين •• أنها حضارة قد تمثلت في فن النحت،
والبناء ، والعمارة ، واقامة المصانع •• والمؤرخون يببالغون في
وصف هذه الحضارات وما تركته من آثار مادية شامخة ونحن
لا نريد أن نذهب بعيدا عن احياء القرآن ودلالته •

ماذا نرى من خلال الوصف ؟

نرى أن حضارة عاد قد تمثلت في الوجود على شكل منشآت
وعمائر ومصانع ••

وأنها حين أعرضت عن الله « صب عليهم ربك سوط
عذاب » •

انها الأخرى حضارة نهضت على أساس مادي وأهملت
الجانب الروحي •

لكنها تعكس فكر القوم ، ومعارفهم ، ونشاطهم العمرانى
في الحياة •

وعندما نقرأ عن حضارة ثمود قول الله سبحانه [وثمود

(١) آية ١٢٩ سورة الشعراء •

(٢) الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، سورة الفجر •

الذين جابوا الصخر بالواد (١) [وقوله : [وبوأكم في الأرض
تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا (٢) [ماذا
نلمح من خلال الوصف ؟

حضارة مادية تمثلت في الوجود على شكل فنون جميلة من
النحت ، وبناء القصور واقامة المساكن والبيوت . .

لكنها أيضاً أعرضت عن الله [فأخذتهم الرجفة فأصبحوا
في دارهم جاثمين (٣) [من خلال هذا العرض المبسط - نستطيع
أن ندرك بأن الحضارات سلسلة محكمة السرد موصولة
الحلقات - وأنها جميعا تخضع لقانون واحد ، وتنهض على
أساس واحد ، ويطرد سيرها اذا استقامت على أمر الله . .

ونفهم كذلك أن الكيان المادى لأية حضارة - وان كان
يمثل عبقرية أصحابه في الفكر والعمل والابداع . . لكنه لا
يستقر ولا يستمر ولا يامن العثرات حتى يحقق الجانب
الروحى بالاستقامة على منهج الحق - وتحقيق مشيئة الله
في الأرض .

ومضمون ما سبق كله : أن كلمة حضارة قد نشأت بسيطة
- ثم تطورت مع الزمن ، وارتبطت بمناهج الوحي ، وأخذ
مدلولها يتعقد ويستجمع العناصر الكثيرة . . ثم يؤول في النهاية
الى الهيكل الذى تتناسق فيه العناصر المادية مع العناصر
الروحية . . لتظل الحضارة مزدهرة دائمة النماء والتجدد .

معنى المدنية وارتباطها بالحضارة :

-
- (١) آية ٩ سورة الفجر .
 - (٢) آية ٧٤ سورة الأعراف .
 - (٣) آية ٧٨ سورة الأعراف .

كلمة مدنية من الكلمات المستحدثة التي لا وجود لها في المعاجم القديمة (١) - فهي من المبتكرات الجديدة ويقال في هذا الصدد التمدن الاسلامي - والمدنية الاسلامية وهكذا نطلقها ببساطة على معنى الحضارة - ونجعلها كلمتين مترادفتين وهذا الاطلاق يتفق مع المدلول اللغوي للكلمة لأن « المدنية » نسبة الى المدينة في الأصل . فمعنى رجل مدني منسوب الى المدينة في كحضرى منسوب الى الحاضرة والحاضر والمدينة لا تختلفان .

وقد شاع في مصطلحات علم الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » أى نزاع الى الاجتماع والاختلاط ببنى جنسه . ويجد في هذا الاجتماع أنس روحه وبهجة قلبه . . . وإذا كانت هذه تطلق على ما يرادف الحضارة أحيانا - فإن العرف قد خصصها في النهاية بالجانب المادى للحضارة كتشييد المدارس واقامة المؤسسات - كما سنوضح ذلك قريبا .

معنى الثقافة وصلتها بالحضارة :

كلمة «ثقافة» كلمة حية لها صلة وثيقة بالحضارة والمدنية . وأصل الكلمة مأخوذ من « تثقيف الرمح » - أى تهذيبه وتعديله وتسويته - ثم انتقلت الكلمة الى « تثقيف العقل » أى تهذيبه بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة - وبذلك تكون الكلمة قد تجاوزت الماديات الى المعنويات .

وعلى ذلك « فالرجل المثقف » هو الحاذق البصير ، العارف بمطالب عصره ، الذى لا يقتصر بالمعرفة على جانب دون آخر . . . وإنما يأخذ من كل فن بطرف - أو قل بتعبير عصرى : الرجل

(١) مع أن كلمة « مدنية » غير موجودة في المعاجم القديمة الا انها قياسية لانها مصدر صناعى كحرية وديمقراطية .

المثقف الذى يعرف عن كل شىء شيئاً ٠ أى يكون لديه الامام
باطراف المعارف والمعرفة بالأشياء حسب الامكان والطاقة
بخلاف الشخص الذى يعرف عن الشىء الواحد كل شىء فانه فى
هذه الحالة يكون عالماً متخصصاً - فالاستيعاب صفة المتخصص
والاستنارة العامة سمة المثقف ٠

وقد يكون الشخص عالماً غير مثقف - وما أكثر وجود
هذا الطراز من الناس - بأن يحقق الطب ويجهل ما سواه ٠٠
أو يدرس اللغة - فاذا تجاوز مجال تخصصه ظهر افلاسه وبان
جهله وقد يكون الشخص مثقفاً غير متخصص ٠٠ كأن نجد عنده
المعرفة الشاملة العامة فى السياسة والاجتماع والأدب والفن ٠٠
فالمثقف يتحدث اليك فى كل شىء ويلقأك بلون من « المعرفة
العامة » التى لا تعمق فيها ولا استقصاء ٠

وكم تحتاج الحياة الى طبقة « المثقفين » الذين لا يقتصرون
على مواد تخصصهم بل يتجاوزونها الى متطلبات العصر -
فتحس عندما تلتقى بهم بأنك أمام عقل مستنير ٠٠ ونستطيع
عندما نراجع تراثنا أن نلمس جانب الثقافة متمثلاً فى السيوطى
الذى كتب فى كل شىء وأعطى المعرفة الضرورية فى علوم شتى ٠٠
وتخصص فى بعض المواد تخصصاً قوياً ٠٠ وكذلك : الجاحظ ٠٠
نرى له المؤلفات المختلفة فى شتى المعارف الانسانية ٠٠ ونراه
يتحدث فى أمور كثيرة ٠٠ يبرز فيها الطابع الثقافى ٠٠

كتب فى النخل ، والكرم ، والغناء والجوارى ، والمثل
والنحل ٠٠ والأدب والتاريخ والاجتماع وقد كثرت مؤلفات
الرجلين حتى جاوزت المائتين لكل واحد منهما ٠

ولسنا نجردهما من العلم التخصص - ولكل منهما علوم
تخصص فيها واستوعب مادتها واستبطن دخیلتها ولكنهما لم

يقتصر عليها ولذا كان الطابع الغالب عليهما عو الطابع الثقافي •
قال في لسان العرب : رجل ثقف : حاذق - والحذق سرعة
الفهم •

وقال ابن دريد : ثقفت الشيء حذقته •
وعن أم حكيم : [انى حصان فما أكلم - وثقاف فما أعلم] •
وتقول : ثقفت الشيء : ظفرت به ومنه قوله سبحانه :
[فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم] أى فاما تظفرن
بهم فاجعلهم عبرة لغيرهم •

وعن عائشة رضى الله عنها تصف أباه : [أقام أوده
بثقافته] أى بمعرفته - تريد قوم عوج المسلمين بمعرفته •
تلك هى معانى الكلمات الثلاثة [حضارة - مدنية - ثقافة]
بيد أن الارتباط بينها ما يزال غامضاً • • ولنحاول توضيح
ذلك بما يتسع له المقام • •

علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض :

ان الحضارة - التى سبق تحليل معناها لها جانبان عند
علماء الاجتماع وشراح الحضارات وان شئت فقل لها جناحان • •
الأول مادى ، والثانى معنوى •

فاذا أردت بالحضارة جانبها المادى الملموس - كالعمائر
والمساجد والمدارس والحدائق والملابس والأسلحة وكل
المبتكرات المادية الملموسة للحضارة فهذا الجانب هو «المدنية»
فيقال مثلاً : ان مدنيته الغرب تتمثل في المبتكرات الحديثة
الفنائة - وجمال الحدائق والمباني وهكذا •

والجانِب الثاني للحضارة : وهو الجانب الروحي أو المعنوي هو ما يطلق عليه علماء الاجتماع « ثقافة » فهي بذلك تقابل المدنية • وتشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والشاعر والعواطف • • فهي حصيلة الانسانية في هذه المجالات • • وهي تشمل أنماط الحياة الانسانية وأسلوبها في المعرفة روحيا وفكريا ولغويا وأدبيا – وعلى هذا فقد نتلاقى شعوب وأمم على تراث فكري وروحي وفني واحد فتكون بينها وحدة ثقافة •

وقد تنفرد أمة عن أخرى في نمط ثقافتها ومعرفتها وفلسفتها وفنها كالأمة اليونانية •

وفي ضوء ما مضى : نستطيع أن نقول باختصار : ان المدنية والثقافة معاً هما جناحا الحضارة بمضمونها الفني عند علماء الاجتماع • •

فنحن نريد من كلمة « حضارة » الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة وهي مجموع الحياة في صورتها المادية والمعنوية • •

فاذا قلنا ان هذا المجتمع متحضر : فمعناه أنه قد حقق ألواناً من المعارف – ثم ترجمها الى واقع ملموس •

فالمعرفة النظرية « الأكاديمية » هي الثقافة – وترجمة هذه المعرفة الى واقع ملموس في الحياة هي المدنية وكأنما تعنى « التطبيق » •

وبهذا ترتبط المدنية بالثقافة لأنها التجسيد الحي لها • • وقد تنحرف الحضارة عن الطريق السوى فلا تأخذ سمت التكامل – فتكون ذات طابع مادي – أو ذات طابع نظري • •

وكلتاها صورة مشوهة ممسوخة للحضارة الخالدة – التي
يجب أن تعبر عن فطرة الانسان مادة وروحا .. كما خلقه الله .
وحتى تكون صورة حية لنشاطه ما دام هو صانعها ..

بين الحضارة والمجتمع :

أيمكن بعد توضيح معنى الحضارة على نحو ما قدمنا أن
يقال بأنها تعنى المجتمع ؟ وأن المجتمع هو الحضارة !!

كلا : لأن المجتمع يتكون من كتل بشرية تتميز بلون من
الترابط الداخلى بين أفرادها • يجمعهم على هدف واحد
ويوجههم الى غاية واحدة فى الحياة •

وكلما كان هذا الترابط على أساس من دين قويم أو كتاب
كريم أو رسالة خالدة كلما كان شديد الخطأ – قويم السلوك ..

وكلما كانت الروابط بين أفراد المجتمع على أساس من
قوانين البشر – وفلسفاتهم كلما كانت أدعى الى الحيرة
والاضطراب ..

قد تنشأ الروابط على أساس حزبي – أو طائفي – أو
عنصري – أو على أساس مصلحة الوطن الضيق .. وليس على
أساس المجتمع الانسانى الواسع ..

ان هذه الروابط تكون دائماً مصادر للشقاء – وأسباباً
للحروب ، ووسائل للتعصب الذميمة والحقْد الجاهلى .. وقد
تكون فى معظم الظروف أبعد شئ عن فطرة الانسان !!

وعلى أى حال فان معنى المجتمع – لا يمكن أن يكون هو
الحضارة ..

لكن الحضارة صفة لهذا المجتمع تتمثل في رقيه أو ضعفه -
 في ضيق مضطربه أو سعته - في نظمه ومؤسساته - في مكاسبه
 وانجازاته - في القيم السائدة فيه، والأخلاق السارية في أفرادها،
 في مدنه وعمائره ، في مساجده ومنائره ، في حدائقه وبساتينه
 في تنظيمه وتخطيطه ، في قوانينه ودساتيره ، في أوضاعه
 الصحية والسياسية والاجتماعية ، كل هذه العناصر وغيرها
 تعرف بأنها الحضارة .. والانسان صانعها ومبتكرها بتفاعله
 مع الكون ، وتجاربه في الحياة ، وتعاطفه مع الوجود ..
 مستخدماً العلم وسيلة في تحقيق انجازاته .. مستشعراً هداية
 ربه في كل ما يأتي أو يذر ..

وما المجتمع بهذا التصور الا كالجسد وما الحضارة الا
 روحه - ما المجتمع الا الاطار والشكل ، وما الحضارة الا المضمون
 والمحتوى ..

وبتعبير أوضح : الحضارة : عمل الانسان في ساحة
 المجتمع .. فالعمل القائم على العلم والهداية هو صانع الحضارة
 والانسان أهم ركن في البناء الحضارى - والمجتمع هو الساحة
 الحضارية التي تتسع لنشاط الانسان *

ونستطيع أن نتصور مجتمعاً لا حضارة له فيكون جسداً
 بلا روح أو هيكلًا بلا طموح .. وهو المجتمع المتخلف بالجهل ،
 أو المستعبد بالسخره ، أو الغارق في الهمجية أو المخدر بالأمانى
 الكذاب .. واليهم يشير سيدنا رسول الله بقوله :

« ان قوماً غرتهم الأمانى فقالوا : نحسن الظن بالله -
 وكذبوا - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » *

وهكذا يصبح العمل روح الحضارة .. لأنه التعبير الحى

عن الطاقة الانسانية ٠٠ والسبيل الوحيد الى « تطوير » المجتمعات ٠٠ والدليل الأكيد على قوة الايمان ٠٠ وليس مجرد العمل هو الذى يصنع الحضارة ٠٠ وانما هو احسان العمل - واتقانه - وبذل أقصى الطاقة فى تجويده ليحيى على صورة مثالية يرضى عنها الله ورسوله ومن ثم فان القرآن الكريم يشيد باحسان العمل، ويربط به الثواب الأوفى يقول جل شأنه: [انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً (١)] [ولا نضيع أجر المحسنين (٢)] ويقول رسوله الكريم : [ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه] ٠٠ وبهذه الايحاءات الهادفة يأخذ الاسلام سمناً حضارياً كميزه عن جميع الأديان الاخرى ٠٠

وقديماً كان « الاستعمار » بكافة صوره وأشكاله عائقاً عن بناء الحضارات ٠٠ ولا تجد شعباً « مستعمرأ » الا وهو فى أحط درجات التخلف ٠٠ لأن « الحضارة » هى أخطر سلاح يوجه الى الاستعمار !!

وكيف يكون الشعب مستعبداً بالقهر ثم يبذل فى صنع الحياة !!

ان العبيد يستطيعون حمل الأحجار ٠٠ ولكنهم لا يستطيعون صنع الحياة لأنهم فقدوا أخص خصائص الانسانية وهى الحرية ٠٠ التى هى جوهر الابداع والابتكار ٠٠ وان وطناً لا يمنح أبنائه السعادة والحرية - لا يمكن أن يتوفروا على بنائه وتطويره !!

ان الحضارة نور يملأ آفاق الحياة ٠٠ والمستعمر ينفر من النور ٠٠ لأنه يكشف عن جرائمه ، إنه لا يستطيع السطو

(١) آية ٣٠ سورة الكهف .
(٢) آية ٥٦ سورة يوسف .

والسرقة الا في الظلام • ظلام العقول ، وظلام الجهالة • وظلام الرجعية • • ولذلك يسعى المستنير دائماً الى اطفاء شعلة العلم • صانع الحضارة ومنشئ المدنية • •

وكما أنه لا يمكننا أن نتصور مجتمعاً بلا حضارة الا في ظل الجهل - فذلك لا يمكننا أن نتصور حضارة بلا مجتمع • • الا اذا تصورنا ماء بغير اناء أو روحاً بلا جسد أو مضموناً بلا اطار !! • •

ونخلص من هذه الدراسة كلها الى أن الحضارة خلاصة الثقافة والمدنية - أى خلاصة الانجازات المادية والمعنوية التي يبذل فيها الانسان قصارى جهده - محاولاً أن يطورها بالعلم ويطوعها لارادته ومشئته • • بحيث يظفر دائماً بالسيادة عليها - والاستعلاء فوقها • • لا أن تستعبده هي - وتسخره وهذا هو جوهر الحضارة الخالدة • •

تمازج العناصر الحضارية وتداخلها :

اذا كنا قد عمدنا في الدراسة الى الفصل بين الجوانب المادية والروحية • • وتحدثنا عن كل واحد منها مستقلاً عن الآخر • • وليس معنى هذا أن الفصل سائغ • •

انه فقط لتيسير الدراسة - وتسهيل المهمة • • والا فانهما في الواقع لا ينفصلان • • الا اذا تصورنا فصل الروح عن البدن !!

وانه ليتعذر علينا أن نميز بدقة بين العناصر المادية والروحية في دراسة الحضارات لأنهما متشابكان تماماً • • لكننا قد نلحظ بالنظر العابر - غلبة العناصر المادية على المعنوية أو العكس في حضارة ما • • ونصدر حكماً تقريبياً على ذلك فنقول : الحضارة الغربية طابعها مادي • • والحضارة « المسيحية »

طابعها روحى .. والحضارة الاسلامية تتناسق فيها الروحيات
والماديات !! .. دون أن نعمد الى التفصيل والتدقيق ..
وهو حكم يكون صادقاً .. لأنه صادر عن الفطرة وأحكام
الفطرة لا تكذب ولا تطيش ولنضرب لذلك مثلاً واقعياً : مسجد
من مساجد الحضارة الاسلامية ، يتميز بجمال الفن ، وروعة
البناء ، ودقة التنظيم الهندسى .. انه يروغنا وينتزع من
نفوسها عاطفة الاعجاب .. لأنه فى الواقع مظهر حضارى
يتضمن فى وجوده وابرازه عناصر متشابكة بعضها مادية
وبعضها معنوى ..

فالتفكير فى التصميم والنقش وعدد الأعمدة – والأفنية
والقباب والمآذن وأسلوب الزخرفة التى تسوده كل ذلك جانب
فكرى نظرى لأنه لا يخرج عن كونه تخطيطاً على الورق – أو
نظرية فى الرأس – أو فكرة فى النفس .

ثم تحويل هذا الفكر كله الى مسجد قائم – يسر النواظر
ويبهج الخواطر هذا الجانب عملى – تطبيقي .
والفصل بين الجانبين لا يتصور فى الواقع .

وعندما نقرأ قول المستشرق الفرنسى « رينان » يصف
شعوره عندما شاهد مسجداً اسلامياً على نحو ما صورنا فيقول:
[ما دخلت مسجداً قط للمسلمين الا تملكنى انفعال شديد وهو
لو أفصحت عنه لكان نوعاً من الأسف على أنى لم أكن مسلماً]
عندما نقرأ هذا التصريح .. نحس بانفعال عنيف قد أخرج
الرجل عن طوره .. فجعله يصرح بأنه يتمنى أن لو كان مسلماً
رغم تعصبه ومذهبيته .

ان الرجل مبهور بعظمة المسجد – وروعة بنائه – وجلال
الفن المتمثل فيه ..

وخشوع المسلمين في عبادتهم أيضاً ٠٠ هو معجب بكل ذلك ومن ثم نطق بهذا التصريح المفاجيء الذى لا ينتظر من مثله !! ولعل الرجل قد أحس بالفرق الهائل بين فن تشييد المساجد وفن بناء الكنائس من جانب وبين أسلوب أداء العبادات في كل منهما من جانب آخر فتمنى أن لو كان مسلماً ٠٠ وهذا التمنى لا يدل على شيء أكثر من معنى الاعجاب الشديد والا فمما الذى يمنعه أن يسلم ليكون من أبناء هذه الحضارة التى شغفته حباً !! بم أعجب الرجل ؟ ٠

أبالفكر الذى صمم وخطط ؟ أم بالعمل الذى صاغ وأبدع ؟ أم بهما معا ؟ الواقع أن الانفعال الذى غزا قلب الرجل وهجم عليه فجأة لم يكن الا بالناحيتين معا لأنه يصعب على الانسان في وقت الانفعال العنيف أن يحلل العناصر ويدقق في التفاصيل، لقد امتزج الجانبان في حسه ووجدانه فجأة ٠٠ فهتف من أعماقه بهذا التصريح ٠

أو قل : أعجب بالمسجد كمظهر حضارى لمجتمع مسلم عبقرى التصوير والابداع !!

ومهما يكن من أمر ٠٠ فان الحضارة الانسانية كل متماسك لا يمكن تجزئته ولا تفريقه ٠

أثر الثقافة في حياة المجتمعات :

تعتبر الثقافة « وهى أحد جناحي الحضارة » أهم ما يتميز المجتمع الانسانى عن المجتمعات الحيوانية ٠٠ كما يتميز المجتمعات الانسانية بعضها عن بعض ٠

وتاريخ الشعوب العظيمة ، انما يستمد عظمته من ثقافة الشعب ومعرفته ووعيه ٠٠ ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا

ثقافة ٠٠ فالشعب الذى يفقد ثقافته يفقد تاريخه ٠٠ لأن
الثقافة جزء من الشخصية ٠٠ فاذا ذهبت فقد اضمحلت
الشخصية وتاهت فى أرض الله ٠٠ كما أن الثقافة تسبغ على
الحضارة سميتها الخاصة ٠

ومن هنا نستطيع أن نتبين أثر الثقافة فى صنع شخصية
الأمم ٠

ولنا أن نتصور بعد هذا كيف أسهم القرآن فى بناء شخصية
الأمة العربية والاسلامية ولون حضارتها وصبغها بالصبغة
الربانية ٠٠ لأنه مصدر ثقافتها وأساس علومها ومعارفها ٠٠
ولذا كان هو النبع السخى الذى أغدق الخير بلا حدود وسدد
الوجهة بلا شروء ، وحدد الغاية والهدف لتلك الأمة العظيمة -
وجعل لها طابعاً حضارياً له خصائصه النبيلة ومقوماته
الأصيلة ٠٠ وذوقياته الرفيعة وآفاقه العالمية ٠٠

لأنه من وضع العليم الخبير [صنع الله الذى أتقن كل
شئ (١)] ٠

ولأنه متمسم بالحكمة [انا كل شئ خلقناه بقدر (٢)] ٠
ولأنه ملائم لفطرة الانسان [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير (٣)] ٠

نعم : ان هذه الثقافة المستمدة من القرآن - هى التى دفعت
بالحضارة الانسانية دفعة قوية على طريق الايمان والعلم -
وأكسبتها طابعاً عالمياً وانسانياً يتميز بالرحمة والانصاف -
كلها - فبعثت العبقريّة الانسانية تسعى وتبدع فى الحياة ٠٠

(٢) آية ٤٩ سورة القمر

(١) آية ٤٩ سورة القمر

(٣) آية ١٤ سورة الملك

وتجاوبت مع المواهب الكامنة في العرب - بل في الانسانية فتأتى بالعجائب - وتصنع المعجزات . . وتتحرك نشيطة في كل مجال . . فكانت حضارة علم وأدب وفن وسياسة وحكم واجتماع - عبقرية خصبة ولود ، لأن الثقافة التي أبرزت كوامنها ليست من وضع البشر - وانما هي من صنع خالق القوى والقدر فهي ثقافة هادية بصيرة .

ولقد كان العرب هم العرب منذ خلقهم الله . . بعصبيتهم وجهالتهم ، وسفهمهم ، لكن ثقافة القرآن عندما غمرت مواتهم الأدبي ، أطلقت مواهبهم - وأبرزت منهم كنوزاً خبيثة . . كانت مبددة بين ركाम الجاهلية - فجمعتها . . ثم أضاعتها بنور الله - ثم أرسلتها تعمل في الحياة . . فرأى العالم منها الأعاجيب .

« كما سنتحدث عن ذلك في فصل مستقل » .

هنا يتضح أثر الثقافة قويا في بناء الحضارة . . . كان العرب من غير ثقافة فعاشوا من غير تاريخ . . وعندما جاءتهم الثقافة الهادئة لم تكتف بصنع نفوسهم - وبناء مجتمعاتهم - وانما أثبت الا أن تجعل منهم قادة . . ييسوسون البشرية - ويقودونها الى مرادها - ويعلمون الناس الحكمة كانوا قبل ثقافة القرآن - رعاة ابل وغنم - فصاروا بمنهج الله قادة ممالك وأمم . . تبذل ملكاتهم العجيبة في كل فنون الحياة ابداعا يقود حضارة العالم بأسره - ويؤثر في سير الحياة كلها . . ويصنع التقدم والرخاء في أرض الله .

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم :

[لمحات حضارية تنبعث من الآية الكريمة] :

عندما تقرأ قول الله تبارك وتعالى : [هو الذي بعث في

الأميين رسولا (١) منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين] *

أنها تعطى أسساً حضارية - ومقومات أساسية لابد منها لكي ينهض المجتمع المسلم بأداء واجبه في الحياة *

انها تشير الى ما يسمى في العرف الحضارى [بالمنهج] وهو قوله سبحانه : [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] * *

فهو منهج ربانى *

كما تشير الى « القيادة » التى تتولى « شرح المنهج » والاشراف على تنفيذه وذاك قوله سبحانه [رسولا منهم] - ومن بعده خلفاء مهديون يحملون العبء - وينهضون بالتبعية - ويمضون على الدرب *

كما أنها تشير الى العنصر الانسانى - الذى ينتفع بالمنهج ، ويتدرج فى سلم الحضارة وذاك قوله سبحانه : [فى الأميين] وهم بهذا التصوير أبعد الناس عن التمدين - وأنآهم عن التحضير * * ولكنهم بالمنهج السديد ، والقيادة المؤمنة يتحولون الى « قيادات حضارية » تصنع حضارة العالم بأسره *

كما تشير أيضاً الى الجهد المبذول فى عملية « تحضير الأمة الأمية » وهو جهد يدرك حين نقرب صفحات التاريخ لنعرف مدى العناء الذى تكبده الرسول العظيم لينقل العالم من الظلمات الى النور * *

(١) آية ٢ سورة الجمعة *

وتشير الآية أيضاً الى ما يسمى « بالساحة الحضارية »
وذلك قوله في الأميين وهم كانوا يسكنون شبه الجزيرة
العربية • استطاع القرآن أن يضع منهم نواة حضارية مالبثت
ساحتها أن امتدت وانداحت واتسعت لتغمر العالم بأسره
وتصبح رقعة العالم كله ساحة لها • بعد فتح فارس والروم
والهند والأندلس وتشير الآية كذلك الى « نقطة الانطلاق
الحضارى » وذلك قوله [وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين]
فقد انطلقت الحضارة الاسلامية من نقطة أساسية هي « الضلال
المبين » بكل ما يحمل التعبير من معنى الحيرة ، والقلق والجهالة ،
والسفة ، والانحلال ، والتخبط •

وتشير الآية كذلك الى « ثمرة الجهد » وقيمة المنهج • وذلك
قوله سبحانه : [يتلو عليهم آياته - ويزكيهم - ويعلمهم
الكتاب والحكمة] •

هنا تكمن ثمرة المنهج الالهى • والجهد التربوى • فقد انتقل
بذلك من « الضلال المبين » الى المجتمع الذى [يتلو آيات الله
ويتشرب حكمته - ويفقه كتابه] - ولك أن تتصور نظافة
مجتمع كهذا !!

ألا ان هذا الضلال الذى نتحدث عنه الآية بكل ما يحمل من
حيرة وقلق ، وبكل مايوحى به من وحشه واضطراب ، وبكل
ما ينضح به جهالة وظلمة - كان طابع الحياة كلها بعامية -
والحياة العربية بخاصة قبل الثقافة الالهية •

لقد كانوا قبله بلا ثقافة - فلما نزل القرآن وفيه الثقافة
الهادية تبدل الضلال رشداً - والسفه حلما - والجهل علما على
يد معلم الانسانية الأكبر محمد رسول الله وهذه النقطة الخطيرة
في حياة القوم هي التى تشير اليها الآية :

[واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] *

إنها تلتقي مع سابقتها في التنويه بقيمة الجهد الحضاري المبذول وبيان نقطة البدء ، ثم توضيح الثمرة الحضارية بعد هذا *

فقد بدأت حضارة القرآن من نقطة محددة [اذ كنتم أعداء - وكنتم على شفا حفرة] أي أنها بدأت - والعداء مستحكم بين العرب - بل بين العالم بأسره - والعصبية منتشرة - والفساد ضارب ، والقوم على حافة الخطر ، تمزقهم الحروب والثرات تلك هي نقطة البدء - أي بدء العمل الحضاري *

لكن ماذا كانت النتيجة ؟

كانت كما ذكر الله [فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا] وبانقاذهم من وهدة الضلال والفساد *

أي أن ثمرة الحضارة تجلت في مجتمع انساني موحد - تسرى في كيانه أخوة القرآن - بعد تمزق وشتات * وأنعم بتلك من ثمرة !!

وليت مناهج السياسات البشرية تحقق في هذا العصر ذرة واحدة مما حققه منهج الله !!

ان الأسس الحضارية - التي أشرنا اليها من [منهج

(١) آية ١٠٢ سورة آل عمران

للتربية ، وقيادة ، ومجتمع ، وساحة ، وجهد مبذول [هى التى
 جهد شراح الحضارات فى ايجاد الصيغة الملائمة للتعبير عنها •
 وربما كانوا يصورونها للناس على غير أساس ، ولكن الآية
 الكريمة - تحدد معالمها ، وتشخص مقوماتها - فى دقة وشمول
 وحسن استيعاب وبصيغة مختصرة لا تعنى ولا ترهق •

وكذلك القرآن الكريم يهدى دائماً للتى هى أقوم ، أى
 للخطة التى هى أمثل وأفضل على أن استنباط هذه المعالم
 الحضارية من آية قرآنية ، يدعونا الى الثقة بها ، والتصديق
 لها ، والعمل بما جاء فيها ، لأنها بهذا الاعتبار منهج ربانى -
 تنقاد اليه النفوس الطيبة ، وتستبقي اليه الفطر السليمة
 بمنتهى الاذعان والقبول ، وشتان بين أن تقدم لى « مقومات »
 من صنع البشر - وبين أن تقدمها لى من وضع خالق القوى
 والقدرة !!

حقاً ان القرآن يمنحنا الثقافة الدقيقة الأصيلة - التى
 تتفاعل مع نفوسنا - وتتجاوب مع أرواحنا ومشاعرنا • • فحبذا
 الاصغاء الواعى اليه - والاقبال الصادق عليه - والتطبيق
 المحكم لآياته وأحكامه !!

ولنحاول أن نوضح طبيعة « المنهج الحضارى - وتحرك
 القيادة به - ليعطى الثمرة الطيبة وينشئ الساحة الحضارية
 الرحبة ويصقل مشاعر القوم بآيات الله - ويصهر عواطفهم
 فى جو المعارك الكبار ضد أعداء الله ، وأعداء الحضارة على مر
 الأيام •

ومازلنا فى جو الآية الكريمة نسبح فى نورها ، ونتنفس
 من عطورها • وانها لتمنحنا من الأسرار والانوار على قدر
 احتمالنا - وطاقتنا •

فالمناهج الحضارى : المشار اليه بقوله سبحانه [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] يتضمن أموراً ذات خطر في بناء الحضارات الانسانية • ولعل من أهمها - انساق المنهج الحضارى وواقعية وبساطته وتجاوبه مع الفطرة - ومقدرته على شحذ الطاقات ، واثارة المواهب • وشموله للدين والدنيا ، للعبادة والقيادة ، للمسجد والمجتمع ، للجسد والروح •

فهذا المنهج هو الذى يحدث « التزكية والتعليم » • • وهما كلمتان تعبران عن أثر هذا المنهج فى الأرواح ، والعقول • • لأن عملية التزكية تعنى تربية الوجدان وتنقية الروح وتطهير النفس ٥

وعملية التعليم تعنى صقل العقل - وشحذ طاقاته • • واطلاق المواهب الانسانية لتعمل على عين الله • • وان منهجاً يتعهد عقل الانسان بالعلم والمعرفة ، وروحه بالتطهير والتزكية ، ووجوده كله بآيات الله والحكمة • • لهو أشمل منهج - وأخصبه وأقدره على احداث التغيير فى حياة الانسان •

ولعل الجهد المبذول هنا هو عملية التزكية والتعليم • • ولا بد منها لكل بناء حضارى • • وهما يحددان دور الرسول العظيم « القيادة » فى عملية تحريك المنهج الربانى • • وبدون هذا التحريك ، وبغير ذلك التطبيق يصبح المنهج مجرد نظريات للدراسة ، أو للحفظ ، أو للتجويد والتغنى ، أو للتبرك • • وما لهذا نزل القرآن من السماء !! وانما نزل ليتحرك بالوعى والتجربة فى دنيا الناس وليمارس فى الحياة وليتحول من نظرية فى المصحف الى سلوك فى المجتمع للأفراد والجماعات ، والى أسلوب القيادة والحكم ، وواقع يرتفع بعقل البشرية وقلوبها الى أرفع مستويات الطهر والصفاء • •

واخفاق الحضارة البشرية انما يجيء أولاً من أنها لا تتضمن المنهج الملائم لأنه فوق طاقة الانسان .. وكذلك من العجز عن التطبيق والتحريك في الحياة ، ومن ثم يبتدأها الفشل والافاق .

ثم نجد الآية الكريمة تنقلنا الى « القيادة الحضارية » ليتشابهك المنهج بالنفذ .. وترتبط النظرية بالتطبيق .. وتلك القيادة لابد أن تكون « قدوة » لأن القائد الذى يحدث التأثير العميق في قومه لابد أن يتحلى بالأخلاقيات الرفيعة ، والفصائل السامية ، لياخذ الناس القدوة من أفعاله - قبل أن يلتصقوا من أقواله وما لم يكن القائد على هذه الدرجة من التسامى والظهور فلا أثر لقيادته لأنه لا يوثق فيه ولا يطمأن اليه .. والآية تشير الى ذلك اشارة لمحة هي [رسولا منهم] فكونه رسولا .. يتضمن كل ما يتصوره البشر من أنواع الكمال - وكونه منهم يتضمن معنى الحرص على هدايتهم ، والاخلاص في نصحتهم ، والثقة التامة به في كل ما يأتى وما يذر لأنسه محرووف لديهم - قائم بينهم .

ولا شك أن الحضارة الأصيلة لا تترك منهجها للظروف ، ولا تنفرط في انتقاء القيادات ، لأنه لا قيمة للمنهج دون أن يأخذ طريقه الى التطبيق ، فنتحول أخلاقياته ومثله الى سلوك تصطبغ به الحياة ويسير المجتمع على هداة .

لابد لهذه الحضارة أن تختار القيادة الحازمة - التى تؤمن بالمنهج - وتستमित في تطبيقه - وتجد في ايصال الهداية الى الناس .

وهذه الآية تجعل القيادة هي النبى محمد [صلعم] وما برح هذا القائد الرسول - يجاهد الضلال ، ويقاوم الشرك ، ويحارب

الفساد حتى أتم الله النعمة وأكمل الدين ، ثم تولى الزمام من بعده أئمة راشدون وخلفاء مهديون ، وهكذا تم إيصال المنهج الى الناس بواسطة الرسول المؤيد بالحق المنتزم بتنفيذ ما أنزل الله ، فما ينطق عن الهوى ، وما يضيف فقرة في المنهج لهوى أو شهوة - وإنما يتقيد بالنقل عن رب العالمين [ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين (١)] فإذا تصورنا هذا الالتزام بالمنهج من جانب محمد رسول الله - وما أصاب الديانتين الكبيرتين قبله من تحريف وتشويه وزيادة ونقصان بدافع الهوى والشهوة - لأدركنا السبب في انهيار هاتين الديانتين وضعف الثقة بهما ، وازدراء الناس لهما ، وانفصالهم عن الدين وتلتقي بقية الأسس الحضارية في اطار الآية الكريمة ٠٠ فها هي ذى تعبر عن الساحة الحضارية وأنها « الأمة الأمية » بشبه الجزيرة العربية ، وتلك هي الساحة الأولى للدعوة ، ثم ما لبثت أن صارت ساحة عالمية حين فتح الله على المسلمين فملكوا بلاد كسرى وقيصر ، لقد بدأت التجربة الحضارية في ساحة ضيقة هي شبه الجزيرة العربية ثم اتسعت لتشمل الحياة والأحياء وتتولى « تمدين » العالم بأسره بمنهج الله سبحانه .

ثم تتلاقى الثمرة بالجهد - والنتيجة بالمقدمة ، - حين يتم اخراج الناس من الظلمات الى النور ، وقيمة الحضارة في نتائجها ، وأى منهج لا يحقق السعادة العلمية للبشر فلا خير فيه ، ولا جدوى منه لقد زعم « ماركس » وغيره أنه يملك منهجاً يحقق سعادة البشر ، وأسرف في الاشادة به - والتنبؤ بآثاره .

وقد ظهر بعد التطبيق - أن المنهج لم يجلب لأصحابه الا الشقاء ولم يجر عليهم الا الفقر وتبين للقوم كذب النبوءات

(١) الايات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ من سورة الحاقة .

الماركسية ، وظهر لهم أن « المادية » التي قادهم اليها المنهج لا تجلب لهم الا الشقاء وأنها بشؤمها تفصلهم عن الله ، وتنزع من أرواحهم السكينة والاستقرار ، وتهدى لهم أجواء خانقة ، لا تنطلق فيها نفوسهم – ولا تزدهر أرواحهم : وأى قيمة لحياة يفقد الانسان فيها نعمة السكينة والصفاء ؟ !

وقد نتحدث بعد قليل عن أثر المنهج الربانى لحضارة القرآن فى حياة المجتمع ؛ وعن الثمرات الشهيبة التى جناها القوم . . وأيسرها طمأنينة القلب ، وسكن الضمير ، والارتباط بالله الذى يؤنس الروح ، ويسعد القلب ، ويملا حياة المؤمنين خيراً وبركة ولا تسئل عن ثمرة هذا المنهج الربانى فى العالم بأسره . . وبحسبنا أن نستلهم ذلك من قوله سبحانه : [ليخرجهم من الظلمات الى النور] :

فالظلمات كانت بدء العمل الحضارى والنور ثمرة الجهد المبذول والفرق بينهما واضح لكل من يحرك ويعى .

المؤثرات الحضارية :

تؤثر أوضاع البيئة وعناصر الاقتصاد فى صنع الحضارة وتطورها وازدهارها تأثيراً بعيد المدى . . كما تؤثر فيها كذلك مجموعة من العناصر المعنوية كالأعراف والمعتقدات والتقاليد والأفكار على نحو ما وضحناه سابقاً . .

وإذا كانت عناصر الاقتصاد عاملاً من عوامل صنع الحضارة والتقدم فليست هى كل شئ . . كما تفهم الشيوعية . . وإنما هى عامل من عوامل وعناصر من عناصر ولا تكفى وحدها لتفسير التطور الحضارى واطارده . . انه على أى حال ليس هو العنصر الحاسم فى سير التاريخ والبيئة كما مر أثرها فى اطراد

الحضارة أو توقفها ٠٠ وهى تشمل الواقع الجغرافى - أى الساحة الحضارية - فلذلك أثر قوى فى تشكيل الحضارة فوقوع الأقاليم على ساحل بحرى - أو فى الداخل - أو على طريق تجارى ٠٠ كل ذلك يهى الظروف لصنع حضارة زاهرة ٠٠ كما أن لبعدها المكان عن هزات البراكين والزلازل أثراً فى استقرار الحضارة - وتقدمها - ولقد عنى ابن خلدون بتوضيح أثر البيئة فى الحضارة ٠٠ يقول فى مقدمته : [لهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوءات فإنها توجد فى الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية - وذلك أن الأنبياء والرسول إنما يختص بها أكمل النوع فى أخلاقهم وخلقهم ٠٠ وأهل هذه الأقاليم أكمل - لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى ملابسهم ومساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة - المنمقة بالصناعة ويتنازعون فى استجداء الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية ٠

وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أعمالهم وأحوالهم - فبنائهم بالطين والقصب - وأقواتهم من الذرة والعشب - وملابسهم من أوراق الشجر يصفونها عليهم - أو من الجلود [١ هـ ٠

وكلام ابن خلدون هذا صريح فى أن البيئة الجغرافية تؤثر على الحضارة تأثيراً قوياً وتعكس أوضاعها على الناس ٠٠

مناقشة ابن خلدون :

رغم ما فى كلام ابن خلدون من حق - وصواب فإننا لا نسلم به كاملاً ٠٠ ولا نتخذ مقياساً للحضارة ٠

فان انسان القرن العشرين قد أخضع البيئة بالعلم لارادته
 وخلق في قلب الصحراء حضارة وارفة الظلال - وفجر الينابيع
 الغزار - واستنبت المياح من الآبار - وجفف المستنقعات -
 وحول ماء البحر المالح الى ماء عذب - واستنزل المطر الصناعي ..
 وتمكن من السيطرة على البيئة - بعد أن كانت تسيطر هي
 عليه .. وأصبح سيدا لها .. بعد أن كان مقهورا مسودا .
 وهنا يتدخل العنصر الاقتصادي كعامل من عوامل ازدهار
 الحضارة ...

لأن استخدام الوسائل العلمية - التي لم تكن موجودة
 على عهد ابن خلدون - قد أحدث هذا الانقلاب الخطير في السيطرة
 على البيئة - وتمكن من حسن استغلال الثروات ووفرتها وذلك
 عكس ما اذا كانت الوسائل بدائية فان الانسان معها لا يتمكن
 من احداث الثورة الحضارية - وقلب أوضاع البيئة وتبقى بعد
 ذلك أخلاقيات الحضارة، التي تحفظها من الانحراف - وتوجهها
 وجهة صالحة بناءه لخير الحياة كلها - ولخير البشر أجمعين ..
 ولتحقيق الرفاهية وصنع السلام ، ليعيش الانسان على ظهر
 هذه الأرض آمناً مطمئناً يؤدي رسالته في غبطة ووثام تحت
 مظلة واقية من قول الحق تبارك وتعالى :

[وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
 فتفرق بكم عن سبيله (١)] .

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .

الباب الثاني

الله والكون والانسان

أهمية هذه الدراسة :

عندما نتحدث عن الحضارات الانسانية - لابد لنا أن ندرس طبيعة العلاقة بين الانسان والكون من جهة - ثم هذين وبين الله .. ذلك لأنه بفهم هذه العلاقات .. وتحديد أبعادها يعرف الانسان [وهو الركن الأول في بناء الحضارة] كيف يتفاعل تفاعلاً سويّاً مع عناصر الكون ، وكيف يتمكن من السيطرة عليها واخضاعها لمشيئته بقوانين العلم .. وينشأ عن هذا التفاعل ما نسميه بالحضارات .. وعندما يتلقى الانسان منهجه عن ربه ، فإنه لا يضل ولا يشقى .. لأنه سيمضى على درب الوجود ثابت الخطو واثق القلب مطمئن الفؤاد ..

وبالتلقى عن الله - تتحدد علاقته بالطبيعة من حوله .. فهي مسخرة له باذن ربها .. وهو - بما منح من عقل وتفكير وقدرة على الهدم والبناء ، والحل والتركيب قادر على أن يبتكر ويخترع - وينشئ المصانع والآلات ..

ومن ثم - فان هذا البحث [الله - والكون - والانسان] يجيء في موقع طبيعي من هذه الدراسة .. للعوامل السابقة - ولعامل آخر أهم من كل ما مضى .. وهو أن يرتبط الانسان

[صانع الحضارة] بربه مصيراً وقدرأ يستمد منه العون –
ويتلقت دائماً نحوه ٠٠ حتى يسدد خطاه على طريق الحياة –
وفي رحلتها الشاقة الطويلة – وحتى لا يعتريه غرور الطواغيت
عندما يمكن لهم في الأرض فيهتف بما هتف به فرعون [أنا
ربكم الأعلى (١)] ، [أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري
من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين
ولا يكاد يبين (٢)] ويقصد نبي الله موسى ٠٠

أو بما هتف به قارون من قبل : [انما أوتيته على علم
عندي (٣)] ٠٠

وبارتباط الانسان بربه – يعرف مركزه من الوجود، ومكانه
من الاستخلاف – وحاجته الى هداية ربه ٠٠ ومهما يحرز من
سبق أو نجاح في مضمار الحياة ، فانه يرد ذلك كله الى الله ،
ويهتف مع الملائكة [سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا] أو يطلب
الاستزادة من توفيق الله قائلاً : [وقل رب زدني علماً (١)] ٠٠
وبهذا يتجه بالحضارة وجهة ربانية ٠٠ ويعرف أن قيمتها
الكبرى تكمن في دعم الايمان ، والمزيد من الارتباط بالله ٠٠

الله جل وعلا : هو خالق الخلق ، ومانح الرزق لا تنتفذ
خزائن رحمته – ولا تنضب موارد حكمته – ولا تنتقض عجائب
قدرته ، قد وصف نفسه في القرآن بأوصاف كاشفة ليعرفه
العباد – فقال جل جلاله : [هو الله الذي لا اله الا هو عالم
الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم] هو الله الذي لا اله الا

(١) آية ٢٤ سورة النازعات
(٢) آيتا ٥١ ، ٥٢ سورة الزخرف
(٣) آية ٧٨ سورة القصص
(١) آية ١١٤ سورة طه .
(٢) آيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ سورة الحشر

هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر
سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له
الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز
الحكيم (٢) [، ومن خلال هذا الوصف تشرق صفاته الكريمة ،
فتمنحنا المعرفة به ، وتنفذ أشعتها الباهرة الى القلوب ، فتملأها
هدى ونورا ، وتغمر الحياة كلها بالمودة والايناس . .

وتجعل المؤمن يعيش على الأرض آمناً مطمئناً، لأن له نسباً
عريقاً في السماء . . فهو من الله - وهو الى الله . . وبذلك
تنتعش روحه - ويطمئن خاطره ، وتسكن نفسه فلا يعتريه
شك أو ريب . . وتلك أولى ثمرات الايمان بالخالق الأحد الفرد
الصمد [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله
تطمئن القلوب (١)] .

[يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا
وفي الآخرة (٢)] .

ولهذه الثمرة أثرها العظيم في بناء الحضارات . . لأنها
نمنح الانسان الثقة في جهاده النبيل في الحياة حين يعمل
مرتبطاً بالله - مستمداً منه كل معونة وتوفيق .

كيف السبيل اليه ؟ :

ونحن نعرف الله سبحانه بفطرتنا السليمة - التي تتجه
بطبيعتها الى الايمان . . وتنفر من الالحاد والضلال - وترى
في الاعتماد عليه ، والاستناد اليه مصدر قوة عظمى تعين على
المضي في رحلة الحياة - وتلطف قساوة العيش ، وتخفف صراع

(١) آية ٢٨ سورة الرعد
(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم .

المادة ، وتمنح الفطرة أمناً وسلاماً ، وتفيض على القلب
سكينة ونوراً ..

وفي مجاهل القرون الغواير - بحث الانسان عن سر الحقيقة
الكبرى - والقوة العظمى ، وأحس بوجودها وسيطرتها عليه ،
وتحكمها فيه .. وراح يتصورها مجسدة في الشمس تارة ،
وفي النار تارة ، وفي الأنهار والبحار تارة .. وفي الأصنام
والدواب تارة أخرى ان روحه لتنزع الى الايمان .. ولكن
بأى شيء ؟

انها المظاهر الطبيعية العظمى - التي تحيط به - وتؤثر
في الحياة من حوله ..

على أى حال .. يعتبر ذلك نزوعاً تلقائياً فطرياً الى
الايمان .. وهو تقديس لله - في آثاره الضخمة .. فما هو الا
أن تصحح الوجهة - وتحدد القوة ، فاذا الانسان بطبعه مؤمن
بالله .. وتلك مهمة الطلائع الكريمة من الرسل والأنبياء
يصححون الفكرة عن الله . ويعطون المعرفة الدقيقة عن ذاته
وصفاته وأفعاله .. ويقودون البشرية الى طريق الايمان ..
هكذا نجد الايمان مركوزاً في الفطرة .. لا يحتاج الى علم غزير
ولا الى معرفة عميقة .. نظرات ساجية شاعرة في رحاب الكون
المشحون بمظاهر العظمة والجلال - خليقة أن تفيض على
القلب أمواجاً من اليقين - وأفواجاً من الأدلة .. وتصب في
الوجدان المستلهم أقباساً مشرقة من الهداية ، فاذا الروح
متوهج ، واذا القلب مضاء بالحقيقة واذا العاطفة المتوهجة -
تمتزج بالعقل السابح في النور . فيتعاونان معا على ارتشاف
الرحيق السلسل من كأس الايمان الطهور .. واذن ، فالعقل
وحده لا يكفي في استلهام الايمان بل العاطفة التي تتوافد عليها
أمواج الهداية من خلال التأمل في الكون الرحيب ..

فاذا بهذه العاطفة المنتشية برحيق الهداية تستحث العقل وتستجيشه فيذعن ويصدق من قبل أن يمحص ويحقق . . لأن رجفة الشوق الى الفيض التي يستشعرها الأصفياء في لحظات التجلى . . لا يستطيع العقل أن يثبت أمام سيلها العرم، ودفقها العنيف . . فاذا هو مغمور في الالهام والنور . . ولعل اندفاع الفطرة الى الايمان بالطبيعة هو الذى يقرره الحق تبارك وتعالى في قوله : [واخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين (١)] .

انه الميثاق الأكبر - الذى تنزع اليه النفس أوقات صفائها وترتمى في أحضانه ساعة ضعفها . . وتتجه اليه كلما شاقها القرب ، وأضناها البعاد : فتجد في هذه اللحظات القدسية من الأنس الغامر - والسلام الرفاف - والسكينة الساجية ما لا تستطيع مهاج الحياة كلها أن تنشئ بعضه . . وتحس بمعانقة السعادة - ولو كانت تنلظى في جحيم الفقر - وتلك ثمرة ثانية من ثمرات الايمان ، وكم للايمان من ثمرات !!

يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى في تصديره لكتاب :
« العلم يدعو للايمان » :

« ودعوة الاسلام صريحة في أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله - ولا أن يهتدى اليه الا اذا صاحبه في تطوافه الى تلك الغاية قلب يتلقى عنه كل مدركاته فيحيلها عواطف وأحاسيس تشيع في النفس روعة وجلالا - ومن خلال هذا الشعور بالروعة والجلال يرى المرء خالقه الواحد الأحد المنفرد بالعظمة والجلال - ولهذا كان الاسلام دين الفطرة ، والفطرة

(١) آية ١٧٢ الاعراف .

ليست عقلا صرفا ، ولا عاطفة محضة * * وانما هي مزيج من العقل والعاطفة اذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله ، وتعرف سبيلها اليه من أقرب السبل » *

وهو كلام صريح في أن العقل والعاطفة يتعاونان معا على الايمان * * ويدلان على الله * * لكنى أرى - أن العاطفة ، وهي نبع القلب هي جهاز الاستقبال اللاقط - الذى يسرع بترجمة الاشارات الوافدة * * ويدفع بالثمرة الى العقل * * فاذا هو مضى مبهور !! ؟ ومن هنا فان القلب ، وهو النبع السخى للعاطفة * * هو الذى يفعم بالأنوار * * ثم يقذف بها الى العقل ليضى ويشتعل * * وذاك سر الاشادة به في قول الرسول (صلعم): [ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله - ألا وهى القلب (١)] * *

ونحن نعرف الله بقلوبنا قبل أن نعرفه بعقولنا * * القلب يقوده الهامه، والعقل تقوده أحكامه * * والالهام * * وهو الفيض الأعظم قبل الأحكام * *

عنها تنحرف الفطرة :

ولأن الفطرة بطبيعتها تندفع الى الايمان * * نرى أن التزييف لهذه الفطرة * * يحتاج الى بذل جهد * * وهو جهد شيطاني يحول تلك الفطرة من طريق الرحمن الى طريق الشيطان ، واليه يشير الرسول الكريم : [ما من مولود الا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه (٢)] سبيل الايمان بالله ايمانا سليما سبيل سهل ميسر مضاء مأنوس ، وما أكثر ما نرى ربنا في آثاره ، وفي مظاهر كونه -

(١) صحيح البخارى

(٢) صحيح البخارى

نراه في النبتة الصغيرة ، وفي الشجرة الباسقة ، وفي الرمال المنبثة ، وفي الآفاق الشاسعة .. وفي الجبل الضخم - وهكذا بنظرة الى صفحة الوجود ندرك سر الايمان .. وليس ضرورياً أن نمحص ونحلل وندقق ، فنلك نظرات الفلاسفة والعلماء ..

واذا كانت معرفة الله - هي سر الابداع ، ووسيلة السكينة - فان الملاحدة يحسون بالشقاء والظماً .. حين يمشون على الأرض بخطا مضطربة ، ويحيون بين الناس بنفوس قلقة ، ويعيشون بهواجس مريضة تنتابها الشكوك وتفترسها الأوهام : [ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق (١)] .

وحين يدرك المؤمنون بالله مدى الفرق الشاسع بين الطمأنينة الوادعة التي تغمر أرواحهم ، وبين الحيرة القلقة التي تملأ قلوب الملاحدين ، فان ألسنتهم تنطلق بالشكر العميق لله سبحانه أن هداهم للإيمان وقاد نظرهم اليه ، ولم يتركها للهواجس والأوهام .

ولم يعد الاحاد في هذا العصر مشكلة .. لأن عجائب الخلق تتعاون مع أدلة العلم لتنشئ اليقين ، وتطارد أشباح الاحاد .. ومن خلال العمل آمن بالله من آمن عندما اكتشفوا بالوسائل العلمية أسراراً عظمت - ونظماً دقيقة ، وهندسة عجيبة ماكان لها أن تنشأ بالصدفة - أو توجد من نفسها .. نعم : لقد تضافرت الأدلة العلمية على وجود الله ..

وفسر القرآن الكريم تفسيراً يملأ العقل بالحجة والدليل على وجود الله أيضاً .. ولهذا كان الاحاد شذوذاً عن الفطرة - وعن أدلة العلم في وقت واحد ..

(١) آية ٣١ سورة الحج

يقول الأستاذ عباس محمود (١) العقاد : « الدين لا يستقيم
بغير اله تتصل به المخلوقات ، ويتقبل منها الحب والرجاء ،
ويستمتع لها استمتاع العالم المرید . . ونحن نستطيع أن نرى
بأعيننا أن الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة ، لأن الانسان
(غير المؤمن) انسان غير طبيعي فيما نحسه من حيرته
واضطرابه ويأسه . . وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه -
فهو الشذوذ وليس هو القاعدة في الحياة الانسانية - وفي
الظواهر الطبيعية - ومن أعجب العجب أن يقال : ان الانسان
خلق في هذا الكون ليستقر على ايمان من الوهم المحض » ،
ثم يستطرد قائلاً : « ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعى
قبل أى شىء ، فالانسان له وعى يقينى بوجوده الخاص
وحقيقته الذاتية - ولا يخلو من وعى يقينى بالموجود الأعظم -
والحقيقة الكونية لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه -
والوعى والعقل لا يتناقضان وان كان الوعى أهم من العقل في
ادراكه ، لأنه مستمد من كيان الانسان كله ومن ظاهره وباطنه
وما يعيه هو وما لا يعيه - ولكنه يقوم به قياماً مجملًا محتاجاً
الى التفسير والتفصيل ، وليس وجود الله عند « أرسطو »
وأمثاله مسألة دينية أو مسألة غيبية - ولكنها حقيقة عقلية
كالحقائق الهندسية - وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين
عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل » ا هـ .

وبتحليل هذا الكلام الرائع يتضح لنا أن العقل ، والقلب ،
والوعى . . كلها تتعاون في سبيل الوصول الى الايمان . . وأن
استقامتها على الفطرة يكفل لها الوصول الى الحقيقة الكبرى . .
ولم يعد بإمكان المذاهب المادية - في عصر العلم - أن تجتذب
أحدًا الى ساحتها المشؤومة النكدة - ولا أن تنزع منه سلاح

(١) ص ٣٥ القرآن ؛ العلم الدكتور جمال الدين الغندى .

الايمان بالله ٠٠ لأنه لا العلم ولا الدين ولا أدلة العقل - ولا نور القلب تسمح له بالانزلاق الى الوهدة الضالة الظلماء .

من شؤم الاحاد :

وحسب المادية أن كذبت كل نبوءاتها ٠٠ وسقطت كل أدلتها كما تتساقط الأوراق الجافة في فصل الخريف ٠٠ لقد حاولت أن تجعل من « المادة » كل شيء في تفسير التاريخ - وتنظيم الحياة ٠٠ وزعمت أن هذه المادة تغنى عن خرافة الايمان - الذى هو في نظرها الطور البدائى للانسان وأنكرت في سبيل ذلك الأديان واعنبرتها مرحلة بدائية في خط سير الانسانية يخلعها الانسان كما يخلع « الثعبان قشرته » وأنكرت الرسائل والكتب السماوية ، وما وراء الطبيعة كله وصارت فكرة مادية ملحدة ٠٠ لا أثر فيها للروحيات « ووجود الدين في مجتمع ما يعنى (١) وجود عاهة » ونظمت حياة البشر كما يحلو لها فحالت بين الانسان وبين التعبير عن حاجاته الطبيعية ٠٠ ان أدوات الانتاج ملك للدولة - والولاء للحزب وليس للأسرة - أو للأب أو للام ٠٠ والدكتاتورية لطبقة العمال والتملك والارث لا مبرر لهما ٠٠ والأخلاق اختراع بدائى يحمى به الضعفاء أنفسهم من بطش الأقوياء والغاية تبرر الوسيلة ٠٠ والعلاقات الاجتماعية تنشئها (٢) الدولة والآلة والنظم الاقتصادية ، والأفراد لا قيمة لهم والولاء كل الولاء للحزب ٠٠ وفي سبيل تحقيق أهدافهم - خاضوا بحارا من دماء وركاما من أشلاء ٠٠ ولم يصلوا حتى الآن الى تحقيق آمالهم .

لقد وضع أساس هذه الفلسفة المادية في القرن الثامن عشر على يد ماركس وأنجلز وهما يهوديان ألمانيان . وجاء

(١) من كلام « ماركس في كتابه المسألة اليهودية » .

(٢) تخضع العلاقات الجنسية هناك للحرية المطلقة نشأة ومصيرا .

لينين ليطبق النظرية عام ١٩١٧ م وبعد الثورة على القيصر ٠٠
وانتزاع السلطة منه - وظهر بالتطبيق الذى ما يزال حتى الآن
فى طور التجربة أن المادية - بانتزاعها لعقيدة الايمان بالله
واليوم الآخر - من الأفراد باعدت بين الانسان الشيعوى وبين
الاستقرار المادى والروحى ٠٠ وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية
وحالت بينه وبين التعبير عن غرائزه بالحيلولة بينه وبين
التملك ٠٠ وقهرت حرية الفرد من أجل الحزب - وأوجدت
انحلالا أسريا وعائليا ٠٠ لأنها لم تعترف بالأسرة ٠٠ ولا بالوطن
ولا بالقومية بل فقط الولاء للحزب ٠٠ وزادت على ذلك مخاوف
أخرى بما استعملت من قهر وتسلط - لكل من يحاول انتقاد
الحزب ٠٠ وحتى أعضاء الحزب أنفسهم أكثر خوفا من الأفراد
العاديين - فالشيعوى يحمل قلبا خائفا مضطربا أينما غدا
أو راح ٠

ان المادية بانكارها لله - قد حطمت فى الانسان كل وسائل
المقاومة ضد القهر والذل والمصائب والعدوان ٠٠ وجعلته حيوانا
يعيش ليومه ، ولا يتجاوز بالنظر موقع قدمه وهى باستخدام
القمع الدموى والارهاب العنيف قد اقتلت فى الأفراد روح الشجاعة
وسلبتهم الارادة وحولتهم الى قطعان شاردة لا تعرف لها ربا
ولا ترجو له وقارا ٠

ولم تكن حضارة الغرب بمسلكتها الماي الاباحى أكثر
صلاحا من الشيعوية ٠٠ بل انهما معا ينبعان من معين الالحاد
والكفر ٠٠ لكن الشيعوية صريحة فى كفرها والمادية الغربية
منافقة ، تدخل الكنيسة وتقيم الأحفال الدينية ، وتدعى
الانتساب الى السيد المسيح بينما ألحقت بالكنيسة صالات
للرقص ، يختلط فيها الفتيان بالفتيات فى حلقات رقص محمومة
ومخمورة ٠

وقد كان منطق الحضارة الغربية من نقطة الالحاد - عندما تخلصت من سيطرة الكنيسة التي كانت تصدر الحرية وتنضهد المعرفة .. وتقيم محاكم التفتيش .

تخلصت الحركة العلمية من الكنيسة - واعتنقت الالحاد . وسارت فيه الى نهاية الشوط .. ثم هبطت بالأفراد الى درك الحثيوانية الوضيع .. واتسمت منذ ذلك الحين بطابعين واضحين ، طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادى الوثنى ؛ وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته ، وفى ظل هذين الطابعين نمت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي سادت فى الغرب وسيطرت على عقول أبنائه يقول الأستاذ الدكتور المرحوم مصطفى السباعى (١) : [ومن الشائع الآن فى أوربا وأمريكا أن كل كنيسة لها ناد يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر وفى الرحلات والاحتفالات - وقد زرت أحد هذه النوادي فى أوربا وكان جزءا من بناء الكنيسة فرأيت أنه لا يزيد عن حلقات للسمر والرقص والغناء والأكل والشرب] ..

لقد انفصلت الحضارة الغربية هى الأخرى عن الله .. وسارت فى طريق الالحاد .. رغم وجود الكنائس وكثرة الحفلات الدينية ولن تصلح الشيوعية - ولا حضارة الغرب لتكوين مدنية فاضلة .

ومن أجل ما قرأته من الردود على الماديين ما أثبتته الأستاذ العقاد من أن المادة أصعب من الروح فى فهمها وتحليلها - وأن العلم قد تبين ذلك بعد رحلة طويلة .. وكان العلم يعتقد أولا أن الروح أصعب .. فكيف تصلح المادة على الجهل بها -

(١) من كتاب « من روائع حضارتنا »

وصعوبة فهمها أساسا لمذهب من المذاهب ؟ ولو سألت أحد
الماديين - عن الأثير أحد عناصر المادة ما هو ؟ لما استطاع أن
يعطى الجواب !!

كذلك لم تصبح سخافات الماديين « ذات موضوع » في
ادعائهم أن ايمانهم لا يمكن أن ينصب على أمور بعيدة عن
الحس والمشاهدة وإن أحدهم ليضرب بجمع يده على المنضدة
وهو يتكلم بحماسة قائلاً : هذه هي الحقيقة .. يريد أن المادة
هي الحقيقة وما سواها فخرافة .. والرد عليهم في هذه الفرية
ليس أمرا صعبا .. لأن أكثر من نصف معلوماتهم اما وصلهم
عن طريق السماع .. ولو أن الايمان اقتصر على المحسوسات
لما آمن أحد بوجود أجداده القدماء - ولا بأبطال التاريخ .. بل
ولا بالشخصيات الكبيرة التي تبتعد عن دائرة حسه .. ونحن
نطالب الشخص الذي يريد أن يرى الله رأى العين ويلمسه
بيديه .. نطالبه بأن يفعل ذلك مع أى عظيم من عظماء العالم ..
فهل اذا لم يكن رآه يجب أن يكفر به؟! ورؤية الله جل جلاله ..
لا يستوعبها العقل البشرى المحدود؛ كما لا تطيقها العين المجردة ..
وانما يرى الله جل جلاله من خلال عجائب صنعته وبدائع قدرته ..

والقلب وحده يستطيع بالالهام أن يطمئن .. ويستوثق
كما قدمنا .. ولم تكن هذه السخافات جديدة فطالما تعرض
الايمان لسخافات الناس ألم يقل قوم موسى له : « أرنا الله
جهرة (١) » .. انه خير للانسان أن ينصرف عن البحث في ذات
الله - والتفكير فيها .. الى التنقيب في آثاره ودراسة روائع
قدرته فتلك هي المنظمة الحلال .. التي يجوز للعقل البشرى أن
يقتحمها .. وهى منطقة مباحة منزوعة السلاح كما ورد في بعض
الآثار : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » ..

(١) آية ١٥٣ سورة النساء .

أما منطقة الذات العلية فمنطقة حرام ٠٠ محاطة بأسلاك شائكة
تكن فيها المخاطر والأهوال ٠٠ وويل لمن يضحى بنفسه في
اقتحامها !!٠٠

وما ضر أن نجعل ذات الله ٠٠ لأننا لم نكلف بذلك ٠٠ وانه
لأمر ضد طبيعتنا ٠٠ فلنشاهد جلاله وجماله ورحمته وعدله من
خلال آياته - ومن خلال مخلوقاته ٠

يقول الدكتور جمال الدين الفندى في كتابه (القرآن والعلم):

[وجدير بالذكر أن العلم الحديث انما ينصب على دراسة
خصائص الأشياء والاستفادة منها وليس على حقيقة الأشياء
وجوهرها ٠٠ فالعلم الحديث يستغل الكهرباء في توليد الحرارة -
وتحريك الآلات وفي الانارة والعلاج ٠٠ ولكنه لا يستطيع أن
يفسر الكهرباء بقدر ما نجح في الاستفادة منها - أى أن العلم
عجز عن فهم كنه الكهرباء وكذلك الضوء وأشعة اكس وما الى
ذلك ٠٠ ولكنه استفاد من خصائصها ٠٠ لأن وظيفة العلم لا
تتعدى ذلك دون البحث في ماهية الأشياء وحقيقتها ٠٠ ومثل
هذا العلم لا يوصلك الى ما وراء الطبيعة الا أننا أثناء دراسة
الأشياء نلمس من الابداع والانتقان ما يجعلنا نجزم بأن وراء
ذلك خالقاً مدبراً ء اه ٠

فليقنع العلم بعد ذلك بما قسم له - ولا يتجاوز حده
فيهلك - ويهلك الناس !!

ذلكم الله ربكم :

من خلال ما قدمنا من دراسة ٠٠ يستطيع الانسان أن
يعرف ربه ، ويعبده - ويجد من الأنس في رحابه ما يملأ قلبه
بالأمن وحياته بالنور ٠٠ وانه ليتلقى ما يفتقر اليه من معرفة

بربه عن كتاب كريم فيه تبيان كل شىء ٠٠ فيه تشرق صفاته
كما تشرق نجوم الليل فتنفذ أشعتها الى القلوب فتغمرها بالمودة
والايناس ٠٠ وتترادف هذه الصفات فى الكتاب العزيز ٠٠ كما
تتوافد موجات الضياء - وكلما وعاهها الانسان ازداد ايمانا
بربه - ويقينا فى عدله وجزائه ٠٠ وتفانيا فى حبه وعبادته •
وتسطع من بين هذه الصفات القدسية صفة الرحمة الحانية
التي لم تشأ أن تدع البشر لعقولهم الضعيفة ٠٠ بل أرسلت لهم
رسلا يحملون مشاعل الهداية وينقذونهم من التخبط والحيرة
والاضطراب ٠٠ ويقودونهم بمنهج الوحي المبارك الى صراط
العزيز الحميد ٠٠ ولا نجد مجالا للرحمة الالهية تبسط فيه
جناحها الكبير كما نلمسه فى هذا المجال بالذات ٠٠

ان أزمة الضمير الانسانى على مر العصور والأحقاب لا
يتصور لها أن تنحل الا بهدايات السماء ٠٠ حيث تضع الانسان
كله فى منطقة الضياء ٠٠ فلا يتخبط فى الدياجير - وبذلك تنقذ
قلبه وروحه من وساوس التثك وهواجس الشيطان - وتثبت
خطاه على طريق الايمان وتربطه بربه مصيرا وقدرنا وتكشف له
عن العالم الآخر الذى يلقي فيه جزاءه ان خيرا فخير وان شرا
فشر ٠٠ وبذلك يستريح العقل من الضرب فى المتاهات الطامسة
والفلسفات الدارسة التى تزيد حيرة وضلالا •

وما أجلها من نعمة تنقف الانسانية أمامها عاجزة عن الشكر
وصدق الله العظيم اذ يقول:

[وما بكم من نعمة فمن الله (١)] •

وهكذا يحيا المؤمنون مع ربهم ومع ايمانهم فى أنس
وجمال ٠٠ يستمدون من هذا النبع صفاء وسكينة وأمنا تعكس

(١) آية ٥٣ سورة النحل .

على وجوههم نضرة النعيم .. وويل لمن حرم هذا النبع فراح
يستقى من مانبع آسنة .. تعكس على وجوده الحيرة والضلال .

[من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا
مرشدا (١)] ..

وأجمل ما في الأديان السماوية - أنها تمنحنا المعرفة في
بساطة ويسر - لا تضللنا ولا ترهقنا ، وهي تمنحنا منها على
قدر ما تحتمل نفوسنا - وتهدينا هذه المعرفة موثقة بكل
الضمانات لا تحتمل ادعاء ، ولا تربكها الفروض العقلية ..
وهي معرفة واقعية لا ترتفع عن الحياة - ولا تتسامى عن
التطبيق .. وتعطي تكاملا رائعا عن الله والكون والانسان ..
وتظل هذه المعرفة المستمدة من القرآن غضة متجددة مع الحياة
كأنما نزلت من السماء لأول مرة ، وذلك كله عكس الكتب
الفلسفية - التي لا تخرج عن كونها طفح عقول بشرية أفسدها
ومازجها التعقيد وداخلها الفرض والاحتمال .. فأصبحت
شذرات متناثرة لا تكون مذهباً متكاملاً ولا تروى نفساً ظمأى!!
على أنها شطحات تائهة قلما تتماسك . وقلما تقبل التطبيق ..
أو ثلاثم فطرة الانسان .. وشتان بين معرفة يمنحها القدر ..
وبين أخرى يصنعها البشر !! .. وما شقوة الحياة الضالة في
هذا العصر الا ثمرة خبيثة لفلسفات العقول الانسانية .. لأن
هذه الانسانية تأبى أن تجد الأنس والاستقرار الا في هداية
ربها .

وقد غدت المعرفة الدينية أمراً ميسوراً .. نأخذها عن
القرآن ، بكل الثقة ، وبكل اليقين .. ونستنبطها من النظر
الفاحص في كون الله الرحيب . ونجد العلم الحديث في صبغته

(٢) آية ١٧ سورة الكهف .

النهائية يتوافق معها ٠٠ ويصدق بها ٠٠ ومن خلال (١) العمل آمن كثير من العباقرة عندما تجلت أمامهم القدرة والحكمة والاتساق والروعة والجلال ٠٠ وهم يمارسون مهمتهم العلمية

فهتفوا من الأعماق :

[فتبارك الله أحسن الخالقين] ٠

فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الفطرة الانسانية تندفع بطبيعتها الى الايمان ٠٠ وهو ايمان مهما يتطور في مراحل الا أنه واصل يوما ما الى الحق ٠

ولن يستغنى الانسان مطلقا عن هذا الايمان ٠٠

يقول هارى أرسون في كتابه كيف تكون رجلا :

[انه ما من انسان يستطيع أن يكون غير مؤمن فقد ركب الانسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطرا الى الايمان بالله - أو بغيره - فمتى مات الايمان الايجابى فان السلبى يحل محله - يتعلق بالمستحيلات أكثر من الممكنات وبالأراء التى تجعل منا ضحايا للحياة لا سادة لها] ٠

وهكذا يعتقد الرجل كما نعتقد بأن الايمان ضرورة حياة ، ووجود ، مصير ٠٠ ينزع اليه الانسان بصدق الفطرة ٠٠ فيصل اليه ٠٠ ومتى آمن الانسان بربه أصبح انسانا سويا ٠٠ تنمو فيه كل الفضائل والقيم النبيلة ٠٠ لكن الفطرة قد تنحرف بتأثير الوراثة - أو بفعل البيئة - أو بجهود الشياطين ٠٠ فتؤمن بالأشخاص - بدل ايمانها بالله ٠٠ وهنا تصبح هذه الفطرة

(١) راجع كتابى « تفوس ودروس » جزء ثان تحت عنوان « رواد على درب الحقيقة - الله من خلال العمل »

المزيفة مزرعة خبيثة تنمو فيها الطفيليات والأعشاب الضارة .
وتصبح مباءة للسلبية والجهالة والعبودية بدلا من أن ترتفع
بالإيمان الظهور الى ذروة المثل وقمة الكمالات ومرتبة السيادة
على عناصر الحياة .

وهذا في الحقيقة تصوير سليم - نجده في قول الحق تبارك
وتعالى : [انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا (١)] .

لكن لينين يقول بدل هذا : (ان الله في التاريخ والحياة
هو قبل كل شيء مجموعة أفكار تخدر حرب الطبقات وكل دفاع
عن فكرة الله مهما كان دقيقا ومهما طابت نيته أو كل تبرير
لهذه الفكرة هو تدبير للرجعية) .

ويقول ماركس : (ان تهديم الدين بصفته سعادة وهمية
للشعب انما هو من مقتضيات سعادته) .

وصرح هذا الشقى في موضع آخر بقوله : (لابد ليتحرر
الانسان ، من أن يكون ملحدا مؤمنا بحقيقة واحدة هي المادة
منكرا لكل ما عداها من كل ما له صلة بالغيب الذى لا يرى) .

بهذه الكلمات - تعبر الشيوعية عز حقدنا على الدين -
ومحاربته له - ومحقة من المجتمع .

واذا كنا قد استمعنا الى هذه الكلمات المسمومة ضد الدين
وضد الايمان بالله . فما أخرى أن نستمع الى الحقيقة الايمانية
تفرض نفسها على رواد الفضاء - الذين استقامت فطرتهم
« فحين غادر رواد الفضاء الأمريكيون الثلاثة الأرض الى القمر -
أبولو (١٠) - أى الرحلة التى سبقت النزول على القمر فداروا

(١) سورة العنكبوت من آية ١٧ .

حوله ومكثوا في الفضاء أياما ثم عادوا الى الأرض - توجه
أحدهم الى « بورمان » قائد الرحلة فسأله : لقد ذكر خروشوف
حين أطلق الروس أول جرم فضائى أنهم بحثوا هناك عن الله
 فلم يجدوه فهل وجدته أنت ؟!

أجاب بورمان : (لو وجدوا الله أو وجدناه لكف عن أن يكون
الها - الله موجود بشكل آخر - بالأدلة عليه - وبهذا المعنى فقد
وجدت الله هناك أكبر مما هو على الأرض) •

لقد اهتدى الرجل •• وسلك الى الهداية سبيلا واضحة •
وهكذا •• ان يكن قد ساءنا من الشيوعيين عداؤهم لله -
فانه قد أسعدنا ايمان رجل كبورمان !! وهم من قبل ومن بعد لن
يضرروا الله شيئا - والله غنى عنهم وعن ايمانهم :

[يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى
الحميد (١)] •

على أنه ينبغي التنبيه الى حقيقة هامة •• هي أن المسافات
التي ارتفعها رواد الفضاء حتى الآن لا تعدو الخروج بهم الى
نطاق الغلاف الجوى الرقيق الذى يتواجد عدة مئات من
الكيلومترات من سطح الأرض « ومثل هذه الأبعاد (٢) لا قيمة
لها اذا ما قورنت بنصف قطر الكون المرئى الذى يقدر بنحو
خمسمائة سنة ضوئية » اه •

فلماذا يتساءل الملاحدة عن الله فى هذا النطاق - وهم
ينكرونه على ظهر الأرض •

(١) آية ١٥ سورة فاطر •

(٢) عن كتاب القرآن والعلم الدكتور جمال الدين الفندى ص ١١

انه لمن أسخف السخف أن يطيروا في فضاءه •• ويخلقوا في آفاقه •• ثم ينكروا وجوده •

ومابال هذا الغرور الخادع – وهم لم يرتفعوا شيئاً يذكر بالنسبة الى آفاق الله العليا • • فهل سيظل الحادهم معهم بعد أن يرتقوا في الأسباب •

ان كرم الله على الانسانية لغامر فياض • • يخلقها بقدرته ، ويخلق لها الكون بحكمته •• ويأذن لها – بل يستحثها أن ترتاد الآفاق باحثه عن الحقيقة • • لترجع بزاد مبارك من الايمان • • وذلك حيث يقول جل شأنه : [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (١)] • • فاذا بها ترجع بالكنود والنكران • • وماذا ننتظر من الفطر الضالة الملتوية الا أن تعود بهذا الكفر والوقاح حقاً : [ان الانسان لظلوم كفار (٢)]

يقول دالن في مؤلفه روسيا السوفيتية : [ان الناس على الحياة والصحة والأمل في العمر الطويل قد تحتل الكفران وتحتل فراغ القلب من الايمان • • أما والموت على الأبواب فلن يشجع على اقتحامه قلوب خربة – ولقد وجد أخيراً أن معظم سكان روسيا ظل مرتبطيناً بالايمان] وهو قول يؤكد عجز السلطة مهما تخرعت بالارهاب أن تخدم جذوة الايمان في القلوب • • لأن الناس تعرف جيداً أن الموت على الأبواب • • وانه لدرس متكرر ومشهد أمام أعينهم • • • فهل يفتحمون الموت الى رحلتهم الجديدة بغير زاد ؟ !

ويقول أنشتاين : [ان الشعور الديني الذي يجده الباحث في الكون هو أقوى حافظ على البحث العلمي – وصنع الحضارة – وان هذا الايمان عندي يؤلف معنى الله] •

(١) آية ٥٣ سورة فصلت •

(٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم •

ويؤكد هذا العالم - أن الانطلاق الحضارى ثمرة الايمان . .
باعتبار أن الكون وهو من خلق الله - هو مصدر العلم الشامل -
والعرفة الحقيقية لجميع البشر . . وهو ينبوع المتفجر
بالحكمة - الفياض بالمعرفة . . المؤكد لوجود الله . .

وهكذا يتمكن المؤمنون - اذا تحررت عقولهم - أن ينشئوا
أروع الحضارات . . وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم -
وخالق الأكوان . . وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى التى ألقاها
القدر على كراهلهم يوم أبرم معهم عقد الاستخلاف الأعظم فى
رحاب السموات العلا - بين كوكبة مضيئة من الملائكة الأطهار .

ومعرفتهم بالله - هى أعظم حافظ لهم على الجهاد المخلص ،
ليظفروا برضوانه . . ويحفظوا بثوابه - ويحسبوا وهم
يمارسون جهادهم الشاق بالأمن والانس والاستقرار .

الانسان ومكره من الكون :

يكفى للاحساس بقيمة الانسان - أن الله سبحانه خلقه
بيديه - ونفخ فيه روحه وأنه بهذه النفخة القدسية من روح
الله قد تحول الى كائن عظيم . . له قداسته ومنزلته تسجد له
الملائكة بأمر الله . . ويسخر له الكون كله . . « اذ قال ربك
للملائكة انى خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعدوا له ساجدين (١) » .

وانظر معى فى هذا التعبير الجامع « فاذا سويته » فما معنى
التسوية ؟ وبم توحى ؟

التسوية فى الحقيقة هى عملية التنسيق الرائع فى عالم

(١) آية ٧١ - سورة ص .

الانسان الظاهر والباطن . . . المادى والمعنوى . . . وهو تنسيق يجعل من هذا الانسان نموذجاً رفيعاً للجمال بين سائر المخلوقات .

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم (٢) » « وصوركم فأحسن صوركم (١) »

تنسيق يجعل من أعضاء الانسان وملامحه هيئة كريمة وصورة جميلة . . . تحس من أول وهلة أنها صنعة حكيمة دقيقة مهذبة مصقولة . . . لا نشاز فيها ولا شذوذ . . . ليست يد أطول من يد ولا قدم أكبر من قدم . . . قد تكاملت الأعضاء - وتناسقت الملامح والقسمات والتأمت شتى العناصر لتجعل من هذا المخلوق آية فى الروعة والبهاء !! [فتبارك الله أحسن الخالقين] كل ذلك تنسيق العالم الظاهرى من الانسان . . . وكم يحار فن التجميل الحديث فى تنظيم الأسنان أو تحسين الأنف أو غير ذلك من المطالب اليسيرة ؟ وكم ينفقون من الوقت فى اتمامها ؟

فاذا جئنا الى العالم المادى الداخلى للانسان . . . من معدة وأحشاء وأعضاء . . . فان التسوية فى هذا العالم أدق وأصعب ذلك أن تنسيقها يقتضى أن تعمل متعاونة متآخية . . . من أجل راحة الانسان وصحته العامة . . . فمن ذا الذى يجعل هذه الأجهزة الهضمية والتنفسية . . . والمعدية وغيرها تتناسق فى العمل وتتآخى فى أداء الوظائف ؟ انه الله . . . وليس أحد سواه . . . الذى خلق هذا الجهاز بيديه . . . هو مهندس الأعظم « ولله المثل الأعلى » يعرف ما يصلحه - وما يجعله قادراً على أداء وظائفه .

(١) آية ٤ سورة التين .
(٢) آية ٣ سورة التغابن .

ان الأطباء ليتخصصون في مساحات ضئيلة من جسم الانسان . . هذا طبيب عين - وذاك طبيب أنف - أو حنجرة - أو قلب - أو عقل ، وهكذا يوزعون الجسم البشرى المتكامل على تخصصاتهم ، ومع ضيق الحيز الذى تخصص فيه كل واحد منهم . . فان معرفتهم قاصرة ، وعلمهم ضعيف . . ولاسيما الأمراض الباطنية - فانها تخضع الاجتهادات فردية كثيراً ماتودى بحياة المريض . . فسبحان من وسع بالعلم البصير ظاهر الانسان وباطنه سبحانه وتعالى !!

واذا جئنا بعد ذلك الى العالم المعنوى من قوى مختلفة - وغرائز متباينة - وقدرات متصارعة . . وغير ذلك من العواطف والأحاسيس . . فان تسويتها تعنى التنسيق بينها حتى لا تتصارع داخل كيان الانسان - وهى لو تصارعت لدمرت كيان الانسان . . فتركيب الغرائز ، والعواطف ، والقوى الانسانية انما تم بحكمة بالغة . . والتأليف بينها - تأليفاً يجعل منها وحدة متناسقة تتجه الى غاية واحدة هى تحقيق السلام النفسى للمرء . . كل ذلك أيضاً تسوية . .

فاذا تصورنا افرازات الغدد وما تحدثه من تأثير فى السلوك والأخلاق - فان عملية التسوية والتناسق تبدو مهمة خطيرة للغاية .

كل ذلك الفيض من التصورات تعطيه كلمة واحدة فى الآية [فاذا سويته] . . وهو المشار اليه فى آية أخرى بقوله سبحانه [ونفس وما سواها] . . .

الانسان اذن جهاز معقد - مركب - يحوى فى داخله عوالم شتى . . ويخفى أسراراً عجيبة . . هو مجهول مهما يتقدم الطب ويتطور العلم - ماخفى من أمره أكثر مما ظهر . . أشبه

شئ بغابة كثيفة ظلماء لا يستطيع أحد أن يقتحمها .. لأنها
تعج بالخوافى والأسرار ..

ولم يزل لغز الحياة حتى اليوم سرا عصيا أمام
العلم الحديث ولو تدبر الانسان كيف خلق ؟ ثم فكر في عدد
الأجهزة التي تعمل فيه ظاهرة وخافية في تناسق وانسجام
لهاله الأمر وغشيه ذهول كبير !! انه كنز خفى لا يبوح بسر
لغير مولاه .. ولا يفتحه الا لخالقه .. وعندما ينفتح هذا
الكنز فسوف يخرج الأعاجيب .. ويصنع المعجزات ولن
ينفتح الا بمفتاح القدره .

وعندما تقف وقفة قصيرة عند قوله سبحانه [خالق بشراً]
ونستوحى كلمة « خالق » نراها تبوح بأسرار دقيقة .. ذلك
لأننا سوف نسأل : كيف خلق ؟ ومم خلق ؟ وكيف تطور ؟ وهى
أسئلة لم يستطيع العلم الاجابة عليها رغم تطور المعرفة وتقدم
الدراسات الانسانية ..

ولقد أراحنا الله سبحانه - باعطاء المعرفة التى تلائم
عقولنا عن أصل الخلقة فقال : [خلق من ماء دافق] .. وهنا
يقف العلم بمجهره وأدواته ليبحث في سر النطفة .. فيرى
نفسه أمام عالم يعج بالكائنات « الميكروسكوبية » وهى
الحيوانات المنوية .. ملايين من هذه الكائنات الحية المتحركة
الحوامة .. الساعية فى الدفعة الواحدة .. ويمضى الطب فى
بحوثه ليعرف كيف يمتزج حيوان منوى ببويضة الأنثى فى
الرحم .. وكيف يتم الجذب .. أهو جذب كيمائى أم كهربى ؟

ياسبحان الله .. حيوان واحد من بين الملايين السابحة فى
النطفة ينجذب الى بويضة المرأة فيلج رأس الحيوان فى
البويضة تاركا الذنب .. ومن هذا الامتزاج امنزاج نواة الحيوان

المنوى مع نواة البويضة يتم التخليق . . . وتنشأ صفات الوراثة في تلك البويضة الملقحة . . . وتستقر هذه البويضة في [قرار مكين] لتأخذ أطوارها فتكون أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً . . . ثم يكتسى العظم باللحم . . .

يتم هذا التخليق في الرحم - في حجرة مجهزة تجهيزاً ربانياً . . . لها خصائص مخاطية - وسوائل يتغذى منها الجنين . . . ولها تكييف حرارى خاص يلائم حياة الجنين فلا تزيد درجة الحرارة عن ٣٧٪ مهما اختلفت الأجواء الخارجية . . .

وقد أخبرنا سبحانه أن مقر الجنين هو القرار المكين - ووضح ذلك بقوله : [هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء (١)] وبقوله : [يخلقكم فى بطون أمهاتكم (٢)] .

واذن فهذا التحديد في مستقر الجنين - يجعلنا نقطع بفشل التخليق في أنبوبة اختبار . . . لأنها ليست المكان الملائم للجنين . . . ولا يمكن أن تخلق بيئة صناعية !!

كل هذه الخواطر والمعانى تعطىها كلمة « انى خالق » . . .

ولقد أعطانا القرآن الكريم - معانى واضحة - في هذا الموضوع . . . كانت ومازالت وستظل مصدر العطاء للطب مهما يتفرع ، ويتطور . . .

ولقد وقف بعض الملاحدة موقف (٢) المعارضة من هذا التدرج الذى أثبتته القرآن . . . مثل دارون ومن خدع به . . . ولكن الأدلة القاطعة حاصرتهم فانبهروا وانقطعوا .

(١) آية ٦ سورة آل عمران .

(٢) آية ٦ سورة الزمر .

(٣) سبأى حيث مفصل مذهب دارون - وسنرد عليه رداً مقتنعاً .

أخبرنا القرآن عن النشأة الأولى . . وكيف بدى خلق آدم
من طين . . وكيف تدرج حتى صار خلقاً آخر . . حين نفخ
الله فيه من روحه . .

وهذا القدر من المعرفة - يرضى عقولنا . . بل انها لا تتسع
الا لهذه الجرعة . .

نفهم منه بأن الانسان مزدوج الفطرة . . قد ركب من
الطين - ومن روح الله . . وذلك يجعله دائماً في جهاد واصب
ليتسامى الى العلا . ولا يهبط الى الطين . . وذلك يتم
بارادته . . التى لا بد أن يستعملها في هذا الصراع . . لأنها في
الحقيقة أساس انتصاره على الشهوات ولعل ازدواج فطرة
الانسان - وتركيبها من شهوات النفس - وأشواق الروح . .
هى التى رشحته لمقام الاستخلاف فى الأرض
لانه بهذا
الجهاد المستمر يصبح مناضلاً - قوى الإرادة ثقيل العبء . .
جسيم النبعية . . محتشداً دائماً وأبداً ضد شهوات نفسه
الأماره يعلن عليها الحرب لينتصر عليها فيصبح أهلاً لتحمل
الأمانة - وأهلاً للاستخلاف فى الأرض .

لقد استحق الانسان التبجيل لأن الله نفخ فيه من روحه -
فأضحى أهلاً لتكريم ربه [ولقد كرمنا بى آدم وحملناهم فى
البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن
خلقناهم تفضيلاً (١)] وأصبح كل ما فى الكون مسخراً له [الله
الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره (٢)] .

[والأنعام خلقناها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٣)]

-
- (١) آية ٧٠ سورة الاسراء .
 - (٢) آية ١٢ سورة الجاثية .
 - (٣) آية النحل .

[هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً (١)] [والأرض وضعها
للأنام (٢)] * هذا التمكين الهائل للإنسان معناه أنه سيد
الأرض * كل مافيهما سخر له - بقدره الله تعالى - وقد أوتى
كذلك * وهبة العلم بثئونها * والاستمتاع بطيباتها وليست
الأرض وحدها بكل مافيهما من عناصر - ولكن السموات أيضاً
مهيئة لمساعدة الإنسان ليؤدى رسالة الاستخلاف - [هو الذى
خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن
سبع سموات وهو بكل شىء عليم (٣)] * * *

ومع هذا التمكين الهائل للإنسان فإنه ضعيف تغلبه
شهوته حيناً ويقعد به هواه - لهذا كان دائماً فى حاجة الى
العون الالهى - والمنهج الالهى - مع بذل الجهد فى مقاومة
الشهوة - وكبح جماح الغريزة * * [قد أفلح من زكاها وقد
خاب من دساها (٤)] *

فبعون الله وجهد الإنسان « قد أفلح من زكاها » وبعون
الله سبحانه [فألهمها فجورها وتقواها] *

ففينا نزعاً قدرية تؤثر فى سلوكنا وأعمالنا - لكنها تشحذ
الارادة ولا تعطلها * لأن الله سبحانه لا يأخذ بيد الكسالى ولا
الحالين * ولكنه يوفق من بذل الجهد وفوض أمره لربه [وأما
من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى
المأوى (٥)] *

مالهم به من علم :

-
- (١) آية ٢٩ البقرة
 - (٢) آية ١٠ سورة الرحمن .
 - (٣) آية ٢٩ سورة البقرة
 - (٤) آية ٩ ، ١٠ سورة الشمس .
 - (٥) آية ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات .

عندما نستقي المعرفة عن كتاب الله - الذي خلق فسوى
وقدر فهدى . . فاننا نحس بالراحة والطمأنينة تسرى في
كياننا . . لأنها معرفة صحيحة - وصادقة . . والقدر الذي
منحه القرآن من هذه المعرفة فما يتصل بخلق الانسان - وتطور
الجنين في بطن أمه - قدر صالح . . ويمكن للعلم - الذي هو
أيضا منحة من الله - أن يبحث ليصل الى مزيد من الأسرار
التي تؤكد عظمة القدرة الالهية . .

عندما يتجاوز العلم قدره ؟ ! :

من حق العلم أن يدرس ، وأن يصل الى نتائج تريح
الانسانية . . ولكن ليس من حق العلم أن يتجاوز مجاله فان
له منطقة معينة اذا تجاوزها أصبح هو الجهل بعينه - العلم
يقتصر في الدراسة على خصائص الأشياء والاستفادة منها -
والانتفاع بها - لكنه لا يتخطى ذلك الى جوهر الأشياء
وحقائقها - وانه كما أسلفنا - يوضح خصائص الكهرباء -
وكيفية الانتفاع بها . . ولكنه لا يتجاوز ذلك الى حقيقتها
وجوهرها - وكذلك الضوء . .

فاذا بحث الطب عن خصائص النطفة . . وحالات التطور . .
بعد أن ذكرهما القرآن ليجلو المزيد من الأسرار التي تدعم
الايمان في نفوس الناس . . فهذا مجاله !

أما اذا حاول أن يتعرف على أصل الحيوان المنوى . .
وجوهره . . ومتى خلق ؟ وكيف خلق ؟ وما الطين الذي خلق منه
آدم ؟ . . فانه سيضرب في المتاهات الضالة . . وليس هذا
مجاله !! ولكن الجهل بالله - والجحد لكتبه المنزلة يجعل بعض
الملاحدة يخرجون على أصول المعرفة - ويتجاوزون حدهم في
البحث . . فيأتون بعجائب ما أنزل الله بها من سلطان . .

دارون ومذهبيه :

ففى القرن التاسع عشر ظهرت النظرية الموحدة « لدارون » وهى المسماة « نظرية النشوء والارتقاء » - ولقد بسط هذه النظرية فى كتابه « أصل الأنواع » الذى ألفه سنة ١٨٥٩ م والانسان فى نظر « دارون » لم تخلقه القدرة القادرة - ولم تؤثر فى تطوره من نطفة الى علقه الى مضغة كما أخبر القرآن الكريم - كلا : وانما تم الخلق والتطور بطريقة ميكانيكية •• لم تفتقر الى مؤثر خارجى - وزاد على ذلك فاعتبر الانسان مترقيا عما دونه من الحيوان لم يزل يجتاز مرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى اجتازت ألوفاً من السنين - لقد تطوّر من « أميبا » الى حيوانات أخذت تتدرج حتى وصلت الى أرقى سلالة حيوانية وهى القرد •• ثم من قرد الى انسان حتى بلغ كماله النوعى •• والعجيب أن هذه النظرية الخرقاء - قد لاقت فى زمنها رواجاً - فكانت حديث الناس فى المجتمعات والمعاهد والمدارس •• وكأنما كان العالم الأوروبى كله ظامئاً الى الاتحاد الذى يخلصه من سيطرة الكنيسة - فألقى بنفسه بين أحضان الكفر •

وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً فى المسائل البشرية وما يتعلق بها •• قلبت تيار الفكر فى حينها وصرفت نظر الانسان عن الاستعلام والاستهداء فى مسائله ووسائله وحولته عن السماء •• اذ لا دخل لها فى خلقه ولا فى تطوره •• وانما تم الخلق بطريقة ميكانيكية •

واهتم الناس بطريقة تحول الحيوان الى انسان •• وبالبحت عن الحلقة المفقودة بين القرد والانسان •• ان كانت هناك حلقة •• وأين هى هذه الحلقة ؟

وأصبح الانسان - وفقاً لهذه النظرية - يعتقد أن الكون

سائر بغير عناية الهية • • وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية – وأن لا علة في الكون سوى السنن الطبيعية • • وأن الكائنات ترتقى من مراتب الحياة الأولى الى مراتبها العليا ميكانيكيا وآليا • وبالطبيعة ونتيجة لنواميس طبيعية (تنازع البقاء – والبقاء للأصلح والانتخاب البيعى • الذى هو سائر في الكون) والذى سلك به الانسان رحلته النوعية حتى توصل الى انسان ناطق ذى احساس وشعور •

ولا شك أن هذه النظرية تناقض الدين – والعقل – في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية • • بل ان هذه النظرية تعتبر ديننا جديدا يهدم الدين السليم من الأساس ويحل محله • • انها المادية الملحدة في أبشع صورها • • الانسان مخلوق بالطبيعة • • متدرج بالطبيعة الكون كله سائر بالطبيعة • • لا مجال لوجود اله • • الأديان خرافة • العبادات لا قيمة لها • • وهكذا من تلك السخافات التى لا تعتبر جديدة فكم تعرض الدين لأمثالها •

أثر نظرية دارون في المجتمع :

كان سيئا للغاية فلقد اضطرب لها رجال الدين المسيحي وحسبوا لها كل حساب وخافوا منها على مصير الدين في أوروبا • يقول الأستاذ « جود » (١) رئيس الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن في أحد كتبه : « يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذى فاجأ أجدادنا – عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون – وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت أو يظن أنه أثبت ارتقاء الحيوان على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل متواصلا مستمرا من ظهور الأميبا – وفرخ البحر – في أشكاله الأولى الى أشكاله النهائية العليا – وهى أرق أشكال

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للبدوى ص ١٩٢

الحياة وأعلاها فلم يزل عمل الارتقاء هذا الى طورنا متواصلا
غير منقطع » .

لقد كان الرد على دارون - بالمنطق والدليل - أمرا ممكنا .
ولكن يبدو أن أوربا كما أسلفت كانت تواقعة للتخلص من دين
الكنيسة !! كان يمكن أن يواجه دارون وأتباعه هذا السؤال
الواضح . ما الميكانيكية التي تخلق ؟ وما الطبيعة التي تؤثر ؟
أهما عدم أم وجود ؟ من أوجدتهما ؟ ومن أوجد الموجد ؟ ثم ما
هذه الرحلة النوعية التي ما زلنا نقطع شوطها ؟ أتصعد في الرحلة
النوعية الى أرقى مما نحن عليها ؟ ومنى ؟ وكيف تجاوزنا
« الشمبازى » فأصبحنا أناسي ؟ كان من الممكن أن نرد من
زوايا أخرى وأخرى . وليس ذلك عسيرا . ولكنه سهل للغاية
ولكن يبدو أن اقبال الجمهور والدماء على هذه النظرية رغم ما
فيها من ضعف ونقص من الوجهة المنطقية والعلمية - جعل
الكنيسة تركز على قدميها وتستسلم طالبة الغفران ومن ؟
من دارون وأتباعه !! وبدلا من أن ترد على النظرية الملحدة التي
تلغى وجودها انطلقت مع التيسار الشعبي لأنه كان أعنى من
مقاومتها فكان استسلام الكنيسة بلاء أكبر - جعل النظرية
تسود وتسيطر - وكان الناس يعتقدون أن تخلصهم من
الكنيسة في ذاته كسب رائع ولهذا أمعنوا في التحيز لدارون .
ظروف موضوعية . كانت مهياة أدت الى رواج هذا الكذب
النصاح ومن النفاق المؤلم حقا - أن نرى الكنيسة الانجليزية
بدلا من أن تحارب النظرية وتفندوها علميا - نراها تسف في
تملق دارون - وتكافئه بعد موته فتأمر بدفنه في محل دفن
الرجال الدينيين (ويست منستراي) .

ولم يكن تأثير هذه النظرية في المجال الديني فحسب ولكنه
كان (١) في الأخلاق وفي السياسة والحضارة والأدب ظهر أولا

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف .

في نزعات شاذة خبيثة هي نزعات الرجوع الى الفطرة عاريا حرا طليقا من كل قيد وفي تعيين المثل الكامل للانسان - وفي جميع الأعمال والأخلاق اذ أصبحت لا تصدر الا على اعتبار ان الانسان قرد - وفي فساد العلاقات الجنسية - والحياة المنزلية - التي يعبر عنها مستر شبرد أحد علماء الاجتماع الانجليز بقوله : لقد ظهر في انجلترا جيل من الناس كجهل الحياة المنزلية جهلا باتا ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم » .

موجات من الاحاد :

لم يكن (دارون) وحده مبتكر الاحاد ٠٠ ولكن الاحاد سلسلة طويلة ممتدة ٠٠ لقد سبقه كثير - وجاء معه كثير ٠٠ وجاء بعده كثير !!

وقانون الحياة الخالد أن يتصارع الحق مع الباطل - وأن يصطدم الايمان بالكفر - وأن يتعارك الخير مع الشر في جولات متتابة ٠٠ وأحقاب متوالية ٠٠ لا يلبث الباطل بعدها أن يخسر صريعا مجذولا تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : [بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (١)] وقوله سبحانه: [فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض (٢)] هذا هو القانون الالهي ٠٠ لذا فان مصير الاحاد مهدد ٠٠ مهما يثر من ضجة - ويحدث من صخب - ويجند من شياطين ٠٠ انهم كزغوة منتفشة - لا تثبت أن تنفث وتذهب !!

ولقد جاء بعد دارون بقليل (١٨١٨ - ١٨٨٣) م كارل ماركس ورفيقه أنجلز كما مر ٠٠ ليجعلا من المادة قانونا

(١) آية ١٨ سورة الانبياء .

(٢) آية ١٧ سورة الرعد .

للحياة والأحياء - ولينكرا وجود الخالق الأعظم وليفسر التاريخ
تفسيرا ماديا ٠٠ وليجعلنا من الانسان شيئا تافها تصنع له
الآلة أخلاقه وقيمه وأن الحضارة - والحياة كلها تتبع النظام
الاقتصادي ٠٠ وأن الدين فكر رجعي يجب نبذه - وأن العلاقات
الاجتماعية والجنسية حرة ٠٠ وهكذا لم يقم هذان الرجلان
وزنا لكرامة الانسان ولا لعلاقته بربه ٠٠ وجحدا جميع النواحي
البشرية الأخرى ٠٠ غير عامل الاقتصاد ٠٠ وأكد أن الحروب
والثورات في التاريخ ليست الا ثارا لبطن من بطن في سبيل
النظام الاقتصادي والانتاج الصناعي ٠٠

يا حسرة على العباد !!

فهذا الانسان الذي خلقه ربه بيديه - ونفخ فيه من
روحه - ووضع تاج الكرامة على مفرقه وأطلق يده في الأرض
يبنيها بالعلم - ويملأها بالنشاط والسعي - ويقيم فيها
صروح الحضارات ٠٠ هذا الانسان الرفيع القدر العظيم المنزلة
يأبى شياطين الالحاد الا أن يقطعوه عن ربه - ويجعلوا منه
حيوانا يعيش لبطنه - تستعبده الآلة ٠٠ وينشئوا له الدساتير
التي تضلل سعيه في الحياة ٠٠ وتأبى الطاقة الحيوية لهذا
الانسان أن تخضع لغير منهج الله ٠٠

الكنيسة تساعد على الالحاد :

ان أزمة الضمير الانساني - وشفوة الحياة - وضلال
الفكر قد بلغت حدا كبيرا - عندما واجه الناس تلك المذاهب .
ولم تكن الكنيسة الأوروبية يومذاك قادرة على دحض الشبهات
وانارة السبيل واضاءة الوجدان بنور المعرفة ٠٠ فقد تورطت
في محاربة العلم - واضطهاد الفكر - وتقتبل الأحرار ظلما منها
أن ذلك يزيد في مكانتها !!

وباليتها كانت تنبنى معرفة صحيحة - أو علما هاديا -
وانما احتكرت معرفة سقيمة وابتكرت وسائل ما أنزل الله بها
من سلطان • ولهذا فان المجتمع الأوربي كان قد ضاق ذرعا بها
وكان متطلعا الى معرفة أنقى وعلم أنفع • • فلم يكذب يقنع على
نظرية دارون وأشباهها حتى اعتنقها وصفق لها • • لقد كانت
الكنيسة بموقفها الجامد عاملا مساعدا على الالحاد • • وليتها
اقتصرت على هذا وانما جارت التيار الشعبى فصاغت الالحاد
وكرمت « دارون » على النحو الذى وضحناء - ولقد صمم
الأوربيون من جراء ذلك أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن
أى دين • • لأن الدين - كما صورته الكنيسة - عدو العلم
والحرية والابتكار تلك كانت مأساة الدين فى ذلك الوقت ولكن
أى دين ؟ !

انه دين الكنيسة - وليس الدين الصحيح فى صيغته
الأصيلة - ونقائه السماوى ! ! فلم يكن الالحاد والكنود يوما
ما - فى مواجهة دين صحيح • • وانما فى مواجهة دين لعبت به
عقول القسس - وحرفت كتبه المقدسة - احتكرت معارفه -
واصطنعت الكهانة واتجرت بصكوك الغفران • • فهل هذه هى
المسيحية ؟ !

ولقد انطلق الفكر الأوربي مزهوا تياها بما أحرز من
انتصار على الكنيسة - وظن أنه يستطيع أن يبني حضارته
بعيدا عن دين صحيح • • يسبغ عليها الكرامة - ويحفظها من
الانزلاق ويعصمها من الهبوط والاسفاف • • لأن الالحاد هو
الأب الطبيعي لكل المساوىء والآفات الحضارية !! • • •
ورغم ذلك فقد انطلقت الحضارة الغربية من نقطة الالحاد
لا تلوى على شيء • • ووصلت بهذا الى قمة التفوق المادى •

وبقى أنها مهما بلغت فى هذا السبق الأرعن لا يمكن أن
تستمر • لأنها ضد طبيعة الانسان وفطرته • • فاذا كانت قد

أحرزت السبق في مضمار المساهمة فأين ومضات الروح ؟ ! وهل يستغنى الإنسان بالمادة عن الروح ؟ هل تستطيع المادة (غربية أم شرقية) أن تصنع له أخلاقه - وتملأ قلبه بالثقة - وتؤكد صلته بربه ؟ ! وهل تستطيع أن تريحه من هموم قلبه وشقاء روحه وقلق وجدانه وجذب عاطفته ؟ !

هل تنشئ له السعادة التي يفتقدها فلا يجدها ؟

هل تستطيع المادة - أن تبني كيانه من الداخل - وهل تقدم له المنهج الذي يساعده على الازدهار ؟ وهل يستطيع أن يحيى الإنسان في ظل المادة بعقل سليم وأعصاب سليمة ونفس مبرأة عن العقد والأمراض • وهل تعصمه المادة من الانحدار الحيواني الرهيب الذي تورط فيه في الشرق والغرب فأصبح حيوانا ينزو ويعربد ؟ ! لعمري : ان ظواهر الشذوذ والرفض والتمزق النفسى التى تجتاح العالم الآن انما هى ثمرة خبيثة لتلك الفلسفات المادية • • لأن الناس قد ذهلوا في ظلها عن مبررات وجودهم - فلم يعودوا يحسون بالأمن أو السكينة • • بل بالخوف والضياع !!

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قد نجح في ايجاد عالم صناعى مريح فيه كل مايفتقر اليه الانسان المتحضر من الكماليات الا أن القوم هناك في غاية القلق والتوتر • • تغمرهم المشكلات الحادة - وتواجههم المتاعب القاسية - وكأنما الانسان في ظل هذه الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية وتطلع الى لون آخر من الحضارة تغذى عواطفه وتملأ قلبه بالأمن والسكينة •

يقول بعض المفكرين (١) المسلمون المعاصرين : « كنت في

(١) هو الأستاذ المرحوم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه من روائع حضارتنا ص ١٧

فرنسا وقد أتيح لى أن أتحدث الى شبابها المسلم - وقد رأيت يوماً رجلاً مسلماً يتحدث الى لفييف من الشباب الفرنسى المسلم عن عظمة الاسلام ومسايرته للتطور والتقدم واسترسل فى ذلك كأنه يتحدث فى بلد عربى يتوق الى القوة والمجد فأخذ يؤكد أن الاسلام يدعو الى القوة وصنع الدبابات والطائرات الخ .

فقال أحد هؤلاء الشباب : ياأخى نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلقت أعصابنا بالحروب وأسلحتنا وأفقدتنا انسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا بماديتها - فحدثنا عن روحانية الاسلام الذى وجدنا فيه كرامتنا الانسانية واطمئناننا الروحي !! » .

هكذا نطالع فى كلمة الشاب المسلم الفرنسى سوءات الحضارة المادية التى فجرت فى نفوسهم كل ينابيع الألم والحيرة والاضطراب والضياع ، وأنهم قد سئموا ، وسئموا معها جنون المادة وليس غير الايمان بالله - يعصم من هذا القنوط - ويرفع من هذا التبذل - ويعيد على الانسان كرامته السليبة فى ظل حضارة القطيع وشريعة الغاب .

وعندما يتقدم الاسلام بمنهجه المتكامل - لبناء الانسان - فانه يعيد الاتزان الى الحياة التى أوشكت أن تتهاوى وتسقط فوق رؤس أصحابها . . انه يتعامل مع الانسان على أنه مادة وروح كما خلقه ربه ، ويلأثم بين هذين العنصرين فى كيانه ملائمة دقيقة لا يترك أحدهما يطفئ على الآخر ، فلا يسمح للمادية أن تعربد - ولا للروح أن تقود الى الرهينة ، وانما يقدم لهما معا من الغذاء ما يضمن تناسقهما لقيودا خطا الانسان على درب الحياة فى اتزان واعتدال !!

واقع مؤسف :

ومن خلال العرض السابق - نتبين الواقع المؤلم المرير الذي يعيشه العالم شرقية وغربية في جو الحضارة المادية الصناعية ، مهما بدا مزدهراً نامياً !! ومهما وصل في القوة الى أقصى غاياتها ، لأن هذه الظواهر السطحية • • سبيل الانتحار - وطريق الفناء • فلا ينبغي أن نخدعنا عن جوهر الحقيقة •

ان الحضارة المادية - مهما يبلغ حجمها - أشبه شيء بجسم ضخم وهيكل فخم • • ولكنه يعاني أمراضا باطنية لا تبدو أمام النظرة العجلى - وماذا تفيد بدانة الانسان اذا كان قلبه مصابا بالأوجاع والأمراض - وروحه ظامئة الى الرى - وواقعه شرور وآلام ؟! نقول ذلك لمن يخدعهم المظهر عن الجوهر - وننصح لكل واحد من هؤلاء بأن يردد قول المتنبي :

• •

أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والحق أن الحضارة المادية جسم منورم يبدو ضخما وان كان في واقع الأمر مصابا بشتى الأمراض والعلل - ان هذه الحضارة قد أفلست فعلا في خلق مجتمع أفضل - تظله السعادة - ويسوده الاستقرار - وتضان فيه كرامة الانسان •

وما نحب أن نمضى مع تيار الاباحية الذى يجتاح الفتیان والفتيات في جو هذه الحضارات الموبوءة - فذاك شيء يطول ، وما تزال الصحف ووسائل الاعلام تنقل الينا الكثير عن فلسفاتهم الشاذة - وحياتهم الحيوانية - ووجودهم الضائع - وجنوحهم الى الخمر والمخدر والهلوسة - واحتجاجهم على السلطة •

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التي ترسلها هذه الحضارة لفاتنا الاستقصاء .. وتكفى وسائل الدمار والتخريب - وكيف تستعمل في ترويع الأمن ، والاعتداء على كرامة الشعوب . يكفى ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور و صلف ، فقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم ، وضربت حركات الايمان في كل مكان !!

وتكفى جرائم الصهيونية ، وما تصنعه من أساليب لتحقيق آمالها العنصرية .. وما تجده من أمريكا من عون مادي وأدبي ضد الاسلام ، وضد الشعوب الحرة الضعيفة .

لقد أفلست هذه الحضارات تحت مطارق الفطرة السليمة ، التي تأبى أن تزيف خصائصها ، وتمتحن كرامتها في ظل حضارة كافرة فاجرة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ..

والانسان في الوسط الأوربي قلق أشد القلق ، حائر ، مضطرب ، خائف ، ظامئ الروح .. مستهلك في الانتاج ، مستعبد للآلة ، منقطع الآصرة عن السماء .. وهو في المجتمع الشيعوي أشد قلقا وعبودية فهل هذه حياة ؟!

ان حياة التدين ، والايمان مع البؤس والكدر والشظف لأشرف وأجمل من تلك الحياة المادية .. حسب الفقير البائس . أنه مع ايمانه ومع ربه ومع دينه .. ومع كرامته ، ومع الأمل في يوم لا ظلم فيه ولا بخس ولا ضياع .. كل ذلك يعكس على وجوده طمأنينة الروح ، وسكن القلب ، وهدوء المشاعر .. وحياة كهذه لا قلق فيها - ولا شرود .. وكذب دارون ، وكذب ماركس ، وكذب الملحدون جميعا ، وفي زعمهم أن الانسان صناعة ميكانيكية وأن الكون كذلك ، والحياة هكذا وما الميكانيكية هذه ؟ أليست حركة مؤثرة ؟ من أوجد هذه الحركة ودفعها

لتعمل ؟ من أوجد الأميبا ؟ ومن طورها ؟ حتى صارت بشراً
سويا ؟! نقول لهم هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ثم لماذا
يساء فهم الانسان الى هذا الحد ! فيزعم بأنه قرد في الأصل
ارتقى حتى صار انسانا ! وتهدر خصائصه ، وتمتحن كرامته •
أكل ما هنالك هو الثورة على الكنيسة واصطناع الاحاد بالحق
وبالباطل ! للافلات من رقها !

لكن ما ذنب الاسلام ؟

وهو يجعل العلم جزءاً من عقيدته • • ويضفي على العلماء
هالة تكريم • • وينظمهم في سلك واحد مع الملائكة ، ومع الله
خالق القوى والقدر [شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو
العلم قائماً بالقسط (١)] •

ما ذنب الاسلام يساء فهمه - وتجحد سماته - وتحارب
شريعته الى هذا الحد ؟!

لم يفتح الطريق أمام العقل البشرى ليبحت ويرتاد
ويصعد في الجو ويجوب الآفاق ؟

ألم يخاطب العقل البشرى في نحو خمسمائة وثلاث
وثمانين آية يحركه ويستنيره ليكتشف ويعمل ؟ ما ذنب
القرآن الكريم • • وهو كتاب الحياة الخالد - ومعجزة الابداع
الحضارى ؟

لماذا تنعكس سوءات الكنيسة الغربية على الاسلام ؟
فيقال : ان الأديان تحارب العلم • • في حين أن العلم لم يجد
متنفسه الطلق الا في ظل الاسلام • • والا في عقول أبنائه • •

(١) آية ١٨ سورة آل عمران •

• وفي رحاب حياتهم المباركة •• حيث بنوا معه وبه حضارة من
أروع ما عرفت الدنيا من حضارات •• نهل منها الغرب الظامىء
فحقق الشكل ونسى المضمون •

الحق أن الاسلام برىء من هذه التهمة – وأنه لا ضمان
لاستقرار العيش الا أن يمكن له في قيادة الحياة •• لأنه روحها ••
وحركتها – وانطلاقتها المباركة على عين الله •

واذا كان الفصل بين الدين والدولة قد ساد في عصور الجهل
والانحطاط •• فانه انعكاس سيىء لحضارة الغرب المادية التي
لم تجد في دين الكنيسة الغربية ما يقود الحياة أو يوجه
مسيرتها •• لكن الاسلام قاد الحياة فعلا – وعاشت البشرية
تجربته الحضارية – وسعدت بأجمل حياة وبأروع حضارة
عرفها التاريخ •

من حق الاسلام على المنصفين من مفكرى الشرق والغرب
أن ينظروا في كتابه •• وأن يتعرفوا الى نظامه – ليتأكدوا أنه
نظام حياة – ومنهج عبادة – وأسلوب توجيه وقيادة •• وما
من آية في كتاب الله العزيز الا وهى تطالب بتطبيقها في الحياة •

ومن الاجحاف الظالم للناس – كل الناس – أن يحال بين
القرآن وبين قيادة الحياة لأنهم لن يجدوا دستوراً يحترم
كرامتهم – ويوقظ ضمائرهم – ويحيى موات قلوبهم كما يجدون
ذلك فيه •• وكفى ما أصاب الحياة من ضلال وشroud •

ويأبى الانسان – وهو صنعة الله المعجزة – أن ينقاد لغير
القرآن أو أن تخضع طاقته الحيوية الا لتوجيهه وهده •

ان هذا الانسان – رغم ما لحق به من تحقير وامتهان – في
ظل الحضارات المادية •• هو قطب الوجود كله كما أراد له

ربه ، هو الذى يحرك الآلة ويصنعها ويسيطر عليها - ويستغلها لصالحه - ويستثمر الوجود كله باذن ربه - ولا يتصور بحال أن يصنع الآلة ثم يعيدها - أو أن ينشئ الحضارة ثم يخضع لها !!

انه صنعة الله العلى القدير - لا يخضع الا لجلال وجهه - ولا يجد أنس روحه الا فى عبادته والانقياد لأمره - والاستسلام لشرعه - والعمل بكتابه .. فهو عبد لربه فقط - ولكنه بعد ذلك سيد لكل عناصر الحياة .. وعبوديته لله .. هى مصدر التحرر الهائل من كل ما سواه وبهذا يمضى مرفوع الجبهة عزيز النفس صامد الروح .

ومحال أن يجد السعادة الا فى منهج ربه .. الذى خلقه فسواه واطلع على سره ونجواه .

ومن ثم فهو يرفض كل منهج يقوم على اعتساف فطرته ، وانتهاك حرمة ، وابتذال كرامته - يريد الانسان - حضارة ربانية تزدهر فى رحاب الله خالق الانسان ومنزل القرآن وبارئ الكون كله .. يريد أن يستقى من نبع الله الظهور وورده العذب لتزدهر روحه - ويزداد طموحه وتشتعل مواهبه .. وتزكو الحياة بجهاذه النبيل .

ومن ذا الذى يقدر على اشعال مواهب الانسان ، وانعاش عواطفه الا خالقه ومولاه ؟

ان جهلنا مطبق كما مر بخصائص أنفسنا ، وأرواحنا ، وطبيعة حياتنا - وعمل الأجهزة المختلفة فينا .. واذا كان كذلك فكيف نضع لأنفسنا منهاجاً فى الحياة ؟

ان الجهل لا ينتج الا الجهل - والضلال لا ينشئ الا الضلال

فكيف تطمئن البشرية كلها الى قوانين من وضع البشر - والى
دساتير من صنع عقولهم الضعيفة .

ان الحضارات المادية في الشرق والغرب قامت على أساس
مناهج بشرية تدعى أنها تستطيع أن تلبى حاجات الانسان ..
وتصنع حياته .. وكانت نتيجتها ما تحدثنا عنه من شقاء
وضلال .. لأنها حضارات قامت على جهل مطبق بطبيعتها -
وبحجمنا - وبعواطفنا وبخصائصنا .. لهذا يحس الذين
يعيشون في ظلها بأنهم غرباء ..

وصدق الله العظيم اذ يقول : [وأن هذا صراطي مستقيما
فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (١)] . وعندما
نضع لأنفسنا منهاجاً - فلن يكون كافياً يوماً من الايام ولا
مستوعباً لآمالنا - ولا مطرداً مع ما تأتى به الحياة .. وهذا هو
ما حدث فعلاً - مما اضطر معه الماديون - أن يدخلوا تعديلات
كثيرة في مذاهبهم ومناهجهم .. وصادروا الملكية - ثم عادوا
فأباحوها - وألغوا الطبقات ثم أقروها - وهكذا سيحتاج
التعديل كل يوم الى تعديل وصدق الله العظيم اذ يقول :
[ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين
لا يعلمون (٢)] .

يقول الدكتور ألكسيس كاريل الأمريكي في كتابه «الانسان
ذلك المجهول» :

« ان الانسان بصفة خاصة - لا تزال علومه في المرحلة
الوصفية - لأنه كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد ومن غير الميسور
الحصول على عرض بسيط له وليست هناك طريقة لفهمه في

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .
(٢) آية ١٨ سورة الجاثية .

مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد كما لا توجد طريقة لفهم
علاقاته بالعالم الخارجي * .

هكذا - يرى هذا العالم الطبيب - أن الانسان كائن معقد -
ثم يصل العلم من اكتشاف أمره الى شيء يذكر * . وهو يؤكد
أن في شريعته - لافي سواها الضمان الأكيد لانتظام سير
الانسان وتحقيق ذاته لأنه وحده هو خالقها * .

وذلك يقتضى أن يلتصق الانسان به - وأن يقترب دائما
منه - وأن يلتجئ الى حماه وأن يهتدى بمنهجه في الحياة لأن
الأمر كما يقول كاريل : [أن جهلنا مطبق بأنفسنا] - ان هذا
المنهج هو الذى حرر الحياة كلها من الخوف ومن الجبروت ورد
الى العقل الانسانى كرامته * * * وجعل الدنيا كلها تسبح في
فيض من الضياء * .

ومن هذا المعين الرائق - أخذت أوروبا حضارتها - يقول
دوهرنج :

« ان آراء روجر بيكون أصدق وأوضح من آراء سمييه
المشهور (فرنسيس بيكون) * .

ومن أين استقى روجر بيكون ماحصله في العلوم ؟ من
الجامعات الاسلامية في الأندلس والقسم الخامس الذى خصصه
للبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر
لابن الهيثم - وكتاب بيكون شاهد ناطق على تأثره بابن حزم

ويقول بريغولت في كتابه « بناء الانسانية » :

« ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى في
مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس - وليس

لروجر ببيكون ولا لسميه الذى جاء بعده ائحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي - فلم يكن روجر ببيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقّة - والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبي هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية - وقد كان منهج العرب التجريبي فى عصر ببيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا » *

ثم يقول : [ليس ثمت ناحية من نواحي الازدهار الأوربي الا ويمكن ارجاعها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية - وفى روح البحث العلمى - ان علمنا يدين للعرب بوجود ، نفسه لأن العائى القديم لم يكن فيه للعلم وجود] *

هذا هو تأثير الحضارة القرآنية فى حياة القوم ، وفى أقطارهم ، وفى مجتمعاتهم وهو تأثير لاندعيه - وانما نستمدّه من اعترافاتهم * * وماخفى كان أعظم فهل يتنبه المسلمون لأصول حضارتهم ؟

وأخيراً : هذا هو الانسان من وجهة النظر القرآنية * * أكرم عناصر الكون على الله فهل يستطيع أن يتلمس السبيل الى سعادة نفسه الا بمنهج ربه ؟ ! *

الكون ساحة لنشاط الانسان :

نعم ان الانسان جزء من الوجود الكبير - وما الكون كله الا

ساحة لنشاطه - ومجال لحركته - وميدان لحضارته -
وبستان يزرع فيه أنضر الورود * * يستمد العون من ربه -
ويدين له بالعبودية - ثم يتحرر بعد ذلك من عبادة ما سواه -
يتحرر من استذلال النظم - والقوانين والأشخاص والشهوات
وعبادة الشيطان انه سيد الكون كله وليس عبداً فقط الا لله
الواحد القهار *

من أجل الانسان مهد الله الأرض لكي يعيش عليها -
ويمشي في مناكبها ويستثمر خيرها « ألم نجعل الأرض مهاداً (١) »
« وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه (٢) » *
« هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً (٢) » وقال سبحانه
مؤكداً هذه الحقيقة :

« الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى
في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر
دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار (٤) »
وقال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان ليقيموا الناس بالقسط - وأنزلنا الحديد فيه
بأس شديد ومنافع للناس (٥) » *

وقال عز من قائل : « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من
الفلك والأنعام ما تركبون لتستولوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة
ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما
كننا له مقرنين (٦) » *

(٢) آية ١٣ سورة الجاثية .

(١) آية ٦ سورة النبأ .

(٣) آية ٢٩ سورة البقرة .

(٤) آيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ سورة ابراهيم .

(٦) آية ١٢ ، ١٣ الزخرف .

(٥) آية ٢٥ سورة الحديد .

هكذا من خلال هذه الآيات الكريمات - وما أكثرها في هذا المقام - يمهّد الله للإنسان أرضه بمنه وكرمه - ولو شاء لجعلها وعرة صعبة لا تصلح لنشاط الإنسان - ويهيئ له وسائل الانتفاع بها • والاستفادة بعناصرها • • ويذل كل ذلك من أجله ويخضعه لمشيئته - بحيث يسيطر عليه بقوانين العلم - ونواميس الحياة - ويبحث عن الوسائل التي تهين له ذلك • • فالله قد لفت نظر الإنسان الى وظيفته الأصيلة - وخلق الله (المادة الخام) والحيوانات والكائنات ليكون سيدها والمهيمن عليها • • وهو مأمور حين يخضعها لمشيئة أن يظل موصولا به ذاكراً أنعمه عليه - فما كان لعقله أن يهتدى الى ذلك لولا تيسير الله • • نعم لولا عملية التنسخر والتذليل ، وامكانية العمل ، وقابلية الكفاح لما توصل الإنسان الى ما توصل اليه من علوم ومخترعات • • ولو شاء لجعل كل هذه العناصر معاندة لطبيعة الإنسان لا تخضع له ولا تنقاد • • • وكأنما يذكرنا ربنا بذلك حتى لا نغتر بما نحرز من نجاح ، أو نحقق من آمال ، أو نبني من حضارات • • وحتى لا يكون للشيطان علينا سبيل ، ومهما يحقق الإنسان من نصر فانه مفتقر أبداً الى ربه • • • مهما ذل قوى الطبيعة - وحول مجرى المياه - وبنى السدود العالية • وشق الترع والمصارف - ومهد السبل والطرق وحطم الذرة ، وفجرها واخترع القنبلة والصاروخ • • لأن دوره في ذلك دور ثانوى • • أما جوهر الموضوع فهو من الله والى الله • • • لأن عقولنا التي تمكننا من ذلك هي الاخرى منحة من الله • •

نعم • • ماأحرى أن يهتف الإنسان كلما أتيح له أن ينفع بثمرات جهده : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »

وبهذا ترد الأمور الى بارئها ومصدرها ومنشئها الحقيقى • • ويظل الإنسان على تواضعه فلا يقتله غرور

العظمة - ولا تجتاحه مركبات النقص . . ولا يعبد حضارة صنعها بيديه !! وبهذا الاعتراف الكبير يدور القدر في بناء الحضارات تتناسق الماديات مع الروحيات وتنسجم مع قانون التسخير الالهي . .

وما أروع الايحاء الذي تعطيه هذه الآبة « لتستووا على ظهوره » فتأمل معنى ماذا تعنى ؟ انها تحدد رسالة الانسان في الحياة . . رسالته أن يجد في العمل ، ويواصل الكفاح ليتمكن السيطرة على عناصر الكون فيحقق السيادة لنفسه ليكون جديراً بالاستخلاف في الأرض وذلك يستدعى شحذ المواهب - وتحريك القدرات - ليستعلى على عناصر الكون « لتستووا على ظهوره » هذا دور الانسان . . جهاد وعمل وعرق . . ومحاولة للبناء وبذل للجهد . . وكل ذلك في كون ممهد - وعالم مهيا - وعناصر موجودة . . لم يكلف بخلق عنصر منها - ولا بمحاولة فوق طاقته . . فسبحان من جعل الأرض مسرحاً لنشاط الانسان ، وقوله سبحانه « ثم تذكروا نعمة ربكم » تقرير لحقيقة هائلة لها أهميتها في حفظ توازن الانسان تلك الحقيقة ببساطة أن كل المنجزات الحضارية لهذا الانسان انما هي باقدار الله وتسخيره فواجب أن يذكر ذلك ولا ينساه . . وبهذا تقترن الروحيات « ذكر الله » بالماديات التي هي انجازات الانسان . . فلا يصاب بعمى البصيرة ويذهل عن ربه فتذهب حضارته مع الريح .

وذكر الله من ناحية ثانية . . وسيلة لطرد الشيطان واحباط سعيه - لأن الشيطان للانسان عدو مبين . . فقد يزين له الغرور - أو يسول له عبادة المادة كما فعل بغيره من رواد الضلال . . وقوله « وما كنا له مقرنين » استكمال للحقيقة الكبرى التي يجريها الانسان على لسانه - ويصدقها بقلبه ليتحصن ظاهراً وباطناً من كيد الشيطان وكأنما قوله سبحانه

« ثم تذكروا نعمة ربكم » تعنى استحضار القلب وامتلأه الوجدان وقوله : « وتقولوا سبحان الذى الخ » تعنى نطق اللسان - والاعتراف بصريح المقال . . ليكون ذلك أدعى لصالح شأن هذا الانسان . .

والآية بمنطقها وايحائها - توجه كل الحضارات المادية وجهة روحية . . لأنها تعالج فى الانسان نوازع الغرور - وخداع النفس - بعد أن يمتلك ناصية المادة ويسيطر عليها وبما أنه عنصر كريم على ربه فان الآية توصى ببقاء جوهره نقياً مصوناً من كل صلف وغرور . . ولذا اتجهت اليه تكفكف من غروره وتكبح من جماحه وترده الى القصد والاعتدال . . وذلك حين تصيح بالانسان أن يظل مع الحضارة معتصماً بربه ذا كراً اياه لأنه ماكان ليستطيع تذليل عناصر الكون - فضلاً عن أن يخلقها - ولا أن يطوعها لارادته لولا قدرة الله وفضله وبكل هذا التيسير من ربه استطاع أن يصل الى قمة الحضارة - ويستمتع بطيبات الحياة . . ولأن من طبيعة الانسان الغرور وتجاهل النعمة ركزت الآية الكريمة على ضرورة الاقرار لله بالفضل بالقلب واللسان ومتى ؟ عندما يعتلى قمة النصر ، وبذلك يحتفظ بتوازنه فوق القمة العالية فلا يضل أو يهوى .

وبهذا الذكر - يقاوم وسوسة الشيطان الذى يغريه بالمروق ويزين له الشر والسوء واذا كان المعنى القريب لقوله سبحانه : [اذا استويتم عليه] هو : اذا ركبت ظهره وهى حالة الانتفاع بالشيء والاستمتاع بثمراته - فان اشعاعها يتراعى الى بعيد . وهى أن نفر لله بالفضل - عندما يوفق العقل البشرى الى أى اختراع نافع !! . . . لينتج بهذا الاختراع وجهة روحية مسبحة شاكرة . . فلا يستخدم اختراعه فى الشر - واهلاك الحرث والنسل - واستئلال الشعوب . . كما هو الشأن فى

الحضارات الضالة . . . وبذلك يظل الانسان منسجماً مع الملائ
الأعلى .

بين الانسان والكون :

الكون كله بأجوائه وعناصره وكائناته مسرح ضخم
لنشاط الانسان . . يتأمل فيه دقائق الصنع الالهي فيربو
ايمانه . . ويزداد يقينه . . وقد طالب الله البشر أن يتأملوا
في ملكوته الرحيب . . تأمل عظة واعتبار فقال جل وعلا : « قل
انظروا ماذا في السموات والأرض - وماتغنى الآيات والنذر عن
قوم لا يؤمنون (١) » .

وهذا التأمل يعود بالخير العميم على الانسان لأنه يتفاعله
مع الكائنات - وتجاوبه مع الآيات يستشف المعرفة ويحصل
على العلوم المختلفة . . ولولا هذا النظر لما استطاع المسلمون
أن ينشئوا الحضارة المؤمنة التي ملأت الحياة بالجمال والجلال
فالانسان مدين لهذا الكون بعلمه ومعرفته . . ويوم يقعد
الانسان عن هذا التأمل الفاحص لينفذ منه الى حقائق العلم
يصبح انساناً سلبياً ضعيف الايمان . . واذن : فالكون
مصدر رائع للمعارف والعلوم والثقافات . .

ثم هو مصدر رائع ومنبع فياض لسكينة القلب ، وهدوء
المشاعر . . يحس الانسان أحياناً بالضيق - فما هو الا أن
ينتجه الى الطبيعة . . فاذا بجمالها الحالم ، وهدوئها الشاعر
يفيضان على القلب أنساً وجمالاً . . ولذلك أثره في الحفاظ على
سلام النفس وجمال الروح . . وبهذا لا يكون لليأس سبيل الى
قلبه . . وذلك من أكبر عناصر الايمان ودعائمه ولكون بعد

(١) آية ١٠١ سورة يونس .

هذا أثره الرائع في امداد النفس بأسرار القدرة • • وإيقاف العقل على بدائع الصنعة • • وانعاش الروح بروائع الجمال • •

فما أخرى أن يوثق الانسان علاقته بالكون من حوله ، وما أجدر أن ينشئ الصداقة بينه وبين عناصره • • يتودد اليه – ويستلهمه – ويستنوحيه • • ويستمد منه الخبرة والمعرفة بتفاعله مع أجزائه ، وتعامله مع عناصره لا يصد عنها بالجهل ، ولا يعيش بينها غافلاً لاهياً • •

ان الأرض – التي يعيش عليها الانسان لم تخلق عبثاً • • وان الكون المحيط به لم يوجد صدفة • • وانما وجداً لحكمة جليلة وغاية سامية أيسرها أن يتعاوننا مع الانسان • • وأن يتعاون معهما الانسان لانشاء عالم أفضل بالمعرفة والعلم • • فهنا المصنع التجريبي الذي يحل الانسان فيه ويركب ، ويبني ويهدم ، ويصيب ويخطئ ليصل الى الحقيقة يوماً ما ويصافح كف المعرفة – وهذه المعرفة في ذاتها عبادة رفيعة • •

أن هذا الكون من صنع الله • • وان هذا الانسان من صنع الله • • فبينهما اذن علاقة كريمة • • • هي وحدة الخلق والتكوين • • كلاهما لخالق واحد يسبحان له بالغدو والآصال فلا مجال للطبيعة والتخوف • • بل ينبغي للانسان أن يتعرف الى كل الوسائل التي تجعله قادراً على الانتفاع بالكون – وتسخير عناصره • • والسيطرة عليها • • ليظل ممكناً منها فاهما خصائصها وأسرارها وهذا هو سبيل صنع الحضارات • •

وبهذا يمكن للانسان أن يتعايش مع هذه العناصر في كون مأنوس أليف • • وليكن شعاره في التعامل : « ربى وربك الله » وبهذا تستجيب له وتتنقاد • •

وهكذا نجد في النهاية أن الله جل جلاله هو خالق الانسان

وخالق الكون وأن الانسان انما يتعامل مع الحياة - ومع الكون بمنهج ربه الذى لا يأتية الباطل . . وهذا المنهج فيه كل احتياجات الانسان التى تمكن له فى الأرض . . وتهيء له سبيل السعادة . . وهذا الكون . . مسخر للانسان - مهياً - لنفعه - وأن الانسان - فى مسيرته على الأرض لن يجد الهدى الا فى منهج الله . . وبذلك كله يستثمر عناصر الحياة !!

ولا قيمة لحضارة بالغة ما بلغت من العظمة والجلال الا اذا ارتبطت بالله . . ووجدت فيها الانسانية دعماً لمثلها العليا وأشواقها الرفيعة يقول الفيلسوف محمد اقبال :

« ان النظر الى المؤسسات والأشياء لا يكون لما تؤديه من نفع أو ضرر اجتماعى . . فى بلد من البلدان - لأن مثل هذا الهدف ضئيل القيمة - وانما يكون بتحقيق الهدف الذى تسعى الانسانية اليه وهو هدف الروح » .

وهو يريد بذلك أن يجعل من مظاهر الحضارة المادية فى العالم كله منطلقات لدعم الروح ، وقوة الايمان ، وتحقيق الأشواق الرفيعة . .

أزمة الضمير الغربى :

ترجع هذه الأزمة فى العالم الغربى المفتون بالمادة ، العابد للانتاج ، الى أنه لم ينطلق بالحضارة المادية الى أفقها الروحى النبيل . . فيتخذ منها وسائل لمرضاة الله . . ودعائم لتقوية الايمان وانما اعتبرها فى ذاتها غاية . . فانفصل عن الله كل الانفصال . . ولم ينجح فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة الانسان . . ليحس بسيادته عليها بل وضع الانسان فى خدمة الحضارة . . فاستعبدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان

وألغت ارادته ، وبددت مطامحه وأشواقه . . وجعلته عبداً خاضعاً لها لا سيداً مسيطراً عليها !!

ومثل هذه الحضارة لا يمكن أن تنجح في بناء مدنيات فاضلة . . لكنها تنجح في بناء امبراطوريات ضخمة . . تغرى بمظهرها بينما الباطن خواء . . لأنها دعت الى تخلف الخلق عن العلم في مضمار السباق . . وبذلك باعت مذلها وقيمها في عالم الأرقام والكميات والحساب . . وصارت حضارة بلا ضمير . . وتأتى الحضارة المثالية الا أن تكون مزاجاً بين الروح والكم ، بين الغائية والسببية حتى اذا حدث اختلال في هذا التوازن هوت المدنية الى الحضيض . . لأنها تحيف على فطرة الانسان وتصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من اعادة والروح . .

من ايهاء آية الاستخلاف : [معان حضارية]

ولنقرأ معاً فى اجلال وخشوع قول الحق - تبارك وتعالى - فى هذا الموضوع ، ولنصغ الى همس الحكمة ، وايحاء الألفاظ من خلال هذه القصة القرآنية : -

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة - قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك - قال : انى أعلم ما لا تعلمون - وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين - قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون - واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس اباى واستكبر وكان من الكافرين - وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة - وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين -

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه - وقلنا اهبطوا
بعضكم لبعض عدو - ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين -
فنتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم -
قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » .

تلك آيات من كتاب الله - تنفعنا في هذا السياق -
وتوضح لنا معالم الحق - وتحدد مركز الانسان في هذا
الوجود . كما تحدد وضع الحضارات بالنسبة اليه . وتشير
بالوصف - والايحاء الى أصل الشر في هذا الوجود ليتين بنو
آدم من عدوهم اللود ؟

وذلك ليتفرغوا لأداء دورهم في الحياة . . وهو بناؤها
بالحق - وحكمها بالعدل - والتصرف فيها كما أراد الله ، وبذلك
تكون حضارتهم موصولة بالله لا تنحرف أو تضل ، ولننظر
أولا في مغزى هذا الحوار القصصى الشيق بين الله عز وجل -
وبين الملائكة الأبرار ، وهو حوار له مغزى عميق ينبغى أن
تستشف الإنسانية ما وراءه من حكم وتوجيهات ، وأولها :
أن ننظر في طرفي الحوار - فهو بين الله - وبين الملائكة - ومكانه
في الملأ الأعلى - وموضوع هذا الحوار هو ذلك الانسان - تقرير
مركزه ، وأمر استخلافه ، وقضية تكريمه - وكل هذا الحوار
انما احتواه الملأ الأعلى وشهده ابليس رمز الشر كله ومحور
الفساد في هذا الوجود - وأصغت اليه السموات كلها والأرض
ومن فيها . . ونحن نستنبط بروح الاستهداء بكل ما مضى - أن
الانسان كائن عظيم - له من الأهمية والكرامة ما يجعله
موضوع نقاش وحوار في الملأ الأعلى . . لتحديد مكانته على ظهر
الأرض - وبيان أحييته بهذا المركز - فأى تكريم هذا ؟ وأى

(١) الآيات من ٣٠ - ٣٨ سورة البقرة .

سمو هذا ٠٠؟ احتفال مهيب في الملأ الأعلى - لابرام عقد
الاستخلاف مع الانسان - واعلان استحقاقه لمركز الخلافة في
الأرض ٠٠ تشهد السموات العلا والملائكة الأبرار ٠٠

وبلغة التقرير الحاسم ، والتأكيد الجازم نقراً قول الله
سبحانه : [انى جاعل فى الأرض خليفة] فانظر فى هذه
الجملة من حيث صدورها عن الحق جل جلاله - وبلغة التأكيد
الصارم وبيان العظمة السامية - وبكلمة « ان » ذات الدلالة
التأكيدية - وباسمية الجملة - وبالتحديد مكان الاستخلاف -
وكون ذلك كله فى مواجهة الملائكة - وهم العنصر المنافس
للانسان فى هذا المركز الممتاز ٠٠ هل بقى بعد ذلك مجال
للتكريم ؟ فكيف تستباح بعد هذا كرامة الانسان - فتخضع
للآلة - أو - تستذل بالنظم ، أو تركع لغير الله .

ان فى هذه الجزئية من الحوار لما يرتفع بمنزلة الانسان
عن تلك الأوضاع الخسيسة انه بهذا الأسلوب الموثق بكل
وسائل التأكيد - خليفة الله فى الأرض - لا يخضع الا لسلطانه
- ولا يذل الا لعظمته - وفيما عدا ذلك هو سيد كريم ٠٠ تخضع
له النظم ولا يخضع لها ٠٠ ويسيطر على الأشياء ولا تسيطر
عليه . وينشئها ولا تنشئه ويعيش على الأرض مرتفع القامة
- أشم الجبهة لأن له نسباً فى السماء ٠٠

وفى هذا الاعلان الضخم - وما احتشد له من كائنات دليل
على أن كرامة الانسان يجب أن تذكر دائماً فلا تنسى ٠٠ وممن
صدر الاعلان ؟ وأين صدر ؟ وأمام من ؟ وما مضمونه ؟ ٠٠ كلها
أسئلة تؤكد خطورة القضية وجلالها ٠٠ لتظل موضع رعاية
على مر الزمان ٠٠

وجدير بالانسان أن يحظى بكل ذلك التكريم ٠٠ لأنه فى

الواقع اذا صلح أصبح محور الخير كله في هذا الوجود - يكافح
الرزيلة - ويحارب الشر ويناصر القيم ويقر مشيئة الله في
الأرض ٠٠ ومهما يكن من شأن المنظمات الحديثة - واحتشادها
في صعيد واحد لتعلن كرامة الانسان ، فما هي بفاعلة شيئاً
أمام ذلك الاعلان الكريم في الملأ الأعلى ٠٠ الذي تهيأت له وسائل
اعلام رباني فسمعها الكون وأصغت اليها الحياة بأسرها !!

وهل يملك الانسان مهما يكن شأنه أن يقرر هذا الأمر
الخطير [انى جاعل في الأرض خليفة] نعم لا يملك ذلك الا خالق
الانسان - وخالق الأرض - وخالق الملائكة ٠٠ لأنه وحده فقط
يعلم خصائص مخلوقاته - وما تصلح له من جليل الأعمال
وما لا تصلح !!

واذا كان الانسان في المحل الأول على ظهر الأرض - فانه
ينبغي أن يكون في المحل الثاني بالنسبة لربه ٠٠ لأنه جل جلاله
هو الذى وضعه في هذا المنصب الخطير ٠٠ ووضع في يده زمام
الخلافة ، وناط به تكاليفها ٠٠ واستعمره في هذه الأرض ٠٠
فلا يجوز أن يتجاوز مركزه غرورا وصلفا ٠٠ انه يتلقى الهدى
من ربه لا من أحد سواه [فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع
هداى فلا يضل ولا يشقى (١)] ٠٠ وفي هذا الهدى تلاق تمام مع
فطرة هذا الانسان وقابليته للنماء المتكيف مع الزمن تكيف
الفطرة الانسانية التى صاغها الله بيديه ومنحها وسام التكريم
- وملكمها زمام الخلافة في الأرض - بحيث تظل دائمة التطلع
نحو الأمثل - لتحافظ على مستوى حياتها ٠٠ وهى حياة ينبغي
أن تكون كريمة عزيزة لتتلاءم مع الانسان الذى كرمه ربه ٠٠
وبهذا كله نضمن شباب الحضارة في كل عصر ومصر بتوجيهات
الملأ الأعلى على السنة الرسل والأنبياء ٠٠ الذين أراد رب الناس

(١) آية ١٢٣ سورة طه .

أن يبعث بهم في كل فترة من فترات الحياة ليلطفوا من وهجها –
ويخففوا من مآسيها – وليوجدوا الحل الموفق لأزمة الضمير
الانسانى ..

ان هذا الانسان – خليفة الله في أرضه – يتلقى وحى ربه
بكل خضوع وتسليم – وذلك هو الاسلام : أى اسلام القلب
لخالقه ، واستسلام النفس لبارئها .. وبهذا المضمون الواضح
بعث الأنبياء والرسل على مدار الزمن الرحب ، وعلى امتداد
التاريخ الطويل – بل منذ فجر البشرية الأولى ، ولقد سمي
القرآن ما جاءوا به اسلاما .. بمعنى الاستسلام لله ، واتباع
منهجه وهده ، والخضوع لمشيئته وحكمه ..

روى عن ثعلب في تفسير قوله تعالى : « يحكم بها النبيون
الذين أسلموا (١) » .

قال : كل نبي بعث بالاسلام غير أن الشرائع تختلف ..

ويقول السير توماس أرنولد : « ان الاسلام كان الدين
السماوى الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة – ثم أوحى به
اليهم من جديد على لسان محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم
النبيين كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل » .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله
أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون(٢) »
.. ومعناه : استسلم من فى السموات والأرض لجلال سلطانه .

(١) آية ٤٤ سورة المائدة .

(٢) آية ٨٣ سورة آل عمران .

والاسلام هو دعوة أبينا ابراهيم أبى الأنبياء : [ما كان
ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما (١)]
يريد : مائلا عن الضلال - مستسلم القلب والوجدان لله
رب العالمين •

ويرد على لسان ابراهيم قوله في شأن الأمة المسلمة :
[هو سماكم المسلمين من قبل (٢)] ••

وبهذا : يكون الاسلام بمعناه اللغوى هو دين ما قبل
البعثة المحمدية أى اسلام الوجه والقلب لله ثم يأتى معناه
الاصطلاحى المحدد مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فيأخذ
معنى علميا خاصا وعالمية ممتدة •• وكأن ما قبل الاسلام كان
تمهيدا رائعاً له ••

وكان رسالة محمد صلوات الله عليه كانت في ضمير الكون
تنتقل من جيل الى جيل على ألسنة الرسل الكرام - حتى تصب
في شريعة الاسلام كما تصب الروافد في المحيط الكبير ••

وكانما محمد في شخصية النبيل قد تجمعت فيه فضائل
الرسل مجتمعين ••

وكانما القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الذى تضمن معاهد
الوحى الالهى الموزع على الأعصار والأمصار - حتى اذا اكتملت
طاقة الرشد فى الانسانية - واحتزنت منها الكثير جاء دور
محمد عليه الصلاة والسلام ليثرب ذلك الرصيد مضافا اليه ما
تحتاجه البشرية من كل ما يلائم تطورها الصاعد فى سلم
الحضارة الربانية ••

(١) آية ٦٧ سورة آل عمران .

(٢) آية ٧٨ سورة الحج .

وكل ما قدمنا من تحليل يعطى مضمونا فكريا خاصا هو وحدة الوحي الالهى .. ووحدة الرسالات السماوية - وأنها جميعا تلتقى على التوحيد ومكارم الأخلاق والدعوة الى الله .

وهذا التعهد الدائم من الله للانسان - بارسال الرسل والأنبياء دليل تكريم وحفاوة .. فهو لم ينزل الى الأرض - لينقطع عن السماء - وليعيش في مكان مهجور موحش .. وانما نزل لرسالة ربانية - وفي رحلة مأنوسة - يعيش فيها مع ربه ومع ايمانه ومع منهج الله العزيز الحكيم ..

ولو ترك الانسان من غير رسل - لضل عن سواء السبيل!!

نعم : لقد كان من لطف الله به وكرمه عليه أن تعهده بالهداية دائما - على يد رسله الأخيار يبلغون ما أنزل اليهم من ربهم بكل أمانة وصدق ، ويقاومون الفساد والشر - ويقودون زمام الانسان في أحلك الظروف وأقسى الأيام - ويناضلون نضال الأبطال الابرار - لتظل العبادة لله وحده وليظل الخضوع له سبحانه وليتطهر جو الأرض من الشرور والآثام وليكون ضمير الانسان دائما موصولا بربه - الذى خلقه - واستخلفه في أرضه وليبقى دائما سييدا لهذه الأرض لا عبدا مستذلا فيها !!

وفي هذه العلاقة الأزلية الأبدية الخالدة - كفالة ممتدة لتحرير الانسان من كل خوف ومن كل ضغط ومن كل ارهاب لأنه دائما مع ربه وفي حماية مولاه وتلك ثمرة من ثمرات العقيدة تسبغ الطمأنينة على النفس فلا تذلل أو تخزي « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ومن ثم كان الايمان قيمة رفيعة لا تستطيع الحضارة النبيلة أن تتخلى عنها والا سقطت في مهاوى الشرك والعبودية وضلت عن سواء السبيل ..

ومن كرمه أيضا عليه - أنه لم ينزله الأرض - لرسالة
فوق طاقته •• ليبدد قوته في الأرض الوعرة والسهول الصلدة
والجبال الخشنة - وانما مهد له تلك الأرض وسهل مهمته
فيها - وسخر له عناصرها - ومكن له في استثمارها •

« ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش -
قليلا ما تشكرون (١) » فانظر الى البيئة الممهدة المأنوسة -
التي يمارس الانسان فيها دوره الايجابي ويحقق رسالته
الخالدة •• وهل هذا الا اكرام من الله؟! كل ما يطلب الى
الانسان أن يظل شاكرا لربه •• وألا ينسى عهده معه !!

فالانسان على وجه الأرض له المحل الأول كما أراد له
خالقه - لكنه حين يستمد من ربه ، يصبح في المحل الثاني ••
واهتداء الانسان الى هذا المعنى هو الايمان الحقيقي ••

أى أن القوة العليا هي الأولى من غير جدال •

كتب أحد أصدقاء برجنييف اليه يقول :

« يبدو لي أن وضع الانسان نفسه في المحل الثاني هو كل
مغزى الحياة » •

ولنلاحظ أن الرجل شيوعي •• وأن الشيوعية تضع
المادة أولا •• فاذا اهتدى الشيوعي فوضع الله أولا واستعان
به على المادة فقد صار مؤمنا •• والمهم أن يهتدى الى القوة
التي يضعها في المحل الأول •

(١) آية ١٠ سورة الاعراف .

فكتب اليه برجنيف يقول له :

[يبدو لى أن اهتداء المرء الى ما يقدمه على نفسه ويضعه
فى المحل الأول هو مشكلة الحياة] ...

ونحن نقول للرجلين معا : ليست هناك مشكلة مطلقا -
وانما المشكلة هى نفوسنا وعقولنا .. فلو أن الانسان سلك
سبيل الفطرة - بدون أى مؤثر آخر لوصل الى الله .. ولكن
كيف السبيل الى الفطرة السمحة وقد لوثتها البيئة - وطمست
معالمها - وانحرفت بها عن طريق الايمان ؟! تلك هى المشكلة
فى المجتمعات الملحدة من السهل أن يصل الانسان الى ما يضعه
فى المحل الأول .. وأن يبذل له الطاعة ، والولاء .. ولكن ليس
من السهل أن يتنازل المادى عن مذهبه ليستسلم الى نداء
الفطرة .. ولأن فطرته لم تعد من التألق والصفاء بحيث تعانق
الحق فى سهولة ويسر !! هذا الارتكاس المادى هو سر الشقاء
كله والضلال كله .. وهو سر احتجاب الروح واختفاء ضيائها
.. وانطماس أنوارها .. والروح هى العنصر النقى المبدع
لقيم الفن والجمال والمنشئ للحضارات والمدنيات .. فاذا
انطمرت تحت تراب المادة .. فلا تقدم ولا مدنية - وان
حدثت فهى حضارة الانسان الأعمى .

« ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره
يوم القيامة أعمى (١) » .

« ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل
سبيلا (٢) » .

(١) آية ١٢٤ سورة طه .

(٢) آية ٧٢ سورة الاسراء .

ومن ثم يعيش صاحبها في الدنيا حيوانا - وتهدر قيمته
يوم القيامة ويقال لصاحبها :

« كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١) » .

ومهما طار الانسان في الجو - أو تقدم في الاختراع -
بهذه المادية البعيدة عن الله فإنه تعس وشقى يصنع بيده
وسائل هلاكه .. ويسعى حثيثا الى الانتحار !! اذا معنى
تقدم من غير ايمان ؟ .. معناه جحيم مسلط على البشرية لا
يرعى فيها الا ولا ذمة ولا ينجو منه حتى من صنعوه !!

وانه خير للانسان - وأشرف أن يعيش على الأرض
بطهارته ونقاؤه من أن يطير الى السماء بنجاسته ووبائه -
وأفضل أن تضاء الأرض بالشموع وهي مساجد من أن تضاء
« بالنيون » وهي مراقص !! .

ومحال أن تنشأ حضارة انسانية خالدة تبقى وتعمر
وتبسط جناحها على البشرية بالسلام والحب والمودة الا اذا
استظلت بمظلة الايمان ..

وبذلك يفجر الانسان بالعلم كل ينابيع الحضارة ويضبط
بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل .. وبهذا يتعانق
الايمان مع العلم في تشييد صروح الحضارات ومن غير الايمان
بالله - واتباع منهجه وهداه - يضل الانسان وتخطىء
الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها تصارعا يؤدي الى تدمير
الحياة والأحياء !! « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله (٢) » .

(١) آية ١٢٦ سورة طه .

(٢) آية ٥٠ سورة القصص .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست
« نظريات » للدراسة - وانما هي تجارب للادكار والاعتاظ
والتدبر *

فأله قد أهلك أمما وأفنى حضارات ودمرها على رعوس
أصحابها لأنها قد ضلت طريقها وأخطأت سبيلها حين رفضت
أن تخضع لأمر الله وتحقق منهجه وهده « فصب عليهم سوط
عذاب - ان ربك لبالمرصاد » *

وهكذا الايمان له من أصالة المعدن وعراقة الأصل ما يجعل
له المنزلة الأولى في بناء الحضارات .. فليتعض انسان العصر
الحديث بقصة انسان العصر القديم فالتاريخ دروس وعبر
« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو
شاهد (١) » *

وثانيها : أن على الانسان - خليفة الله في أرضه - أن
يذكر العهد مع ربه فلا ينساه وهل ينسى عقد كهذا ؟ .. كان
اشهاره في الملأ الأعلى .. فما يجوز أن يذهل الانسان عن عهد
ربه يوما ما - لأنه مهما يتقلب في الأرض - فالى الله الرجعى
والمصير [انا الينا اياهم (٢)] [ان الى ربك الرجعى (٣)]
[وأن الى ربك المنتهى (٤)] *

ولأن رحلة الحياة طويلة وشاقة وكادحة فان على الانسان
في حدة صراعه مع عناصر الأرض - وعوامل الشر - عليه أن

-
- (١) آية ٣٧ سورة ق .
 - (٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .
 - (٣) آية ٨ سورة الطلق .
 - (٤) آية ٤٧ سورة النجم .

يلتمس من الله العون ليتم انتصاره على كل القوى المعادية ،
عليه أن يذكر ربه - وهو يبني صروح الحضارة •• ويهيئ
لنفسه وجوداً أفضل حتى لا يعرض له الشيطان فيضله عن
الإنسان حوافزه الانسانية - لا غرائزه الحيوانية •• ولا
يسمح لتلك الحوافز أن تتخلف يوماً ما في مضمار السباق -
والا فقد توازنه في رحلة الحياة ••

ولأن من طبيعة الإنسان أن ينسى - فضلاً عن اغواء
الشيطان له - وجدنا أن عهد الله معه مكرر بصيغ مختلفة ••
وبوسائل قوية ليظل النداء متجدداً - والعهد متردداً والصوت
مسموعاً - فما أشبه ذلك بأدوات التنبيه القوية التي تلفت
الإنسان كلما حاولت الحياة أن تجنده في ركابها - أو تشغل
قلبه عن ذكر الله ••

[ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (١)] [الشيطان
يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (٢)] [ان الشيطان كان
للإنسان عدوا مبيناً (٣)] [ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا
تعبدوا الشيطان (٤)] •

هكذا تتوالى التحذيرات ، وتتوافد الانذارات - لتنفذ
الإنسان من غفلته - وتخرجه عن شروده وتضعه وجهاً لوجه
أمام عدوه الأصيل ••

وثالثها : أن على الإنسان أن يذكر دائماً أن لهذا
الاستخلاف تبعات ومسئوليات • فليس هو نزهة محبة -

(١) آية ٦ سورة فاطر •

(٢) آية ٢٦٨ سورة البقرة •

(٣) آية ٥٣ سورة الاسراء •

(٤) آية ٦٠ سورة يس •

ولا رحلة طارئة - وانما هو قدر الله - وحكمه - وتدبيره وعدله
 أن ينزل الانسان الى الأرض ويمتحن بالجهاد - ويبتلى
 بالشيطان - لتنصر ارادته - ويتألق جوهره ٠٠ ويتوهج
 ايمانه ٠٠ صحيح أنه منح السيادة والكرامة والعزة - ولكن
 عليه أن يدفع التكاليف لأن الله لم يخلق حقوقا من غير
 واجبات ٠٠ بل دائما يجعل الحق في مقابلة الواجب - وعلى
 رأس مسؤولياته الكبيرة أن يتأمل في الساحة التي استخلف
 فيها - فتلك «ساحته الحضارية» - يبنيها بالحق - ويحكمها
 بالعدل ، ويدعمها بالايمان ويحقق فيها مشيئة الله ٠٠
 ويستخدم فيها قدراته - ويستثمر علمه - ويحرك حوافزه
 فيدرس ويستنبط ، ويجرب ويمارس ، ويحلل ويركب ،
 ويبني ويهدم ، ومن خلال التجارب يخرج بالدروس الغالية ٠٠
 انه لم ينزل الى الأرض ليجعل منها ساحة نوم وكسل بل
 مجال نشاط وعمل ٠٠ ان الأرض بهذا التصور هي بستانه
 فعليه أن يزرع في هذا البستان زروعا بهيجة ٠٠ عليه أن
 يتعرف الى القوانين التي تمكنه من تسخير الطبيعة واخضاعها
 لمشيئته - حتى يحتفظ لنفسه بحق السيادة على بيئته ٠٠

وهنا نفهم قيمة العلم - منذ الفجر الأول للوجود الانساني
 ٠٠ انه العنصر الأساسى لعمارة الارض - وبناء الحياة ٠٠
 وهو علم يتلقى عن الله - ويمضى مع شرعه وهداه فيكون
 عبادة رفيعة فمع كل نبضة عرق - أو ضربة معول - أو اقامة
 صرح ، أو بناء قصر - أو احراز نصر مع كل أمر من هذه الأمور
 وغيرها ذكر لله - وعرفان بفضلله - واقرار بمشيئته ٠٠
 وبذلك يزكو الجهد الانساني ويحقق هدفه النبيل ٠

ولقد تمكن بناء الحضارات الكريمة - من استخدام
 التجارب - واستثمار الأرض - واستخراج كنوزها في ظل هذا
 العهد - فأدوا رسالتهم في الحياة ٠

وكل عناصر الوجود تصبح بالعلم والايمان طيعة سهلة
وصديقاً حميماً للانسان - وانما تصبح نافرة حرونا اذا ذهب
روح الصداقة بينها وبينه . . بأن جهل وسائلها . . وقصر في
معرفتها فكيف تبوح له بأسرارها . . انه بالعمل الدائب
والجهاد المستمر يسهل كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، وينحل
كل لغز عسى .

رابعاً : نستشف من روح الحوار في الآية - أن الملائكة
كانوا حراساً على أن ينتزعوا لأنفسهم حق الخلافة في الأرض .
فهم بهذا الاعتبار عنصر منافس للانسان . . ولكن صوت
القدر العالى حسم في هذا النزاع « انى جاعل في الأرض خليفة » .

ومع ذلك - فان الملائكة ظلوا منشبين برأيهم متمسكين
باستخلافهم . . ولقد تحدثوا فأحسنوا الحديث - ذكروا
مساوىء آدم وأبنائه . . [أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدماء] ظنا منهم أن هذا يناقض الاستخلاف في الأرض -
ومادروا أن الانسان بذلك وحده كان أحق منهم بالخلافة في
الأرض - لان مكافحة للشر - واستخدامه للإرادة - واذواج
فطرته - وتصارع قواه كل ذلك يجعله كائناً مكافحاً مجاهداً . .
يحقق مشيئة ربه ويقاوم قوى الشر - ويتفاعل مع الارض
المستخلف فيها بالمصابرة والمجاهدة . . بانيا وهادما -
ومصلحا أو مفسدا - ومهتديا أو ضالا - وفي كل ذلك الصراع
يستعمل ارادته ليظفر بالفوز ويحقق النجاح ويحقق
انسانية - وبهذا يظل وجوده على الأرض مرتبطاً بمجاهدة
الشهوات - ومقاومة عناصر الشر . ومحاربة الشيطان - فاذا
تم له ذلك بانتباع هدى الله فقد حقق ما أراد له الله وانفذ عقد
الاستخلاف .

فأما الملائكة فإن طبيعتهم النورانية التي لا تحتل الصراع - ولا تتحمل أعباء الجهاد لأنهم كما قال الله [لا يعصين الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (١)] « يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢) » فلم يخلقوا بهذا الاستعداد الذي يرشحهم لخلافة الأرض - وقد ظنوا أنهم بتسبيحهم - وامتثالهم - وانقيادهم - أحق من الإنسان - بينما الواقع أنهم بهذا أبعد عن هذه المهمة - ومن ثم جاء الرد : « انى أعلم ما لا تعلمون » .

ليس هنا مجال الآية مجاملة . . فان علم الله أنفذ ، ولهذا رفض حجة الملائكة . . ولعلنا نفهم من خلال الحوار - حقيقة طبيعة الملائكة - وحقيقة طبيعة الإنسان . . كما أن هذا الحوار يعزز مركز الإنسان ويؤكد كرامته . . لأن الملائكة رغم منزلتهم عند الله - وابداء حجتهم له - مع كل ذلك لم يحققوا هدفهم :

ان الأمر أمر استعداد وفطرة . . والله أعلم بما خلق من فطرة واستعداد وبما استودع كائناته منهما - فالملائكة للملا الأعلى لا يمتاز عنهم في ذلك بنو آدم ، هناك في الحرام القدسي يحلو التسبيح ويستطاب الذكر هناك [يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢)] اذ ليس لهم من غرائز الطين - ونوازع الحيوان وازدواج الفطرة ما يصرفهم عن تلك المهمة الجليلة . . وكل ميسر لما خلق له . .

ومن خلال الحوار نفهم أن الملائكة كانت لديهم المعرفة الكاملة عن آدم وأولاده بدليل أنهم استكثروا عليهم خلافة الأرض - وذكروا سلوكهم وأخلاقهم - وليس بعيد أن الله قد

(١) آية ٦ سورة التحريم .
(٢) آية ٢٠ سورة الأنبياء .
(٣) آية ٢٠ سورة الأنبياء .

الهمهم ذلك العلم لتكون القضية واضحة - وحتى يتسنى لهم أن يناقشوا على معرفة •

خامسا : قوله سبحانه [وعلم آدم الأسماء] فيه تمكين الانسان منذ اللحظة الأولى من العلم كسلاح فعال في عمارة الأرض والتغلب على مصاعبها الجمة • • وبذلك يكون الانسان مزوداً من ربه بنوع من المعرفة تسهل مهمته على وجه الأرض حتى لا يضل أو يشقى •

لقد أخذ الله العهد على آدم ، وأبنائه بأن يبتعدوا عن اغواء الشيطان • • ويظلا مع ربهما ورب كل شيء • • وهذا هو الايمان الذى لا بد منه فى رسالة الحياة •

ثم زوده من ناحية ثانية بنوع من المعرفة التى يفتقر اليها لانجاز مهمته ويتفاهم بها مع أبنائه ، ومع الناس ، ويتعامل مع الأشياء وهذه القوة هى العلم الذى لا بد منه فى بناء الحياة وهذان هما جناحا الحضارة الايمان والعلم •

ويفهم من سياق الحوار أن أصل العلم الهام من • لأن معنى تعليم الله لآدم الهامة ذلك بطريقة يعلمها سبحانه • • وعلى الانسان بعد هذا أن يعرف دور العلم فى بناء الحياة ، عليه أن يستثمر ذلك العلم ، وأن يحركه بالتجربة ، ويستفيد به فى حياته • • ويسخره لمرضاة ربه • • ومادام أصل العلم من عند الله فكيف ننحرف به عن الله ؟ وإذا قصر الانسان فى تنمية علمه ، وترقية معرفته فليس جديراً بالاستخلاف فى الأرض وهذا العلم النوعى مما لا تقتضيه طبيعة الملائكة الذين خلقوا للعالم غير عالمنا ولمهمة غير مهمتنا ولرسالة غير رسالتنا • • وليست السماء بيئة كدح ولا مساحة

نضال حتى يزود الملائكة بما يعينهم عليه . . ولكن لهم علماً آخر ومعرفة أخرى تقتضيها طبيعتهم . . وهذا العلم لا يوجد عند آدم وأولاده وهكذا يصبح العلم منذ فجر الوجود تخصصاً نوعياً يمنحه العليم الخبير للكائنات وفق الحكمة العالية ، فسبحان من يعلم ولا نعلم !!

وهذه الجزئية من الحوار تؤكد المعنى السابق أبلغ تأكيد فهي أشبه شيء بعقد مباراة بين الملائكة والانسان ، أو بتعبير أدق مسابقة في العلم . . يخرج منها آدم منتصراً ظافراً ، عندما تعرض عليه المسميات فيعرف أسماءها بتوقيف العليم الخبير وتعرض على الملائكة فلا يعرفون . . لأنه علم لا يلائم طبيعتهم ، وبذلك تنقطع حجتهم في خلافة الأرض ، ويثبت استحقاق الانسان لذلك .

ولك أن تقول : لكن الله علم آدم ، ولم يعلم الملائكة ولو شاء لعلم الملائكة فنجحوا في هذه المسابقة !!

والجواب على هذه الشبهة . . أن الله جل جلاله يعلم طبيعة الملائكة . . فأدم للأرض يكافح الشهوة ، ويناضل الشيطان . . وكم تكون حياته على وجه الأرض مستحيلة ، أو على الأقل غير محتملة ، لو لم يزود بهذا اللون من المعرفة ولهذا مكنه الله من هذا العلم دون الملائكة . . كسلاح ضروري لحياته الجديدة أما الملائكة فما حاجتهم اليه ؟ ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً من واقع حياتنا « والله المثل الأعلى » . . عندما يكون لك ولدان . . أحدهما راغب في المعرفة ، محب للعلم ، وللمدرسة والآخر كاره للعلم والتعليم محب للزراعة . . انك تلاحظ استعداد كل منهما فتوجهه الوجهة التي يصلح لها : هذا للمدرسة وهذا للزراعة وكل ميسر لما خلق له . . وأنت بهذا

لم تظلم أحداً • • وليست الزراعة أقل من المدرسة منزلة ، ولكن استعداد الولدين هو الذى قرر هذا التوجيه وأكدّه !! فإذا كان هذا يحدث معنا ، وعلمنا بالاستعدادات قاصر فكيف بعلم الله الذى وسع الأشياء ، ونفذ الى أدق خصائصها لأنه خالقها ومبدعها ؟ !

والله من قبل ومن بعد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • • لأن الخلق والأمر كليهما له « ألا له الخلق والأمر (١) » ، وقد نخفى الحكمة علينا لضيق أفهامنا !!

وليس مما يقدر الملائكة ألا يعرفوا أسماء المسميات فذاك شيء لا يعنيه ولا هو من مهمتهم • • وكأنما الله العلى الكبير أراد أن يبطل حجتهم فى رسالة الأرض • • وأن يشرح لهم بعض قانون الحكمة – فضلا منه وكرماً – فعقد هذه المسابقة العلمية بينهم وبين آدم فى الملا الأعلى • • حتى اذا أحرز آدم سبق انبهر الملائكة ، وهتفوا مذعنين : [سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم] وكأنما هذا الاعتراف من الملائكة • • يحمل معنى التسليم المطلق لعلم الله المطلق ، كما يحمل أيضا اعتذاراً ضمناً عند تشبثهم السابق بعمارة الأرض والخلافة فيها • • وهو يعطى فى ايحائه استحقاق الانسان لهذا الأمر دونهم • • لأن طبيعته ترشحه لذلك • •

لكن يبقى سؤال آخر يطرح نفسه تلقائياً على الموقف كله : وهو بماذا يفضل آدم الملائكة ؟ حتى يسجدوا بأمر الله تبارك وتعالى ؟ !

هل هو تفضيل لم تبرز حكمته لنا ، • • والجواب أن هناك

(١) آية ٥٤ سورة الأعراف .

حكمة نعلمها وقد يكون هناك ما هو أجل منها لكنه خاف علينا •
لأن علم الله قد استأثر به !!

والحكمة فيما نعرف ، أن هذا الانسان له ارادته الحرة التي
يستعملها في صراع الشهوات وفي كفاح الشر على وجه الأرض
فينتصر حيناً ويندحر حيناً آخر ، على قدر ما فيه من حزم
وعزم • • بهذا يفضل الملائكة • الذين لم تكن الشهوات جزءاً
من كيانهم • والذين [لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون] •

لكن الانسان اذا عطل هذا الجانب من وجوده ، فألغى
ارادته واستسلم لعوامل الشر ، وركع أمام الشيطان ، فقد خر
صريعاً في معركة الشر وحقت عليه كلمة العذاب وبذلك يصير
احط مخلوقات الله لأنه فقط عنصر السيادة عليها ، وهو
استخدام ارادته لينجو من كيد الشيطان ولنقرأ في ذلك قوله
سبحانه يصور لنا انهزام الارادة الانسانية أحياناً في مقاومة
الشهوات : « واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها
فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه
أخذ الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه
يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (١) » :

وفي الآية لمحة جميلة تؤكد لنا أن الله قد مكن كل انسان من
الهداية ، بتقديم آياته اليه وأن في هذه الآيات عصمة من
الشيطان ، لكن الانسان قد تضعف مقاومته ، وتهن ارادته
فينفصل عن تلك الآيات فيقع في قبضة الشيطان ، ومن ثم
ينحط أدبياً وانسانياً فيهبط من علياء انسانيته الى درك
الحيوانية الوطية فيكون كلباً حقيراً والله سبحانه لا يساعد
الا من بدأ بتزكية نفسه والارتفاع بها عن الطين والاستمساك

(١) آنا ١٧٥ ، ١٧٦ سورة الأعراف .

بآياته ، لكن هذا الانسان عندما يتحول الى سلبية واهنة فيخلد الى الطين ، ويتبع هواه لا يمكن أن يظفر بعون الله ، وهذا هو قانون المشيئة العليا ، تساعد من يبدأ باعلاء سلوكه ، وتتخلى عن يستسلم للشيطان ويقعد عن المقاومة ، [قد أفلح من زكاه ، وقد خاب من دساها (١)] [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى (٢)] وهكذا بوضوح ، ابدأ بنفسك تجد القدر يعينك ، وأهمل نفسك فلن تظهر بأية معونة !! وفي تصريح الملائكة « سبحانك لا علم لنا » فهم للقضية على وجهها وفي قولهم أولا : « ونحن نسبح بحمدك » تعبير عن خطأ الوجهة ، فقد خيل اليهم أن التسبيح والتقديس هما عنصرا الاستخلاف فكان الرد عليهم من الله « انى أعلم ما لا تعلمون » ، أى أن التسبيح والتقديس ليسا من مقومات الاستخلاف ، بل لابد معهما من مقاومة الشهوات ، والملائكة لا شهوة لهم ، فقد ركب كيانهما من غيرها أى أن آدم بما يحمل من معنى الخطيئة حيناً ، ومن معنى الالتزام حيناً آخر هو الجدير من أجل ذلك بخلافة الأرض وفي قول الملائكة « أتجعل فيها الخ » ابراز لتعجبهم أن يكون آدم وأولاده في مثل هذا المنصب الخطير مع افسادهم وسفكهم للدماء ، ولكن قبلهم أخيراً : « سبحانك لا علم لنا » يجب ما قبله ، ويعطى معنى الانقياد والطاعة والاستسلام لحكم الله ، بعد فهم القضية على وجهها وبعد ظهور نتيجة الامتحان !!

جاء في تفسير المنار (بتصرف قليل) « وعلم آدم » أن الانسان بقوة العقل غير محدود الاستعداد ولا الرغائب ولا العلم ولا العمل فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعة في الكون تصرفا لا حد له باذن الله وتصريفه ، أعطاه الله هذه المواهب

(١) آيتا ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٢) آيتا ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات .

ليظهر بها أسرار خليقته وملكه الأرض وسخر له عوالمها اعطاه أيضاً أحكاماً وشرائع لتقود خطاه ولقد ظهرت آثار الانسان في هذه الخلافة ونحن نشاهد عجائب صنعه في النباتات ، والبر والبحر والهواء فهو يتفنتن ويبتدع ويخترع ويجد ويعمل حتى شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً والجذب خصباً والخراب عمراناً والبرارى بحاراً وخلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجاً من النباتات ، « نقول وفجر الذرة » مع أنه بعد ذلك لم يؤت من علم الله الا قليلاً » :

ثم يذهب صاحب المنار الى أن الله علم آدم وآولاد آدم كل شىء ومعنى تعليمه الأسماء أى ما به يعلم الاسماء هو وبنوه أى العلوم المطابقة للحقائق ، والاسم يطلق على صورة العلوم فى الذهن وهذا يطابق ما فهمه اليونان حيث أطلقوا الاسم على ما فى الذهن من معلوم ثم يقول : والقصة وردت مورد التمثيل ١٠١ هـ «

ونحن نرى أن الله قد أوجد فى آدم وآولاده قابلية التعلم ومنحهم النموذج الدال ليتصرفوا به مبدئياً فى أداء مهمتهم — ثم تركهم لتجاربهم وتفاعلمهم مع الكائنات يحرزون كل يوم جديداً من المعرفة فيربو رصيدهم العلمى باقدار الله واعانته وتوفيقه وقد تكون الدفعة الأولى التى تلقاها آدم وأبنائه من العلم فى المبدأ الأعلى مؤشراً لسمو العلم — وتحديد مكانته — وإيماء الى آدم وأبنائه بأن الحياة على سطح الأرض مستحيلة بدون هذا العلم — وبذا يكون أصل العلوم كلها من الله ٠٠ وللبرى اجتهاداتهم بعد ذلك وتجاربهم التى ينبغى مهما عظمت أن تسير فى خط يراقب الله ويرعى حرماته ٠٠

ومهما يكن من شىء فان آدم وبنيه حركوا هذه المعرفة الأولية بالتجربة رويداً رويداً واستخدموها مفتاحاً يحل الألغاز ويكشف الخفيات ٠ وما زالوا يكتسبون الخبرات

الجديدة من الحقائق والمعاني والمعارف حتى حصلوا من ذلك على كل رائع ومثمر ٠٠

وربما نفهم - كما يشير صاحب النار - أن الانسان يفضل الملائكة بالعلم الذى علمه الله اياه ثم استثمره وأرباه بتعامله مع بيئته الجديدة ٠٠ ولكن ينبغي أن نحرص على أن كلا ميسر لما خلق له ٠٠ وأن آدم لكل ما قدمنا ألقى بعمارة الأرض وأفضل من الملائكة فى ذلك وأول ما نحرص عليه من الفهم لهذه القضية - أن آدم وأبناءه لهم فطرة مزدوجة من كدرة الطين ونفخة الروح ٠٠ ومن ثم فهى مجال صراع ٠٠ ولا يبطل هذا الصراع الا الارادة ٠٠ وذلك يحتاج الى مجاهدة وهذه المعاني كلها غير موجودة فى الملائكة ٠

وأیضا ففى الانسان مطامع وشهوات ورغبات فى استكشاف المجهول والغامض ٠٠ وتحريك هذه الرغبة فى خاصية الهدم والبناء والحل والتركيب ومعرفة المجهول كل ذلك مع ما ذكره صاحب النار هو سر استخلافه فى الأرض وتفضيله على الملائكة ٠

ثانيا : قوله سبحانه « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » هذا هو دليل تكريم الانسان وتفضيله صراحة - والسجود هنا لمعنى التكريم - وليس سجود عبادة - وهو سجود يقع بأمر الله - وليس سجود كائن لكائن يحدث تلقائيا ٠٠ فكأنه سجود له سبحانه لأنه لما أمر به صار كأنه له ٠٠ وفى تكليف الملائكة بالسجود لآدم ينحسم الموقف عمليا - كما انحسم من قبل نظريا عندما اجتاز آدم عقبة الامتحان ٠٠ فان الملائكة اعترفت صراحة بأحقية آدم لاستخلاف الأرض - حيث قالوا : « سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا » ١١

ولكن الاعتراف المقلالي لا يحسم الموقف حسما أكيدا - فاذا ترجم المقال الى عمل فحينئذ يجيء الاعتراف الذي لا يلابسه أدنى شك ٠٠ والسجود لا يعد وأن يكون ترجمة عملية لاعترافهم السابق - وهو دليل على اقتناعهم من كل الوجوه ٠٠

ولكى يظل الانسان في هذا الأفق الكريم عليه أن يكافح الشر بارادته الحازمة ٠٠ وقوله سبحانه « الا ابليس » ايماء الى العدو الأصيل لآدم وأبنائه - فقد رفض السجود وتمرد عليه وأبرز عداوته في الملاء الأعلى دون حياء أو خجل من الله وملائكته ٠٠ وليس ابليس من الملائكة - وانما هو من الجن واستثنائه لا يدل الا على أنه كان مع الملائكة في هذا المشهد كما تقول حضر الطلاب الا عليا ٠٠ وعلى ليس منهم بل هو معهم ولا بليس حقيقة في القرآن ٠٠ وضحاها بأبلغ بيان ٠٠ وأمر الناس أن يستعيذوا من شره - وفسر لهم أساليب وسوسته ٠٠ وأبان أن له أعوانا من الجن - ومن الانس ٠

ومع ذلك فنحن نفهم أن كل قوى الشر في العالم مرتبطة به فمكافحتها مكافحة له ٠٠ وما أكثر عملاء ابليس في هذه الحياة ٠٠! نعم كل ما في الحياة من ضلال وفساد وانحراف وغواية صناعة ابليسية فلنحذر منها جميعا « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا - انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (١) » وحزب ابليس هم عملاؤه من الجنة والناس ٠٠ فاذا ثار نزاع في نفس الانسان بين عوامل الخير وعوامل الشر - فانتصرت قوى الخير - فقد انهزم ابليس - لأنه يريد الشر دائما أن يسود ٠٠

واذا نشب صراع خارج كيان الانسان فانتصرت فيه

(١) آية ٦ سورة فاطر .

القوى الخيرة فقد انهزم ابليس - ومن ثم وجب مجاهدة الشرور كلها في النفس - وفي الحياة لاحباط عمل ابليس وابطال سعيه ..

وهكذا ينبغي لأبناء آدم أن يصرفوا جهودهم كلها لاستخلاص ارادتهم من عدوهم الأصيل هو ابليس - وطريق ذلك الاخلاص لله في السر والعلن « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (١) » منذ فجر الحياة وابليس واقف للبشرية بالمرصاد - يوسوس لها - ويزين السوء - ويصد عن الخير ويلقى بالعداوة والبغضاء فهل تعقل البشرية ذلك فتصرف جهودها لاعلان الحرب عليه وتكف عن تلك الحروب الظالمة التى تديرها في غير ميدانها الأصيل ١٩

وفي قوله سبحانه : « وقلنا يا آدم اسكن ٠٠ الخ » تصوير لمقام آدم وزوجه في الجنة - وايحاء برغد العيش فيها - ويسر الحياة بين ثمارها وأنهارها ٠٠ وما حوته من روعة وبهاء مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر ٠٠ انها السعادة في أكرم صورها ٠٠ ولقد تكفل له بتلك الحاجات الأصلية التى لا غنى عنها ٠٠ وهى المسكن - والملبس - والمأكل والمشرَب [ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى (٢)] ٠٠

لكن قدر الله غالب - وارادته نافذة - وقد شئت هذه الارادة - أن يستنزل آدم من الجنة ليعمر الأرض هو وبنوه ٠٠ ولم يكن ثمت محيص ولا معدل عن ذلك !!

ولهذا جاء ابليس - واستعمل الغواية - وأضل آدم -

(١) آية ٤٢ سورة الحجر .

(٢) آينا ١٨ ، ١٩ سورة طه .

فنفذت حكمة الله • وكان لابد أن تنفذ بسبب أو بآخر لأن
الجنة ليست له بدار !!

وفي هذا الجزء من الآية احياءات رائعة ينبغي أن نصغى
الى همسها اللطيف : أولها ابراز عداوة ابليس للانسان ••
وأسلوب وسوسته •• « هل أدلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى (١) » ووراء هذين الهدفين نسي آدم العهد مع ربه
واستسلم للشيطان !! وراء « ملك لا يبلى - ووراء الخلد »
ولو فتشت عن مطامح البشرية قديما وحديثا لما وجدت لها
تخرج عن هذين •• وقد صاغهما ابليس صياغة فيها الاغراء
كله - والجاذبية كلها •• وهذا هو أسلوبه معنا دائما •• يأتي
الى أحدها قائلا من خلق هذا ؟ ثم يتدرج ومن خلق هذا ؟
فنجيب : الله ثم يدلف الى غرضه من الفتنه قائلا ومن خلق
الله ؟ •• وينبغي سد الطريق عليه منذ أول لحظة حتى لا يمضى
في تنفيذ مخططه في الشر والغواية - يجب دائما أن نذكر
عهدنا مع الله [ألا تعبدوا الشيطان] حتى نسلم من شباك
ابليس وفي قوله سبحانه [ولا تقربا هذه الشجرة] احياء
بمحارم الله - ورمز الى حدوده التي لا ينبغي أن نتخطاها ••

وقد نفهم سر التحريم •• وقد لا نفهمه •• والواجب في كلا
الأمرين حسن الطاعة وتمام الانقياد •• وقد ننتبين الحكم فيما
بعد عن طريق العلوم والمعارف - أو عن طريق التجربة والمعاناة
ان هذه المحارم منطقة موحشة •• تكمن فيها المهالك والأخطار
والعاقل لا يقترب منها وسبيله الى ذلك هو ارادته القوية
المرتبطة بالعهد القديم مع الله •• وهو عهد يتجدد كل لحظة
تلقائيا ما دام في الدنيا أبلسة وابليس - كما أن هنا احياء
آخر بأن التحليل والتحريم لله وحده ليس لأحد أن ينازعه

(١) آية ١٢٠ سورة طه •

ففيهما « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب (١) » ولقد حاولت بعض الدساتير الوضعية أن تحرم أمورا ضارة بتشريعات بشرية ففشلت في ذلك أعظم الفشل .. وعندما نزل التحريم من السماء سارع الناس الى الامتثال ..

وفي قوله سبحانه « فكلأ منها رغدا حيث شئتما » ايحاء بنعيم الجنة - وما نلقاه فيها من روح وريحان وكلمة « رغدا » توحى بالهناء والسعادة والسرور وراحة البال . وفي قوله : « حيث شئتما » ايحاء باليسر - واتسباع الرغائب - واجابة المطالب اجابة تخضع لرغبة الانسان !!

ومع ذلك فقد وقع المحذور .. واستجاب آدم للغواية .. وهو يعطى أن ابليس له قدرته الهائلة في الشر لأنه متخصص فيه ... وفي قوله سبحانه : [فأزلهما] أى زحزهما ما يفيد بذل الجهد - والطاقة لتحقيق الهدف .. فلم تكن هذه الزحزحة التى توشك أن نسمع من خلال اللفظ صوتها الا بجهد غير عادى - ومع طيب المقام في الجنة - وأخذ العهد من الله - تمت الزحزحة وانزل آدم الى الأرض يكدح ويسعى ويحقق ذاته في جهاد أصيل .. فهل لنا بعد ذلك أن نأخذ حذرنا من أساليب أعداء الله - عملاء الشيطان - وحزب ابليس - ونحلل كل ما يصدر عنهم من زيف وباطل حتى لا يصدونا عن سواء السبيل ؟ .. انه لدرس الساعة من هذه الآية الكريمة .

تاسعا : قوله سبحانه : « وقلنا اهبطوا » تصوير يوحى ببعد الشقة بين الجنة والأرض .. كما يوحى بأثر الخطيئة في حياة البشر .. فان الذى حدث بعد ذلك هو « هبوط » أى نزول

(١) آية ١١٦ سورة النحل .

من أعلى ٠٠ فلنحذر من الخطايا لنظل في المكان العالي ٠٠ بعيدا
عن ابليس ٠٠ وفيه اشارة الى أن المعركة بين آدم وابلليس قد
انتقلت من نفس الانسان - ومن الملائ الأعلى - الى ساحتها
الطبيعية وهي الارض لتظل ملتهبة الأوار الى يوم الدين ٠٠
وهذا دليل على أن الخطيئة ليست بعيدة عنا ٠٠ بل هي جزء من
كياننا - ولعل ما وقع لآدم من اغواء رغم العهد مع الله - يوحى
بذلك ٠٠ حتى لا نتهالك أسي ولوعة اذا ما صادفنا شيء منها
في الحياة ٠٠ وانما ينبغي أن ننهض من الكبوة سريعا لنجدد
العهد مع الله ٠٠ وذلك قوله سبحانه : [فتلقى آدم من ربه
كلمات فتاب عليه] تلك الكلمات هي تذكيره بالعهد مع ربه -
وتلقيه التوبة النصوح والهامه أن يعتذر عن زلته ويندم
عليها - وهدايته بعد ضلال ٠٠

ولذا كانت الثمرة « فتاب عليه » وهكذا كل بني آدم
خطاء ٠٠ المهم الاعتذار السريع - والندم على ما وقع - وتجديد
العهد مع الله ٠٠ ثم استئناف المسيرة على طريق الايمان -
والانتفاع بهذا الدرس وليس يعنينا أن نعرف اسم الشجرة
أهي النخلة ؟ أهي التفاح ؟ أو الكرم ، أو القمح ؟ كما لا يعنينا
اسم المكان الذي نزل فيه أهو الهند أم غيرها ٠٠ كالكعبة مثلا ٠٠
لأن سر ذلك الى الله ٠٠ وليس وراءه أية ثمرة ٠٠

والكلمات التي أوحى الله بها الى آدم ٠٠ هي كلمات
التوبة مهما يختلف تحديدها عند المفسرين ففي فتح القدير
للشوكاني : أن الثعلبي روى عن ابن عباس أن هذه الكلمات
هي : [ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من
الخاسرين (١)] وروى أن ابن عباس سئل عنها فقال : [علم
شأن الحج] وقيل هي : [لا اله الا أنت سبحانه اني كنت من

(١) آية ٢٣ سورة الاعراف .

الظالمين (١) [٠٠ كل ذلك معقول ٠٠ ولا يخرج عن التوبة النصوح ومهما يكن من شيء فإن الله تقبل منه الاعتذار وتاب عليه ٠٠ وهذا يدل على أن انزاله الأرض بعد ذلك ليس عقوبة على الزلّة ٠٠ وانما هو لتنفيذ ارادة الله وقدره ٠

والمجاهدة لاشك هي وسيلة آدم وأبنائه للتخلص من ابليس وعملائه ٠٠ وهي مجاهدة نفسية حين يكون مجال الصراع داخل النفس ٠٠ ومجاهدة خارجية حين يكون مجال الصراع أرض الله وضد أعدائه - على الانسان في غمرة هذا الصراع المرير أن يذكر عهد استخلافه مع ربه في الملأ الأعلى وأن يجعل شعاره في الحياة : (عدوى ابليس وعملاء ابليس ، وكل باطل على وجه الأرض وكل ضلال يقع وكل ما يهدد كرامة الانسان) - واذا ذهل عن هذا الشعار ساعة أو بعض ساعة وجب أن يرد اليه سريعاً فيقال له : « اعرف عدوك » والآية كلها تؤكد بأن الخطيئة فردية - وأن التوبة فردية وأن كل واحد من أبناء آدم وبناته مسئول عما يقع منه مسئولية شخصية ٠٠ واذا قصر في المتاب فعليه وحده اثم التقصير ليست هناك خطايا مفروضة علينا - وانما تخضع في مقاومتها للمجاهدة وكبح جماح الشيطان [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٢)] [ولا تنزر وازرة وزر أخرى (٢)] ٠

وبهذا يرد على المسيحية التي تزعم بأن المسيح قد تحمل خطايا البشر « عندما صلب » وهي فرية يكذبها المنطق ٠٠ ما ذنب المسيح حتى يكفر عن الخطائين !!؟

-
- (١) آية ٨٧ سورة الانبياء .
 (٢) آية ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .
 (٣) آية ١٥ سورة الاسراء .

والسياق يفيد أن العالم كله صادر عن الله فينبغي الحفاظ عليه ليظل على نقاوته نظيفا من الشرور والآثام بعيدا عما يغضب الله - تقام فيه حدوده - وتلتزم مانهجه - وتتبع شريعته « فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

ويفيد السياق أيضا بأن الأرض ليست ساحة عذاب - سجنحت فيها انسانية شريرة . . وكيف نتصور هذا مع قبول التوبة من آدم - والهام الله اياها وتلقيه الكلمات عن ربه - والقرآن يصرح بأن الأرض ساحة مباركة - يزدهر فيه نشاط الانسان وتنطلق ملكاته المبدعة ليستثمر كنوزها - ويعمر جوانبها - ويحكم فيها بالعدل والقسطاس . . وينشئ فيها أروع الحضارات على حين أن العهد القديم يلعن الأرض - ويجعلها ساحة جحيم . . وكم لليهودية والمسيحية من خرافات !! . . ونفهم مما مر أن هبوط آدم من الجنة على هذا الكوكب لا صلة له بظهور الانسان الاول على ظهر الأرض - اذ لا دليل فيها على نفى ذلك أو ثباته . . وانما تعبر في دلالتها العامة عن ارتقاء الانسان من البدائية المطلقة - الى الشعور بأن له نفسا حرة قادرة على الطاعة أو العصيان - ولا يعنى المدلول أكثر من هذا . . ليس فيها دليل كما يتقول بعض الكاتبين على الفساد الأخلاقي لدى الانسان بقدر ما فيها من التعبير عن الطبيعة البشرية التي من شأنها أن تذكر العهد حينما مع الله فتستقيم - وتنسأ حينما فتنحرف !!

يقول الفيلسوف اقبال في كتابه « تجديد التفكير الديني في الاسلام » : « ان القصة تعبر عن انتقال الانسان من الشعور البسيط الى أول بارقة من بوارق الشعور بأن للانسان نفسا حرة - تحس بوجودها - وتستخدم ارادتها - هذا الى

أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيها انسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية - لأن المعصية كانت أول فعل تتمثل فيه حرية الاختيار ولهذا تاب الله عليه وغفر له » .

وهذا كلام ممتع ، وتفسير جذاب كعهدنا باقبال - نضيف اليه أن المعصية التي وقعت من آدم كانت بمثابة التعبير عن الطبيعة الانسانية التي ركبت فيها الشهوة .. مضافا الى ذلك أنها تجربة تمثلت فيها حرية الاختيار وبهذا يتكامل الموضوع .. ويذهب اقبال الى أن الأكل من الشجرة تعبير عن الرغبة في المعرفة من جانب آدم وزوجه .. وما حدث معهما من ظهور السوء تعبير عن التكاثر والقوة لأن النفس من حيث هي نفس تنشد المعرفة والتكاثر والقوة لتحقيق - الخلد - والملك الذي لا يبلى ..

وينقل الأستاذ اقبال في كتابه (١) السالف تفسيراً للآية فيه طرافة وجمال ينقله عن الكاتبة الرمزية القديمة « مدام بالفاتسكي » في كتابها « المذهب السرى » .. فيقول على لسانها :

« ان الشجرة تعنى عند القدماء رمزا خفيا الى علم الغيب - وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق الشجرة ، لأنه نفس متناهية - ولأن عتاده الحسى وقواه العاقلة كل ذلك بصفة عامة مهياً لنوع آخر من أنواع المعرفة - هذا النوع هو الذى يقتضى الكد والمعاناة والملاحظة ولا يقوى الا على التجمع البطيء .. ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل من الثمرة المحرمة .. من شجرة

(١) ص ١٠١ كتاب تجديد التفكير الدينى لاقبال .

المعرفة - وانقاد له آدم لا لأن الشر كان متأصلا في نفسه - ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب طريق - وكان طريق تقويم هذا الميل فيه أن يوضع في بيئة مهما تكن مؤلمة له - لم يكن القصد منها عقابه - بل المراد من ذلك - القضاء على صد الشيطان له الذي احتال بسبب عداوته للانسان بلين القول على أن يبقيه جاهلا للنعيم الذي ينشأ عن انو والامتداد الخالدين - ولكن بقاء ذات متناهية في بيئة كنود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة وتجارب هذه الذات المتناهية التي تنفسح أمامها امكانات عديدة - وهذه المعرفة تزداد وتتسع بالمحاولة والخطأ وعلى هذا فان الخطأ الذي قد يوصف بأنه من الشر عامل لا محيص عنه في بناء التجربة « ١٠ هـ

نقلت لك هذا التفسير لجماله وروعته • واتساقه مع المنطق السديد والفكر المتفتح ••

ومنه يؤخذ سبب طريف لاستنزال آدم من الجنة الى الأرض •• هو أن يقاوم تلك البيئة الكنود ويحصل المعرفة بالأناة والمهل والتجمع البطيء شيئا فشيئا لأن ذلك هو سبيل اكتساب المعرفة للانسان - وهو سبيل انماء التجربة الانسانية •• أما العجلة في الحصول على المعرفة فصد طبيعته •• ولذا رفض القدر تلك الفعلة الصادرة من آدم وهي الأكل من الشجرة متعجلا قطف ثمار المعرفة وهو لا يطيق ذلك دفعة واحدة • •

بل يحصل المعرفة على مهل وأناة وترى الكاتبة أن الأرض بستان مبارك يستثمر الانسان فيه علمه وأنه ليس سجناء له ولا عقوبة على فعلته ، بقدر ما كان تقويما لسلوكه في تعجل المعرفة •

ولسنا نستطيع أن نقطع بأن الشجرة كانت رمزا للمعرفة ولا لغيرها بقدر ما يعيننا أن نفهم بأنها رمز الى المحرمات التي ينهى الله عباده عنها على امتداد الزمن والله أعلم .

قيم حضارية تعبر عنها آية الاستخلاف :

من المفيد جدا بعد الدراسة الموضوعية لآية الاستخلاف أن نستقطب القيم الحضارية التي تنضحها هذه الآية لنستثمرها في وجودنا .. ونستفيد بها في تأسيس حضارتنا :

١ - أن الانسان هو الأساس الوطيد في بناء أى حضارة عظيمة ، تتوفر فيها المعانى الانسانية ، والقيم النبيلة ، فينبغى الحفاظ على كرامته ، والاعتزاز بخصائصه وتقدير مواهبه .. وإقرار شهواته .. لتأخذ الفطرة الانسانية امتدادها في بناء الحضارة ولا شك أن نفاسة العنصر الانسانى ، ووضعها في المحل الأول تمكنه من بناء حضارة الأحرار .. أما استعباد الانسان فانه لا ينتج الا حضارة العبيد ..

٢ - أن الله جلّت قدرته قد توج ذلك الانسان بتاج العظمة والجلال في الملأ الأعلى ووكل اليه عمارة الكون وبناء الحياة .. وسخر له قوى الطبيعة كلها تسهيلا لمهمته وتيسيرا لرسالته . ودعما لكرامته .

- أن الانسان انما يستمد كرامته في الأرض من منبع واحد فقط ، وهو تذكره لعهد ربه الذى أخذه عليه في الملأ الأعلى ، ليظل دائما في حمى الله ، فلا تستذله قوى الشر ، ولا ترهقه قوانين البشر ، ولا يستغويه الشيطان فيصده عن ذكر الله ، وعن الصلاة .. وكل ذلك يقتضى أن يقر الانسان مشيئة الله في أرضه ويحرس مبادئه ، ويقيم حدوده .. ويحمى هـذه

المبادئ أن تنال منها قوى الشر ، أو تحطمها ارادة البغى .
أو تعبت بها شياطين الانس ، وفي ذلك أمنه واستقراره وهده
وبذلك تنهى الساحة الحضارية النظيفة التى تشيدها قوى
العلم والايمان .

٤- أن نسيان هذا العهد هو الخسران المبين ، لأنه يقود
الى العصيان والكفر ، ومحال أن تنشأ حضارة انسانية فى ظل
الفجور والاحاد لأنها تصادم فطرة الانسان وتعاود خصائصه .

٥ - أن مناهج الحضارات لا يمكن أن نتصورها فى قوانين
من وضع البشر . لأن الانسان عاجز عن فهم نفسه ، وادراك
ذاته . وانما المنهج الحق هو ما وضعه العليم الخبير الذى
خلق فسوى وقدر فهدى . « ثم جعلناك على شريعة من الأمر
فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ومن ذا الذى يفهم
الانسان الا خالق الانسان ؟!

٦ - أننا عندما ننظر فى الحياة من حولنا نرى آثار
المناهج البشرية ، تجربة شاذة تعيشها انسانية تعيسة ان فى
الشرق أو الغرب . وعندما تكون النتائج تجارب واقعية فانها
تعطى العظة وتمنح الهداية ، وقد مضى ذلك فى الصفحات
السابقة . وأنها لم تنشأ الا ذاتا ضالة حائرة شقية تعيسة
خائفة مضطربة !!

٧ - الله جل جلاله ، والانسان ، والكون ، وحدة متماسكة
فى جو الآية الكريمة . الله ، خالق الكون ، وبارئ الانسان .
وهما معا يستمدان من الله . ويتحركان بارادته . والانسان ،
نفخة من روح الله . وقطعة من الطين . والكون سماؤه
وأرضه من صنع الله وتسخير الكون للانسان يتم بتيسير
الله . وتفاعل الانسان من عناصر الأرض يتم أيضا بالهام

الله ٠٠ والمعرفة التي يفتقر اليها الانسان ليدعم وجوده على
ظهر الأرض نفحة من العلى القدير ، والهداية التي يستظل
بها تكمن فى العهد الذى أخذه على الانسان ٠٠

وعندما نبني حضارة خالدة فلا بد من رعاية هذا الترابط ٠٠
وترجمته الى واقع ٠٠ قيمة الانسان فى تمسكه بعهد ربه ،
وعمله بمنهجه ، واستفادته من علمه فاذا فسق عن ذلك فقد
غوى ، وقيمة الكون أن يتخذ منه الانسان مجالا للفكر ، ومقرا
للبناء والعمل ٠٠

وما دام الانسان والكون مصدرهما واحد ٠٠ فان عليهما
أن يتآخيا فى رحلة الحياة ٠٠ فاذا تم التآخي بين الانسان
وكونه تم له الخير كله وتمكن من الجهاد النبيل لبناء حضارة
انسانية ٠ وفى انفصالهما ، جهل بأبسط النواميس ٠٠ وكيف
ينفصل الانسان عن كونه مع أن ربهما واحد ؟! الله سبحانه
يوحي بالمنهج ، والانسان يتلقى عن ربه ويصدع لمشيئته
وأمره ، والأرض هى ساحة الحضارة التى تستغل عناصرها فى
البناء والتشييد ٠

٨ - أخطر ما يهدد الحضارات الانسانية هو انفصالها عن
الله ، ونسيانها العهد ، وكذلك الانفصام الذى يحدث أحيانا
عندما ينفصل الانسان عن البيئة ، فلا يتدبر ولا يكتشف ولا
يمضى فى التجارب ٠٠ وكل هذه الأخطار تكمن وراء ابليس
وعملائه ٠٠ من عبادة المادة ، وتقديس المال ، ومغامسة
الرزائل ٠٠ وتلك هى مآسى حضارة اليوم ٠

والمنهج الحضارى يكمن فى قوله سبحانه : [فمن اتبع
هداى فلا يضل ولا يشقى] ٠

الايمان . . . وأنها كانت نماذج رفيعة في الفن والعمارة وغيرهما وأن بعضها قد عاش حتى انقضى دوره التاريخي . . . ليحل محله غيره مما هو أكثر مألوفة لتطور البشرية الصاعد . . . وأن بعضها الآخر قد انحرف عن الله فأذاق أصحابها لباس الجوع والخوف وصب عليهم سوط عذاب . . . وتحليل عناصر تلك الحضارات من خلال العرض القرآني سندرك أن حظ العقلية الانسانية من الابداع عريق جدا في التاريخ . . . يضرب الى أزمنة بعيدة !!

وبعض نماذج تلك الحضارات نحس بالتعاطف معها حين نقرأ وصفها ونحلل عناصرها وبعضها ننفر منه لجنوحه الى الوثنية وشروده عن الله وتوغله في الفساد .
هناك حضارات قديمة جدا كالسومرية والمصرية والنبطية

والسوريانية وهناك السبئية والعادية والشمودية . . . وهناك حضارات قد داخلها عنصر الاعجاز كالدادية والاسلامية وسيكون تحليلنا للحضارات التي وصفها القرآن أساسا لفهم عناصر الحضارات القديمة ونقل بعضها عن بعض . . . وتشابه عناصرها . . . ووحدة نتائجها عندما تنفصل عن الله . . .

أما ماعدا تلك الحضارات القديمة التي وصفها القرآن . . . فيمكن أن نشير اليها ونعقد المشابهة بينها وبين نظائرها ، . . . عندما تستقيم الحضارات على منهج الحق - وترعى حرمة الله . . . وتصغي لصوت النبوات فأنها تزكو وتتكامل . . . وبخاصة عندما يجتهد أصحابها في العمل ، ويجدون في السعي . . . ويتحركون بتجاربههم - عندئذ يبارك الله جهادهم - ويسدد خطاهم ويمكن لهم في الأرض .

وعندما ينحرف أصحاب هذه الحضارات الرائعة عن الله . . . وتسكروهم نشوة المظاهر فيألهون وينتفخون ويتبجحون

بالمعاصي فيضلون عن سواء السبيل عندئذ تصبح حضارتهم
أثر ابعد عين - قصصا تحكى - وأحاديث تروى - وعبرا يقال
في مجال العظة والتأسي وسنعرف أن توفيق الله للبشرية مرتبطا
بذكر العهد مع الله . فاذا غفلت عن هذا العهد ضلت طريقها
في الحياة فتمزقت وحدتها ووهنت قوتها وتفتتت إرادتها
وضاعت « هويتها » وتخطفتها الشياطين !! لأن رحمة الله
لا تنزل على مجتمع آثم - يهدر كرامة الانسان - ويمتنع
خصائصه - ويحتقر قيمة الرفيعة . . انه في هذه الحالة يتحول
نلقائياً الى مجتمع حيوانى هابط أو رجعى فاجر . . . لأنه رجع
بخصائص الانسان العليا الى غريزة القطيع - وبفضائله
الرفيعة الى شريعة الغاب وأطلق هذه الغرائز الحيوانية تنزوا
وتعربد !! حين تكون « انسانية الانسان هي القيمة الرفيعة في
أى مجتمع ، وتكون خصائصه الانسانية موضع التكرم يكون
هذا المجتمع متحضراً تقدماً لأنه يغالى بخصائص الانسان
ويرتفع بها الى المأ الأعلى . . مرتبطاً بهذا المستوى العالى فلا
تتخطفه الآثام ولا تتخيفه المفاصد - ولا تعبت به الشياطين .

وحيثما عبدت المادة وقدست قيمها فقد ذهب المعنى
الربانى وانكفأ البشر في حمأة الرذيلة فعبدوا البقر أو الشجر أو
القمر أو الأشخاص وأضحت المعانى الانسانية باهتة ممتهنة .

وسبيل صنع الحضارات يتوقف أولاً على المنهج الذى
يتجاوب مع فطرة الانسان وعلى ارتباط البشر بذلك المنهج -
وتطبيقهم اياه وتمكينه من أداء دوره في الحياة ، عندئذ يستقيم
حالهم . وتبرز مواهبهم الكامنة - وتزدهر عقولهم الواعية
وتشرق أرواحهم الطاهرة . فيلهمون أسرار الحكمة ، ويتفاعلون
مع عناصر الكون تفاعلاً صحيحاً ، فيبنون صروح الحضارات ،
ويعمرون جوانب الحياة ويرفعون لواء العدالة - وينشئون

معازل المدنية • • ويكفون حصن الأمان للبشرية جمعاء تأوى
الى ظل ظليل من انصافهم ومكارمهم • •

ولقد مرت البشرية أثناء رحلتها الطويلة الممتدة على درب
التاريخ بفترات أضاءت فيها جوانب حياتها بنور الله -
فارتبطت مبنجه - وسارت على هداه فكفونت أزهى
الحضارات ، وبنت أروع المدنيات • •

كما مرت بالبشرية أيضاً فترات هبوت واسفاف أبعدتها
عن الله فتخطفتها صروف الحياة وطمع فيها أعداء الله فساموا
أهلها سوء العذاب [وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون (١)] •

أى قيمة للمعازل الضخمة ، والعمائر الفخمة والبروج
المشيقة والمروج النضرة والجنان العطرة ، والقلوب خاوية من
الايمان والنفوس مستعبدة بالشيطان ؟ !! وانما القيمة لمعاني
الايمان تحفز الهمم وتحرك السواعد وتملأ قلوب الناس بالثقة
والأمل ، وتباعد بينهم وبين الرذائل ماظهر منها ومابطن ،
وترفع هاماتهم الى السماء ليستمدوا العون من الله ، ويستلهموا
رشده وهداه ثم يقبلوا بهذا الايمان على عمارة الأرض
وتلك هى مقومات السيادة فى الأرض •

الأديان والمادة :

والأديان كلها لا تحتقر المادة ولا تهمل أمرها بل انها
لتزجها بالروح وتلائم بينهما فى كيان الانسان وسلوكه حتى
لا يطغى عنصر على عنصر •

(١) آية ٣٣ سورة التل •

أما حين تعبد المادة وتصبح الهاً يرجى ويهاب فان الأديان جميعاً تحاربها لأنها نسد طبيعة الإنسان . . هذا هو طابع الأديان السماوية وموقفها من المادة . تؤازرها ، وتستفيد بها في رحلة الحياة ، ولكنها لا تسمح لها أن تطغى أو تتحكم لأنها ليست كل الفطرة ، وإنما هي عنصر من عناصرها . .

ويتميز الاسلام من بين الأديان بأنه لاعم ملائمة دقيقة بين عنصرى الفطرة ، ولم يسمح لأحدهما أن يحيف على صاحبه . . لأن هذا الحيف ضرر بالغ على الفطرة نفسها وعلى الحياة . . حين تطغى الروح تنتج بالانسان الى السلبية والفرار من الحياة كما فعلت الرهبنة . . وحين تطغى المادة تقود الانسان الى الحيوانية . . وعندما يتوازنان في كيان الانسان فانهما معاً تقودانه الى كل خير وصالح .

وفي عصور الانحطاط الدينى ، تمكنت المادية القائمة على نوازع الأثرة وقوانين المنفعة وانتهاز اللذائذ ، وتطلق الغرائز ، أن تكسب الجولة ضد الأديان التى لها مقام موقر لارتباطها بوحى السماء كاليهودية والمسيحية ثم الاسلام . .

كل ذلك لأن الأديان لم تعبر عن نفسها تعبيراً صحيحاً في المجتمعات الانسانية . . اما لأنها انسحبت من ميادين الحياة راضية عندما قبعت المسيحية في الأديرة مختارة ، واما لأنها أجبرت على ذلك كما حدث للإسلام عندما ضعف أهله وخضعوا لخرافة « الفصل بين الدين والحياة » أو لخرافة « الدين عدو التطور » مع أن هذه العاهات ابتداع صهيونى استعمارى مادى يقصد به حجب أضواء الهداية عن الحياة ، حتى تعتكر آفاقها بالظلام فيتمكنوا من سرقة الضمائر والسطو على ثروات الشعوب وسحق مقوماتها . . لتستسلم وتنقاد . . وتصبح قطعاناً شاردة يسهل السيطرة عليها ، وهؤلاء جميعاً يخططون

بمنتهى الذكاء والدقة ، ويعرفون أن الإسلام هو مذاط الضرر ،
ومصدر الحياة ومنبع الكرامة والعزة للأفراد والجماعات ، وأنه
يستحيل عليهم مع تطبيق أحكامه ، وسيادة نظامه أن يقر لهم
قرار في بلاد العرب والمسلمين •

ولقد وقف أحد رؤساء الوزارات لبلد أوربي كبير في مجلس
شيوخه فقال لهم في عصبية : مادام هذا المصحف في الشرق فلن
نتمكن منه • • « وكان يمسك بالمصحف في يده » ولطالما
تعرض الإسلام لحملات الدس والتشكيك ، وهو برغم ذلك
يمضي في طريق الحياة لا يلوى على شيء • • ويستقر في ضمائر
الصفوة الممتازة من أبنائه في كل موقع من الأرض الإسلامية • •
فإذا أتيح له حظ من قوة أبنائه ، أخذ طريقه الى التطبيق
والممارسة فإذا اعترض اللصوص سبيله لاذ بالقلوب ، ولجأ الى
المساجد • • على غير ارادة منه لأنه ليس للقلوب وحدها • • بل
لتشرق أضواؤه على الحياة • • حكما وسياسة وتوجيها وقيادة

والأمل كبير في الله ، أن يتيح لهذا الدين تمكينا وسيادة •
ليسود نظامه ، وتطبيق أحكامه وتخفق أعلامه ويومئذ تتحرر
موازين العدل ، ويرتفع قدر الانسان ، وتتحقق مشيئة الله • •
وبخاصة وأن الذلم السادية جميعها قد أفلست في تحرير الحياة
من الظلم ، وفي اعزاز مقام الانسان على وجه الأرض !!

نظرة على حضارات العالم قبل القرآن :

مهما يكن من شيء فلا بد من تحليل خاطف للمجتمع
الانسانى قبل البعثة المحمدية ليعرف القارىء من خلاله أى
ضلال كان يسود وأى هوى كان يقود وأية وجهة شريرة كانت
تتجه اليها الانسانية مستسلمة للشيطان ذاهلة عن الرحمن •

وقد حدثنا القرآن عن حضارات قديمة بلغت درجة رفيعة في الامتياز المادى - ولكنها عندما أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله فصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس ثم بقيت معالمها الشاحبة أطلالا تثير الشجن - وتبعث على العظة والتأسى - وتنطق بما أصاب أصحابها من بوار ودمار . . . والقرآن يطلب اليها أن نسير في الأرض - وننظر في تلك الآثار لنستنبط العظات والعبر - ونتعرف على أحداث التاريخ . . . من خلال هذه التأملات ولنقرأ في ذلك قول ربنا : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١) » .

حضارات شادها الايمان - ودمرها الكفر - فذهبت وذهب أصحابها من الوجود .

وما أكثر ما يكرر القرآن هذا الطلب . . . ويجعل منه مصدراً خصباً للمعرفة التاريخية . ومثاراً للعظة والاعتبار . . . انه لا يطلب النظرة العجلى - ولا الرؤية السريعة . ولكنه يطلب اليها أن نتأمل الآثار بدقة - ونعرف الأخبار - وندرس الاسباب ونفقه النذر لنتبين من خلال ذلك أنباء قوم كانوا سادة فذلوا - وكانوا عتاة وطواغيث فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولنقرأ في ذلك قول الله تعالى « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢) » . ويقول سبحانه : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣) » .

(٢) آية ٢١ سورة غافر .

(١) آية ١٠ سورة محمد .

(٣) آية ٩ سورة الروم .

ان القرآن يثبت لمن كان قبلنا من الأمم قوة وفراة وآنارا •
ويؤكد لنا أنهم عمروا الأرض وشادوا المعازل وأقاموا الحصون ،
وتلك هى المعالم الحضارية لأولئك الأقوام ولكنهم بعد ذلك لم
يستقيموا على منهج الحق - وانما زين لهم الشيطان أعمالهم -
وهو عدو متربص للحضارات العظيمة • • فانحرفوا عن الهدى -
وأسرفوا فى المعاصى - وأمعنوا فى الترف - وأغرقوا فى الغواية
وتجاهلوا صوت الوحي - وتنكبوا سبيل النبوات • • فأخذهم
الله أخذ عزيز مقتدر • • وجعل حضارتهم قاعاً صفصفاً - لا
ترى فيها عوجاً ولا أمتاً • •

ولنأخذ الآن فى التحليل الموضوعى لبعض الحضارات التى
تحدث عنها القرآن محاولين أن نقف وقفات تأملية مستلهمين
الاسرار الخوافى التى تكمن وراء الألفاظ والتعبيرات •

لنخرج بحصيلة مباركة تعيننا على تفهم نشأة
تلك الحضارات وتطورها • • وازدهارها ثم ضموها
واضمحلالها حين تخالف قانون الفطرة وتناقض طبيعة
التطور • • وتصادم قوانين الهدايا - وهذا لا شك نوع من
الدراسة المحببة لأنه يعطى عطاء سخيا فى مجال علوم النفس -
والحياة - والاجتماع • • ويثرى هذه المعارف بكثير من القواعد
العامة والنظريات السديدة فتتألق وتزدان وتؤتى أكلها باذن
ربها •

ان هذه الآيات بتعبير دقيق • • صفحات تاريخية - فى
سجل واع - تترقق بالحكمة ، وتتدفق بالعظة وتنضح بالمعرفة
الصحيحة قد أسبغ عليها الحق جلاله - وأفاض عليها الوحي
جماله فأشاع فيها الحيوية والنبض - وحرك أحداثها تحريكا
يثير النفس ، ويلهب الحس ويلهم العظة والادكار • • وجدير

بالذكر - أن نشيد بهذه الآيات الموضوعية التي تحمل الينا
أنباء التاريخ السحيق في أجل معرض وأجمل صياغة وأروع
تعبير *

فوق ماتحمله من تأثير عميق في الضمير والوجدان * * بما
تحدثنا به عن مأساة البعد عن الله وتجربة الاغراق في الشهوات
- وما كان لذلك كله من أثر في تحطيم الحضارات - وتهديم
صروحها الشامخة * * واشادتنا بهذه الآية تعنى أن تصبح
بالذات محورا لدراسات موضوعية تنتشاك فيها معارف شتى
- وتنتشاجن فيها علوم كثيرة - ثم تستنبط منها العبر
والعظات *

ومهما يذهب الانسان بعيداً عن هذا المجال * * فسيضل في
أدغال التاريخ * * ويضيع في شعابه ويخرج بحقائق ضئيلة
تطمسها ضلالات كثيرة * * أما القرآن فنبيع المعرفة السديدة
التي لا يأتياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها * * وهذا وجه
من وجوه الاعجاز - و « هو الاعجاز التاريخي » و « الاعجاز
العلمي » الذي يتمثل في قوة الايحاء وصدق الدلالة وأسرار
التطور الانساني عبر التاريخ !! والقدرة على العطاء المسخي
لعلوم النفس والحياة والطب والاجتماع وكل مايرتبط بالانسان
أو يدور في فلكه، سيقول أقوام من الناس فما بال هذه الدراسات
التي ابتعدت عنا وأغرقت في القدم وطواها التاريخ ؟ أليس
الأجدد بنا أن نهتم بتجارب الحاضر لاننا نعيشها ونرتبط بها؟

ونقول لهؤلاء ما قاله شوقي :

وإذا فاتك التفات الى الماضى

فقد غاب عنك وجه التآسى

على أن الحضارات كلها سلسلة محكمة السرد ، متينة
الحلقات يؤثر سابقها في لاحقها ويتأثر حاضرها بماضيها . .
ومالم نبين جديدها على أساس من القديم فان البناء يكون
ضعيفاً فلنأخذ من القديم أحسنه وفي القديم جلال ، ومن الجديد
أحسنه وفي الجديد جمال ولنمزج القديم بالجديد ينشأ لنا عن
ذلك حياة مباركة طيبة .

على أن تجارب البناء الحضارى ، وأسس قوته ، اذا نبعت
من القرآن يكون لها شأن آخر . . في الهداية الى الحق ، والاتجاه
الى الخير والعصمة من الضلال .

قضايا حضارية :

ينبغي أن نوضح مجموعة من القضايا الهامة المرتبطة
بالبحت الحضارى قبل الشروع فى تحليل الآيات .

وأولها : أن الحضارات الانسانية ليست ملكا لأمة بعينها
ولا هى وقف على جماعة من الناس لأنها صرح هائل قد أسهمت
فيه كل أمة بنصيب .

ثانياً : أن هذه الحضارات قد تتشابه فى مظاهرها ، وفى
عناصرها وفى أسلوبها ولا سيما اذ تعايشت فى جهات متقاربة
يسهل أن يؤثر بعضها فى بعض .

ثالثاً : أن النقل الحضارى ليس عيباً ، مادام لا يلغى ذاتية
الامة ، ولا يضر بخصائصها ولا يسيء الى كرامتها . لأن
الانفتاح صفة جوهرية لكل حضارة متألفة ، لا تصد بالتعصب ،
ولا تتوقف بالجمود ، ولا تنطوى على نفسها . .

رابعاً : أن هذا النقل الذى لا تعاب به الحضارات ، لابد أن
 يساير تقاليد الأمة المنقول إليها ، ويتمشى مع آدابها ومثلها .
 ويكون قائماً على الاستيعاب الذكى ، الذى ينقل الحضارة
 الصالحة ، دون الالياف الضارة . . والأوشاب السيئة .

خامساً : عملية النقل الحضارى ليست بالأمر السهل . فان
 وراءها أخطاراً مدمرة اذا لم تتم على وجهها الصحيح . . انها
 تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم . تتم بعد معرفة فصيلة الدم
 وملاءمتها للمنقول اليه . وأيضاً لا بد أن تكون بقدر والا غدت
 خطراً يهدد بالموت .

سادساً : أن ازدهار الحضارة وتفتحها مرتبط بالعلم الذى
 يجدد فى أسلوبها ويحرك فى تجربتها ، ويضمن استمرارها . .
 ويحول بينها وبين الرجعية والجمود . وينفتح على آفاق الحياة
 من حولها ، ويقتبس لها مايزيدها فاعلية واقتداراً ، كما تتوقف
 على الايمان الذى يربطها بالله ، بينها وبين الرذائل ويجنبها
 السقوط والتردى .

سابعاً : ليست قيمة المؤسسات الحضارية فى فخامتها
 وبهائها وشموخها : وانما بما تقدمه للانسان من فرص كريمة
 لانماء مواهبه ، واعلاء سلوكه ، وانعاش فطرته .

ثامناً : أن الترف ، آفة تمحق الحضارات ، وتأتى على
 بنيانها من القواعد ، لأنه ظاهرة اجتماعية سيئة ، تنمو فى
 أرضه جراثيم العفن الخلقى كلها . ومفاسد الحياة جميعها
 وبخاصة حب الاستبداد والطغيان .

تاسعاً : أن للحضارة دورة تاريخية ، اذا تجاوزتها . بدأت
 فى الأفول لتحل محلها حضارة أقدر على النهوض بمطالب

الانسان • وهكذا تتعاقب الحضارات على الانسانية في دورات متتابعة • • وهي ظاهرة صحية لا تدل على افلاس الحضارة السابقة بقدر ما تدل على طموح الانسان ونزوعه الى حضارة أفضل •

لكن هناك حضارة واحدة تظل مزدهرة متألفة • • هي حضارة القرآن ، طالما تستمد وجودها من توجيهاً ، وماتزال في ارتقاء صاعد ، حتى تبتعد عن مصدرها الأساسي فاذا بها تضعف وتضمحل وتنحط بقدر ما تبتعد عن القرآن ، فاذا عادت الى القرآن ، عاودها الازدهار وهكذا دواليك • واليك نماذج من الحضارات القرآنية القديمة :

حضارة عاد :

ورد ذكر عاد في نحو ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، وتكررت بأساليب مختلفة ولهذا التكرار حكمة بالغة ، لأنه يعطي نوعاً من التجدد ، ولوناً من التكامل ، ودرساً متكرراً يطالع القارئ لكل سورة من السور التي ورد فيها الموضوع • •

وأجمل الآيات التي تنص على لوصف طبيعة هذه الحضارة ، وذكر عناصرها ، هي آيات الشعراء ولكنها لا تستقل وحدها باعطاء الدلالة وإنما تتأزر معها غيرها من آيات هود ، والاعراف ، والأحقاف ، والفجر ، ولنحاول فهم هذه الحضارة من هذه السور كلها مبتدئين بالشعراء ، يقول سبحانه : « كذبت عاد المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، انى لكم رسولا أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر أن أجرى الا على رب العالمين ، أتنبون بكل ربيع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتهم جبارين ، فاتقوا الله

وأطيعون ، وانتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام
وبنين ، وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١) »
فهذه الآيات تعرض لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية قد
استجمعت عناصر البناء والعمارة ، واقامة المصانع ، وانشاء
الحصون وتمهيد الأرض ، وغرس الحدائق ، وتفجير العيون ،
ووفرة المال وكثرة الأيدى العاملة من الاولاد . . فهى كما نرى
حضارة زراعية وعمارة . تمدها السماء بأسباب النعمة ،
وتحوطها بكل رعاية . ويعيش أهلها فى سعادة ورفاه .

ويرتفع صوت النبى هود عليه السلام داعياً هؤلاء القوم
الى الله محذراً من نكاله - مؤكداً أن تقوى الله هى أساس
استمرار الحضارة ، وضمان النعمة . . ولكن القوم قد
أسكرتهم نشوة النعيم وغمرتهم أمواج الترف ، فصموا عن
صوت الداعى وعكفوا على أصنامهم وقالوا فى وقاحة : « سواء
علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (٢) » !!

فماذا كانت النتيجة ؟ « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى
القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من
باقية ؟ (٣) » وهذا جزاء من جنس العمل . . لقد لجوا فى
الطغيان ، وبطشوا جبارين ، وهزءوا من هود ودعوته . ! فهل
يعجزون الله ؟! لقد صار أولئك العمالقة الطغاة . . « أعجاز
نخل خاوية » وعندما يتحول الطاغية الفاجر الى هيك ملحد ،
لا حراك به ولا روح فيه ، بالضبط كعجز نخلة خاو ، هنا موضع
التأمل . . ومنبع العظة !!

(١) الآيات ١٢٣ - ١٣٥ الشعراء .

(٢) آية ١٣٦ سورة الشعراء .

(٣) الآيات ٦ ، ٧ سورة الحاقة .

وهكذا ، كل طاغية ، سيلقى مصرعه على هذه الصورة ، كما
أفرط في الطغيان يصبح عبرة وعظة للناس ، فهل من مدكر ؟!

وبذلك بادت تلك الحضارة ، ولقيت مصرعها ، وذهب
أصحابها وبقيت منها معالم شاخصة تجدد الذكرى وتبعث
التاريخ ، وتثير التأمل والأسى . .

أين كانت تلك الحضارة ؟ هنا تسعفنا آية الأحقاف .
« واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف (١) » ولكن ما زمنها
التاريخي ؟ هنا لا نجد الا تحديداً يسيراً ، وهو أنهم كانوا بعد
قوم نوح ، وليس يعنينا تحديد الزمن بقدر ما يعنينا استلهام
العظة والعبرة ، ورب قديم أنفع في اثارة العبرة من جديد !!
وستظل هذه الآيات وأضرابها قرآناً يتلى الى يوم الدين يذكر
الناس على اختلاف العصور بمصارع الجبارين ، وعاقبة
الطغيان والتنكر لصوت النبوات كلما مروا بتلك الجبال الرملية
قرب حضرموت من ناحية اليمن وهي المعروفة « بالأحقاف » .

هذا ونحب أن نتأمل معا قول الله سبحانه : « أتنبئون
بكل ربيع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »
وقوله سبحانه في سورة الفجر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم
ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد !! (٢) » فاننا بعد
التأمل سنحس بأن عناصر تلك الحضارة تتجلى في فن العمارة،
وهندسة المباني ، واقامة المصانع وانشاء المدن ، على نحو يبهر
الألباب ، ويثير الاعجاب فمن كان يصدق أن « عادا » الموغلة في
القدم قد توصلت الى حضارة كهذه ؟ يصفها القرآن بهذا الوصف
العظيم .

(١) آية ٢١ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٧ ، ٨ سورة الفجر .

وتستوقفنا كلمة « مصانع » فنحس من خلال التعبير أن القوم أحرزوا صناعات • وأقاموا مصانع مهما يكن من بساطتها فان لها دلالة على عبقرية العقل الانسنى منذ فجر التاريخ • قال ابن كثير : الريح : اختلف المفسرون في تفسيره بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة وآية : أى علما - بناء مشهورا - تعبثون . أى تفعلون ذلك للعبث لا للاحتياج اليه والمصانع : قال مجاهد : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد ، روى أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة « قرب دمشق » من تشييد البنيان ونصب السجر قام في مسجدهم خطيبا ، فاجتمع له أهل دمشق محمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون ما لا تدركون انه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح عملهم غرورا • • وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا ألا ان عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين؟ (ا ه) •

روينا هذه الخطبة لأبى الدرداء لنتبين أن عادا صنعت حضارة رائعة وملكّت أرضا شاسعة وجمعت ثروات واسعة ولكنها كانت عابثة لاهية • • وذلك أخطر شيء على الحضارات ، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه منارة أو علامة - وأن قصدهم كان التطاول والتفاخر بالمقدرة والمهارة والفراة والنشاط فهو توجيه لى نقصد بما نعمل وجه الله ، ويبدو أن عادا قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا حسنا حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشبيد العلامات فهي حضارة صناعة وعمارة وزراعة • كما تلفتنا هذه التعبيرات « ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها في البلاد » الى عظمة المدنية ، وتشير فينا الفضول لنعرف بعض

أخبارها ، التى بلغ من فخامتها أنها « لم يخلق مثلها فى البلاد »
كما تلفتتنا هذه الكلمات « جنت ، وعيون ، بنين » الى عنصر
جديد من عناصر تلك الحضارة وهو عنصر الزراعة - والمهارة
فيها ٠٠ ويرى ابن خلدون أن الزراعة أساس الحضارات
الانسانية - فاذا أضفنا الى ذلك « الأموال والبنين » فقد اكتمل
لها العنصر البشرى ، الذى يستغل الأرض ، ويدير المصنع .

فهي حضارة صناعية ٠٠ حضارة عمارة وبناء ٠٠ وتلك
مقومات مادية لا تقود الى الخير الا اذا صاحبها الجانب الروحي
٠٠ ولكن هذا الجانب قد تخطى عنها . ولهذا كان مصيرها الدمار
٠٠ والآن لنمض فى جولة تاريخية مع المؤرخين العرب لنتعرف
الى شىء مفصل عن تلك المدينة [عاد ارم] التى تعتبر أروع
مظهر حضارى لعاد ٠٠

فقد روى (١) ياقوت والمسعودى وغيرهما أن هذه المدينة
بناها شداد بن عاد لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنة
التي تجرى من تحتها الأنهار وقالوا : انه كتب الى عماله أن
يجمعوا ما فى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك
والعنبر والزعفران ففعلوا وتوجهوا بكل ذلك اليه - ثم جمع
له الغواصون من روائح الجواهر ما بلغ أمثال الجبال - وأنه
أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن - وكذلك فعل بالفضة - ثم
بنى المدينة على أساس لبننة من ذهب وأخرى من فضة
وفصص حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ثم جعل لها غرفا
من فوقها غرف - ثم أجرى تحتها واديا طليت حافته بالذهب
الأحمر وجعل حصاه أنواع الجواهر وجعل بهذه المدينة ثلاثمائة

(١) عن كتاب عمر ما قبل الاسلام « تاريخ العرب » للأستاذ مبروك

ألف قصر • وجعل على بابها مصرانيين من ذهب مفضض ••
وجعل ارتفاع البيوت في المدينة ثلاثمائة ذراع - وبني خارج
ال سور ثلاثمائة ألف قنطرة لينزلها جنودها واستمر بناؤها
خمسائة عام ••

أما مصير المدينة الرائعة التي لم يخلق مثلها في البلاد فقد
ذهب مع الريح !! تلك الريح التي أهلك الله بها عادًا •• وليس
يعنيينا من خلال الوصف التاريخي السابق - الذي ذكره
المسعودي •• أن يصدق كله •• كما لا يعنيينا أن نعقب عليه
بإثبات أو نفى •• وإنما الذي يعنيينا هو اعطاء صورة عن تلك
المدينة ان لم تصدق كلها فلن تكذب كلها بحال •• على أننى
أميل الى تصديق ما ورد فان مدينة يصفها القرآن بأنها « لم
يخلق مثلها في البلاد » خليفة بهذا - ولا يمكن هنا أن نتحقق الا
بالكشوف التاريخية - ولكنها لا تسعنا في هذه الفترة القديمة
عمر التاريخ •• وقوله سبحانه : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد
يشير الى مأساة تلك المدينة - وما حل بها من فواجع ••
نتيجة لطغيان القوم وعبثهم •• والخطاب لسيدنا رسول الله ••
ولكل من يتأتى منه التأثير والانعاط بالرؤية لتلك المدينة ••
ومعالمها الباقية •• ولكل من يقرأ قصتها في القرآن - والاستفهام
في صدر الآية يثير اليقظة الذهنية - والانتباه العقلي وقوله
سبحانه « كيف فعل ربك » يوحي بشدة العقوبة ، وشناعة
النكل والتعبير بكلمة « ربك » فيه من الايناس - والعزاء -
والرقة - والحنان ما يسدى الى المضطهدين في أى مكان من
أرض الله - وفي أى وقت من أوقات التاريخ ، أقوى دعائم
الصمود ، ضد الجبارين والطغاة لأن ربك بالمرصاد لكل هؤلاء ••
والآية تتجه بنوع خاص الى المستضعفين من أصحاب الرسول
محمد [صلعم] تثبت في قلوبهم الثقة وتزرع فيها الأمل •• حتى
يصمدوا في وجه الشرك •• وقد جمع الله لهم في الآية مصارع
أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ ليفيض الرحمة على قلوبهم

المعناة ويملاها ببرد اليقين بأن النصر دائماً للمؤمنين ، وبأن الدمار والهلاك للمجرمين الباغين ٠٠ ومن شأن ذلك كله أن يمنحهم لونا من التماسك الصامد حتى يحق الله الحق ويزهق الباطل ويوحى قوله « ذات العماد » بأن هذه المدينة قد قامت على أعمدة فخمة وسوارى ضخمة عرفت بها وسميت باسمها وقوله : « التي لم يخلق مثلها » يفيد ضخامة العمارة ، وجمال البناء ٠٠ وأنه كان أعجوبة في عصره : والاسراف في الخيال ، أبعد من ايحاء القرآن يعوزه الدليل ٠٠ وتفصيل الأوصاف يحتاج الى برهان ٠٠ لكن مهما يبالغ الواصفون فهم أقرب الى منهج الصدق الذي لا يخرج عن ايحاء قوله سبحانه : « التي لم يخلق مثلها في البلاد » ٠٠

وقد ذكر بعض المؤرخين أنها طارت في السماء بعد تمام بنائها وأن بعض الناس قد لمحها وهي طائرة وأن عادا لم يسكنها ، ومنهم من يقول : انه لم يرها الا من أراد الله له ذلك ويروون أن رجلا يقال له عبد الله بن قلابة رآها في أيام معاوية بن أبي سفيان ، وأن معاوية استدعاه ليعرف جلية الخبر فأخبره أنه بينما كان يبحث في الصحراء عن بعير ضل منه اذا به يجد نفسه فجأة أمام باب المدينة وأنه دخلها فوجدها خاوية على عروشها فأخذه الذعر فخرج ولم يحمل معه الا بعض الحجارة التي أطلع الخليفة عليها .

وهذه الرواية عن مصير المدينة ، وأنها طارت - يمكن فهمه على وجه مقبول ٠٠ وهو أن الريح التي أهلكت عادا احتملت معها بعض آثار هذه المدينة واكتسحت أثاثها وهدمت عمدتها ٠٠ وأبقت منها آثارا شاخصة ، وجعلتها خاوية على عروشها كما يقول عبد الله ابن قلابة . كما لا يبعد أن تبقى أطلالها الى أيام معاوية ٠٠ بل الى هذه الأيام !!

ويرى «جورجى زيدان» فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام أن عاداً من الأمم الآرامية، ولذا سميت عاد أرم كما سميت أيضاً ثمود أرم ، وأنها ليست مدينة وأن الظن بأنها مدينة جعل المؤرخين يبالغون فى وصفها ، ونحن نرفض هذا رأى ٠٠ لأن الله قد أخبر صراحة بأنها مدينة ذات عمد فخمة ، لم يوجد مثلها فى البلاد ، وإذا كان القرآن قد أخبرنا بأن عاداً قبيلة فما المانع أن تكون المدينة سميت باسم عاد رئيس القبيلة الذى بناها أو باسم القبيلة نفسها وهى « عاد » ٠

هذا ولم يكشف النقابون عن شئ من أخبار عاد وغاية ما ذكروه أنهم عثروا فى الأحقاف على مقابر محفورة فى الصخور تراكت عليها الرمال ٠٠

ويقول مؤرخو العرب ، انهم يسمون عاداً الثانية ٠٠ أما هود فيقولون : انه عاد الى حضرموت حيث مات هناك ولا تزال احدى مدن حضرموت تسمى « هود » ٠٠

هذا ومن الجدير بالذكر أن القرآن وحده هو الذى انفرد بأخبار عاد وهود دون غيره من الكتب السماوية الأخرى ٠٠ ولعل ذلك وجه من وجوه الإعجاز التاريخى الذى أشرنا اليه آنفاً ، أن ينفرد هذا الكتاب المحكم بأخبار أمم قديمة طواها العدم ، بحيث لا نجد مصدراً لهذه الأخبار الا فى القرآن الكريم ٠٠ وكم فى القرآن الكريم من وجوه اعجاز ستكشف الدراسات عنها !!

حضارة ثمود ، عناصرها :

ورد ذكر ثمود فى القرآن أحد عشر مرة فى سور مختلفة هى : الأعراف ، وهود ، والحجر ، والشعراء ، والنحل ، وفصلت ،

173

فهذه عناصر جديدة تنبئ الى مواهب القوم في فن الزراعة
من انشاء الحدائق ، وغرس البنساز والبساتين ، وتترك
الايداعات المختلفة للتعبيرات القرآنية عن هذه الحضارة انطباعاً
قويا بالمعارفة الخارقة ، والبراعة المتألفة لأولئك الاقوام وتأمل
معنى هذا التنبير : « فارعين » والفرعة القوة .. وهى قوة الفن
والهارة في الفضة .. كما تروى دامة « عظيم » بأن ثمار النخيل
كانت منيرة سهلة الهضم .. وكامة « جنات » تشع الرفاهية
والسعادة لأولئك الانبياء وهى المنسوم من قوله سبحانه
« انتركون فيما سنها آمنين » لان الأمن يحمل معنى السعادة
والنعيم .. ولكن يبقى أن هذه الحضارة تنكرت لصوت الوحي
الالهى أولاً بالافساد وهو معنى يتألف لصفات السوء وهو فساد
مذتشر وعام كما يفهم من النص في قوله سبحانه : « ولا تعثوا
في الأرض مفسدين » .. وثانياً : لانهم عصوا نبى الله صالحاً
حين اعتد فيهم داعياً الى الله برفق « ألا تتقون » .. وصالح
نبى كريم ليس غريباً عنهم كما يفهم من قوله سبحانه : « والى
شمود أخاهم بما جاء » .. ولا يتألف دعوة رقيقة سمحة وعرض
عليهم الدعوة بأسلوب ملؤه العطف والحب : « ألا تتقون ؟ » .
ومع ذلك كله لم يردنوا لأن الفساد حين يطنى على النفوس
تبدل الذممة وتجهت من الدنيا .. ومن ثم كان جوابهم :
انما أنت من المسحرين .

وهكذا ، عندما توازن بين دعوة هود وصالح نجد تواردهما
على منهج واحد في الدعوة الى الله .. وتلقيهما لجواب واحد
من أتباعهما وهو الاعراض والرفض .. كما نجد وحدة في
العقوبة نظير الفساد والطغيان وان تنوعت في الوسيلة « فأما
شمود فأهأأوا بالطاغية ، وأما عاد فأهأأوا بريح صرصر
عاتية (١) انه الإهلاك على أى حال ..

(١) آية ٦٤ ن سورة الحاقة .

ومعنى أهلكوا بالطاغية : أى بسبب طغيانهم وفسادهم ، بالرجفة أو الصيحة أو الصاعقة ، لقد كانت حضارة ثمود حضارة زراعة وعمارة ولم تكن حضارة ايمان وطهارة ٠٠ ومن ثم بادت كما باد غيرها ، وهكذا الأديان ترعى بناء الحضارات وتؤسسه على تقوى من الله ورضوان وتنتجه به وجهة الخير والهداية ٠٠ انها جميعاً تتضمن الحضارة لأنها ترعى التقدم وترمى الى ترقية الحياة وتطويرها مادياً وروحياً ٠٠ وتهدف الى اعلاء السلوك حتى لا ينحرف الانسان بقيم الحضارة الى الوجهة الحيوانية الهابطة ، ومن ثم فهو يهيء للحضارة جواً نظيفاً تتنفس فيه ٠٠ وهكذا ٠٠ السماء تخطط ، والبشر ينفذ ، والرسول تقود عملية التغيير الكبير في المجتمعات ٠٠ وهو تغيير يقود الى الأفضل ، فاذا تجاوز البشر مع القدر حدث التغيير النافع ، وحصل التطور الصاعد في حياة البشرية ٠٠ واذا صموا وعموا ضمرت الحياة وذبلت أغصانها ٠٠ ثم جفت لتصبح هشيماً تذروه الرياح !! ٠٠

فالأديان تقود الحياة قيادة بصيرة مستهدية بالمنهج الالهى ولا تنساق وراء الحياة فتضل عن سواء السبيل ٠ ٠

والآيات السابقة تبين لنا أن ثمودا كانت بعد عاد في الزمن (أى بين هود و ابراهيم) ، وأنها كانت تسكن الحجر بين الشام والحجاز ٠ ٠ وأن صالحاً دعاهم الى الايمان بالله ونبذ ما كان يعبد آباؤهم فكذبوه ثم طالبوه بآية تدل على صدق دعوته فأجابهم : « هذه ناقة الله لكم فيها آية فذروها تاكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (١) » وقوله « فكذبوه فعقروها (٢) » فأخذتهم الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة بعد ثلاثة أيام ونجى الله صالحاً والذين آمنوا معه ٠ ٠

(١) آية ٧٢ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٤ سورة الشمس .

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه انتج صوب حضرموت وأنه مات بها وله قبر هناك كهود .

رواية لها مغزى :

هنا رواية تاريخية تقول : ان النحت الذى أتقنه قوم صالح قد تعلموه من المصريين القدماء على غرار المقابر المصرية القديمة التى شاهدها . . وتؤكد الرواية بأن ثمودا شرذمة من الهكسوس الذين طردهم أحمرى الأول من مصر وأنهم سكنوا منطقة الحجر . . وأنهم قد نقلوا معهم فن النحت . ومن آثارهم التى بقيت منها طول شاخصة حتى الآن مدائن صالح ، ولقد مر النبى بها فى غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى ومنع أصحابه من الدخول اليها والشرب من مياهها . . ولعل الحكمة من وراء ذلك الابتعاد عن ديار الظالمين . .

ولا يبعد عندى أن تكون هذه الرواية صحيحة لأن المصريين هم أساتذة الفن المعماري وفن النحت على مستوى عالمي معروف . . والحضارات الانسانية يستمد بعضها من بعض . . ولا يبعد أن يكون المصريون هم الآخرون قد نقلوها عن غيرهم . . لأن الحضارة كما مر ملك للبشرية جمعاء . .

ومدائن صالح الآن : هى احدى محطات السكة الحديدية الحجازية ولقد زارها كثير من المستشرقين وكتبوا عنها ، وكان أهم ما عثروا عليه من الآثار هو ما يعرف بقصر البنات وقبر الباشا ، والقلعة ، والبرج ، وقد شاهدوا نقوشاً عليها بالخط المسند والآرامى ولغتها هى العربية الشمالية التى لا تختلف الا قليلا عن الفصحى ، وتتضمن عبارات دينية وقد يستفاد منها وجود علاقات بين ثمود ودولة الأنباط التى كانت عاصمة لبطرة فى الشمال .

وقد نقل جورجى زيدان فى كتابه [تاريخ العرب قبل الاسلام] ترجمة لعهد قديم كتبه على قبره رجل قديم يسمى عائذ بن كهيل نصها : [هذا القبر الذى بناه عائذ بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابهم] وفى آخره قوله : [ولعن ذى الشرى ومنه وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً آخر الا الذين كتبت أسماءهم أعلاه] ١٠ هـ تلك حضارة ازدهرت فى ظل دين سماوى ، لكنها تشبعت بالوثنية ، وكان من الممكن أن تزداد تألقاً وروعة بما أتيح لها من نقل حضارى عن المصريين ، وعن النبط وهو نقل ظهر أثره جلياً فى فن النحت ، لو أنها تجاوبت مع منطق السوحى الالهى . . ولكن اصرارها على الوثنية ، واغراقها فى الشهوات وامعانها فى الغى جعلها أثراً بعد عين فبادت كما بادت أخواتها من قبل وأصبحت قصصاً تروى فى مجال الناسى والعظة .

حضارة داود عليه السلام :

وهذا لون من الحضارة الربانية - التى تدخل فيها عنصر الاعجاز السماوى ، بتطويع الجمادات وتسخير الطير والانه الحديد - وعمل الدروع السابغات . وغيرها من وسائل الحياة المتطورة .

وقد انعكست آثار هذه الحضارة الربانية على الحياة ، فصار شعب داود (من بنى اسرائيل) يعيش فى ظلال حضارة وارفة الظلال يمتزج فيها التسخير الالهى بالعمل الصالح .
ولذا : أثمرت وآتت أكلها .

وقد عاشت هذه الحضارة فى فلسطين وما حولها - فقد ثبت أن نبي الله داود استولى على بيت المقدس سنة ألف قبل

الميلاد ، واتخذته عاصمة • • وأراد أن يبني هيكلًا للعبادة فمنعه
الرب لأنه غمس يده في الدماء •

ثم جاء سليمان بعد والده داوود فأتم دورة هذه الحضارة
التي اكتملت حقاً على يديه •

وقد بنى الهيكل سنة ٩٧٥ ق • م • وسمى باسمه فقيل :
« هيكل سليمان » •

ولكن هذا الهيكل هدم مراراً وتحول الى مزابل نكاية
في اليهود الذين عرفوا دائماً بالسدس وتدمير المؤمرات واشعال
الفتن ، وكانوا عنصراً منبوذاً من الجميع •

وتشابكت حضارة داود مع حضارة ابنه سليمان عليهما
السلام وكلاهما نبي من أنبياء بني اسرائيل ، لأنهما قامتا على
أساس رباني وتدخل فيهما عنصر الاعجاز السماوي مما جعل
لهما طابعاً فريداً بين الحضارات ، وتعتبر الحضارتان معاً
حضارة واحدة لتعايشهما في مقر واحد ، وبقيادة نبيين هما :
داود ، وابنه سليمان •

يدل لذلك قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً
وقالاً : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ،
وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير
وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين (١) » •

وعندما نتأمل قوله سبحانه : [ولقد آتينا داود وسليمان
علماً] نفهم من خلاله أن هاتين الحضارتين قامتا على العلم
الالهي ، فهما : حضارتا نبوات تخضع للمنهج الرباني •

(١) آية ١٥ ، ١٦ سورة النمل •

وإذا كان هذا العلم مستمداً من الله فهو علم مصحوب
 بالتقوى والايمان مأمون العواقب لا يستبد ولا يستغل ولا يدمر
 ولا يقتل ولا يلحق الضرر بالأبرياء لان هذه هي طبيعة العلم
 الربانى الذى يفيضه الله على أنبيائه ، وينسبه الى ذاته العلية
 صراحة ، وناهيك بعلم كهذا !! وبما كان لهذا العلم من أثر
 طيب فى تيسير العسير وتقريب البعيد ، وتطويع العصى وحدوث
 الخوارق . . . لأن حدود العلم الالهى واسعة وآفاقه غير
 متناهية . . . فاذا منح الله قبسة من ذلك العلم لأحد من خلقه
 فقد سهل كل صعب ، وهان كل عسير . . . وما نستبعده كبشر ،
 فى حدود علمنا الضيق انما ينشأ لأن قدرتنا متناهية محدودة
 الطاقة ، محدودة الأفق . . . لذلك يجب أن نتلقى عن رب العزة
 والجلال جميع ما يصدر عنه بمنتهى الاذعان والخضوع لأن
 علمه سبحانه قد وسع كل شئ وأحاط بكل شئ . . . والقوانين
 التى تحكمنا فى عملنا وعلمنا هي من صنعه سبحانه ولو شاء
 لرفعها جميعاً فأزال الحجب ، وألغى الحواجز وقرب البعيد !!

وإذا كان العلم من أهم المقومات الحضارية . . . لضمان
 استمرارها ، وتجددتها ، وتجاوزها مع الحياة ، واستيعابها
 لحاجات البشر . . . وبغيره تجمد الحضارة ويصوح نبتها
 ويعتريها الذبول ثم الجفاف والأفول . . . اذا كان هذا شأن العلم
 مع الحضارات فما بالك بعلم يفيضه الله على عباده افاضة . . .
 ويسهل أسبابه تسهيلاً . . . ويضبط مساره حتى لا يطيش . . .
 ما بالك بعلم كهذا؟ وما ظنك بحضارة تخضع للالهام والتلقى . . .
 وتمضى بالعمل الخارق الى غاياتها البعيدة ؟

ومن هذه الآلية ندرك قيمة العلم فى بناء الحضارات . . .
 فقد زود الله به رسله ، بناة الحضارات الكريمة أول ما زود ،
 لتمضى حضارتهم على نور وبصيرة . . . فعلى الأمم والشعوب

إذا أرادت بناء حضارة عالمية أن تتذرع الى ذلك بالعلم النافع ، واستمداد العون من الله فان الأرض الممهدة التي هي ساحة الحضارة ومستقرها ، انما هي أرض الله ٠٠ والانسان المستخلف فيها من صنع الله ، وعناصر الكون التي لا بد من تسخيرها في بناء الحضارة انما هي من الله والى الله ٠٠ ولولا ما أوجده في تلك الكائنات من قابلية التشكيل وامكانية النطويع والتطوير وسهولة الانقياد والتذليل ٠٠ لما أمكن بناء كوخ فضلا عن ناطحات السحاب ولما أمكن قدح زناد فضلا عن اضاءة الكهرباء لكل قطر وناد ٠٠ واستخدامها في مصالح العباد *

ولما أمكن ركوب جمل أو حمار فضلا عن السيارة والقاطرة والطيارة فسبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون !! سبحانه منه النشأة والبدء ٠٠ واليه المصير والرجعى ٠٠ وانا لله نشأة وابتداء وانا لله مصيراً وانتهاء ☪

وبهذا التصور تكون الحضارة ربانية مسبحة عابدة مأمونة العواقب تبني الحياة بنور الله ٠٠ وتنشئ سعادة الانسان في ظلال الهدى والايمان *

وكلمة « علما » في التعبير الرباني تفيد الشمول فهو علم أفيض ليؤدى رسالة ربانية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ٠٠ وهو نوع من العلم الذى لا يخطر للبشر على بال ، يسخر الطير والجن والانس والرياح وينطق راسيات الجبال ٠٠ علم يتحدث الى تلك الكائنات ويفهم عنها ويتجاوب معها ونتجاوب هي أيضاً معه تجاوباً يؤدى الى البناء والتعمير والخير ٠٠ فسبحان من يعطى عطاء غير محدود *

واذا كان كل من داود وسليمان نبيًا - فهما قيسادتان روحيتان لشعب بنى إسرائيل ٠٠ والقيادة التي تهديهم على بناء الحضارات اذا كانت بصيرة مهندسية يكرز بها اشرافا في توجيه الشعب وجهة حضارية متفتحة ٠٠ وهذا هو سر نجاح تلك الحضارات .

ومن خصائص العلم الرباني أنه لا يثير الغرور في نفس صاحبه مهما أحرز به النجاح ٠٠ بل يدعو الى مزيد من التواضع ٠٠ فنراه ينسب كل انجاز حضارى لله ٠٠ ولذا كان منطق داود : « الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » وهو منطق نبي ملهم - معلم من ربه مؤدب بأدب الله ٠٠ انه المنطق المثالى فى شكر النعمة والاعتراف بالجميل ٠٠ ورد ذلك كله لله ٠٠ « وقليل من عبادى الشكور » ٠٠

وكل من هذين النبيين يدرك أن النعمة عندما تنغمر وتفيض تكون مصدرا للابتلاء والاختبار ٠٠ فهما لا يذهلان عن ربهما طرفة عين ٠٠ كلما ازدادا ترقيا ووصالا - ازدادا تواضعا وامتنالا ، ولذا كان منطق سليمان عليه السلام عندما رزق التمكين الهائل : [هذا من فضل ربي ليبلوني أأسکر أم أكفر (١)] ٠

فيا لها من يقظة واعية تكافح آفات الغرور من النفس كلما حاولت أن تغزوها أو تدلف اليها ٠٠ وأين هذا الموقف من ضلال فرعون واختلال توازنه عندما صاح فى قومه بعد التمكين عند ما صاح بعد التمكين : [انما أوتيته على علم عندى] ١١ شتان بين الموقنين ٠٠

(١) آية ٤٠ سورة النمل .

وانظر معي الى هذا الفقه في منطق النبيين داود وسليمان
« الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » فهما لم
يدعيا التفضيل العام المطلق على جميع البشرية .. لأنهما لم
يستوعبا كنه النعم المزجاة من الله الى عباده فضلا عن أن يدعيا
استيعاب البشر أجمعين فهو منزه عن أن يشهد بتمثل فيه الأدب
والتواضع والاعتراف والحياء جميعا !!

ملاح تلك الحضارات وأسرارها وعناصرها :

ولنأخذ الآن في توضيح ملاح الحضارة « الداودية » كما
تصورها الآيات القرآنية بعيدا عن شطحات الخيال التي
احتوتها الكتب المقدسة .. والأنبياء .. والعهد القديمة ..
وفي رأيي أن مثل هذه الدراسة تعين على إعطاء تصور صحيح ..
بصل بنا الى فقه هذه الحضارات - وإدراك أسرارها .. وقد
ذكرت تلك الحضارة في آيات كثيرة من الكتاب العزيز .. كلها
تشير الى نعم الله على داود - واصطفائه له - وتبرز مواقفه
القتالية وانتصاراته على أعداء الله ..

ونفهم من ذلك أن حضارته كانت حضارة بناء وحضارة
جهاد وقتال .. وقد كان داود عليه السلام جنديا في جيش
طالوت المؤمن .. الذي كان يحارب جالوت الجبار في تلك المعركة
التاريخية القديمة - وهو الذي تمكن من قتل « جالوت » رميا
بالحجارة .. وقد زوجه طالوت بنته بعدها وآتاه الله الملك في
مشارك الأرض المقدسة - ومغاربها ..

قال صاحب الكشاف : [جالوت : جبار من العمالقة من
أولاد عمليق بن عاد - وكان « أيثي » أبو داود في عسكر طالوت
مستة من بنييه وكان داود سابعهم - وكان صغيرا يرعى

الغنم - فأوحى الى اشمويل أن داود بن ايشى هو الذى يقتل
« جالوت » فطلبه من أبيه فجاء [ا ه ٠٠

ومن ذلك يفهم أن داود - كان محارباً شجاعاً - وأن
حضارته قامت على الجهاد فى سبيل الله ٠٠ وأن قيادته لشعب
بنى اسرائيل كانت قيادة جندى محارب شجاع ٠٠

وأن الله - قد أنعم عليه بالملك - والحكمة - أى النبوة
فهو ملك نبي ٠٠ وعلمه مما يشاء قال صاحب الكشف - أى من
صنع الدروع وكلام الطير والدواب وغير ذلك ٠٠ ويمكن تلخيص
ملامح تلك الحضارة أخذاً من الآيات بما يلى :

١ - أنها تقوم على الجهاد فى سبيل الله - وقد مضى أن
داود منذ الصبا كان شجاعاً محارباً هو وأخوته وأبوه ٠٠ وأنه
قتل جالوت الطاغية « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة »
وكل حضارة تقوم على الجندية المخلصة لله ٠٠ فانها ترهب
أعداء الله *

٢ - أنها حضارة اعجاز الهى قد توفر لها ما لم يتوفر
لغيرها من الخوارق الجبارة التى تساعدها على النماء والازدهار .
وتحقيق مشيئة الله فى الأرض ٠٠ وذلك كتسبيح الطير والجبال
« انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق - والطير
محشورة كل له أواب » ويقول سبحانه : « ولقد آتينا داود منا
فضلا يا جبال أوبى معه والطير » ٠٠ فهي حضارة مسبحة
عابدة *

٣ - أنها حضارة تستثمر ألوانا من المعارف - وفنونا من
الخوارق - وتستفيد من ذلك كله فى بناء عالم أفضل تزدهر
فيه شريعة الله ٠٠ وتنتصر ارادته ٠٠ وتعز مشيئة الإنسان *

وذلك كتعليمه منطق الطير * * يفقهه ماتعنى ؟ ويعرف ماتريد ؟ قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير (١) » * *

٤ - أنها حضارة صناعية - تتخذ من العمل وسيلة لبناء الحياة * * وقد انصهر داود وشعبه في جو العمل بحيث صار العمل في تلك الحضارة قيمة عليا * * وكان داود قدوة لشعبه * * كان يأكل من عمل يده * * وقد ألان الله له الحديد ليعمل منه دروعا محكمة سابغة طويلة - وجعله في يده كالشمع * * دون أن يدخل النار - وهذا هو وجه الإعجاز كما فهم البيضاوى وجمهرة المفسرين - ويقال ان الدروع قبله كانت بدائية مرهقة تعمل على شكل صفائح * * فجعلها داود من حلق الحديد - فصارت مريحة تمكن من الحركة قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم (٢) » أى لتمنع عنكم أذى عدوكم * * ونفهم من التخصص في صنع الدروع ومن الانة الحديد - ومن جنديّة داود قبل النبوة - أن الحضارة كانت عسكرية لها معامل السلاح - ووفرة الذخيرة * * والاستعداد لحرب أعداء الله * *

٥ - أن هذه الحضارة كانت قوية البنيان ثابتة الأركان بدليل قوله سبحانه [وشددنا ملكه] أى قويناه * * وقال البيضاوى : معناه : قويناه ملكه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود * * وقد نصره الله على خصومه قبل الملك وبعده - وظل دهرًا لايقوم له معارض الاغلبه * * وان حضارة تعتمد الصناعة أساساً - والجيش المدرب درعا - والعمل الدائب وسيلة لابد أن تعيش في قوة وازدهار * * ولا بد أن تنتصر على أعدائها * *

(١) آية ١٦ النمل . (٢) آية ٨٠ سورة الانبياء .

٦ - أنها حضارة ذات قيادة حكيمة . . تفصل في الأمور بنور الله . . وتقضى بين الناس بالحق ولهذه القيادة أثر في توجيه الحضارة وجهة ربانية حكيمة - حتى لا تنحرف أو تضل . . « وآتينا الحكمة وفصل الخطاب (١) » والحكمة وضع كل شيء في موضعه والمراد النبوة . . لأنها ملاك أمر الحكمة والاعتزان والفصل في الأمور بالبصيرة المشرقة .

٧ - أنها حضارة لها دستور منزل من السماء . . تمشي على سنن منهج رباني قال تعالى : « وآتينا داود زبوراً » . . وهو مجموعة ترانيل وأناشيد تتضمن تمجيد الله وحمده والثناء عليه - وبعض الأخبار المستقبلية [ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون] .

وعند أهل الكتاب الزبور : المزامير وقد أوتى داود حسن الصوت والانشاد وضرب به المثل في ذلك . . وليس بالزبور أحكام ولا أوامر ونواه ، وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين كالمزامير الذي أوله (على أنهار بابل) فإنه بعد سبى الاسرائيليين الى بابل في حادثة بختنصر . . ولقد حكم داود فأجاد ، وعبد الله فأحسن ، وأقام ملكه على الايمان والعلم وكانت نبوته رحمة وعدلاً . . وأنزل الله عليه الزبور . . وحببه في العمل . . ولهذا عاش محبوباً ، ولا يخفى أن كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليه كانت وسائل حضارية تعين على صنع مدنية فاضلة تقوم على الايمان والحكمة والعلم . .

انها حضارة قد أنشأت آثاراً ، وأقامت ملكاً ، وأبدعت فنوناً واستخدمت قدرات هائلة وطاقات غير محدودة ومازجها عنصر الاعجاز الالهي ، لقد امتزج فيها عنصر المادة بعنصر

(١) آية ٢٠ سورة ص .

الروح فلاءمت طبيعة الانسان وأسعدت البشر واستخدمت في
الابداع والتعمير والخير العام ولنقرأ وصفاً رائعاً جامعاً ، خلافاً ،
لتلك الحضارة الالهية وهو قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود
منا فضلاً ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن أعمل
سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً . انى بما تعلمون
بصير (١) » .

قال ابن كثير في تفسيرها : يخبر سبحانه عما أنعم به على
عبده ورسوله داود عليه السلام بما آتاه من الفضل المبين ،
وجمع له بين النبوة والملك . والجنود ذوى العدد والعدد ، وما
أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان اذا سبج تسبج معه
الجبال الراسيات الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات
والغاديات والرائجات وتجاوبه بأنواع اللغات ؟ وفي الصحيح
أن رسول الله سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل
فوقف فاستمع لقراءته ثم قال عليه الصلاة والسلام : لقد أوتى
هذا مزماراً من مزامير آل داود وقال أبو عثمان النهدي : ماسمعت
وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام فى بناء
صوت صنج ولا يربط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى
الأشعرى ومعنى قوله : « أوبى » أى رجى : ا ه :

تأملات حضارية :

أول ما يطالعنا من الآية السابقة قوله : سبحانه : « ولقد
آتينا داود منا فضلاً » بعد أن عبر فى مكان آخر بقوله : « ولقد
آتينا داود وسليمان علماً » وفى موضع ثالث « وآتيناه الحكمة
وفصل الخطاب » ، فنحن أمام مادة فياضة من عطاء الله وكرمه
يتفضل بها على عبده الطائع الأبواب ونبيه المصطفى « داود »

(١) آيتا ١٠ ، ١١ سورة سبا .

وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام في بناء الحضارة وهو علم يتجسد في عمل ، ويتنجم الى صناعة أى أنه ليس علماً نظرياً بدليل قوله : « أن اعمل سابغات » ولايتصور أن تقوم حضارة ماعلى جهل ، كما لا يتصور أن تقوم على علم نظرى . والا كانت حضارة كلام وفلسفات ونظريات ، واذا كان هذا العلم من الله فهو علم نافع مثمر يتجه لداوود في « الفضل » أى فضل الله وكرمه ، واذا منح الانسان الى الحق ويرعى كرامة الانسان ، كما يتمثل هذا العطاء الغامر فضل ربه فقد غدا ربانياً يقول للشئ كن فيكون ولا أدل على ذلك من الالة الحديد وصنع الدروع السابغات ، وهذا الفضل عنصر حضارى له قيمته فان الحضارة المتجددة تعتمد الابداع والجمال ، وكلاهما انما يتم بفضل الله واقداره ، واذا تم انجاز الحضارى بفضل الله فهو انجاز مسخر لخدمة الانسانية لا لمصلحة شخص ، أو أسرة ، أو قبيلة ، أو وطن ، أو مصلحة ، وبذلك يكون طابع الحضارة انسانية واسعا ، ويتجلى فضل الله على داود في ايتائه الحكمة : وهى وضع الشئ في موضعه ، وكانما أريد بها البصيرة النافذة في القول والفعل . . والحضارة المثالية تفتقر الى الحكمة في بناء صرحها وتآليف عناصرها حتى لا يطغى عنصر على آخر . . فاذا اتيح لداود مع ذلك منطق فاضل وحكم عادل . . فقد أوتى الخير كله .

وهما عنصران أساسيان في بناء الحضارات . . اذ لا يحفظ سيرها ولا يضمن استمرارها الا العدل وان حضارة تقوم على الظلم لجديرة بأن تنهدم على رؤوس أصحابها .

هذا بعض ماتوجى به الكلمات « علما ، فضلا ، حكمة ، فصل الخطاب » كما وردت في الآيات وقوله سبحانه : « يا جبال أوبى معه » وهو نداء قدسى صادر عن الله تبارك وتعالى الى الجبال الخسنة الموحشة ، يأمرها بأن ترجع مع داود وأن ترد

معه التسابيح وأن تتجاوب مع ألحان الشكر التي يتجده بها الى خالقه ومولاه ، وانها للحظة من لحظات التجلى ، أن يفيض الله من أسرارهِ على عبده ونبيه الأبواب فإذا هو موصول بالكائنات بعد أن انزاحت الحجب والعوائق بينها واتصلت حقيقتها بحقيقتها ، في تسبيح بارئها وبارئهِ ، ورجعت معه الجبال والطير مرددة لحنه الأعن ، اذ لم يعد هناك أى عائق أو فاصل بين الوجودين عند ما اتصل بالله صلة مباشرة يتلقيان من فيضهِ ، يسبحان له ، يمجدان ذاته ، انه في الحقيقة تسبيح واحد بلسان ذاك ولهجة شاكرة تتجه الى رب واحد جل جلاله ، وكل كائنات الحياة خاضعة لله ، مبتهلة اليه « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وحين تشف النفوس ، وتتجرد الأرواح وتصفوا القلوب فإن ما بيننا وبين هذه الكائنات ينزاح ، فتذهب العوائق ، وترتفع الحجب ، وتذوب الفوارق فإذا بها تبوح بالأسرار وإذا بنا نسبح في الانوار ، وإذا الجميع في لحظة التجلى موصول بالله الواحد القهار ، كل منا يرجع ألحان الشكر ، ويردد ترانيم المجد وينشد أنغام الجلال ، فيالها من نفحات لدنيه يفيضها الله على من يشاء من عباده فإذا هو في التجلى الأعظم غارق في النور يفهم عن الكون كله ، ويفقه لغة الطير والحجر والشجر والجبل لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وهل كانت العوائق الا من الغفلة ؟ فإذا زالت تلك الغفلة فقد ارتفعت الستائر وارتبطت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر ولم يعد هنالك فرق بين بشر وجبل أنهما معاً موصولان ببارئ القوى والقدر سبحانه في علاه ، وما أجل تلك اللحظة القدسية ارتفعت الستائر وشغقت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر التي تردد فيها الجبال الخشنة نغمة داود كما سمعتها • وترجعها كما وصلتها دون زيادة أو نقصان !! وليس في ذلك أدنى غرابة ، فالإنسان مخلوق له من الخصائص العليا ما يرشح له تلك المقامات بل الأكثر منها عندما يتجرد من كيانه

المادى الصفيق ويرتفع عن واقعه الأرضى المعتم ، عذئذ تذهب القوانين التى تعزله عن الجماد ، لأنها قوانين من وضع الله - وهو سبحانه قادر عى أن يلغيها فاذا بعالم الانسان ينفتح على عالم الجماد فيكشف الثانى له عن أسرار وعجائب ما كان ليصل اليها بعلمه العادى - أو بعقله المادى - ولوعاش آلاف السنين .

هل يستطيع العلم الحديث مهما تقدم وأبدع أن يوجد لنا الطريقة التى نفهم بها لغة النملة ولحن الطير - وأن يخضع الطبيعة فى أحسن مجالىها لارادة الانسان فتخرج لحنه - وتردد ترانيمه ؟ ! انها التقوى تحدث من التقدم فى حياة البشر فى لحظة مالا تستطيعه العلوم والمعارف فى آلاف السنين . . . !
ولأمر ما يقول جل شأنه : « واتقوا الله ويعلمكم الله (١) » .

وهو علم خارق لا يتوقف على مدارس أو اطلاع وانما يفيضه الله على من يشاء من عباده واذا زالت الحجب بين الانسان - وعناصر الكون فانه يتمكن من فهم أسرارها واستيعاب خصائصها والاستفادة منها دون قهر أو اعنات !

كل ذلك تنشئه التقوى ، التى تخضع القوانين المادية للانسان دون احتياج الى « العلم التجريبي » الذى يبنى الحضارة الانسانية بطريقة عادية .

والحق أن داود قد أوتى صوتا حسناً كان يرتل به مزاميره ويثلو تسابيحہ التى وردت فى العهد القديم . والآية تعطى أنه قد أوتى حظاً من الشفافية والتجرد فى تسابيحہ جعل قلب الكون يخفق له ، ويتجاوب معه ، ويردد أنغامه المتجهة الى بارى الأرض والسموات .

كل هذا الفيض تعطيه آية « يا جبال أوبى معه » ولا يعقل أن تردد الجبال صوت داود وهو لا يفهم عنها ولا تفهم

(١) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

عنه ، لأن الشفافية اذا بلغت غايتها لدى الانسان فان يد الله تمتد الى هذا الستار المسدل بين العبد التقى الأواب ، وبين الكائنات فتدفعه بترفق فاذا هما متجاوبان متعارفان متفاهمان يعرف كل منهما عن الآخر ما كان يجهله .

والحق أن الانسان ليس غريباً عن الأرض . منها بدأ ، واليه يعود ، وعليها يكدح . ومع عناصرها يتعامل . . فاذا تجاوب مع جبالها وطيرها وعناصرها كلها فليس ذلك بعيداً ولا ممتنعاً . وسبحان من تخضع الكائنات كلها لجلال عظمته :

فعلى الانسان أن يعقد الصداقة بينه وبين عالمه مستعيناً على ذلك بالإيمان والانقياد لله وبالعالم الذى يمكنه من فهم أسرار الحياة ثم يمضى فى رحلته الصائرة الى الله .

ويوم تتم هذه الصداقة فما أسعد بنى الانسان ، ويوم ينفصل الانسان عن عالمه فما أشقى الحياة والأحياء ، ولعل ترجيع الطير مع داود ايسر فى الفهم من ترجيع الجبال ، لأن الطير على أى حال كائن ذو حياة . وهو مغرد بطبعه فلم يبق الا أن يعقل عن داود ويرجع معه . وقوله سبحانه [وألناله الحديد] قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربها بمطرقة بل يفتله بيده مثل الخيوط ويقول قتادة : ان داود أول من عمل الدروع من الحلق ، ولهذا العنصر ، أثر رائع فى صنع الحضارة . . والحديد فى ذاته أهم عنصر حضارى للسلم والحرب . فكيف اذا كان ليناً طرياً مطوعاً لأى صناعة :

قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (١) » وقوله : « أن أعمل سابغات » معناه أعمل من الحديد دروعاً طويلاً ليست كما اعتاد الناس ، بل متطورة ، على

(١) آية ٢٥ سورة الحديد .

النحو الذى قلنا من قبل ولقد ذكر المفسرون : أنها كانت من قبل تثقل الكاهل ، وتزهق الانسان فغدت على يد داود متموجة ليونة تسهل معها حركة الجسم وغدت محكمة لا تنفذ منها السهام ولا الرماح ، وهنا لمحة حضارية لابد من تسجيلها وهى تكمن فى قوله سبحانه « ولقد آتينا داود وسليمان علما » ثم قوله بعد : « أن اعمل سابغات » فماذا يعنى هذا ؟

انه يعنى أن العلم الذى يستفاد به فى تأسيس الحضارات ليس علماً نظرياً ، والا غدت الحضارة به حضارة ثرثرة وكلام . . وانما هو علم يترجم الى سلاح ودروع وما شئت الحضارة من أدوات أخرى . . وقد أثر عن سيدنا رسول الله [صلعم] قوله : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » وقد روى المفسرون أنه كان لا يأكل من بيت مال الأمة . . بل من كده وتعبه . .

وهكذا يبرز كل من العلم والعمل فى حضارة داود كقيمتين رفيعتين . . ويأخذان سمياً متكاملأ ، لأن العلم فى هذه الحضارة علم يترجم الى عمل ، وهكذا : العلم يخطط والعمل ينفذ ويطبق . . وعندما يتجلى الله على انسان فيؤتياه من لدنه علماً ويلهمه سر تحويل العلم الى عمل . . ثم يمنحه الحكمة التى تضع كل شئ فى موضعه المناسب فقد مكنه من بناء حضارة رفيعة سامية تعبر عن خصائص الانسان وتحترم علاقته بالملأ الأعلى . . وتنشئ من روائع الصنع ماتعجز الالسن عن وصفه . . وهكذا تتجمع فى حضارة داود عناصر العلم والعمل والحكمة . . العلم يخطط ، والعمل يجسد ، والحكمة تصوغ بدقة وتضع كل شئ فى موضعه ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . . قوله سبحانه : « وقدر فى السرد » وهو أثر الحكمة فى ابراز العمل فلا قيمة لعمل لا يخطط ، ولا يقدر ، ولا يوزن حتى

يأتى على أجمل وجه وأبدع صورة ، ومعنى قدر فى السرد . .
 أحكم الصنع ليأتى الدرع على قدر الجسد فى ابداع وجمال . .
 فهذا هو العمل المتقن . . وقوله سبحانه [واعملوا صالحاً]
 معناه : اتجهوا بالعمل الى الله . . ولا تغتروا بما تهياً لكم من
 وسائل . . ولا تغرقوا فى الترف والذهاب بعيداً عن الله . .
 فهذه آفات الحضارات وهو خطاب عام لشعب داود من بنى
 اسرائيل ولغيرهم ممن يتأتى لهم أن يستفيدوا . . والعمل
 الصالح : الخالص لوجه الله سواء أكان دنيوياً أم أخروياً .
 بل انه لا فرق بينهما فى الواقع لأن العمل الدنيوى متى أريد به
 وجه ذى الجلال والاکرام فقد غدا أخروياً . . وكلاهما لازم فى
 صنع الحضارة .

وقوله سبحانه : [انى بما تعملون عليم] اشارة الى
 الرقابة العليا التى لا تغفل ولا تنام . . وهى رقابة دقيقة
 تراقب الانسان فى هجعاته ويقظاته ، فى روحاته وغدواته . . فى
 بيته وفى المجتمع ، فى سره وجهره . . فى وساوس قلبه وظواهر
 عمله ، وهى رقابة لا تستغل ، ولا تستغفل ولا يحتال عليها ولا
 يستخفى منها . . فينبغى أن نعمل حسابها ونحن نمارس دورنا
 الحضارى . . واذا خضعت حضارة البشر لرقابة الله واستشعر
 بناتها جلاله وهيبته فان حضارتهم تكون ربانية يباركها الله
 ويجعل منها مصدر خير للحياة ويلهم أصحابها الرشد ويذهب
 عنهم كيد الشيطان ، وكل القوى الشريرة التى تحاول أن
 تعترض طريقهم ، أو تحول مسيرتهم . . وويل لحضارة تفقد
 الضمير الوازع !! . .

تلك صفحة من حضارة داود . . تتألق بالضياء . .
 وتتدفق بالجلال والرواء . . لأنها استمدت منهجها من السماء
 . . وسارت فى طريق التعمير والبناء . . فكانت نافعة جليلة . .

مع الحضارة السليمانية :

في وصف هذه الحضارة الربانية ، ترد آيات كثيرة في كتاب الله ، وكل آية تتعرض لوصف جانب من تلك الحضارة .
وهي تتكامل تماماً مع حضارة داود عليه السلام . . فهما سلسلة واحدة . . ذات ملامح واحدة . . الا أن هذه الحضارة أوغل في عالم الخوارق ، وروعة المظاهر ، وكثرة التسخير . .
ومكان الحضارتين واحد وهو بيت المقدس وما حوله . .
وشعبهما واحد وهو بنو اسرائيل والقيادة في كليهما ربانية . .
لأن سليمان ملك نبي ، وكذلك والده من قبله . .

يقول سبحانه : [وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجوارب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور] (١) . .
ويقول سبحانه واصفاً تلك الحضارة :

« وورث سليمان داود وقاه يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو افضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (٢) » ثم تتوالى أحداث ومشاهد كقصة الهدد ، ونبأ بلقيس . .

(١) آية ١٢ ، ١٣ سبأ .

(٢) آية من ١٦ — ١٩ الزمل .

وقوله سبحانه: « ورهبنا لداود سليمان نعم العبد انه
أواب ، اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال ، انى
أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردوها
عى فطنق مسحاً بالسوق والأعناق(١) » .

وقال سبحانه: « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء
حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين
فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٢) » .

وقال تعالى: « وكلا آتينا حكما وعلما (٣) » .

هذه الآيات من كتاب الله ، تتضمن وصف ملامح تلك
الحضارة ، وتشخيص عناصرها . . . وهى حضارة متوجهة
بالذهب ، مرصعة بالدر والياقوت . . . مزدانة بالعمائر والقصور
.. مدعمة بالجيش القوى ، والجند الكثير ، تغمرها الخوارق ،
وتعمها المعجزات . . . وتخضع لله فى كل شىء وتستمد منه العلم،
والعمل ، وتبسط جناحها على ما حولها من الممالك بالمودة
والايناس . . . وتستخدم عناصر عجيبة كالطير والريح والجن
والانس . . . والهدد . . .

وقد ورد ذكرها فى القرآن مجزأة . . . كمشاهد مثيرة ،
ومواقف مغرية . . . تتكامل فى النهاية لتعطى شكل هذه
الحضارة ، تكررت ست عشرة مرة . . . اخترنا منها ما هو أجمع .
وأشرنا الى الباقي . . .

وقد امتدت مملكة سليمان من خليج أيلة وفلسطين وشرق
الأردن ولبنان وسوريا الى شطر الفرات وقد تم تشييد هيكل
سليمان على جبل موريا بيت المقدس (عام ٩٧٥ ق م) وقد

(١) الآيات ٣٠ : ٣١ ، ٣٢ . ٣٣ سورة ص .

(٢) الآيات من ٣٦ — ٣٩ سورة ص .

(٣) آية ٧٩ سورة انبياء .

أثر عن سليمان أنه بعد أن بنى الهيكل صعد فوقه ونادى ربه
نداء وجدانياً رقيقاً قائلاً في تواضع : رب لم تسعك سماواتك
فكيف يسعك هذا الهيكل الضئيل ، رب اجعل نظرك على هذه
البقعة من الأرض » . . وهذا النبي الاواب تصوره كتب اليهود
على أنه ملك غوى غارق في الخمر والنساء » . . فانظر الى الدس
والتدليس ؟ !

وأول ما يطالعا من هذه الحضارة عنصر الرونق
والجمال . . فقد طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكاً لا ينبغي
لأحد من بعده فرزقه الله تمكيناً هائلاً في الارض ، وسخر له
الشياطين ، وعلمه منطق الطير ، وآتاه حكماً وعلماً . . وجعل
قوام جيشه الجن والانس والطير . . ومنحه من الخيول
الأصيلة ما يستخدمه للجهاد والزينة . . ومكنه من الاصداف
والجواهر والآلىء تستخرجها الجن وتجتلبها له .

وهذه المقومات من أهم الأسس في بناء الحضارة وقد
انعكست آثارها على شكل آثار فخمة وهياكل ضخمة ومدن
رائعة وأدوات بارعة ومناظر تخلب الأبواب . . وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء .

وقد ارتكزت هذه الحضارة في فلسفتها على [العلم ،
والعمل ، والحكمة] كما مر . .

فأما العلم فيشير اليه ربنا بقوله : « وكلا آتينا حكماً
وعلماً » أى كلا من داود وسليمان . .

وأما العمل فيشير اليه قوله سبحانه : « اعملوا آل داود
شكراً » وقوله سبحانه في تسخير الجن لسليمان « يعملون له
ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدر
راسيات » . .

وان حضارة يمتزج فيها العلم بالايمان لهى أقوم حضارة وأسمها ، ولقد استطاعت بالحكمة أن تجعل كل انجازاتها فى خدمة الأهداف النبيلة . من أجل الهداية والايمان . . لقد تمكنت من وضع مبتكراتها من قصور وهياكل وصروح فى خدمة الايمان . . وفى خدمة الانسان . .

وم تجعل الانسان خادماً لهذه الأشياء أو عابداً لها أو مفتوناً بها . انها وسائل لمرضاة الله يحس كل فرد فى جو هذه الحضارة بأنه يتنفس فى بيئة مؤمنة ، تغمرها أضواء الايمان . . وقد أفلست حضارة اليوم فى أن توفر للانسان هذا الجو . انها حولته الى عابد للحضارة . . فامتھنت بذلك خصائصه ، وأهدرت كرامته . . فأين ذلك من حضارة تسدها « الحكمة » ويخططها العلم ، ويبنيها العمل . . لقد جاء فى سفر الملوك الأول أن العمائر التى شيدها سليمان :

[بيت الرب ، وكان على مساحة تقدر بنحو ستين فداناً ، وبيت الملك ، وسور أورشليم ، وحاصور ، ومجدو ، وجازر ، وبيت حورون السفلى ، وبعلة ، وتدمر فى البرية] هذا عدا المخازن ، ومدن المركبات ، ومدن الفرسان وما بناه فى لبنان وغيرها من سائر مملكته فاذا أضفنا الى ذلك ما ذكره القرآن الكريم من صنع المحاريب . . وهى أماكن العبادة والتماثيل من نحاس وحجر ونحوهما ، وكانت حلالاً فى هذه الشريعة . . والجفان أى القصاص الضخمة ، كأنها الجوابى أى الأحواض التى يجبى إليها الماء ، والقصور الضخمة التى لا يمكن رفعها .

حضارة صناعة وعمل :

كل هذه المنجزات الحضارية من عمائر وهياكل وقصور ومن أدوات أخرى كالجفان ، والقصور ، والتماثيل ، وقد احتوتها حضارة سليمان ، وتحول المجتمع فى عهده الى مصنع كبير ،

تنصهر فيه كل القوى البناءة ، وتعمل السواعد القوية ، وتنتظهر
الأيدي بالكد والمعاناة ٠٠ وليس في مجتمع سليمان مكان لخالل
أو قاعد ٠٠ وقد اختلط صنع الجن بصنع البشر وتمازجت
العناصر المختلفة في المصنع الكبير ٠٠ فكان موكب العمل يتألف
من الجن ، والإنس ولهذا كانت حضارة الخوارق ، يدل لذلك
قوله سبحانه : [والشياطين كل بناء وغواص ٠٠ وآخرين
مقرنين في الأصفاد ٠ هذا عطاؤنا (١)] ٠ وقوله : « ومن الجن
من يعمل بين يديه باذن ربه » ٠ وهذا التسخير انما يتم
لسليمان « باذن ربه » فليس له أو لأحد في مملكته أن يركب
رأسه ، أو ينسى نفسه ، أو يفتات على ربه ٠٠

انها على العموم حضارة علم يترجم الى عمل ، تسدده
الحكمة الراشدة وتنشئه السواعد المؤمنة ٠٠ وتتغشاها
المعجزات الخارقة ويمارجه الايمان بالله !!

وقد أصبح سليمان مضرب الأمثال في تلك الخوارق : يقول
الناطقة مخاطباً النعمان بن المنذر ٠
الا سليمان اذ قال الاله له : قم في البرية فاحدوها عن الفند
وخيس الجن : انى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
كما ضرب به المثل في فهم اللغات ومعرفة أسرارها ٠ فهذا
المتنبى يسير في شعب بوان بفارس فلا يكاد يفهم لغات القوم
فينشد :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

عنصر الإعجاز في تلك الحضارة :

ان عنصر الإعجاز جعل من هذه الحضارة عالماً سحرياً
بديع الرواء ٠٠ بل دغلا واسعاً كثير الشعاب من أين جئته

(١) آية ٣٧ ، ٣٨ سورة ص ٠

وجدت ما يروعك ٠٠ وقد مازجتها بعض الأساطير والمبالغات وبخاصة في كتب اليهود ٠٠ وعلينا في هذا المجال أن نمضي مع القرآن الكريم ٠٠ وفيه قدر صالح من هذه الخوارق لتكوين فكرة واسعة عن هذه الحضارة والذي يتأمل الآيات القرآنية يخرج بما يلي :

١ - أن هذه الحضارة قد تم انجازها بقوى مذهلة متنوعة من جن وانس وطير كل واحد من هذه العناصر له مكانه في بناء الهيكل الحضارى ؛ فلريح مكانها ، ولجن مكانه ، وللهدهد مكانه ، وللبشر مكانهم . ويتم التنسيق بينهم بواسطة القيادة الواعية الحكيمة قيادة سليمان عليه السلام ٠٠ ولقد بلغ من وعيه أنه كان يحشد جند مملكته الكثار على شكل استعراض عام لجيش منظم ثم يتفقد صفوفهم ٠٠ ويبدى ملاحظاته ٠٠ ويعرف من غاب من بينهم « وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان مبين (١) » ٠٠ فانظر كيف أدرك غيبة الهدهد ٠٠ وحسم فى الأمر عسكرياً . فاما التعذيب والذبح ، واما الحجة التى تبرر غيبته عن الحشد الهائل ٠٠ وذاك هو حزم القيادة ووعيتها ويقظتها ٠٠

٢ - أن الله جلّت قدرته قد طوع لها من الكائنات وسخر لها من عناصر الكون وذلّل لها من النواميس ما جعل كل شيء ميسراً سهلاً فى يد سليمان ٠٠ فصنوف الجواهر والآلى والأصداغ التى يضطر إليها للبناء والتزيين تجتلبها له الجن والريح تستخدم وقت الحاجة لدفع السفن ، والتأثير فى الزرع بأمر سليمان وتكليفه ، وأدوات البناء كلها يتعاون الشياطين

(١) آية ٢١ سورة النمل .

على احضارها وتشبيد القصور بها ٠٠ والهدهد يأتى بالأخبار
وينقل الرسائل ، والطير كلها تنجز من المهام ما يسند اليها ٠٠
والخيول الأصيلة تتكاثر في ملك سليمان وتكون عدة للجهد ٠٠
منه التماثيل وأدوات الحرب ٠٠ والحجب تزال بينه وبين
الأشياء فيفهم منها ويتلقى عنها ٠٠ وينتفع بها ٠٠ ماذا بعد
هذا؟ ٠٠

تيسير في عالم الانس ، وتسخير في عالم الجن ، وتطويع في
عالم المادة ، وتسهيلات في عالم الطير وعالم الجماد ٠٠!! وكل
ذلك يجعل من حضارة سليمان نموذجاً للثراء والبهاء ولكنه
جمال لا يفضل ولا يذهل ٠٠ ولا يبعد عن الله ٠٠ بل يزيد
صاحبه قرباً من ربه وشكراً لآلائه وتسبيحاً له بالغدو
والأصال ٠٠

فانظر كيف تسخر العوالم كلها بارادة الله للمتقين !!
وكيف تذلل التقوى كل صعب وعسير؟! وليس لنا أن نسأل :
ما كنه هذا التسخير ؟ وكيف استخدم سليمان الجن ؟ وفهم
لغة الطير ؟

وسخر الريح ؟ وما بساط سليمان الذى احتل في الأساطير
مكاناً مرموقاً ؟

انه الاعجاز الالهى ٠ ٠ وهو سبحانه قادر على أن يلغى كل
النواميس المألوفة ، ويزيل الحواجز والحجب بين الانسان وبين
الكائنات من جن وطير وجماد وريح لأنها جميعاً من خلقه ، فهو
أعلم بأسرارها ، وأعرف بخواياها « انما أمره اذا أراد شيئاً
له كن فيكون » ٠

وليس الأمر هنا أمر التجارب البشرية ، أو العلم الانساني ولكنه أمر خالق الأكوان ومولج الليل في النهار وما يليق بانسان يحترم عقله ، أن يزوج به في هذا المضمار الذي استأثر به علم الله !! لأن ذاك فوق طاقته وقدرته .. عليه أن يصدق ما ورد في القرآن خاصا بهذا الموضوع .. وليس له أن يتجاوز قدره فيفلسف الأمور أو يتساءل عن قوانينها .. كما أن علينا أن نتجنب المبالغات التي احتوتها كتب اليهود لانها ضلالات مصنوعة .. وأكاذيب موضوعة وكم لليهود من ترهات !؟

٣ - أن هذه الحضارة رغم ما تهيأ لها من وسائل الاعجاز لم يقعد أصحابها عن العمل - وانما استثمروا الكائنات - واستفادوا من الفرص المتاحة .. وتحركوا بالعمل في كل اتجاه .. فهم لم يقعدوا لصنع الجن لهم ، ولم يكسلوا لتنوب الريح عنهم .. وانما انطلقوا بهذه التيسيرات يسخرونها بأمر الله .. ويستخدمونها بقدره .. وينجزون بها الأعمال الخارقة .

ومن ثم فنحن نلاحظ أن داود عليه السلام يتمكن من الانة الحديد لا ليقد وينام ولكن ليصنع بيده الدروع .. ويبعد في هذا العمل أيما إبداع .. وسليمان ينقاد له النحاس سائلا فينفجر كما يحب لا لينام على ذلك ولكن ليستخدمه في الصناعة ويحوله الى أدوات ..

ويصدر التكليف العام من السماء لآل داود جميعا أن يكونوا قدوة في العمل .. لينقل الناس عنهم ، ويتعلموا منهم ، فيخاطبهم الله بقوله : « اعملوا آل داود شكراً » وهو تكليف لتلك الأسرة البانية أن تنصهر باستمرار في جو العمل .. وأن تتخذ منه وسيلة لشكر الله ..

وشتان بين قوم هود الذين قال الله فيهم : « أتبنون بكل ريع آية يعبتون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ؟

وبين آل داوود الذين يوجههم الله الى الشكر الدائم ليكون عملهم في مرضاة الله « اعملوا آل داوود شكراً » نعم شتان بين حضارة للهو والعبث والرياء والتظاهر واعلان الحرب على الله ، وبين حضارة مسبحة عابدة شاكرة لله!! الأولى طبيعة الحضارة العادية .. والثانية طبيعة الحضارة السليمانية .. ومن ثم بادت الأولى وذهبت مع الريح وبقيت الثانية حتى استوقف قدرها الالهى !!

٤ - أن التجرد لله ، والعمل بشريعته .. واخلاص القلب له .. هن الرسائل التى تمكن للانسان فى الأرض .. والله سبحانه لا يمنح تأييده للفاجرين ، ولا للفسادين .. وانما يؤيد أوليائه وأنبياءه .. ويخرق لهم قوانين الكون ونواميس الطبيعة ، ويزيل ما بينهم وبين الكائنات من عوائق .. لهذا ، فان نظام الحضارات انما يزدهر ، ويتألق ، فى رحاب الايمان ويندحر ويذهب مع الفسوق والعصيان .. وكم من حضارات شادها الايمان ثم دمرها الكفران .

٥ - أن سليمان ، ومن قبله داود ، له يتم لهما هذا التمكين ليتحولا الى آلهة تعبد من دون الله ، لأنهما نبيان معصومان .. وقد بلغا من الشفافية والضراعة والاخبارات لله حداً لا نطقه ولا نتخله .. ومن ثم فانه ليس لهما تأثير مباشر فى الكون .. وانما التأثير والفاعلية لله .. لأنهما لم يصلا الى هذا المقام الا بحسن الشكر وصادق العبادة .. أما هما كبشريين فامكانتهما محدودة لا يتصرفن فى شئ لأن التصرف مقصور على رب الكون ومنشئه .. وهو سبحانه يضع سره فيمن يشاء من عباده .. ولذا يحرص التعبير القرآنى فى هذه المقامات الباهرة على أن يضيف التأثير كله لله وانظر معى فى قوله سبحانه : وألنا له الحديد ، وأسلنا له عين القطر ، وسخرنا له الريح ، وعلمناه

منطق الطير ، وعلمناه صنعة لبوس لكم ، ومن يزغ منهم عن أمرنا ، ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه [فأنت ترى نون العظمة تسود الموقف كله ، وترى في بعض الآيات تصريحاً بأن هذا التسخير تم بأذن الله ، أو بأمره ومشيئته . .

هل تحس لداود وسليمان وضعاً في هذه الآيات ؟

كل ما هناك أنهما مخلوقات تجرى على يدهما آثار القدرة الباهرة . . ولكن ليس لهما تصريح أو إرادة أو أمر في هذا المقام الأرفع . . وهذه الكائنات من جبال وطير ونمل وجن مأمورة مسخرة منقاداً لأمر خالقها وخالق الإنسان فليس لأحد بالغ ما بلغ العلم والحكمة أن يزعم لنفسه شيئاً من الأمر . . ونحن نرى أن لهذه اللوحة في التعبير القرآني أثراً كبيراً في إلزام الإنسان حد نفسه حتى لا يتجاوز حجمه وصدق ربنا إذ يقول : [وما أوتيتم من العلم الا قليلاً] ان النواميس الكونية مخلوقة لله فهو يبقها ان شاء ويلغيها ان شاء كل ذلك لحكمة يعلمها - واذن فعلى العلم البشرى الضيق الضئيل أن يلتزم حد الأدب فلا يتدخل فيما ليس له فيخضع المعجزات لقوانين العلم العادي !! وعلينا جميعاً أن نخلص عقيدتنا لله وحده وأن نحصنها ضد وساوس الشرك وهو اجس الشيطان !! .

٦ - تزدان تلك الحضارة بأنماط فخمة من وسائل الجمال والزينة التي لا تستطيع حضارة البشر بالغة ما بلغت أن ترتقى إليها فهي حضارة فوق وفن وجمال فيها النحت متمثلاً في التماثيل والهيكل - وفيها البناء متمثلاً في المحاريب والمعابد وفيها دقة الصنع متمثلة في الجفان ، والقصور الراسيات - وفيها الزينة متمثلة في الخيول الصافنات - وفيها الزخرفة متمثلة في الترصيع بالدر والياقوت وما شئت من الحلى واللاّلى والأصداف . . وناهيك بالصرح الممرد من قوارير . .

هذه بعض العناصر المادية المتشابهة لتلك الحضارة الزاخرية المتألقة التي لم تستطع رغم بهائها وروعها أن تستعبد قلب سليمان لأنه يعرف جيداً أنها ابتلاء وامتحان فلم يسمح لها أن تستخدمه - وإنما استخدمها هو - وعاشت منفصلة عن قلبه . . وجعلها في خدمة البشر ولم يجعل البشر عبيداً لها . . كما فعلت المدنية الحديثة حيث جعلت الإنسان عبداً للآلة والمصنع والمال والشهوات . . ان الإنسان في حضارة داود وسليمان عبد الله فقط لكنه سيد لكل عناصر الكون ولكل منجزات الحضارة وتلك هي الحضارة الربانية التي يتجه بها الإنسان إلى خالقه وخالقها . . مسبحاً مقدساً هاتفاً من الأعماق : « هذا من فضل ربي » فهذا هو الاعتراف بفضل الله والانصراف عن لهو العيش وزائف الحياة . . « ففروا الله انى لكم منه نذير مبين » . .

ومن خلال تتبعنا لروعة تلك الحضارة ، نقطع بأن سليمان قد بلغ من بطولة الايمان واليقين منزلة رائعة حيث لم يفتنه هذا الملك الكبير الذي يعبر عنه بقوله : يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء [وللملك اغواء ، وللجاء اغراء ، وللدنيا تسلط على القلوب ولكن !! أين كل ذلك من قلب نبي أو اب اجتباه الله وصنعه على عينه ولم يجعل للدنيا سلطاناً على قلبه ؟ !

من روائع الحضارة السبئية :

بين بلقيس وسليمان : ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم في موضعين . . الأول في سورة النمل الآيات [من ٢٣ - ٤٤] وفيه تفصيل لما حدث بين بلقيس وسليمان ، وما كان من بين النصارى واليهود وقصة أصحاب الأخدود معروفة في أمر اسلامها والثاني في سورة سبأ من الآية [١٥ - ١٩] وفيه

حديث مفصل جامع عن جنان سبا ، وسد مأرب ، وسيل العرم ،
وتفرق القبائل . . . وسنتكلم عن الموضوعين بالترتيب لما
احتويا من وصف رائع أخاذ لمعالم حضارة زاهية جميلة . .
تشابكت فيها عناصر مادية وروحية . .

الموضوع الأول : كانت مملكة سبا تقع بجنوب اليمن ،
وعاصمتها مأرب ، وملكتها بلقيس التي حكمت تلك المنطقة
حكما شوريا ، وكانت تحكم في منتصف القرن العاشر قبل
الميلاد لأنها كانت تعادى سليمان وكان هو يحكم سنة ٩٥٠
قبل الميلاد ، وهى إحدى ملوك حمير المعروفين وكانت وثنية
تعبد الشمس لكنها أوجدت في منطقتها حضارة زاهية تقوم
على الزراعة ، وبناء السدود ، وتنسيق الحدائق . . ولا غرو
فالحضارة اليمنية قديمة عريقة ، وكانت أرضه تعرف بالأرض
السعيدة وقد تعاقب عليها من أجل ذلك غزاة طامعون في حقب
مختلفة من التاريخ . ودارت على أرضها وقائع كبيرة وبخاصة
بين النصارى واليهود وفترة أصحاح الأخدود معروفة في
القرآن الكريم وقد استعمرها الأحباش والفرس وتنازع البقاء
فيها يهود ونصارى . . كانت السفن ترسو على شواطئها
تجلب اليها البضائع ، من الهند الشرقية وبلاد الصين وسواحل
أفريقية . . ثم نذهب الى صنعاء ومأرب لتنتقل منهما على
ظهور الابل في قوافل ضخمة الى الشام والعراق ومصر وحوض
البحر الأبيض المتوسط . . وكانت مأرب تتقاضى الضرائب على
البضائع المارة بها وكان هناك تبادل تجارى بين الجنوب
والشمال في شبه الجزيرة العربية .

وقد اشتهرت في اليمن صناعات قديمة منها نسج المواد
الخام التي كانت تستورها من الهند ، والبرود اليمنية مشهورة
ومعروفة . . وأكثر منها في الشهرة السيوف ، كما كان أهلها
مهرة في فن العمارة والنحت يدلنا على ذلك ما خلفوا من سدود

وفصوص وحصون ومدائن ومعابد وحياض لخن المياه ، ولقد وصف الهمداني قصر غمدان وأنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض بين كل سقفين عشرة أذرع ، وقد غطى أعلاه برخامة واحدة شفافة ، وكانوا يزخرفون المباني بالنقوش والرسوم وكان بعض مبانيهم بيضى الشكل مثل « حرم بلقيس » ولعله كان معبدا ، وقصور اليمن قد أظن أبطنب المؤرخون في وصفها . . هذه بعض عناصر تلك الحضارة . .

وقد امتازوا بعد العمارة والتجارة ، بالزراعة ، زرعوا السهول المنبسطة ، وسفوح الجبال ، وعنوا بمسائل الري ، وحفر القنوات وأنشأوا مئات السدود لخن الماء أيام السيول ورفع مستواه ليصل الى السفوح ، وكانوا يعنون بالكروم عناية خاصة حتى لقد ذكر الهمداني صاحب كتاب جزيرة العرب أكثر من عشرين صنفا من أعنابهم .

ويمكننا أن نستخلص أن هذه الحضارة قد اكتملت في اليمن بصورة عامة وفي جنوبها بخاصة ، عندما كانت البلاد مستقرة تعيش في ظل عقيدة دينية سمحة يوم تم الاتصال التاريخي بين بلقيس ملكة سبأ ، وبين سليمان النبي ، ودخلت في دينه بعد أن شاهدت أبهة ملكه وفخامة عرشه وجلال عقيدته وتأكدت أنه ليس ملكا دنيونا يبغى تكوين امبراطورية ، وإنما نبي صالح يبغى بناء مدينية فاضلة وترسيخ عقيدة مؤمنة ، وعندما اندمجت مملكتها في مملكة سليمان نعمت بعقيدة الايمان ، فسعدت بحضارة وارفة الظلال ، هي التي وصفناها قبل ذلك . .

والقرآن يشير الى ذلك بوضوح في الآيات (من ٢٤ - ٤٤)
من سورة النمل . .

ولابد لنا من وقفات تأملية أمام بعض الاشارات القرآنية
لنستنبط منها معالم الحضارة السبئية ، في تلك الفترة الخصبة
من تاريخ اليمن . .

قصة خالدة أو رحلة الايمان :

وخلاصة القصة في وجازة كما وردت في القرآن . . أن
سليمان عليه السلام كان يحشد جيشه النظامي ، ثم يستعرض
صفوفه . . ليوجه الجند ، ويشرف على تنظيمهم . . وقد حدث
ذات يوم أن تفقد الطير من بين الصفوف فلم يجد الهدد . .
فتهدده بالوعيد الشديد ان لم يبرر تخلفه عن حضور
الاستعراض ، وهو التعذيب أو الذبح . . فأنبأ الهدد ، وكان
قد حضر ووقف على مقربة منه بأن لديه خبراً عجبياً يريد أن
يفضى به اليه . . ثم شرع يقص قصته . . لقد ذهب الى أرض
سبأ ، فوجد ملكتهم امرأة ، تملك أمرهم ، وتحكم بينهم . .
ولها عرش عظيم ، وسلطان واسع . . بيد أنها تعبد الشمس ،
فكتب سليمان النبي كتاباً ، ودفع به الى الهدد وأمره أن يتجده
به الى الملكة ويسلمها الخطاب . . وأنه سيعرف صدقه أو
كذبه من خلال تنفيذ هذه المهمة ، وكان الخطاب دعوة الى الايمان
وطالب فيه ألا يعلوا عليه . . ووصل الهدد بالخطاب وقذف به
الى الملكة ، وقرأته مندهشة . . ثم جمعت قومها لتأخذ رأيهم في
أمر هذا الخطاب ومضمونه . . فأكدوا لها جميعاً أنهم أقوياء ،
فاذا رأت الملكة أن يحاربوا فهم على استعداد ، فوضوا لها
الأمر . . ولكن المرأة تعرف نتائج الحروب فأشارت عليهم بأن
تسلك مع هذا الملك مسلكاً سلمياً ، تبعث اليه بهدية فخمة
تترضاه . . وتكشف عن دخليته . . وفعلوا نفذت ذلك . . لكن
سليمان رفض الرشوة ، واحتقر المال . . وأكد لهم أن الله
منحه ما هو أسمى من ذلك كله وهو الايمان . . وأنها ان لم
تدعن وتحضر اليه مسلمة فسيرسل اليها جيشه القوي .

وعلى أثر هذا التهديد جاءت تسعى الى سليمان . . الذى أعدلها مفاجأة تتجلى فيها القوة والسلطان ، وهو احضار عرشها وتغيير بعض مظاهره . . ليعرف أهى ذكية تعرف ؟ وكان الذى أحضره رجل صالح ممن عنده علم من الكتاب . . ثم بنى له صرحاً من زجاج ووضعه على سطح الماء اظهاراً لفخامة ملكه وعظمة سلطانه . . فأما هى فعجبت حين رأت العرش وأبدت دهشتها ولم تقطع بأنه عرشها . . بل اكتفت بقولها : « كأنه هو » أما الصرح فقد شمرت عن ساقها ظناً منها أن الصرح ماء فقيل لها : « انه من قوارير » تبدو كالماء وماهى بالماء . . فهتفت بعد ما رأت جمال الحضارة وجلال الايمان :

« رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » والمفسرون يذكرون أن سليمان نزوج منها وجاء بولد يزعم بعض ملوك الحبشة أنهم من نسل ذلك الولد . . فهم أبناء سليمان .

« بين بلقيس وسليمان » من وحى الآية :

١ - قوله سبحانه على لسان الهدد : [أحطت بما لم تحط به] يخاطب بذلك سليمان ، يدل على ذكاء هذا الهدد ، فقد استطاع أن يمتص نقمة سليمان عليه بهذا الاعلام المثير : « أحطت بما لم تحط به » وأى انسان يسمع أحد أتباعه يقول له ذلك ، ثم لا يلتفت اليه بكل قلبه ويذهل عما هو فيه ؟ !

وهنا أسرار ربانية لا تخفى ، فهذا هدهد يعرف ما لا يعرف نبي كريم ، وينطق بما يفهمه سليمان ، ويفهم عن سليمان مايقول . . ويقدر الموقف الرهيب الذى تتهدده فيه عوامل الموت بسبب تخلفه . . فمن ألهم الهدد كل هذا ؟ من استودع فيه تلك الأسرار ؟ ثم ماهذه الفصاحة التى يتحدث بها الهدد

وما هذه الغيرة على الايمان ؟ حين أنبأ سليمان أن القوم يعبدون الشمس من دون الله ، وأن الأحرى بهم أن يسجدوا لله الذى يعلم الأسرار ، ويولج الليل فى النهار . . لا غرو فالهدهد جندى من جنود سليمان ؟ وعضو فى مجتمعه . . فهو ليس هدهداً عادياً وسبحان من ألهمه وعلمه !!

٢ - قوله سبحانه على لسان الهدهد : [انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ الخ]

يعطى التعبير أنها كانت ملكة تحكم قومها حكماً شورياً ، ولذا قال : « تملكهم » ولم يقل : تحكمهم وانه ليدل كذلك على عظمة ملكها ووفرة مالها ، وكثرة أسلحتها . . وسعة ثروتها . . ولذا ورد على لسان حاشيتها : « نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد » فهي مع شعبها تحيا فى ظل حضارة تملك الثراء وتملك القوة . . ويدل هذا الرد من جانب الحاشية أن الشعب كان متلاحماً مع قيادته يتجاوب معها . . ويتحمس لفكرها . . بدليل أنهم بعد أن أعلنوا عن بأسهم وقوتهم . . أكدوا لها الولاء بقولهم : « والأمر اليك » . . ومما يؤكد أن حكم هذه الملكة لشعبها كان شورياً ، أنها لم تقطع فى الأمر دونهم ، بل جمعتهم لتأخذ رأيهم وتتشاور معهم فى هذا الأمر الخطير . . الذى يشكل تهديداً مباشراً لملكها . . فهذا أشبه بمؤتمر عام موسع تستفتى فيه القاعدة الشعبية . . اذن : فهذه الملكة كانت تعيش تجربة سياسية مع شعبها تقوم على الشورى واحترام ارادة الشعب ، ومن خلال ذلك نستنبط أنه ما من تجربة يصل اليها العالم المتمددين الا ولها وجه فى التاريخ القديم غالباً .

كما أننا نستنبط عراقه الحكم الشورى وامتداد جذوره فى أغوار التاريخ !!

وما أجمل قول المؤتمر : « والأمر اليك » انه يعطى حسن الأدب مع القيادة ويبرز وجهها من وجوه الردود « الدبلوماسية » في مواجهة القيادات ولو كانت نسائية !!

ولقد كانت هذه الملكة كما وضحنا تملك ولا تحكم ، أو قل كانت تحكم بواسطة الشعب . . ولهذا أحبوها ،

٣ - في بدء خطاب سليمان قوله : [انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم] براعة استهلال ، وصفاء بصيرة ، وحسن توفيق . . فهو يحمل أولاً معنى التواضع . . من سليمان مجرداً لا من الملك أو النبي أو ماشئت من ألقاب تحشد حشداً في هذا المقام لا تستطيع الجمال حملها . . والبدء باسم الله سمة الرشاد ، وطابع الهداية الربانية ، فهو يدعو باسم الله لا باسمه ، ولا باسم مملكته . . وبقية الكلمات لها نباهة شأن في الهداية : « ألا تعلوا على » هل هناك تواضع أكثر من هذا ؟ انه يعرض الهداية . . ولعرض الهداية أسلوب ملؤه اللين ، والرقّة والتواضع ، وصدق التوجه الى الله .

وقوله : [واثقوني مسلمين] فيه ما يوحى بسمو العقيدة ، وأنه لا يملك الا أن يبررها في اطار من التسامى والعزة . . لأنهم لن يأتوا اليه صاغرين . . بل مسلمين ولمن الاسلام ؟

انه لله رب العالمين . . لقد تواضع سليمان فيما يتصل بأمر نفسه . . أما الدعوة فلا بد أن تعرض في اطار العزة والتسامى . . لأنها لله رب العالمين . . ولذا نرى التهديد في قول سليمان للرسول الذي جاء يقدم له الهدية : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

لماذا هذا الوعيد ؟ لأنها دعوة الحق . . والقوم يريدون أن يعيثوا . . فلا بد أن يشعروا بالجد والحزم .

٤ - في قول الملكة : « ان الملوك اذا دخلوا ٠٠ الخ » ما يوحى بأن الملكة أرادت أن تمتص حماسة الجند ، عندما أبدوا استعدادهم للحرب ٠٠ وكأتما غلبتها طبيعة الأنثى ٠٠ فأشارت لهم الى ويلات الحرب ٠٠ وأن الملوك عندما يتمكنون من بلد فانهم يذلون الأعداء ٠٠ ويفسدون في الارض ٠٠ انها من أجل ذلك تريد حلا سلميا ، فالهدية تؤلف القلب ، وتبرز نية هذا الملك ٠٠ ولهذا ساد منطق السلام ٠٠ وهدأت حدة الشعب ، وأيدوا رأى الملكة ٠٠ وذلك يعطى انطباعا بأن رأى القيادة اذا أحسن عرضه لاقى القبول من الشعب ٠٠ وبخاصة اذا كان الشعب ملتحماً مع القيادة واثقا في آرائها ٠٠ يكن لها الولاء والاحلال كما يظهر ذلك في قولهم : « والأمر اليك » .

٥ - في قول بلقيس : « انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان » معنى رائع ينبغى أن نقف معه لحظات ، ذلك أنها عندما شاهدت الأمر على حقيقته تأكدت أن أمر سليمان ليس أمر ملك دنيوى ، وانما الأمر هو أمر العقيدة والايمان ٠٠ وأنه لا يساوم على العقيدة بالمال ، ولو كان من ملوك الدنيا لقبل الهدية وفرض الاتاوة ٠٠ ثم ان ملكه كبير ، له من الروعة والجلال ما لا يتهيا الملوك الدنيا ٠٠ كل ذلك هيا قلبها للايمان ٠٠ ووجهه لله ٠٠ ولذا أعلنت عن هذا الايمان من غير تحفظ ٠٠ وكذلك الايمان عندما يغزو القلوب يندفع عنيماً كالسيل لا يعبأ بشيء من تهديد أو وعيد ٠٠ ولا يبقى على شيء من ثروة أو ملك فكل ذلك تافه الى جوار العقيدة .

وعندما تعلن عن ايمانها ٠٠ تبدأ عهداً مع الله ٠٠ بقولها « رب » ٠٠ وما أجملها من كلمة رقيقة عذبة ٠٠ تصعد الى حيث يصعد الكلم الطيب ٠٠ تنقل في لحظة واحدة قائلتها من وثنية مجوسية تعبد الشمس الى مؤمنة نقية تتجه الى الله ٠٠ وفي

قولها : « انى ظلمت نفسى » تعبير عن الاقتناع بالايमान ،
واقرار بأن ما كانت عليه زور وزيف وبهتان ٠٠ وطلب للمغفرة
من الله ٠٠

وفى قولها : « وأسلمت مع سليمان » يفيد : أن السلامها
لله وليس لسليمان انها أسلمت معه ولم تسلم له ٠٠!! وأنها
صارت بهذا الاسلام كفتاً للنبي الأواب ٠٠ تمضى معه على طريق
الايمان ٠٠ مسلمة وجهها لله رب العالمين ٠٠

فهذه عزة الايمان عندما يخامر القلوب ٠٠ تجعل المؤمن
صنوا للمؤمن مهما يكن مركز الثانى لأن العقيدة ترفع الى أعلى
المستويات ٠ وفيه أنها لم تسلم خوفاً من بطش ٠ بل أسلمت
لله وخضعت لأمره لا لأمر سليمان وجيشه ٠٠ ومن ثم ازدهرت
حضارتها فى ظل هذا الايمان ونقلت شعبها من ظلام الوثنية
الى نور الايمان ٠٠ وأصبحت حكايتها فى القرآن دليل عظمة
ورمز فخار تردها الملايين بروح الاعجاب والاكبار لأن
صاحبيتها لم تصر على الباطل بل انقادت الى الايمان ٠٠

من معالم الحضارة السبئية - سد مأرب :

فى الآيات التى أوردناها سابقاً اشارة الى سد مأرب
وتصدعه والمؤرخون يؤكدون أن هذا السد قد تصدع أكثر من
مرة ففى سنة ١١٥ ق م وفى سنة ٤٥٠ ق م وفى سنة ٥٤٠ ق م
حدثت تصدعات هائلة لذلك السد ، والقرآن الكريم يشير الى
أن سبأ بعد التصدع قد فقدوا كيانهم ، وضاعوا فى أرض الله ٠٠
لكن هل هو التصدع الأخير ؟ أم هو تصدع حدث من قبل ، ثم
تلاه ترميم السد ٠٠ معظم المؤرخين يشير الى أن التصدع الذى
أشار اليه القرآن ليس هو الأخير ٠٠ لان القوم قد رمموه بعد
واستأنفوا الحياة ٠٠

كتب الهمداني في كتاب الاكليل منذ عشرة قرون يقول :
 [سبأ كثيرة العجائب ، وكان لها جنتان عن يمين السد وشماله
 وهما غامرتان وانما عفتا لما اندحق السد أما مقاسم المياه من
 مداخل السد فقئمة كأن صنعها فرغ من عملها بالأمس] وهو
 كلام يوحى بعظمة هذا السد ، ويدل على ارتقاء القوم في سلم
 الحضارة . . . وتمكنهم من السيطرة على مياه الأمطار واقامة
 الخزانات . . . وبسبب هذا كانت أرضهم مخصبة ولقد أقيم هذا
 السد كخزان طبيعي يتألف جانباه من جبلين ، جعلوا على فم
 الوادي سداً بينهما . . . به عيون تغلق وتفتح واحتجزوا وراء
 السد كميات ضخمة من المياه وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان
 هذا مورداً مائياً عظيماً . . . ومما يدل على عظمة هذا السد ، أن
 كثيراً من المستشرقين قد زاروه وكتب عنه . . . فالمستشرق الفرنسي
 أرنو يزور مأرباً سنة ١٨٤٣ م ، ويشاهد السد ويرسم له
 خريطة ويصفه وصفاً يجيء مطابقاً لما يقوله الهمداني ، وورد
 في الجزء الثاني من كتاب « رحلة الى بلاد العرب السعيدة »
 للأستاذ نزيه العظم آخر من زار مأرب ما خلاصته : « على
 مسافة ١٤٥ كم الى الشرق الشمالى من صنعاء تجتمع سيول
 اليمن الغربية مع السيل الذى يأتى من الشمال والسيل الذى
 يأتى من الجنوب وتتوأم هذه السيول شبه بحيرة كبيرة
 مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ومنخفضة
 من جهة الشرق حيث تسير جميعها شرقاً في مجرى سيل واحد »
 ثم يستطرد في الوصف : « ثم يأخذ في الضيق الى أن يبلغ ١٧٥ م
 في مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له : مربط الدم وهو المكان
 الذى بنى فيه سد العرم ، ولم يبق سيل العرم للسد هنا أثراً
 غير مخرج الماء »

هذا خلاصة ما كتبه آخر زائر للسد استطاع أن يحصل
 على تصريح من امام اليمن يومذاك سنة ١٩٣٦ م ويظهر أنه

لس ببلاد اليمن أنهار دائمة الجريان لكن السيول تنزل بها كثيراً ٠٠ فاضطروا الى اقامة الخزانات لضبطها والتحكم فيها لحاجتهم الى ذلك والحاجة أم الاختراع ٠

وسد مأرب كما يصفه الهمداني هو أحد سدود اليمن ، وتوجد سواء سدود كثيرة ، ويصفه بأنه حائط ضخم أقيم في عرض وادى أذنه ويبلغ طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه من أسفل ١٥٠ ذراعاً وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً وكان ينتهى من أعلى بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى ، والظاهر أنه بنى بالتراب والحجارة وكانت به منافذ يتسرب منها الماء الى الجنان عن يمين وشمال - مقفلة بعوارض ضخمة من الخشب والحديد لاستخدامها وقت الحاجة وتقع مدينة مأرب الى الشمال الشرقى من السد وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحته ثلاثمائة ميل مربع - كان قفراً قاحلاً فأصبح بعد بناء السد غياضاً وبساتين المعبر عنها بالجننتين عن يمين وشمال ٠٠ لكن من الذى بناه ٠٠؟

معظم كتب التفسير وعلى رأسها الكشاف أنها بلقيس - وكذلك معظم المؤرخين ٠٠ وقيل ، حمير وقبل سبأ - والظاهر أن السد لم يتم في عهد واحد - لأن هناك أسماء كثيرة منقوشة قد اشتركت في بنائه ٠٠ وهذا معقول لأنه عمل حضارى رائع فلا بد أن تشترك في بنائه أياد كثيرة ٠

وقد أثبت المستشرق مولر بعد ترجمة كتابته أن سمعلى ينفوف بن زمر على مكارب سبأ اخترق « بلق » وبنى سداً لتسهيل الرى ٠٠ ويمكن أن يفسر بأنه بنى جانباً منه على ما أثبتته الأستاذ العظم ٠٠ ومعظم من اشتركوا في بنائه من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد ٠

تصدع سد مأرب : يرى الأستاذ الخضرى أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه - ولم

يصبح قادراً على حمل هجمات السيل – فتصدع وكان ذلك حوالى ١١٥ أو ١٢٠ قدماً أى قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف قرن تقريباً . كما قال العالم سيديو . . وكان تصدعه الحد الفاصل بين سقوط سبأ وقيام حمير . . وقد رمم عدة مرات كما أثبتت النقوش . .

وهناك أسطورة تقول ان تصدع السد بسبب فأر قد قرضه فأفسده من أسفل . . وهو كلام لا يعقل .

وقد ثبت أن أبرهة سنة ٥٤٢ م كتب الى أهل البلاد بأن يعاونوه في ترميم هذا السد بحمل الأحجار والاشخاب والرصاص – وأنه استغرق في العمل زهاء سنة .

ويرى المستشرقون : أن تصدع السد كان نتيجة اهمال من جانب أمة آخذة في الانحطاط وهذا هو رأى الراجح . . الذى يرشحه القرآن الكريم حيث ذكر أن التصدع حدث بسبب الاعراض عن الله . . ومن أعرض عن الله أنساه واجبه فى الحياة !! وجعله عبرة للناس . .

القرآن والحضارة السبئية :

يصف القرآن الكريم هذه الحضارة وصفاً رائعاً أخذاً . . حين كانت تستظل بظلال الايمان . . ثم يعرض لمأساة الانفصال عن الله وبطر النعمة – وعقوق الترف – وغير ذلك من الآفات التى تهوى بشوامخ الحضارات فتجعلها حديثاً يروى وقصة تذكر فى مجال التأسي والعظمة فيقول سبحانه : [لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له . . بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط

وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازى
الى الكفور ٠٠ (١) [٠

والآية تعرض تقلب الحضارة الانسانية بين الايمان
والكفر - بين الارتباط بالله والانفصال عنه فهي كانت في ظل
الهداية والايمان حضارة ذات جنات وارفة الظلال عن يمين
وشمال ٠٠ أى أن القوم كانوا مستمتعين بالنعم السوابغ ٠٠
والأرض الخصبة - والماء الغامر - والتجارات الرابحة -
والصناعات الكثيرة ٠٠ وأنهم كما تشير الآية قد تمكنوا من
انشاء حضارة سعية ٠٠ وهذه الجنان عن يمين وشمال هي رمز
الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ومن ثم كانت نعمة
من الله ؛ ويوحى التعبير القرآنى بأنها كانت تأخذ شكلا
هندسياً جميلاً عن يمين السد وشماله ٠٠ بدليل وصفهما
بأنهما « آية » ٠٠

وفيه دليل بعد هذا على وفرة الثمار ٠٠ وتنوعها وسهولة
تناولها وقوله سبحانه « كلوا من رزق ربكم » دليل على أنها
منحة من الله تعالى ٠٠ وأنها مهياة لهم ٠٠ ليأكلوا منها -
وقد ذكرهم بأنها من رزقه حتى لا يببطروها - وينفصلوا بها
عن الله ٠٠ ولهذا طالبهم صريحاً بشكره ٠٠ بعد أن وضح
لهم أنها من رزقه ٠٠ وأى نعمة أعظم من نعمة البلد الطيب
والرب الغفور ، سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة
فى السماء بالصفح والغفران ، فماذا يقعدهم عن الشكر ؟!

قا ابن عباس : كانت هذه البقعة أخصب البلاد وأطيبها ،
تخرج المرأة وعلى رأسها المکتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك
الأشجار فيمتلىء المکتل « تلقائياً » بما يتساقط فيه من الثمر .

(١) آيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ سورة سبأ .

وكلمة « طيبة » توحى بأنها خصبة - ليست سبخة ولا ضعيفة • وقال صاحب الكشاف : لم يكن بها بعوض ولا برغوث ولا ذباب ولا عقرب ولا حية - ثم ذكر أن القوم أعرضوا عن الله وطغوا فأرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا يذكرونهم فكذبوا وقالوا : ما نعرف لله نعماء علينا !!

فماذا ينتظر لقوم هذا شأنهم مع الله ؟ •• لقد وصف القرآن موقفهم من ربهم بعد ذلك بقوله : « فأعرضوا » هكذا بالتعبير الوجيز المعبر •• أداروا ظهورهم لربهم •• وقاطعوا شكر انعمة تلك هي الطبيعة الانسانية الكنود •• اذا بشمت بطرت ، وذا شبع ركلت •• واذا استغنت طغت •• والتعبير بالاعراض يوحي بالصدور والنفرة والتولى والتأبى ، فماذا كانت نتيجتهم ؟ هي ما تقرؤه في قوله : [فأرسلنا عليهم سيل العرم ••] ويفيد التعبير بالفاء أن العقاب كان حاسماً سريعاً حين عبروا عن موقفهم من ربهم بالاعراض الذي لا يترك أملاً في استصلاحهم ، وسيل العرم : وسيل مجتاح مدمر يحمل معه الحجارة ••

وكان من أثره أن حطم السد فانساحت المياه فطفت وأفسدت وتحولت الجنان الفيح الى صحارى للشوك والخمط والأثل •• كفروا بالمنعم فأزال عنهم النعمة [وبدلنا بجننتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل] هذا هو أثر السيل في الجنان •• يا الله !! أين الجنان النضرات عن يمين وشمال ؟ أين الزهرات التي كانت بالأمس مخضلة بالندى ؟ بل أين الورود التي كانت ناعسة في الغلائل ، أين قطوف العنب التي كانت متدلّية كالجداول ؟ أين ثمرات ناضجات مختلفات الطعوم والأشكال ؟ لقد صوح النبت وجف الشجر ، وغاضب المياه ، واندثرت الخلجان ؟ ونبت الشوك والأثل والخمط مكان الزهر

والثمر والورد . . وكذلك الاعراض عن الله يحول خصب الحياة الى جذب ، ومخضل الغصون الى خشب ، ورياض الأرض الى حشائش وعشب ، وهذا درس يجب أن يستوعبه بناء الحضارات وبخاصة في عصرنا هذا . . فمهم ، مهما اخترعوا ، بمعجزين !! وكذلك يجب أن يتنبه له أصحاب النعم . . وهو أن تظل نفوسهم خصبة بشكر الله . . حتى تظل أرضهم خصبة بالزهور والثمرات ويوم تجذب القلوب من الشكر يوم تجذب الأرض من الزرع . . والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

والخبط : الأراك وكل شجر ذى شوك ، والاثل : شجر يشبه الطرفاء والسدر : النبق وكلها نباتات لا تسمن ولا تغنى من جوع وبالمقارنة بين حالى الجنتين قبل السيل وبعده نرى أنهما تلاثمان حال النفوس خصبا وجديا ، ولقد ثبت أن أهل سبأ أقاموا رغم الشدائد والمكاره التى حلت بهم على الضنك والحرمان والمسغبة وعاشوا في شدة بعد لين ونعمة ، مكثوا في قراهم على هذا الحال البائس والعيش الضنك ، ثم زادت قلوبهم استغلاقا فطلبوا ابعاد الأسفار لتطول رحلاتهم بعد أن كانت المسافات بين قراهم قريبة ، وكذلك بينهم وبين الشام ، وكانت رحلاتهم الهيا مأنوسة لآخوف فيها ولاعناء وذلك قوله سبحانه : [وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين] معناه أن الله يسر أمر السفر لهم ، وقرب قراهم بعضها من بعض . . بحيث تبدو كل قرية ظاهرة للعيان . . وجعل رحلاتهم مأمنة بالليل وبالنهار لا يخافون عدواً ولا يحملون معهم زاداً . . ولكنهم أمعنوا في الفساد فقالوا « ربنا باعد بين أسفارنا » قال صاحب الكشف . بطروا النعمة ، وبشموها من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم

والبصل بدل المن والسلوى ٠١ هو والسبب هذا الاعراض عن الله ،
والتطاول في السفه مزق الله شملهم وفرق جمعهم ، وجعلهم
أباديد ٠٠ ففقدوا هديتهم وضلوا في أرض الله لحق غسان
بالشام وأدمار بيثرب ، وجذام بتهامة والأزد بعمان ٠٠ وهكذا
أصبحوا خبرا يروى وقصة تحكى موعظه تساق في معرض
الناسى ٠٠ وستظل هذه القصة حافزا يدعو الى شكر النعمة
مابقى في الدنيا قرآن يتلى ٠٠ وحتى يرث الله الأرض ومن
عليها ٠٠

عظة وعبرة :

تلك حضارات قد ورد ذكرها في الكتاب العزيز في معرض
العبرة والعظة لتكون درساً بليغاً لأصحاب الحضارات حتى
يتنبهوا الى العوامل التي تؤدي الى ازدهار الحضارة والأسباب
التي تؤدي الى انتحارها ٠

ومن البدهى أن هذه الحضارات كانت اقليمياً ازدهرت
فترة من الزمن ٠٠ حتى اكتمل دورها ثم توارت لنحل محلها
أخرى ٠٠ لأنها لم تزود من العلم والخبر بما يجعلها مستمرة ،
وعالمية تضىء الحياة ، وتخضب الوجود وتطرح لكل الأجيال ٠٠
لقد كانت ومضات مشعة أضاءت فترة ثم انطفأت حين انقضى
دورها ٠٠ أو ذبالة نألق سناها حين كان الزيت يمددها حتى اذا
نفذ الزيت انطفأت الذبالة ، كانت كل حضارة من الحضارات
السابقة أشبه بشبكة كهربية ضعيفة تضىء قرية فهل يمكن
أن يستخدم تيارها لأضاءة مدينة ؟ ذلك بالضبط هو ماحدث
للحضارات التي ازدهرت في ظل الأديان السماوية ٠٠ رغم أن
بعضها فعلاً قد استنقام على أمر الله ، وأدى رسالته في الحياة
كالحضارة الداودية والسليمانية ٠٠ ولكنهما لم تعمرا أكثر من
عمرهما المقذور لأن طاقتهما محدودة ٠٠ ولن نجد الحضارة التي

تستمر وتضىء آفاق العالم كله الا الحضارة الاسلامية ، التي
سنتعرض لها بالدراسة المفصلة في الجزء الثانى من هذا الكتاب .

كم من مواكب بشرية أقامت على ظهر الأرض ، ورتعت في
النعم ، ومكن الله لها . . فازدهرت وسعد أصحابها . . حتى
إذا أعرضت عن الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون . . كم من حضارات عمرت الأرض - وابتكرت أروع
الوسائل وملكت أفخم القصور . . ونحتت في الصخر - ومهدت
الطرق - وأنشأت الخزانات . . وفجرت الينابيع واستخدمت
المصانع . . ولكنها مع ذلك لم تثبت على الايمان فكان جزاؤها
الضياع والدمار وذهب أصحابها لم يعبأ بهم التاريخ - ولم
يكثر بهم القدر « فما بكت عليهم السماء والأرض وماكانوا
منظرين (١) » « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
العالمين (٢) » .

(١) آية ٢٩ سورة الدخان .

(٢) آية ٤٥ سورة الانعام .

الباب الرابع

العالم قبيل القرآن

نظرة على العالم في القرنين السادس والسابع الميلاديين :

عاشت الانسانية هذين القرنين وهي تعاني قلقا في الروح وجديبا في العواطف وانحداراً رهيباً في الأخلاق وانفصالاً شائناً عن الله جعلها تضل في عالم الظلمات ، وتفقد خصائصها الانسانية التي زودها الله بها وتهدر طاقاتها الهائلة في حروب مجرمة لا تحقق حقاً ولا تزهرق باطلا ، وانما لتزيد الشهوات الحادة سعيراً ونهما ، والامبراطوريات الشرهة رفاهية وجشعا ، والسلاطين المتآلهين عتراً واستكباراً ، واستعبد البشر بعضهم بعضاً فاستنذل الأقوياء رقاب الضعفاء وساموهم سوء العذاب ، ولم تعد الأديان السماوية قادرة على تلطيف حدة هذا السعار والاستقامة بالحياة على منهج الواحد القهار لأنها فقدت صفاءها وضيائها ، بعد ن نال الديانتين الكريمتين من التشويه والتحريف ما جعلهما جسداً بلا روح وكيانا بلا طموح ، لقد لوثنتهما ارادة البشر وجعلت منهما أداة طيعة لخدمة الأهواء والمطامع ، فضعف أثرهما في نفوس البشر ، وأهدرت كرامة رجال الدين . فانسحبوا من الحياة ، ولاذوا بالأديرة : وبذلك خفت صوت النبوات فلم يكن نديا كالعهد به ، قويا كالعروف عنه ، وانما أضحي ضعيفا لأن ارادة الجبارين لا تريد له أن يرتفع حتى لا يهدد مصالحها وحتى لا يذكر الناس بانسانيتهم المحتضرة ، وكرامتهم الضائعة ، وقيمهم المهذرة .

لقد استحال كون العالم الى فساد ، وتفتكت حضارته بالتترف ، تحكمته سياسته بالأثرة ، واتسمت عقائده بالتعصب ، وأهدرت دماء الناس سفها وبغياً لغير مبدأ ولا هدف ، واشتعلت الحرب بين الروم والفرس فما تهدأ حدثها ، وما تنطفئ نارها . . . وانما تزداد حدة وسعاراً ، لأن كلا من الدولتين الكبيرتين قد فقدت مثلها العليا ، فحياتهما حياة السوائم ومدنيتهما مدنية القطيع ، وحضارتهما حضارة الغاب ووجودهما عبء على الحياة وثقل على الوجود ، ضرائب اثر ضرائب ، واتاوات اثر اتاوات ، وهوى يتحكم في كل الأمور ، وشهوات تنتزى وتتعطش الى مزيد من الدماء والسيادة والأشراف امتيازات لا سبيل الى نقضها أو الانتقاص منها والناس بعد هذا وذاك عبيد مستذلون بالسخرة . . لا يملكون لأنفسهم أمراً ؛ فهم يكدحون ليقدموا نتاج كدهم وعرق جبينهم ذهباً نضاراً يضاف الى خزائن النبلاء . . ويزيد في ثروة الأشراف . . وليست هناك مبادئ أخلاقية ، تعصم الشعوب الذليلة من هذا الظلم ، وتحمى حقوقهم من هذا الهوان ، أو تضع حداً لتسلط النبلاء أو ترسي قواعد المجتمع على أسس من الفضيلة والحياء ، وانما سارت قافلة الحياة الضالة في طريق مظلم ، لا تنتضح وجهتها . . ولا تعف غايتها يقودها أبالسة البشر ، وزبانية السوء فلا اله يومذاك الا الهوى ولا حكم الا للشهوة ولا كرامة الا للمال ولا هدف الا المعدة والبطن .

الأديان السماوية والحياة :

ولم تستطع اليهودية كديانة سماوية أن تصلح الفاسد من أوضاع الحياة ولا أن ترد اليها بعض كرامتها : لأنها لم تعد ، كما أراد لها الله ديناً ينبعث الأفئدة ويشرق على النفوس بالحنان والرحمة ويرطب من جفاف الحياة ، وانما انقلب أصحابها الى مظهر للحقد الأعمى والتعصب الذميمة والقسوة

الرهيبية طبيعتهم الغدر وخليقتهم الافساد في الأرض وسجيتهم
عب الدماء من أشلاء الضحايا ، ومذهبهم جمع المال واشاعة
الربا ٠٠ ولم تصبح وحيا أساسه الهداية بل آصرة بين فريق
من الناس يستقلون بجمع المال وأكل الربا واشعال الحروب
وصك المؤامرات ٠

لقد انقلبت مادية جشعة اختنق فيها صوت الروح ،
وانطلق فيها صوت المادة فأضحت كما مر دين بطش وقتك
وضراوة ، وتمشت خلال « صهيون » في أوصال القوم وسرت في
دمائهم فلم تعد قلوبهم تخفق بخفقة حب أو حنان وإنما امتلأت
كنوداً وأثرة وحقدًا ، ولم يعد الرب في نظرهم الا ربا خاصا
بهم لا يشركهم فيه أحد من الناس وتنكرت هذه الديانة للتوراة
وتفننت في أكل السحت ونقض العهود ٠

وأدارت ظهرها نهائيا لتعاليم السماء « مثل الذين حملوا
التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل
القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (١) »
فأى وفاء للتوراة مع ترك العمل بها ٠ لقد كلفوا العمل بها
فنبذوها وراء ظهورهم ومضوا في طريق الربا والشيطان ، ولقد
سجل القرآن صحيفة سوابقهم جليلة لتظل جرائمهم البشعة في
وعى الأجيال وذاكرة الزمان ، فهل تصلح ديانة تعبد العجل
وتأكل السحت وتقتل الأنبياء لبناء حضارة انسانية ٠

« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء
بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم
فلا يؤمنون الا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما

(١) آية ٥ سورة الجمعة .

وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم وما قتلوه وما صلبوه
ولكن شبه لهم (١) » *

ويقول سبحانه واصفا خلائقهم :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم
وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه
وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً
أليماً (٢) » *

ولم يفصل القرآن خلائق أقوام مجرمين كما فصل خلائق
الأفلاكين من اليهود لتظل قرآنا يتلى ، فيقذف باللعنة الى أولئك
الذين هددوا ومازالوا يهددون أمن الحياة واستقرارها ، ولم
تكن المسيحية أسعد حالا من اليهودية يومذاك فقد نالها من
اتباعها ما نال اليهودية فقد حاربت الفكر ، وامتهنت العقل ،
واحتكرت العلم ، وبدأت بالألوهية تثليثا وانتهت بها توحيداً
على غير منطق ، وتسرب اليها ذلك من عقيدة قدماء المصريين -
ومن الهندوكية والبوذية ، وجعلت من المسيح عيسى بن مريم
قربانا للتكفير عن خطايا البشر . وسرت اليها تلك الفكرة من
القبائل المتوحشة التي كانت تقدم القرابين الى معبوداتها لرفع
الضر أو جلب الخير - وبذلك انعدمت فيها قاعدة الجزاء ، وصار
من حق الخاطئين أن يطرحوا خطاياهم على القربان المقدم فوق
مذابح الخرافة « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا
وانحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم

(١) آيات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ سورة النساء .

(٢) آيتا ١٦٠ ، ١٦١ سورة النساء .

لكاذبون (١) » وقد انفصلت المسيحية عن الكتاب المقدس « الانجيل » كما انفصلت اليهودية عن التوراه . . وكلاهما أدار ظهره لأنبيائه وأخذتا تتراشقان النهم وتتبادلان السباب وتتباريان في الكذب على الله ورسله وتتدنكران لمبادئ الوحي المقدس » وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب (٢) » .

« وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا (٣) » « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » « لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد (٤) » .

وزعمتا معا ، أن الله يحابييهما وينظر اليهما نظرة خاصة . « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق (٥) » .

وبهذا التصور العنصرى ، نظروا الى الناس ، فمارسوا أقبح ألوان التفرقة العنصرية قديما وحدينا . . وكأنما يريدان معا أن يطبقا هذه النظرة على الله . . فهو يحابى ويجامل وينظر الى الناس من خلال الجنس أو اللون ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ومازلنا نسمع خرافة « شعب الله المختار » هذا التحريف الذى أصاب الديانتين الكبيرتين جعلهما معا عاجزتين عن النهوض بتبعات الحياة ، وأصابهما بالعقم والعجز وحولهما

-
- (١) آية ١٢ سورة العنكبوت .
 - (٢) آية ١١٣ سورة البقرة .
 - (٣) آية ٢٠ سورة التوبة .
 - (٤) آية ٧٣ سورة السائدة .
 - (٥) آية ١٨ سورة السائدة .

الى طلاسهم ورموز ، ونقلهما الى كهانة ، وجباية وتأتى اديان
السماء الا أن تكون للهداية . . واتخذنا من البشر الها يعبد
من دون الله [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله
والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحداً (١)] .

ولقد أصبح نبي الله موسى مشجباً يعلق عليه اليهود
أخطاءهم ويحملونه كل نزعاتهم المادية وصار نبي الله عيسى
رمزاً للسلبية والفرار من الحياة . . ولو بعث التبيان العظيمان
ورأيا ما أصاب ديانتاهما من المسخ والتشويه لالهما الأمر
وأفزعهما هذا المصير . .

نعم : لقد نقلت المسيحية أتباعها الى الأوهام والخرافات
والضباب بعد أن انفصلت عن غمار الحياة المائج بالحركة
والنشاط . . وزعمت أن نظافة الجسم تنافى نقاوة الروح
وحاربت العمل من أجل الحياة وتحولت الى رهبنة قاسية
عنيفة ترى في الأديرة المهجورة والاماكن النائية ملاذاً لانعاش
الروح . . وأثبتت بذلك انغلاصها في قيادة الحياة . . وتركها
لزبانية البشر يصوغونها كما تشاء أهواؤهم الضالة ،
ونفوسهم الشريرة ، وشهواتهم الرعناء . . وما بالروح وحدها
يحيا الانسان !!

مشالب ونقائص !!

ان المسيحية بهذا التصور ناقصة لأن الانسان مادة وروح،
وهي قد أدارت ظهرها للمادة واتجهت الى الروح . . ولقد
نجحت في رسم مثل أعلى للحياة الروحية وطبعت الحياة بهذا
الطابع . .

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

ولكن ذلك لا يكفى فالانسان انسان مهما تحاول المسيحية
برأه الله مادة وروحاً • • فلا بد من احترام ملكاته واقرار
شهواته • • أما محاولة سحق هذه الشهوات فعمل عدواني
ضد الفطرة التي فطر الناس عليها • • لابد من الملائمة بين المادة
والروح في الحياة ملائمة دقيقة كما لابد من الملائمة بينهما في
كيان الانسان • • لأن طغيان أحد العنصرين على الآخر في
نظام الفطرة خطر يهدد الانسان والحياة في وقت واحد • • لو
طغت الروحية لتحول الانسان الى راهب وانسحب من نظام
الحياة • • ولو طغت المادية لتحول الى حيوان يعيش لشهواته
وينطلق على هواه • • ولو تم التوازن بين العنصرين لاتسق
خطو الانسان على درب الحياة !!

ان الحياة البشرية لا تتصل مواكبها ولا يطرد نشاطها
ولا تزدهر حضارتها من خلال الكبت في الأديرة والكنائس ،
بل لابد كذلك من حزم الشهوات المتقدمة ، وغاية ما هناك أن الدين
ينظم غرائز الانسان ويوجهها وجهة طيبة بدلا من أن تصطرع
في ذات الانسان فتدمر كيانه •

وما أشبه عمل الدين في هذا المجال بالقنوات المحكمة التي
تنظم ماء السيل وتتحكم في مواعيده وتوزيعه وضبطه حتى
لا يتحول الى طوفان مدمر مجتاح • • وعلى ذلك فالدين ينظم
الشهوات ولا يسحقها لأن قتل الشهوات والغرائز يعنى أن
نسحق معها ارادة الحياة ، وانما الدين يحول انسياب الغرائز
الفوضى الى نظام محكم ومثمر في حياة الانسان ويتجه به الى
سلوك مشروع • وعندما حرم الاسلام الربا مثلا أباح البيع
والشراء والقراض والتجارة لامتنعاص النشاط المادى عند
الأفراد •

وعندما حرم الخمر أحل لذائذ المشروبات وأنواع العصير
• الحلال

وعندما حرم الزنى والفجور أحل الزواج ، وعندما حرم
لحم الخنزير أباح لحوم الضأن والدجاج وتلك هي الحيوية
الرائعة في مواجهة المشكلات والتي تتضمن تنظيم الغرائز
والشهوات لا اهدارها •

وتلك أيضاً هي الواقعية التي تقبل التطبيق ، لا أن تغلق
الأبواب في وجه الغرائز فتدمر كيان الانسان •

ونظام الرهبنة الذى لجأت اليه المسيحية نظام بعيد عن
الروح الانساني ، وله آثاره المدمرة ونتائجه السيئة فمن خلال
الكبت تتكون العقد ، وتحدث الانفجارات العاتية ، وتنشأ
العلاقات المشبوهة حين تنقلب الرهبنة ، على الرغم من
أصحابها ، الى نظام حيوانى جامح !!

وما هكذا يكون تهذيب الغرائز !! أنحارب الحياة ، وتعطل
قانون العمل ونتخلى عن الواجبات ونناقض في تهذيب الشهوات
ثم ندعى التدين ؟ !! كيف تبني الحضارات اذن ؟ وكيف يطرد
سير الحيا ؟

وكيف نحصل من خلال التربية الدينية على أشخاص
أسوياء ؟ ! وهل الأديان للآخرة فحسب ؟ وهل يمكن فصل
الدنيا عن الآخرة !

ما أجمل ماقاله رسول الاسلام معبراً عن روح الدين الحق ،
الذى يرعى الحياة : [اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة

فليغرسها [والفسيلة : نخلة صغيرة (١)] وبهذا نترك الدنيا عامرة ، ولاندهعها خربة ، ونعبر عن وجودنا بالعمل والكفاح . . وبذلك كله لا نبني الآرة على حساب الدنيا لأن صلاح الآخرة نتيجة حتمية لصلاح الأولى . . [ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا]

وللمسيحية فوق اهمال مطالب الجسد ، نقيصة أخرى ترتبط بالمجتمع . . فهي تقتصر اهتمامها على حياة الفرد ، تتعهد روحه ، وتقتل شهوته . . ولا تكاد تلتفت الى المجتمع بشيء . . انها عاجزة عن ادراك ما للعلاقات الانسانية المتشابكة من قيم روحية . . وحيثما تفر من الحياة ، فان المجتمع لايجدها . . »

يقول الفيلسوف ناومان في كتابه « بحوث الدين » : [ان المسيحية البدائية لم تجعل قيمة الحفظ كيان الدولة ولم تحفل بالتشريع والتنظيم والانتاج بل لم تفكر في أحوال المجتمع الانساني قط ، ومن ثم فاما أن نتجه الى أن نكون من غير حكومة فنلقى بأنفسنا بين برائن الفوضى متعمدين ، واما أن نجعل لأنفسنا عقيدة سياسية الى جانب عقيدتنا الدينية .

واذن : فالمسيحية لا تقيم وزناً للحياة ، ولا لتشريعاتها وقوانينها ، ولا لنظام العيش فيها . . ولا تكاد تهتم بالنواحي السياسية والاجتماعية للناس . . ولا ترعى التطور البشرى في قليل أو كثير . . انها ناقصة لا يمكن تصور أن تعنى بحاجات الناس ، وما دامت قد انسحبت من الحياة فماذا يعنيها من أمرها ؟! . . على أنها من قبل ومن بعد كاليهودية ديانة اقليمية

(١) من كتاب الاسلام والطاقات المعطلة للأستاذ محمد غزالي بتصريف

(٢) من كتاب تجديد التفكير الديني في الاسلام لمحمد اقبال ص ١٩٠

زمنية فهما معا لا تصلحان لقيادة الحياة على المدى الطويل ..
لأنهما لم تزودا من العلى التقدير بما يجعلهما للاستمرار
والعالمية !! كلتاهما لا يمكن أن تنشئ حضارة عالمية !!

لقد سقطتا معاً ، كدين عالمى بناء ينضر وجه الحياة
بالأمل ، ويرعى تقدمها بالعمل ، وكيف تنشأ حضارة فى ظل
المادية المجرمة • أو فى ظلال السلبية المنطوية ؟!

ومن عجيب الأمر أن المسيحية قد تحولت الى مجموعة
ضخمة من الخرافات اليونانية والوثنية الروحية ومسحة
يسيرة من تعاليم السيد المسيح ، وأصبحت بزيادة المخرفين ،
وتأويل الجاهلية بعيدة كل البعد عن الفكر والعلم ثم صارت
الى وثنية قبيحة يقول سالى مترجم القرآن الى الانكليزية :
[أسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية حتى
فاقوا فى ذلك الكاثوليك فى هذا العصر] •

واقع تاريخى مؤلم :

فى هذين القرنين حدثت صراعات وانقسامات داخل العقيدة
المسيحية ، كما حدث انحلال اجتماعى وفساد خلقى ، وكانت
مصر مركز صراع عنيف .. ولقد كان هذا الانقسام المروع فى
صميم العقيدة المسيحية •

كما كان هذا الانقسام بين الديانتين الكبيرتين على نحو
ما فصلنا من قبل .. وقد أدى هذا الانقسام الى تمزيق كيان
الدولة الرومية ، وأنهك قواها ، كما أدى الى مجازر ودماء ،
لأن كلا الفريقين المتصارعين كان حريصا على ابادة الآخر ..
لقد كانت الملكية تؤمن بازواج طبيعة السيد المسيح ، أما
المنوفيسيون فكانوا يؤمنون بوحدة طبيعة السيد المسيح ،

ويعدون الرأي الأول أمراً اذا ٠٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، كانوا يؤمنون على حد تعبيرهم أن طبيعة السيد المسيح واحدة وهى الآلهية ، والتي تلاشت فيها طبيعته كما تتلاشى قطرة من خل فى بحر واسع عميق *

ووصل هذا الخلاف الى ذروته فى القرنين السادس والسابع الميلاديين *

يقول الدكتور ألفردبتلر : [ان دينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين نضال يذكىه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس اذا كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى حزبا يمثل مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهى عقيدة الازدواج ٠٠ على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسيين أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالانجيل] ا ه *

تدخل سياسى :

وقد حدث أن منع هرقل [٦١٠ – ٦٤١] م الناس عن الكلام فى طبيعة السيد المسيح مكتفين بأن لله ارادة واحدة ، واستعمل الوسائل الرهيبة، ولكن المصريين استماتوا فى سبيل عقيدتهم ، واستعذبوا التقتيل والتحريق والتعريق طيلة عشر سنين على يد قيرس وكانت المأساة رهيبة لم تستطع الدولة على المستوى الرسمى ولا رجال الدين أن يوقفوها *

ولست أدري : ماذا يهم المسيح هنا أو هناك عن ادراك طبيعة السيد المسيح؟! ولماذا يفترض فيه أنه اله ، أو جزء من الاله ٠٠ أليس المسيح ابن مريم رسولا بشرا ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، ويدعو الى الله ؟ هل الامر يستدعي كل هذه الدماء بين أبناء الديانة الواحدة ؟ ٠٠

وهل هناك مشكلة حقيقية يعجز العقل عن حلها ؟ اللهم انها العصبية الضيقة والطبيعة الكرة المتحجرة التي تجمد على الجهل ، وتفنى في التعصب !! وهل يتحمل السيد المسيح تبعه هؤلاء الضلال ؟ وهنا نجد القرآن يفصح عن طبيعة المسيح في ايجاز وبلاغة عندما يقول : [ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام (١)] ٠

ونلمح التبرؤ من القوم على لسان المسيح نفسه يخاطب ربه : [ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم (٢)] ٠٠ بهذه البساطة تتضح طبيعة السيد المسيح وطبيعة أمه ؟

ومهما يكن من شيء فقد أخذ الخلاف بين الفئتين المتنازعتين شكلا نريا متعصبا ، استأثر بكل الجهد ، وبخاصة عند المصريين ، وشغل الناس في النظر عما سواه ٠٠ وانتهاز الروم ذلك فأوسعوا المصريين ضربا ، وأشبعوهم تنكيلا ، وأنقلوا ظهورهم بالمغارم الباهظة ، والضرائب الفادحة في غير رفق ولا رحمة ، فكانت مصر لهم بقرة حلوبا تدر المال والثراء ٠٠ فهل هذا حكم يرضى الله ؟

يقول ألفرد بنتلر : (لقد أضدى اختلاف الناس ومناظراتهم

(١) آية ٧٥ سورة المسائدة .

(٢) آية ١١٧ المسائدة .

العنيفة كلها قائمة على خيالات صورية من فروق دقيقة بين
المعتقدات وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة
لها ، وفي سبيل فروق في أصل الدين ، وفلسفة ما وراء الطبيعة
يدق فهمها ويشق ادراكها) ويقول عن الضرائب :

« ان الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس
وضرائب أخرى كثيرة العدد ، هي فوق الطاقة وتجرى على غير
عدل » * * وهكذا عاشت مصر في عهد الرومان مضطهدة معذبة
مستخرة مستغلة يهددها الاستبداد - ويضنيها الاستعباد -
وتجتاحها الخلافات الدينية ويمتصها أعلاق الرومان * *

انحلال يتمشى في كيان الامبراطورية الرومانية :

في ظل هذا العسف وذلك الطغيان ساد الفساد في الدولة
الرومانية الشرقية ، وقد أخذ هذا الفساد طريقين مختلفين :
فساد في الطبيعة الانسانية التي تهدر كل القيم النبيلة
وتستبيح الظلم والاضطهاد والتحريق والقتل وتفرض الضرائب
والاناثوات ولا تكاد تقيم وزناً للعدل *

وفساد في الأخلاق والمثل فقد وصل الناس في القحة والتبذل
الى أخط الدركات وعاشوا عبيد شهواتهم المجرمة وحيوانيتهم
الآثمة وانتشر التسول بالأعراض وآثر الناس العزوبة على
الزواج حتى يستمتعوا بمن يشاءون ، وكان الترف المفرط من
أقوى العوامل التي أدت الى انهيار الدولة الكبيرة وعجل بفنائها ،
وهكذا كل دولة تنحرف عن سنة العدل ، وتسخر قواها
للسيطان ، ولا يتصور أن تعيش حضارة في ظل الجور ، وفي
أجواء مفعمة بالفساد والانحلال كهذه الأجواء ، ولم تكن مصر
وحدها تعيش تلك المأساة ، ولكن الدول الأخرى كانت تعاني
من تلك الضراوة الرومانية ، فقد كانت الحبشة على المذهب

المنوفيسى وكانت تابعة للكرسى الاسكندرى كما قضى مجمع
« نيقية » :

أوروبا فى ذلك الوقت :

كانت تعيش حياة فوضوية لا نظام ولا علم ولا عقيدة
فهى تتردى بين وثنية وبين نصرانية مرهقة ، ولم تكن تحمل
أى مشعل من مشاعل الحضارة ولم يلتصق منها قبس من ضياء
تخاف الجن والعفاريت وتلوذ بالتمائم ، وتخشى ركوب البحار
بل كانت ممعنة فى التخلف سادرة فى الغى غارقة فى الجهالة
وتؤمن بكل الخرافات المنحطة ؛ يقول ويلز :

« لم تكن فى أوروبا الغربية فى ذلك الوقت أمارات الوحدة
والنظام » •

ويقول روبرت بريفلت : « لقد أطبق على أوروبا ليل حالك
من القرن الخامس الى القرن العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً
وسواداً - وقد كانت همجية هذا العهد أشد وأفظع شأناً من
همجية العهد القديم - لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد
تعفنت - وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال
وآلت الأوطان التى ازدهرت فيها الحضارة قديماً وبلغت أوجهاً
كايطاليا وفرنسا الى حالة من الفوضى والدمار » •

اليهود على مسرح الأحداث :

أكان العنصر اليهودى المنبث فى أوروبا وآسيا وأفريقيا
صالحاً لإنشاء حضارة • وتأسيس مدنٍ الواقِع أن علم اليهود
وحده ليس كل شئ فى بناء الحضارات - كما أن الدين حين
يتحول الى مسائل نظرية للجدل والثرثرة ليس أيضاً كل شئ •

واليهود شاهد صدق على ذلك فقد كانوا على علم بالدين وفهم
لشيعته ووعى لأحكامه - وكانوا يعرفون من العلوم والمعارف
المالم يعرفه غيرهم . . الا أن خسة نفوسهم . . وما يحملون من
التعصب والحقد ، والذرات العنصرية الشاذة ، وما يتمثل
فيهم من الخبث والنفاق وحب المال ، واهدار كل كرامة في
سبيله . . كل هذه الخلائق جعلتهم عنصراً منبوذاً من شتى
الأجناس ، ومن جميع الأمم فلم يستقروا في وطن . ولم يهجعوا
في بلد ، وانما عاشوا مطاردين أذلاء لاشتغالهم دائماً بالدس ،
واشغال الفتن والمؤمرات . . وعلى الرغم من المعرفة الدينية
لديهم الا أنهم استخدموها في الشر وسخروها في جمع المال . .
ولا شك أن النفس الشريرة تزداد بالعلم شراً وجشعاً :
وتفتح آفاقاً للتضليل والتزييف وتستخدمه في أبشع صور
الضلال . وقد تصدى الكتاب الكريم لردائهم وعدد أنماطاً منها
وإذا كانوا على هذا المستوى من الانحطاط والانحدار فهم لا
يصلحون لقيادة الأمم ولا لسياسة الشعوب .

لقد سيطرت عليهم المادة - فأينما وجدوا وجد معهم
الاستغلال والربا والتكالب على الحياة حتى لقد صار المال
بالنسبة اليهم الها يعبد من دون الله . . .

وماقيمة دين لا يزكى خليفة ولا يظهر نفساً - ولا يسمو
بالسلوك ؟ لهذا سقط اليهود من حساب الناس يوم سقطوا من
عين الله . . واتخذوا دينهم وسيلة لجمع حطام الحياة . .

بين اليهود والمسيحيين :

ولم يكن اليهود منذ أقدم العصور يكنون للمسيحيين أى
تقدير أو عاطفة - وكذلك كان المسيحيون بالنسبة لليهود . .
ولم تستطيع كتبهم المنزلة أن تهذب فيهم غرائز الحيوان -

ولا أن تصفى قلوبهم من الحقد - ولا أن تجعل منهم جبهة متحابية متألّفة » وما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم - بغياً بينهم » . . ولقد كان كلا الفريقين يهتبل فرص قوته ليغرى السلطان بالآخر ويحرضه عليه . . وكثيراً مادس اليهود على المسيحيين - وكثيراً ماحدث العكس . .

ويقول المقریزی في كتاب الخطط : « وفي أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا الى مصر في طلبهم وقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سببياً لا يدخل تحت حصر . .

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم - وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وصور وبلاد القدس فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكابة فيهم - وخربوا كنيسة تين وأخذوا أماكنهما وسلبوا قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه » .

ولقد اقتص النصارى لأنفسهم فأوقعوا باليهود في معركة صور رغم أن عدد اليهود كان عشرين ألفاً وعند ماتغلب هرقل ملك الروم بقسطنطينية على الفرس وسار ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ماخربه الفرس خرج اليهود من طبرية وغيرها ليقدموا له الهدايا . .

وطلبوا منه أن يؤمنهم وأن يحلف لهم على ذلك ثم دخل القدس فتلقاء النصارى بالبخور والشموع والأناجيل وشاهد بعينه ماحل بالقدس من تخريب وتدمير ، وسأل عن ذلك . . فأخبره النصارى بتواطؤ اليهود مع الفرس في ذلك عليهم ، وأنهم كانوا أشد نكاية من الفرس وحثوه على أن يقتص لهم من

اليهود فأخبرهم بأنه عاهدهم ، وأمنهم ، وأقسم لهم فأفتاهم
الرهبان والقساوسة بأنهم سيكفرون له عن يمينه بأن يأمرهم
أتباعهم بصوم جمعة في كل عام على مر الزمان تكفيراً عن هذا
اليمين !! فمال الى قولهم ، وحصد اليهود في مواقع رهيبه أبادهم
جميعهم فيها ، حتى لم يبق منهم في مصر والروم والشام الا من
اختفى .

هذا مارواه صاحب الخطوط وهو شيء يؤسف له أن يتعاون
اليهود ، أهل الكتاب ، مع المجوس الفرس ، ضد اخوانهم
النصارى ثم ما أقبح ما أثار به المسيحيون على هرقل من فكرة
التكفير عن يمينه ٠٠ أى فتوى هذه ؟ ثم ماهذه الضراوة الحاقدة
بين أصحاب الديانتين الكبيرتين ، أتصلح كلتاهما أو احداهما
لانشاء حضارة انسانية تقوم على مبادئ الأخلاق والفضيلة ؟!

لعمري انهما معاً لفي حاجة الى شيء من تعاليم اليهودية
والمسيحية تحول بينهما وبين تسخير الدين للمطامع والشهوات
وليس للدين ذنب في ذاته !!

فهو صالح لأن يملأ الحياة حباً وسلاماً ، وبراً وعدلاً ، ولكن
الذين استحفظوا عليه قد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
فسوف يلقون غياً !! ولو حملت هذا الدين نفوس طيبة
لاستفادت به ، وأضاءت الحياة بنوره ، وقيمة الأديان
السماوية انما تكمن في تطبيقها تطبيقاً صحيحاً كما أراد الله ،
وليس في حجبها عن الحياة ، أو استغلالها في المطامع والشهوات
أو تحريفها عن غاياتها أو حفظها في الرأس دون الاستفادة منها
في تطهير النفس .

على أن نظام المدنية يأبى الا يكون توازناً بين الروح والكم
بين الغائية والسببية ، حتى اذا حدث اختلال في هذا التوازن

هوت المدنية الى الحضيض . . وكلتا الديانتين لم ترع يوما
هذه التعادلية . . من أجل ذلك كله سقطتا كأساس حضارى
للعالم ، يريحه من كلال ، وينقذه من وبال ، ويطلق مواهبه
لتزدهر وتصنع الحياة على عين الله !!

وماذا عن فارس في ذلك الوقت : ؟ !

كان القوم يتسمون مع الروم سيادة العالم ، وقيادة البشر ،
واستعباد الناس وكانت كل منهما دولة كبيرة ذات مراسيم
ونظم ، ورفاهية وترف بلغا حددهما قبيل الفتح الاسلامى . .
واذا كان لكل حضارة دورة تاريخية تتوقف بعدها فان حضارة
هاتين الدولتين كانت قد وصلت الى القمة ، ثم بدأت تنزل
رويدا وتجنح الى الغروب وتعكس على الحياة اونا باهتا شاحبا
يذخر بالفناء والموت ، ولم تكن كلتاها تملك دستور هداية من
السما والى قانون عدل من الأرض

لهذا : ظلمنا وفجرنا وصلطنا عن سواء السبيل ولعب الترف
فى كل منهما دوراً عجل بفنائهما .

ولعل ما قدمناه فى البحوث السابقة يعطى تصوراً بأن
الحرب بينهما كانت مشتعلة ، وهى حروب « لا أخلاقية »
يذكىها بين الفريقين المتنازعين حب الغلب ، وفرض النفوذ ،
وتكوين الامبراطوريات الضخام .

وكان العالم كله موزعا بين هاتين الدولتين ، فقد كان لهما
من الضخامة والهيولة ماجعل العالم كله مناطق نفوذ لهما . .
واصطنع كلاهما من الأحلاف والاصدقاء ما يمكنه فى
السيطرة . . كان المناذرة العرب صنائع الفرس ، وكان
الغساسنة العرب أيضا صنائع الروم ، وكثيراً ما كانا يتصادمان

بسبب الدولتين الكبيرتين . . أى أن أساليب الاستعمار قديمة
بقدم التاريخ ، وكذلك مناطق النفوذ ، ووسائل التجسس .

مجتمع منحل :

كانت فارس تلك الدولة العظمى فى ذلك الوقت تشيع فيها
نزعات مجرمة منحلة تفتك بالمثل الأخلاقية والمبادئ السامية ،
كما كانت مرتعا لنظريات هدامة خسيصة . . ونحل أرضية
شاذة كان زواج الأخت والبنات عملا سائغا ، وشرعا معمولاً به ،
بل كانوا يتقربون بذلك الى الله فى الشريعة الساسانية ،
وكذلك استباحوا زواج المحرمات جميعا ، ولا شك أن ذلك أمر
تنفر منه الطباع السليمة وتعافه النفوس الكريمة ، وتتجه اليه
من غير دين ولا شرع . . وقد أطبقت الشرائع والأعراف على
تحريره واستبشاعه واستقباحه ، تزوج يزدجرد الثانى فى
أواسط القرن الخامس الميلادى ابنته ثم قتلها وتزوج بهرام
جوبين الذى حكم فى القرن السادس بأخته ، كما تزوج جشمست
قبل أن يتنص بالمحرمات كلها ، ولقد أشار الرحالة الصينى
(هوئن سوئنج) الى هذا الزواج المحرم بقوله : « ان الايرانيين
يتزوجون من غير استثناء » .

مانى يثور على البوذية :

لا نستطيع أن نتصور أن مبادئ البشر تستطيع أن تقتلع
نزعات الشر المتأصل فى النفوس أو تدرأ أفكار السوء المستقرة
فى الرأس ، أو تطهر وجه الأرض من أدناس البشر . . وسوءات
الناس ، لأنها نظم لاتجد حصانة من السماء ، ولا مستنداً من
الأرض فهى خليفة مهما كانت جادة وثائرة أن تكون صيحة فى
واد أو نفخة فى رماد . . وانها لنذهب فى نباح الكلاب وعواء
الذئاب كما تذهب النسمة الرخية فى الأدغال الشواجن .

فهل نتصور أن مبادئ ماني مهما كانت حكمتها تستطيع
أن تكتسح الفساد الذي طغى على المجتمع الفارسي ؟ وتضع
مكانه قواعد الخير وأصول الفضائل ؟ كلا : وانما تنظف الأرض
من كل ضلال ، وتنتحرر النفوس من كل ضيم بقوانين الدين ،
وأحكام السماء .

لذلك : لا ننتظر من دعوة ماني أن تصادف هوى من نفوس
القوم ، أو توقظ أعصابهم المخدرة بالشهوة والنوم . لا سيما
وهي دعوة منحرفة عن الفطرة ، وان يانت رد فعل على الرذيلة .

لقد انحصرت هذه الدعوة في محاربة النزعات الشهوانية
المنحلة ، فدعا ماني الى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر
من العالم ، فحرم النكاح وعطل السعى وأبطل العمل واستعجل
فناء البشر لينقذ الناس من شرورهم وآثامهم . وبذلك ينقطع
النسل وتعقم الحياة وينتصر النور على الظلام .
وكان يرى أن الشر يتمثل في اختلاط النور بالظلمة ، ولهذا عمل
جاهداً على الفصل بينهما .

وكان مصيره القتل على يد بهرام في القرن الثالث الميلادي
سنة ٢٧٦ م .

كلا : لا هذه ولا تلك : فليست الحياة اما اباحية ، واما
رهينة . ولكن هناك الحياة المرتبطة بالفضائل ، التي تمضي
على منهج الخير . وهي حياة ليست اباحية ، وليست مترهبة
واذا أنكرنا منهج التحلل فانا لا ترتضى الترهيب فكلاهما ضد
الطبيعة البشرية .

بين الرهينة والاباحية : كانت تعاليم ماني مجحفة
للاغاية . لأنه حاول قتل الناس لتقتل معهم الرذائل فهو كمن

يقتل المريض للتخلص من المرض . . ولهذا رفضها الشعب
الفارسي وتطلع من جديد الى حياة حيوانية ملؤها الفجور
والشهوة . . كما تعود أن يحيا .

وهكذا . . ظهر مزدك بفلسفة الشهوة وكان وجوده في
في القرنين الخامس والسادس فقد ولد حوالي (٤٨٧) م . .

مبادئ مزدك : أعلن عن المساواة كأساس لمذهبه ، ولينتها
مساواة في الحقوق والواجبات ، وانما مساواة في الاشباع
الجنسى ، والانطلاق الحيوانى واستباحة المرأة والمال وما دام
الناس قد خلقوا متساوين فلا بد أن يشتركوا في هذين العنصرين
اشتراكهم في الماء والكلا والنار . . وذلك لأن النفوس تضمن
بهما فاذا أبيحنا انحسرت مادة الشر من الوجود وذهب أصل
الخلاف من المجتمع . . ونتيجة لهذه النحلة الشاذة فان الرجل
صار لا يعرف أولاده والأولاد لا يعرفون آباءهم لقد صار المجتمع
الفارسي مجتمعا ضائعا بلا « هوية » ولا نسب . .

يقول الشهرستاني : [ان مانى أحل النساء وأباح الأموال
وجعل الناس شركة فيهما] .

وحظت هذه الدعوة بمؤازرة الدولة على المستوى الرسمى ،
ناصرها قباز ومكن لها ونشرها . . حتى انغمست ايران كلها
في معين الشهوات وقد وجد فيها الشبان والمترفون ضالتهم
المنشودة ، وابتلى الناس بهم كما يقول الطبرى : [صاروا
يدخلون على : الرجل في داره فيغلبونه عل منزله ونسائه وأمواله
لا يستطيع الامتناع عنهم . . وتبعهم فباز على نشر المبدأ فلم
يلبث أن أزرهم حين هددوه بالخلع] ولقد حاول قباز هذا نشر
تلك النحلة في الجزيرة العربية ولكن المنذرين ماء السماء تصدى له ،

وحارب المبدأ وعادى تعاليمه فخلعه قباذ وولى مكانه الحارث بن عمرو الذى وافق على قبول المذهب الشاذ ، ولكن المنذر عاد فاسترد ملكه وأباد الحارث . . وهكذا يصنع الترف ويفعل الانحلال بالمدنيات الغاربة والحضارات الذاهبة . . وانظر كيف يضل الناس فى غيبة الدين الحق . .

عبادة الذات :

ان أيسر ما تعكسه هذه الأخلاق المنحلة على المجتمع الشارد عن الحق من سوءات أنها تنتج ذاتاً ضالة ، وضیعة ، تساعد الحكام على النتائج – وعبادة الذات – وهذا هو ما حدث فى ايران . فلقد اعتقد هذا الشعب أن حكامه يجرى فيهم الدم الالهى . . ومهما انحرفوا أو أترفوا أو فسقوا فهم مقدسون يأكل الناس فتات موأدهم وتمتنع الألسن عن هنك سيرتهم ، ويكف البشر عن نقدهم ، لأن لهم حقاً على كل فرد ، وليس لاحد حق عليهم . وبذلك عبدوهم وقدموا لهم الخراج عن طيب خاطر ، وآثروهم بالتاج دون غيرهم ، وابتعدوا عن مجالستهم توقيراً لهم وأصبح البيت « الكيانى » معمظا كل التعظيم لا ينافسه فى الملك الانذل أو لثيم . والطفل من هذا البيت مسموع الكلمة – لا يعدلون عن توليته الملك اذا اقتضى الأمر ، كما يولون المرأة عند الضرورة ولم يخطر ببالهم أن يحكموا عليهم قائداً أو عظيماً خارجاً عن بيت الملك . . وهكذا رضوا بالذلة والصغار ، وعميت قلوبهم وبصائرهم ، وانها لنكبة حلت بتلك الحضارة ، لأنها تخلت عن الله . . ولم تكن تمتلك مورداً صافياً من الحكمة يكفكف عنها الغواية والفساد ، أو يردّها الى انسانيّتها الضائعة ، وخصائصها المتهنة لقد تقلبت بكل أسف بين هذه الفلسفات الشاذة المنحرفة التى ضللت خطاها على طريق الحياة وعجلت بفنائها المحتوم فعاجلتها الدولة الاسلامية الفتية بضربة عاجلة

أطاحت بهذا الفساد ، ومكنت لكلمة الله في الأرض . . وكذلك
أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة .

التفاوت الطبقي في المجتمع الفارسي : ليس بعيداً على
مجتمع يعبد الشهوة ، ويقدر البشر ، أن يختصهم بأرضه
وعرضه ، ويبيع لهم أن يملكوا دونه . . فلم يكن لأحد من
الشعب الذليل أن يتطلع الى حياة الأسرة والامراء وحسبه أن
ينال من فتات موأدهم كصدقة مباركة ، لأنهم من طينة أخرى
غير طينة البشر ، لهم عقولهم ومواهبهم ونفوسهم المتميزة ،
ولا يحق لأحد من الشعب أن يشتري عقار أمير أو حاكم ، وقد
أدى ذلك الى خلق مجتمع طبقي رهيب ، بين كل طبقة وأخرى
هوة شاسعة ، لا يقوم عليها جسر ، وكان هذا التفاوت قانما
على النسب والحرفة . . فعلى كل انسان أن يرضى بحرفته ،
وليس له أن يفر منها أو يحاول تغييرها لأن الناس هكذا
خلقوا . . لكل واحد مركز لا يعدوه . . وكان مجلس الأمراء
محرمًا على الشعب ، يجلس الناس منه مزجر الكلب .

درس من السماء :

ومن الطرائف (١) أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أثناء
الفتح الاسلامي لفارس استدعاه رستم القائد الفارسي المعروف
في الأساطير ليتحدث اليه ويتعرف منه على وجهة العرب ، وحين
دخل المغيرة سلم وحيا بكل اباء وعزة ثم قفز ليجلس معه على
السريير . . هكذا تصرف بكل بساطة وماذا في هذا ! لكن الفعلة
شنعاء من وجهة النظر الفارسي لأنهم يجلسون من القائد كما
تجلس الكلاب ومن ثم استفظعوا الأمر واجتذبه ولندع الطبري

(١) عبقرية خالد للعقاد نقلا عن الطبري ج ٤ ص ٨

عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه (أى أنزلوه وأنبوه) فتعجب
 المغيرة من صنع الجند وقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام
 ولا أرى قوما أسفه منكم ، انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا
 بعضا الا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون
 قومكم كما نتواسى ، (أى تساوونهم كما نتساوى) ، وكان
 يقص علينا القصة بأسلوبه يقول : « أقبل المغيرة وله أربع
 صفائر يمشى حتى جلس معه على سريريه ووسادته ، فوثبوا
 أحسن من الذى صنعتهم معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب
 بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، وأنا لم
 آتكم ولكنكم دعوتهمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضحل وأنكم
 مغلوبون ، وان ملكا لا يمكن أن يقوم على هذه العقول ولا على
 هذه السيرة) فهذا درس من السماء ساقه القدر الى هؤلاء لوكانوا
 يعقلون ، وتلك كلمات من نور لكن عقول القوم مظلمة جامدة ٠٠
 لقد تكلم الرجل الذى صنعتته حضارة القرآن الى القوم الذين
 استذلهم الشيطان ٠ تكلم الرجل الذى صنعتته الحضارة
 الشابة الشارقة الى القوم الذين صنعتهم الحضارة المكتهلة
 الغاربة ، تكلم الرجل بكل ما يحمل من نبض العزة وشرف
 الاباء وكرم الاسلام ٠٠ الى قوم فقدوا العزة والشرف والضمير
 فغدوا سوائهم ضالة ٠٠ ورسوما متهاكة ، لقد كانت كلماته
 سهاماً مسددة الى قلب الحضارة المترهلة الآفلة ٠٠ وأيا ما كان :
 فقد قال الرجل فحسن القول ، وأعلن الثورة على العبودية الذليلة
 أمام الدولة ممثلة فى قائدها وجيشها دون خوف أو رهبة لأن
 العبودية فى شريعة حضارته لا تكون الا لله - كما ثار على تلك
 الفوارق بين البشر لأن المساواة أصل فى دينه وتجربة يعيشها
 المسلمون بكل بساطة ويسر ٠٠ وعندما وعى هذه المثالب فى
 حضارة القوم لم يكتف بما تحدث به ، وانه لخطر - ولكنه
 نصب من نفسه قاضياً - وأصدر حكماً بالاعدام على حضارة
 وصل التزييف فيها الى هذا الحد ٠٠ فله در العربى المسلم ،

الذى نتكلم من صميم الحكمة ، ودل على مقاتل القوم ، وعبر
عن أدق نظريات علم الاجتماع ٠٠ دون أن يدرس أو يسمع عن
هذا العلم وانما هو حكم الفطرة السليمة التى فتح الله بالقرآن
مغالبقتها ٠٠ ففاضت عن كنوز ثمينة لا عهد للحياة بمثلها ٠٠
وتا الله لو أن غير هذا الجندى المسلم فى موقفه بين القائد
والجند لما وسعه الا أن يبتلع الألم ويسكت خوفا من القوم
أن يفتكوا به ولكنها الارادة القوية ، التى صنعها الحق لتجتث
الردائل من المجتمعات ، فهل يتصور لها أن تجامل أو تخاف ؟
ولله فى خلقه شئون ٠٠

ولقد كان القدر لا يضمن على هذه الامة المتعجرفة من آن
لآخر بعربى مسلم يلقتها درساً فى الكرامة ، ومعرفة حدود
النفس كما فعل المغيرة بن شعبة •

فقد حدثوا أن يزدجر ملك الفرس جهز جيشاً بقيادة رستم
لصد الجيش الاسلامى الزاحف على القادسية فلما سار رستم
بجيشه لقيه فى الطريق عربى من الجيش الزاحف قلقنه درساً
خالداً لا ينسى • قال رستم للعربى : ما جاء بكم أيها العربى
الى هنا ؟ وما تطلبون منا ؟ فرد العربى الذى صنعته حضارة
القرآن : جننا نطلب ما وعدنا الله بملك أرضكم وأبناءكم ان
أبديتم أن تسلموا ٠٠ قال رستم مستهيناً : فان قتلتم قبل
ذلك : قال العربى : من قتل منا دخل الجنة ومن بقى أنجزه
الله وعده فنحن على يقين قال رستم : لقد وضعنا اذن فى
أيديكم !! قال العربى : أعمالكم وضعتكم فى يدينا فأسلمكم
الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك !!

فهذا فيلسوف آخر يواجه رستم بهذا الفكر الجرىء ٠٠
رغم نه عربى طامح الى الفتوح يخاطب قائداً أعجمياً مطموحاً
فيه !! لكن العقيدة هى التى تتكلم والمبادئ هى التى تفصح

وثقة الجندى بدينه وربيه جعلته في مأمن من رستم ٠٠ ومن هو أعظم من رستم ٠٠ ومن يدرى لعلها حولت هذا القائد العملاق الى ذبابة في نظر الجندى المسلم ٠٠ وما أروع ما تلهم العقيدة أصحابها في المواقف الصعاب !! وانظر الى هذه الثقة التي تغمر قلب العربي ٠٠ وهو يحدثه عن وعد القرآن للمسلمين ٠ فاما الجنة دار الكرامة والخلود ٠٠ واما الفتح العظيم ٠٠ لابد من النصر على أى حال :

ثم ما هذه الجرأة التي تجعل مثل هذا الجندى الأعزل يقول للقائد : أعمالكم وضعتكم في أيدينا ، يا لله !! انها المواجهة الحاسمة التي تصارح بالعيوب دون مداورة ٠٠ ودون خوف أو خشية ولا عجب أن تنقاد لأمثال هؤلاء فارس ، بل الدنيا كلها ليعلموا الناس الحكمة ، ويقودوهم الى صراط العزيز الحميد ! ٠

عبادة النار : دعا « زرادشت » صاحب النحلة الفارسية الى التوحيد ، وأبطل الأصنام ، لكنه انحرف فزعم أن نور الله يسطع في كل ما يشرق أو يلهب في الكون فالنور رمز الاله ومن ثم وجب الاتجاه الى الشمس والنار وقت الصلاة كما أمر بضرورة تقديس العناصر الأربعة : النار ، والتراب ، والهواء ، والماء ، وعدم تدنيسها ثم توالى الحكماء بعده فحرموا على الناس الاشتغال بما يدعو الى استخدام النار والاقتصار على الزراعة والتجارة ، ثم تدرجوا فعبدوا النار وبنوا لها المعابد والهيكل وغلبت هذه العبادة على غيرها وانحدر الشعب الى المجوسية الحمقاء ٠٠ وفيما عدا أوقات العبادة ، انحدر الناس الى شهواتهم وما تملئ عليهم نفوسهم ومصالحهم : واستباحوا كل رذيلة ومنكر ٠

وهكذا ٠٠ صارت الفرس الى المجوسية ، والى الاباحية ، وتقلبت عليها نحل شاذة منحرفة لأنها حرمت الهداية الربانية

التي تسدد خطاياها ، وتقود مسيرتها ، وتهدى لها الحياة الشريفة
النظيفة ، والمجتمع الطيب الكريم ٠٠ ولا غرو فمن لم يجعل الله
له نورا فما له من نور !

ماذا عن الصين ؟ ! :

لم يكن بالصين في هذين القرنين ، ديانة سماوية تحل
الحلال وتحرم الحرام وتخطط للناس شئون دينهم ودنياهم ،
وانما سادتها فلسفات أرضية ، كانت الواحدة منها تزدهر ثم
لا تلبث أن تنتحر بتأثير غيرها ، ولم تحاول واحدة منها ربط
الناس بالايمان ، وانما ربطتهم بالبشر وأغرقتهم في الجهالة
وغطت حياتهم بسحب الضلال والفساد ٠٠

سادت في المجتمع الصيني مبادئ « لاوتسو » و
« كنفوشيوس » و « البوذية » وكلها من صنع البشر ، ونحتاج
عقولهم ، حتى البوذية التي كثر الكلام عنها واختلف الناس في
أمرها أهى مبادئ توقر وتحترم ، أم ترفض وتنبذ ؟ انها رغم
ما تحوى من آداب وفضائل ومناهج للسلوك لم يزل وجود
الاله بها موضع خلاف وشك عند فلاسفتها ومؤرخيها ٠٠ والواقع
أن البوذية كغيرها من النحل بضاعة أرضية ليس لها صلة
بالسماء ٠٠ غاية ما هنالك أنها اهتمت في مناهجها برياضة
النفس وتهذيب السلوك ٠ وقمع الشهوات ، وتحصيل المعرفة
والبعد عن مصادر الألم والتخليق بالقيم الحمدة ٠٠ لكنها لم
تكن ذات صلة بالوحي المقدس ، ولا ببقايا الديانات السماوية ٠
انها مجموعة حكم لا أكثر ولا أقل ٠٠ وان كانت قد سادت في
ربوع الهند وازدهرت نحو ألف عام ٠٠

وقد أصيبت البوذية في أخريات أيامها بالانحطاط حين
استسلمت للبدع والخرافات واندمجت في البرهمية وذابت

فيها ٠٠ أما مبدىء « لاوتسو » فقد تحولت الى وثنية واهتمت بالانظريات وابتعدت عن التطبيق ، وجنحت الى التقشف والزهد والرهبة ، وخصصت المرأة وقاطعت الشهوة ٠٠ حتى نفر الناس منها لقسوتها ٠٠ ولأنها نحلة مريضة سلبية نفر من الحياة ٠٠ وأما « كونفوشيوس » فقد سار في مبادئه على أساس مناقض « للاوتسو » اهتم بالحياة سياسة وتخطيطاً وإدارة وولى وجهه شطر الدنيا لا يلتفت الى الآخرة ٠٠ وأباح لاتباعه حرية العبادة فعبدوا الانهار والاشجار وغيرها ٠٠ انها مجموعة قوانين ترعى الحياة وتنظم شئونها وقد ابتعدت عن منهج الوحي وحكمة السماء ٠٠ ولم يكن لهذه النحلة صفة الالتزام فمن شاء عمل بها ومن شاء أهملها ٠٠

ثم ما لبثت الصين أن تحولت الى متحف كبير للتماثيل والآلهة والهيكل عندما تمكنت البرهمية من القوم وأخضعت البوذية لها ٠٠ وتحولت هي الأخرى الى الوثنية وأقامت التماثيل العديدة « لبوذا » ثم غمرتها البدع وجنح دعائها الى المال والثراء وجذبوا المنافع الى أنفسهم وفقدت النظام ، ودخل فيها السحر وتخللتها الأوهام وتوارت تعاليم بوذا خلف ركाम الوثنية ٠٠ وهكذا تمكنت البرهمية الفتية أن تبتلع كل النحل الوديعه ومنها البوذية بعد أن عاشت ألف عام بالهند تمنح الحكمة وتهذب الناس ٠٠

وكذلك عاشت أمم آسيا الوسطى والشرق، كالمغول والترك واليابان بين ضلالات البوذية والوثنية لا يملكون حظاً من هدايات السماء ٠٠ ولا حضارة من صنع البشر ٠٠ معظم شعوبها تحيا في طور السذاجة والبداءة ٠٠ وبعضها في عهد الانتقال الى الحضارة وهكذا غامت الآفاق كلها بظلام البدع والخرافات وضلال الفساد والشهوات !!

ماذا عن الهند ؟

مجتمع الهند : يمكن أن نعبر تعبيراً مختصراً عن المجتمع الهندى فى ذلك الوقت بأنه « مجتمع الشهوة الجنسية » فلم تتمكن هذه الشهوة من أمة كما تمكنت من الهند ، ولم تتحدث عنها نحل وتسف فى وصفها كما تحدثت نحل الهند القديمة ٠٠ وصفت هذه النحل الاختلاط الجنسى بين الآلهة ، وتحدثت عن نتائجها ٠٠ وعن نوع الحوادث ونشوء الأكوان وأقاصيص أخرى يندى لها الجبين ٠٠ كاغارة الآلهة على بعض البيوت الشريفة للنزوات والشهوات ٠٠ وكان القوم يرددون هذه المجانة بحماسة وإيمان لأنها عمل الآلهة ٠٠ وهكذا تخلق الجهالة مناخاً تزدهر فيه الخرافة والشهوة ٠٠ ولقد انحط القوم فكرياً وعاطفياً كما انحطوا فى هذه العقيدة حيث عبدوا آلة التناسل لئلا اله الأكبر « مهاريو » واجتمع الناس على ذلك عذارى ونساء ورجال وأطفال وبعضهم كان يعبد المرأة الجميلة عارية ، وبعض النساء يعبدن الرجال العراة ٠٠ والكهنة تحولوا فى ظل الفجور الى فحول لقاح لا عمل لهم الا الشهوة والخيانة ، حتى لقد حولوا المعابد الى مواخير ، وكذلك تحولت قصور الملوك وبلاط الحكام وبيوت الأغنياء فما تورعوا عن منكر ، أو فساد ، يختلط الفتيان بالفتيات بعد شرب الخمر ٠٠ فتكون العريضة والفاحشة ، وسقطت الأخلاق فى مهاوى الرذيلة ٠٠ وتفنن القوم فى تعاطى المهيجات التى تثير الشهوة وتحرك الغريزة ٠٠ وتحدثت عنها كتب الديانات .

أيمكن لأمة كهذه أن تسمو الى مجد ؟ أو تتحرك الى شرف ؟ نعرف أن أمماً كثيرة عاشت فى ظلام الجهل ، بعيداً عن الدين ، ولكننا لم نقر انحرافاً فاسقاً زليماً كهذا الانحراف ولا سمعنا به ولله الأمر من قبيل ومن يعد ٠٠

الوثنية الهندية : بلغت آلهة الهند في القرن السادس ثلاثمائة وثلاثين مليوناً من الآلهة وقد عبدوا كل ما هو رائع أو جذاب . . عبدوا كل شارق وغارب . . وكل شخص نابه تمثلوا الاله نهراً يجرى ، فعبدوا نهر الكنج ، ونسجوا حوله الخرافات ، فهو قد خرج من رأس « مهاريو » الاله وما يزال مقدساً حتى وقتنا هذا تحرق جثث الموتى ، وتتحول الى رماد ثم تذر فيه ، مع احتفال مهيب !! ، وتمثلوا الاله في الجمال فعبدوا المرأة ، وفي المعادن فعبدوا الذهب والفضة ، وفي آلات الحرب والكتابة والتناسل وفي حيوانات عديدة أهمها البقرة . . وعبدوا الأجرام الفلكية . . ولم ينج ملك ولا صعلوك من عباده هذه الأشياء . .

حكى الرحالة الصيني الشهير « هوئن شوئنج » الذي قام برحلته بين (٦٣٠ - ٦٤٧ م) قال : أقام الملك احتفالاً عظيماً في « قنوج » اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات ، السائدة في الهند ، وقد نصب الملك تمثالا (١) ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول في موكب حافل ، قام يجنبه الملك « هرش » بملء ، وقام معه الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب ويقول الرحالة « ان بعض الشعب والكهنة من عباد « شو » وبعضهم من عباد « بوذا » وبعضهم يعبد الشمس ، وبعضهم يعبد « وشنو » ولكل واحد من القوم أن يختص بآله أو يعبد الجميع حتى يفر ببركاتهم » *

الطبقة في المجتمع الهندي :

يؤمن المجتمع الهندي بنظام الطبقات ايماناً مطلقاً ولم يعرف التفاوت الطبقي المرهق كما عرف في الهند ، وهو تفاوت

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسامين ص ٤٨ « نقلا عن رحلة هرننج شنج » لأبي الحسن الندوي .

تؤازره وتمكن له الديانات والقوانين والمجتمع الجاهلى ٠٠
 وخضعت الهند لذلك النظام آلافا من السنين دون أن تثور عليه ٠٠
 وكان سبب ذلك التفاوت هو تأثير الحرف والصناعات والآلات
 ٠٠ وما أحدثته من ثورات فى آخر العهد « الويدى » للمحافظة
 على السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، ثم جاءت « البرهمية »
 قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون فوضعت قانونا على يد (منو)
 كان نكبة وشرأ أكثر من ذى قبل ٠٠ فقد امتنهن كرامة الناس
 الى أبعد حد وقسم الناس الى : كهنة ، أى « رجال دين براهمة »
 وشتري أى « رجال حرب » ، وويش أى « رجال زراعة وتجارة »
 وشودر أى « رجال خدمة » وهم المنبوذون ويقول مؤلف هذا
 القانون :

« ان القادر المطلق قد خلق البراهمة من فمه لمصلحة العالم
 وهم الكهنة رجال الدين وشتري من سواعده وويش من
 أفضاه ، والشودر من أرجله ثم وزع عليهم فرائض وواجبات
 لصالح العالم ، فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور
 للآلهة ، وتعاطى الصدقات ، وعلى الشتري حراسة الناس
 والتصدق عليهم ، وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن
 الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة وتلاوة (ويد) والتجارة
 والزراعة ، وليس لشودر الا خدمة الطبقات الثلاث ٠٠

والبرهمى الذى يحفظ « رك ويد » مغفور له ولو أباد العوالم
 الثلاثة ، وملاً الدنيا شروراً ولا يجوز أن يجبى منه جباية حتى
 فى أشد حالات ضنك الدولة ، كما لا يصح أن يموت برهمى
 جوعاً ، ولا يقتل بعقوبة مهما فعل ، وغاية ما يناله من عقاب
 أن يحلق الحاكم رأسه ٠٠ وغيره يقتل بذنبه ، ويليه فى الفضل
 الشتري ، والبرهمى الذى بلغ سن العاشرة يفوق الشتري الذى
 ناهز المائة كما يفوق الوالد ولده ، أما شودر فهم المنبوذون

الأشقياء حقاً كانوا أخط من البهائم ، وأذل من الكلاب ومن سعادتهم أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك ٠٠ ولا يجوز لهم الادخار أو الاقتناء لأن ذلك يؤذى البراهمة وإذا مد أحد المنبوذين عصا أو يداً الى برهمى قطعت يده وإذا رفسه غاضباً فدعت رجله وإذا هم بمجالسة برهمى كوى استه ونفى وإذا سبه اقتلع لسانه وإذا ادعى بأنه تعلمه سقى زيتاً فائراً وكفارة المنبوذ ككفارة القطرة والضفدعة والوزغة والغراب . كل ذلك ينص عليه القانون ٠٠

أما المرأة في المجتمع الهندي :

فما أذلها ، وما أحقرها انها أمة عندهم قد يخسرها الرجل في قمار ٠٠ أو مراهنه ، وكانت ممتنه يتزوجها عدة رجال ، وإذا مات زوجها عضلت أى منعت من الزواج ، وتعرضت لحملات التشهير وظلت في بيت زوجها المتوفى تخدم الأحماء ولها أن تحرق نفسها بعد وفاة زوجها تفادياً للشقاء المرتقب .

هذه هي بلاد الحكمة ، صارت بالبعد عن الله مسحا للضلال ، ومعقلا للوثنية ووكراً للفساد ، وماخوراً للفسق ومعقلا للاقطاع والطبقية وكذلك يصنع البعد عن الله ولقد كان هذا الفساد الضارب ينتظر الفتح الاسلامى ليكتسح هذا الغناء كله ويضع مكانه عقيدة الاسلام لتتبدل الى الناس آدميتهم وكرامتهم ، وكأنما الهند كانت على موعد مع البطل المسلم الشاب محمد بن قاسم الثقفى الذى تم له فتح السند ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

المجتمع العربى :

لم يصل المجتمع العربى فى الجاهلية الى مثل ما وصل اليه الروم أو الفرس أو الهنود من تحلل وانحطاط وفساد وترف ،

ولم تكن أخلاق العرب من الرخاوة والترهل والفساد كما كانت أخلاق أهل زمانهم في تلك الفترة من عمر الزمن ، أى في القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠٠ لأن البادية قد نشأتهم على سجاياها المرسله فشبوا على الكرم والايتار والنخوة والحفاظ على العرض وتلبية الصريخ ٠٠ وايقاد النيران في الليل ليهتدى بها الضال ٠٠ الا أن هذه الفضائل كانت قد اختلطت بالردائل حتى جاء الاسلام فنقى فضائلهم وظهر شمائلهم واستبعد من هذه الأخلاق ما لا يتلاءم مع الحياة الفاضلة كالعصبية والثأر وغيرها ٠٠ نعم لقد أسقط الاسلام من أخلاقهم ما كان بعيداً عن الحق غالباً في التطرف سادراً في الغي ٠٠ لقد كانت فيهم الفصاحة والبلاغة والفروسية بشمائلهما النبيلة ، كالشجاعة والصراحة والوفاء والكرم ٠٠ كانت لهم النفوس الكبيرة والأذهان البصيرة والحكمة والمعرفة ، بعضها من نتاج عقولهم ، وبعضها من خبرتهم وتجربتهم ٠٠ وان لغتهم العربية بما فيها من الخصوبة والمرونة والحيوية والشاعرية واستيعاب المعانى والعواطف والمشاعر والخلجات لدليل على أن العرب فعلاً كانوا على حظ من العظمة والابداع ٠٠ لان الأمم الثقافية لا تصنع لغة راقية ٠٠ يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات [ولعمري (١) ما يكون التمدن اللغوى الا بعد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته وان لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وان لم يعم فى أهله] ٠٠

ولو لم يكن العرب أهلاً لكل مكرمة ، لما اختارهم الله لرسالة الاسلام ، ولما أنزل بلغتهم القرآن ولما جعل منهم أئمة يعلمون الناس الحكمة ، ذلك دليل على أنهم أمة قد نضجت فيها عناصر الخير ولذا آثرهم الله بالرسالة ٠٠ دون الفرس أو الروم أو الهند تلك الأمم التى ترهلت بالترف ، وأغرقت فى

(١) ص ١٢ من تاريخ الادب العربى .

الذائد وأصبحت واهنة ذليلة قد استعبدتها الشهوات من كل جانب *

وإذا كان هناك ضلال في المجتمع الجاهلي ، فهو ضلال محتمل بالنسبة لغيره . وبالنسبة لتلك الفترة التي سماها القرآن « جاهلية » .

يقول صاعد الأندلسي واصفاً ديانتهم : « كانت ديانات العرب مختلفة ، كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وحزام « المشتري وطى سهيلا ، وقيس الشعري العيور ، وأسد عطارد . وكانت ثقيف وإباد تعبدان صنما بأعلى نخلة يقال له : اللات وكان لحنيقة صنم من حيس ، فلحققتهم مجاعة في بعض السنين فأكلته فقال فيهم الشاعر :

أكلت حنيقة ربها عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم خوف العواقب والتباعة

ولقد انبثت في صحرائهم جميع الديانات المعروفة من عبادة الأوثان واتخاذها شفعا إلى الله ثم ما لبثوا أن عبدوهم ، وكان لكل قبيلة صنم ، بل لكل بيت صنم في بعض الأحيان *

يقول الكلبي في كتابة الأصنام : [كان لكل دار من مكة صنم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يفعل أن يتمسح به ، وكذلك عندما يحضر من السفر ، وقد تنصب بعض القبائل صنما أمام الحرم أو في جوف الكعبة ، وفنائها . وقد بلغ ذلك نحو ثلاثمائة وستين حجراً] *

وروى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر . فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه وطفنا به . *

وقال الكلبي : [كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة
أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذها رباً وجعل الثلاث أتاقي قدره ،
أي حجارة يوضع عليها القدر ، واذا ارتحل تركه » .

وانتشرت اليهودية والنصرانية في جهات من الجزيرة
العربية ، وانتشرت المجوسية قليلا ، كما كان هناك بقية طيبة
من دين ابراهيم عليه السلام ، قد طال عليها العهد ، وكانت
الكثرة على الوثنية ، أما القلة فكان بعضها على اليهودية في
اليمن ، وفي يثرب وماجاورها من تيماء وخيبر وبعضها على
النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والغساسنة
بالشام . .

ولقد ظهر جماعة الخنفاء قبيل سطوع شمس الاسلام ،
استبشعوا عبادة الأصنام واستدلوا بالكون على الله . .
وتحدثوا في البعث واليوم الآخر ومخافة الله . . ومنهم أمية بن
أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن
نوفل . . فهؤلاء طلائع مثقفة عاشوا حياة نظيفة .

وكانت هناك مجموعة أوهام وأباطيل ترتبط بعقيدة العرب
كزجر الطير والضرب على الرمل والطرق بالحصى والكهانة
والعرافة ولهم أخبار في ذلك مضحكة كذلك كانوا يؤمنون
بالهامة ، وهي طائر لا يزال يطالب بدم القتيل حتى يؤخذ
بثأره ، واستهواء الجن ، وتعليق الحلى على المذوغ . . وأن دم
الرئيس يشفى من الكلب والجنون ، وهي معتقدات ساذجة . .
وقد سماها القرآن جاهلية لأنها كانت سفينة . . ولقد حرص
القرآن على تقبيح هذه الحياة بعد اسلام القوم كلما نزعوا اليها
بعد أن شرح الله صدورهم بالاسلام فيقول : « أفحكم الجاهلية
يبغون (١) » ، وقد قالها رسول الله لصهيب بعد أن غير بلالا

(١) آية ٥٠ سورة المائدة .

بأمة السوداء حين خاطبه بقوله : انك امرؤ فيك جاهلية كما
كان صلوات الله عليه يهاجم العصبية التي كان القوم يتورطون
فيها من حين لآخر .

البداءة والحضارة عند العرب :

سكن العرب شبة جزيرتهم الجافة القاحلة التي لا تصلح
للزراع ولا للاستقرار ولا لتلائم الحضارة ومن ثم كان أهلها بدواً
رحلاً يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكأ والعشب . .
ويعيشون تحت الخيام . ويولعون بصهوات الخيل . .
ويطعمون من لحم الابل والأنعام ويشربون من ألبانها
ويكتسبون من أصوافها . . وهذه الحياة اتسمت بالسذاجة
والبساطة وعرفت بأنها حياة البداءة .

أما قريش فكانت متحضرة لمكانتها الدينية ومنزلتها
الاجتماعية وغناها من الايلاف وترحالها للتجارة ، وقدم العرب
اليها للحج ، وللأسواق . . وكذلك كان القحطانيون متحضرين
لحظ ديارهم من الخصب ووفرة الغلات والثمار . . . ولقد
اعتمدوا الغارة والحرب والقتال أسلوباً لحياتهم لمكان العصبية
منهم ، فكانوا لا يصبرون على ضيم ، ولا يقيمون على هوان ،
وقد جر عليهم ذلك فساد القلوب ودوام الحروب وتعدد الثارات
ونزوة العصبية وما حروب داحس والغبراء وحرب البسوس
ويوم حليمة الا صفحات مخضبة بالدماء . . وقد اختفوا
بالذكور وكرهوا الاناث . . ومارسوا الوأد ، اما خوف العار ،
أو الفقر ولم تكن كل القبائل تفعله . .

ولم تكن لهم مدنية اجتماعية - بل نزعات فردية أو
قبيلية . . كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة لا مجتمع
الحكومة والأمة - وان ازدهرت في بعض النواحي حضارات
عربية كحضارة المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام

والسبئيين باليمن السعيدة - وكان لرؤساء القبائل امتيازات وأحكام يتقبلها الأفراد ولو كانت مخالفة لأرائهم * * وطبيعي أنهم لم يعرفوا النظم العسكرية ولا الحكومات السياسية - اللهم الا في بعض الجهات المتصلة بفارس أو الروم كما وضحنا . فقد كانت دولة الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة - يحكمها الملوك المتوجون * * ويخضعون لنظم سياسية واجتماعية أرقى * *

أخلاقهم وطبائعهم :

إذا كانت لهم فضائل قد تحدثنا عنها في صدر هذا الفصل - فانها لم تكن خالصة نقية بل كانت مختلطة بالردائل فمن اكرام للضيف الى استنلاب لعابر السبيل - ومن احتفاء بالقبيلة الى اغارة على ابن العم - ومن اجابة للصريح الى سطو واغتصاب ومن حفاظ على العرض الى امتهان للمرأة * وكانت لهم أخلاق سيئة قد أسرفوا فيها من تهالك على الخمر ولعب للميسر قال قنادة : [كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعده حزينا سلبيا ينظر الى ماله في يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا] *

وكان الحجازيون يستعملون الربا - وكان فيهم فاشيا - ولعل لليهود أثراً في اشاعة الربا * . *

وكانوا يسرفون في استعماله الى حد الغلو والقسوة قال الطبري : [كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين يكون للرجل فضل دين فيأتين اذا حل الأجل فيقول له تقضييني أو تزيدني ؟ فان كان عنده شيء قضاه والا زاده الى السن (أى الجمل أو الناقاة) التي فوق ذلك ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة - وفي العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه في العام الآتي وهكذا تكون ومائة

فيجعلها في القابل مائتين ثم يجعلها في القابل أربعمائة ان لم
تكن عنده وهكذا] ٠ ٠

وكان الزنا - موجوداً في بعض نواحي شبه الجزيرة - ولم
يكن منتشرأ ٠ ٠ فقد كان الرجل يتخذ الخليلات دون عقد -
وكانت الاماء تكره على الزنا قال ابن عباس : [كانوا في
الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنى - ويأخذون الأجور] ٠

وقالت عائشة : [ان النكاح كان في الجاهلية على أربعة
أنحاء ٠ ٠ فنكاح كنكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل
وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها - والنكاح الآخر يقول
الرجل للمرأة اذا طهرت من طمثها أى حيضها - أرسلى الى
فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها فلا يمسسها أبداً حتى
يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه - فاذا تبين
أصابها زوجها اذا أحب وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد
فهذا نكاح الاستبضاع - ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون
العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت
ومر عليها ليال بعد أن تضع أرسلت اليهم فلم يستطع أحد منهم
أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها : تقول لهم : قد عرفتم الذى كان
من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يا فلان تسمى من أحبت باسمه
فلا يستطيع أن يمتنع من الحاق الولد به ٠ ونكاح البغايا :
كن ينصب على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل
عليهن فاذا حملت احدهن ووضعت حملها جمعوا لها القافة -
أى المتخصصين في معرفة الأنساب - فألحقوا الولد بالذى
يروون - ويدعى ابنه فلا يمتنع] ٠ ٠

وهذا الذى نتحدث عنه أم المؤمنين عائشة لم يكن منتشراً
في كل الأوساط ٠ ٠ بل في بعضها وعلى ندرة لان العربى معروف
بالحفاظ على العرض - بغض طرفه عن جارتة ٠

والمرأة في الجاهلية كانت موضع التكريم في الغالب - ولم
تمتحن الا في بعض القبائل - التي تمارس الوأد والعزل -
وتجعل المرأة متاعاً يورث بعد وفاة زوجها . .

لكن الزوج العربية - كانت ذات مكانة - يجلبها زوجها في
نفسه - ويشركها في أمره ويتغنى بها في شعره ويفخر العربي
بنسبه الى أمه كما يفخر بنسبته الى أبيه - وكان الارتباط بين
الزوج وزوجه يتم بعقد غالباً - ومن غير الغالب مذكرته عائشة
- وهناك زواج كانت تعقده الأسنة والسيوف - وكان هذا
يحدث اذا لقي رجل آخر ليس من قبيلته ومعه ظعينه (١)
فيتقاتلان فاذا قهره سبأها واستحلها - وكان التعدد بين
الأزواج الاناث مألوفاً - ويحلون التزوج من امرأة الاب -
ويحرمون زواج البنت والأخت والخالة والعمة .

علومهم ومعارفهم :

لم يكن لدى العدنانيين علوم ولا معارف بالمعنى وانما
اشتهروا بأشياء استنبطوها بالعقل أو اكتسبوها بالتجربة أو
توصلوا اليها بالاستقراء والوهم - عرفوا مبادئ من الطب
والبطرة - والعيافة والنجوم وانواء والفراسة وبرعوا في
الأنساب والاختبار والشعر - ثم عرفوا الكهانة والزجر . .

أما تبابعة اليمن ، ومناذرة الحيرة وغساسنة الشام فكانوا
على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من سدود ، وأحيوه من
الأرض وعمره من المدن ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لم
نتوصل اليها كاملة ولعل الكشوف تنبئ عنها وقد سبق
الحديث عن سد مأرب وحضارة سبأ . . وبعد :

(١) المرأة في الهودج .

فتلك لمحة خاطفة عن حال المجتمع الجاهلى العربى فى القرنين السادس والسابع لىتكامل بها وصف شامل لحالة العالم كله قبل القرآن ، وماكان يغشيه من ظلمات بعضها فوق بعض وما كان يحتويه أحياناً من حضارات تزدهر ثم تنتحر • لأنها لا تطرد مع الترف ، ولا تستمر مع الطغيان ، انه عالم قد تمكن منه الشيطان فصده عن ذكر الله • • وأضله عن سواء السبيل ، وكانت الانسانية المضطهدة المريضة تنن من وطأة الظلم وقسوة الحياة • • وتترنح تحت سياط المستبدين ، فتسقط جثة هامدة • • أو تظل تنزف الدم الزكى دون أن تجد من يضمد جرحها - أو يمنع نزفها لم يكن هناك ملجأ ولا معتصم • • فقد ضل الهداة ، وسكت الحداة ، وتاه الركب فى ظلمات الحياة •

وسكت صوت الحق بالمرة ، وتفشيت فى العالم نحل مريضة منحلة فهوت بالبشر الى الحضيض فهل يمكن أن نتصور فساداً أكثر من هذا • وهل يترك الله الأرض مسرحاً للشيطان ومبأة للفساد والطغيان ومستقراً للشهوات الآثمة • • وموآخى للفسوق والاجرام أكثر من هذا • كلا • وانما لابد للقدر العالى أن يحسم فى الأمر ، وينسف الضلال وذلك بنزول القرآن ، منبع الحضارة الحققة ومستقر الهداية الراشدة ومنارة البشرية التائهة فى دنيا الظلمات يحمله الى العالم الظامى الى الهداية رسول كريم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم • • أما كيف تمت المعجزة وحدث البعث الجديد للبشرية فذلك ما سنتحدث عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •

كلمة ختامية

يطيب لى أن أتجه بالشثناء والشكر الى الله الذى منح من الجهد والوقت والفهم والمراجع ما أعاننى على بلوغ الهدف الذى كنت أصبو اليه .. وأمدنى بالصبر الجميل على القراءة والاطلاع ، فى موضوع من أخطر الموضوعات ، وأعماها ، وأكثرها صلة بعلوم النفس والحياة والفلسفة والاجتماع !

وقد استطعت - والحمد لله - أن أعطى تصوراً واضحاً عن فلسفة الحضارة وفقها وعناصرها ، ودورها التاريخية ، وارتباطها بالايمان الذى يسقيها بالماء النقى لتخرج أطيب الثمرات ، ويضبط مسارها على طريق الهداية حتى لا تنحرف عن سواء السبيل كما وضحت - دور العلم - التطبيقى المتخصص فى بناء الحضارات الانسانية ، وأكدت أنه لابد أن يتعاون العنصران معاً : الايمان والعلم لكى تزدهر بهما حضارة كريمة تضع الانسان فى مقامه الرفيع - وتحترم خصائصه العليا ، وتمكنه من أداء واجبه فى الحياة ، ويوم يتم ذلك فسوف تستريح الحياة من شهوات الغرب ، ومادية الشرق ، ويتبوأ القرآن مكانه الأسمى لينضح على الوجوه طهراً وأمناً واستقامة تنقذه من بلاء ماحق ، وشر مستطير ..

وكم يهفو قلب كل مسلم يؤمن بالله وكلماته الى تلك الفرصة الطيبة التى تتمكن فيها الأمة المسلمة من بعث الحضارة

الانسانية من جديد لتكتب قصة العدل والكرامة وتحقق مبادئ الخير والسلام لعالم أوبقه الفساد وشغه الفسوق وعبت به الشيطان ، وأخذ يتطلع من جديد الى حضارة القرآن •

واليوم ونحن في مصر الكريمة قلب العالم الاسلامى ، ومنارة الهدى والخير ، وأمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، اليوم ، ونحن نبني دولة العلم والايمان على تقوى من الله ورضوان - نتقدم بهذه الدراسات - كاسهام متواضع في تحقيق الهدف الكبير الذى نهفوا اليه جميعاً وهو بناء الدولة العصرية نواة الحضارة الاسلامية العالمية - والله من وراء القصد ، ينفع بهذا الكتاب ، ويجزى عليه بقدر ما فيه من اخلاص وجهد •• وهو حسبى ونعم الوكيل ٥

توفيقاً محمد سبع

مراجع الكتاب

(١) كتب تاريخية :

- ١ - تاريخ الطبرى
- ٢ - سيرة ابن هشام
- ٣ - عصر ما قبل الاسلام - الأستاذ مبروك نافع
- ٤ - قصص الأنبياء - المرحوم الاستاذ عبد الوهاب النجار
- ٥ - تاريخ الاسلام السياسى - الدكتور حسن ابراهيم حسن
- ٦ - الملل والنحل - للشهرستانى
- ٧ - تاريخ العرب قبل الاسلام - جورجى زيدان
- ٨ - مقدمة ابن خلدون
- ٩ - الخطط للمقريزى

(ب) التفاسير :

- ١ - الكشاف للزمخشري
- ٢ - تفسير الفخر الرازى
- ٣ - تفسير ابن كثير
- ٤ - تفسير المنار للمرحوم الشيخ رشيد رضا
- ٥ - تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده
- ٦ - تفسير الشوكانى (فتح القدير)

(ج) كتب فى شرح الحضارات :

- ١ - نحن والحضارة الغربية - لابی الأعلى المورودى
- ٢ - تجديد التفكير الدينى فى الاسلام
للفيلسوف محمد اقبال

- ٣ - الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على
- ٤ - المستقبل للاسلام
الأستاذ مالك بن نبي تعريب شعبان بركات
- ٥ - حضارة الاسلام - المستشرق (جوستاف)
- ٦ - أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة
للمودودي
- ٧ - من روائع حضارتنا - المرحوم مصطفى السباعي
- ٨ - انسانية الاسلام - أحمد عبد الغفور
- ٩ - بين الديانات والحضارات - طه مدور
- ١٠ - الاسلام في المعترك الحضارى - عمر بهاء الدين
- ١١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
لأبى الحسن الندوى
- ١٢ - الاسلام والطاقت المعطلة - ظلام من الغرب
للأستاذ محمد الغزالي
- ١٣ - أثر العرب في الحضارات الأوروبية
للمرحوم عباس محمود العقاد
- ١٤ - في أصول الأدب - للمرحوم حسن الزيان
- ١٥ - القرآن والعلم - للأستاذ جمال الدين الفندى

الجزء الأول (قيم حضارية)

محتويات العدد

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية بقلم المؤلف
٨	تقديم لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيسار
١٢	مقدمة بقلم المؤلف

الباب الأول

١٩	في معنى الحضارة والثقافة والمدنية
٢١	الحضارة والبداءة في الشعر
٢٥	تطوير معنى الحضارة - المتنبي والحضارة
٢٧	ابن خلدون
٣٠	الكتاب المعاصرون والحضارة
	عالم ما قبل الاسلام (من أرشيف الحضارات القديمة)
٣٣	(تحليل ودراسة)
٣٧	معنى المدنية وارتباطها بالحفاوة
٣٨	معنى الثقافة وصلتها بالحضارة
٤٠	علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض
٤٢	بين الحضارة والمجتمع
٤٥	نماذج العناصر الحضارية وتداخلها
٤٧	أثر الثقافة في حياة المجتمعات
٥٧	المؤثرات الحضارية
٥٨	مناقشة ابن خلدون في أفكاره

الباب الثانى

الموضوع	الصفحة
الله والكون والانسان	٦٠
كيف السبيل الى الله	٦٢
عندما تنحرف الفطرة	٦٥
من شؤم الاحاد	٦٨
ذلكم الله ربكم	٧٢
الانسان ومركزه فى الكون	٧٩
ما لهم به علم	٨٥
عندما يتجاوز العلم قدره	٨٦
دارون ومذهبه	٨٧
أثر نظرية دارون فى المجتمع	٨٨
موجات من الاحاد	٩٠
يا حسرة على العباد - الكنيسة تساعد على الاحاد	٩١
واقف مؤسف	٩٤
الكون ساحة لنشاط الانسان	١٠٢
بين الانسان والكون	١٠٧
أزمة الضمير الغربى	١٠٩
من ايجاء آية الاستخلاف	١١٠
قيم حضارية تعبر عنها آية الاستخلاف	١٤١

الباب الثالث

حضارات قديمة وصفها القرآن	١٤٥
الأديان والمادة	١٤٨
نظرات على حضارات العالم قبل القرآن	١٥٠
قضايا حضارية	١٥٤

الصفحة	الموضوع
١٥٦	حضارة عاد
١٦٣	حضارات ثمود - عناصرها
١٦٧	رواية لها مغزى
١٦٨	حضارة داود عليه السلام
١٧٣	ملامح تلك الحضارات وأسرارها وعناصرها
١٧٧	تأملات حضارية
١٨٤	مع الحضارة السليمانية
١٨٧	حضارة صناعة وعمل
١٨٨	عنصر الإعجاز في تلك الحضارة
١٩٤	من روائع الحضارة السبئية
١٩٧	قصة خالدة أو رحلة الايمان
١٩٨	بين بلقيس وسليمان
٢٠٢	من معالم الحضارة السبئية - سد مأرب
٢٠٥	القرآن والحضارة السبئية
٢٠٩	عظة وعبرة

الباب الرابع

العالم قبل القرآن

٢١١	نظرة على العالم في القرنين السادس والسابع الميلاديين
٢١٢	الأديان السماوية والحياة
٢١٦	مثالب ونقائص
٢٢٠	واقع تاريخي مؤلم
٢٢١	تدخل سياسي
٢٢٣	انحلال يتمشى في كيان الامبراطورية الرومانية

الصفحة

الموضوع

٢٢٤	أوروبا في ذلك الوقت - اليهود على مسرح الأحداث
٢٢٥	بين اليهود والمسيحيين
٢٢٨	ماذا عن فارس في ذلك الوقت ؟!
٢٢٩	مجتمع منحل - مانى يثور على اليهودية
٢٣٢	عبادة الذات
٢٣٣	دروس من السماء !!
٢٣٧	ماذا عن الصين ؟!
٢٣٩	ماذا عن الهند ؟!
٢٤٢	المجتمع العربى فى الجاهلية
٢٤٦	البداءة والحضارة عند العرب
٢٤٧	أخلاقهم وطبائعهم
٢٤٩	علومهم ومعارفهم
٢٥١	كلمة ختامية
٢٥٣	مراجع الكتاب

رقم الايداع ٨٤/٤٢١٥

دار الفتح الاسلامى للطباعة

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	المسطر	الخطأ	المصواب
١٦	٣	ونالهما	ما نالهما
٢٢	٧	قطلبت	فقطبت
٢٧	١٦	(٧٣٣-٧٠٨ هـ)	(٧٣٣-٨٠٧ هـ)
٢٩	١	لظالمين	الظالمين
٢٩	١٨	النقص	التقصي
٣١	٥	وادساتير	والدساتير
٣١	٣-	يستوعبها	يستوعبها
٣٣	١٣	مقومتها	مقوماتها
٤٤	٤-	يتوغمروا	يتظافروا
٤٧	٥-	يتميز	يميز
٥٠	٢-	الظلمات	الظلمات
٥١	٥-	الالهية	الالهية
٥٣	١٠	الفطر	الفطره
٥٥	٣	ينتالها	ينتالها
٧٨	١١	الفطر	الفطره
٧٩	٨	كراهلهم	كواهلهم
٧٩	١٥	بيديه	بيديه
٨٤	١١	وتركيها	وتركيها
٨٤	١٤	النبيعه	التبعية
٨٥	١	والأض	والأرض
٨٦	٨-	أتى	اللتى
٨٨	٣	لاولى	الأولى
٨٩	٩	ومنى	ومتى
٩٠	١٠	سسله	سلسلة
٩٤	٢-	لتيودا	ليقودا
٩٥	٢	يعيشه	يعيشه
١٠٤	١٦	علبنا	علينا
١٠٧	١٠	وتفاعله	بتفاعله
١١٥	٨-	شخصيه	شخصه
١٢٠	٥	سبيلها	سبيلها
١٢٣	١٦	للشر	الشر
١٢٣	٤-	انسانيه	انسانيته

رقم الصفحة	السطر	الخطا	الصواب:
١٢٤	١٥	الحرام	الحرم
١٢٥	١٥	من	من الله
١٢٦	٩	بتوقيف	بتوفيق
١٢٨	١١	وحققت	وحقت
١٢٩	١٦	الملائيه	الملائكة
١٣٣	(٢) الهامش	(آيتا ١١٨ ، ١١٩ سورة طه)	
١٣٤	١٢	الفننه	الفتنة
١٣٩	٤—	وقوله	وقواه
١٤٠	٧	أنو	النمو
١٤٧	الآخر	المعدله	العداله
١٤٨	٥	مبتهجه	بمتهجه
١٤٨	٧	هبوت	هبوط
١٤٨	الآخر	عنصر	عنصر
١٥٤	٢—	متائفه	منافقة
١٥٨	٦—	فعل	فعل
١٦٠	٢	جنت	جنات
١٦٩	٢—	قامنا	قامتا
١٧٦	١٣	ذك	ذلك
١٧٨	١٤	لصلحا	لصلحية
١٧٩	٧—	رجيل آتئها	وجبل لآئها
١٧٩	السطر الخامس من أسفل زائد	ويشطب	
١٨٠	الآخر	عنها عنها	عنها
١٨٤	٩—	وقله	وقال
١٨٤	٨—	افصل	الفضل
١٨٥	٤	صى	على
١٨٧	٦	وم	ولم
١٩٢	١٦	له	لم
١٩٤	١٢	ففرؤا الله	ففرؤا الى الله
١٩٦	٧—	فنيونا	دنويوا
١٩٧	١٦	ويسلمها	ويسلمها
٢٠٣	٤	فقتئمه	فقتائمه
٢٠٣	٤	صنعها	صانعها
٢٠٤	١	لس	ليس
٢٠٦	٣—	قا	قال

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠٧	٢—	وغاضب	وغاضت
٢٠٨	٧	خصبه	خصبه
٢٠٨	٧—	فها	فيها
٢٠٩	١٣	البدهى	البديهى
٢١١	٩—	بعدن	بعد أن
٢١٥		الهامش (٣)	آية ٢٠ سورة التوبة
٢١٥		الهامش (٤)	آية ٧٣ سورة المائدة
٢١٦	٢	واتخذنا	واتخذنا
٢١٦	٧	التيبان	البنيان
٢١٩	٨—	برائن	برائن
٢٢٢	٧—	نريا	نظريا
٢٢٦	١٣	النكابه	النكاية
٢٢٨	٦	يتسمون	يقتسمون
٢٢٨	١٤	ظلمنا وفجرنا	ظلمنا وضلنا
٢٢٩	١٥	يتنص	يتنصر
٢٢٩	٣—	خليفه	خليفته
٢٣٠	٦—	رهينه	رهينه
٢٣٠	٤—	لا ترتصى	لا نرتضى
٢٣١	٣—	فباز	قباز
٢٣١		الآخر المنذرين	المنذر بن
٢٣٢	١٦	معظا	معظما
٢٣٤		السطرين ٧٦٦ يرفعا الى أول الصفحة ليصير السطر ١ هو ٣	
٢٣٥	١٥	قلقنه	غللقنه
٢٣٥	٢—	رغم نه	رغم أنه
٢٣٧	٦—	الحمنده	الحميده
٢٣٨	٩	شئونها	شئونها
٢٤٧	١٥	قناده	قتاده

إذا سبق — رقم الصفحة تعدد الأسطر من أسفل الصفحة
أخى الكريم ٠٠ رجاء تصحيح نسختك من هذه الأخطاء المطبعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ٦١ هليوبوليس

قِيَمٌ خَصَائِرُ فِي الْفُرَّانِ الْكَبِيرِ

العالم الذي صنعه القرآن

تأليف
توفيق محمد سبع

الجزء الثاني

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ٦١ هليوبولس

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفه ، فقد ضمنى مجلس مع لفيف من الأخوة ذات ليلة - وكنا حين نلتقى نتحدث في كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويلا فيما بيننا ، وكان لنا صديق مفتون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقرأ من أفكار حول الغرب وتقديره ، ونهضته العلمية الشاملة .. وينهى حديثه بعبارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها .. حتى عرف بها .. وهى قوله : لابد أن نكون منصفين - ونعترف بأننا استفدنا الكثير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث ، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا في هذه الأفكار ونؤكد له أن حضارة أوروبا مقتبسة من حضارة المسلمين .. يوم أتيحت لهم فرص التلاقى مع الشرق في فترات من الزمن أخصبها فترة الفتح الأندلسى الإسلامى .. الذى جعل أوروبا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا، وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التى ارتادها لفيف من الدارسين الأوربيين .. وتلك حقيقة يقترنون هم بها .. بل ويتغنون بآثارها !!

هذا هو القول الحق !!

كنت أجلس بين المتناقشين صامتا لا أتكلم ، هادئا لا أتوثب - ولكن عطفى كان يشتمل ، وذهنى كان يستوعب آراء

هؤلاء وهؤلاء .. كان يرتب المقدمات ويستخلص النتائج ، في عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ..

وقلت لنفسي : لم لا أكتب في موضوع كهذا .. لأوقع الحيف عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها ؟! ثم عقدت العزم وانطلقت في المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد .. حتى امتلأت .. ثم جاشت هذه الأفكار في نفسي وتحفزت للظهور .. فاعتمدت على الله !! وشرعت أكتب .. وكان مقدرا ان أصدر جزءا واحدا ، أستوحى مادته من القرآن .. ولكن القدر هيا فرصة الإقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا .. فكان ذلك مددا غمرني بما لم أكن أتوقع من فكر ومعركة .. وأمام هذا الإلهام الغامر كتب جزأين وقدمتهما الى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ..

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفور له المرحوم الدكتور محمد عبد الرحمن بيسار - أمين المجمع يومذاك .. والذي صار فيما بعد شيخا للأزهر - حتى أصدر أمره بتقديم الجزأين كليهما الى المطبعة - وقدم لهما بقلمه الخصيب !! فما حل شهر جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !!

وتقبلهما الناس بقبول حسن .. وأخذوا حظهما من الثناء ، والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص على إعادة طبع هذا الكتاب .. واليوم .. وقد تهيأت الأسباب أجدنى سعيدا كل السعادة بإعادة الطبع ليبرز الكتاب في ثوب جديد .. وقد أضيفت اليه بعض الأفكار .. وتم تنظيمه على نحو بديع .. وهأنذا أقدمه هدية الى الشباب الظامى الى المعرفة ليجد فيه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضد آفات الغزو الفكرى والعقدى .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح له ، لقاء ما بذلت في
تأليفه من جهد ، وهو حسبي ونعم الوكيل ٥

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المملكة العربية السعودية - الرياض في غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ

يونيو سنة ١٩٨٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا •
فاستقام على جادته أجيال والتزموا • وكانوا رواد هدى •
وكان مجتمعهم هو المثال الأتقى والآنقى •

وصلوات الله وسلامه على سيدنا رسول الله • محمد بن
عبد الله • أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيرا • ففتح الله
به أعيننا عميا • وقلوبا غلقا • وأذاننا صما • تقدموا ركب
الانسانية في مسيرتها فقادوها الى مرفأ الأمن في نور القرآن :

وبعد •

فمما لا جدال فيه أن العالم كله مشرقا ومغربا قبل اشراق
القرآن كان يعاني من الاضطراب غايته : سادة مستبدون •
وعبيد مرهقون • أخلاق هابطة • وقيم مؤرقة • قهر سادر •
وحقوق مضیعة •

وأينما ولى الانسان وجهه ونظر ناحية من أرض الله
الواسعة • لاتقع عينه الا على مأساة انسانية • ولا يرتد طرفه
الا بما يملأ صدره ألما وهما •

ذلك ماكان • وماسجله التاريخ • لا يستطيع مكابر أن
يمارى فيه •

وشاء الله الرحيم بعباده أن ينزل القرآن خاتم الكتب على
سيدنا محمد خاتم الرسل • فيبشر به • ويهدى اليه حتى قامت
دولة الاسلام على أقوى ما تقوم دولة من دعائم • أرسى
قواعدها هدى رب العالمين الذى يعلم ما يصلح عليه خلقهم وما
يسعدهم ويثرى حياتهم الدنيا التى جعلها سبحانه معبرا الى
حياة أخرى أرحب وأوسع •

وانتبه التاريخ الراصد الى قيام تلك الدولة التى سجل
لها فى أزهى صفحاته مالم يسجل لدولة من قبل •

ومنتهى اليقين أن التاريخ كان مبهورا وهو يسجل أمجاد
الدولة الاسلامية • اذ كان يسجل فيما يسجل واقعا حضاريا
بأدق ما تحمل كلمة الحضارة من معان وأبعاد •

ذلك أن التاريخ يفقه حق الفقه أن الحضارة فى مفهومها
الصادق تعنى أول ما تعنى تحقيق انسانية الانسان •

وانسانية الانسان فى التحليل الأمين هى كرامته وأمنه
وتفاعل فكره وعقله مع ما خلق الله لاستنباط ما يشبع حاجته •
وانشاء ما يعبر عن وجوده فى سيرة الأجيال على طريق الحياة •

وتوخى هذه المعادلة الرشيدة كانت طابع الحضارة التى
أقامها المسلمون على هدى القرآن • فكانت بحق حضارة
انسانية • كرم فى ظلالها الانسان • وأمن وسعد وأثرى بها
الحياة أيضا •

ولعل المقارنة المنصفة بين الحضارة التي قامت على قواعد القرآن وهدهاء * والحضارة المعاصرة التي روعت الانسان واضطربت بها حياته وشفيت تنتهى بالمفكرين الصادقين الذين يبتغون خير الانسان وأمنه الى التمهّل المطمئن والتعقل المتزن لاختيار الطريق الأمثل لمسيرة الانسان *

وليس الطريق الأمثل الا طريق القرآن * وقد جرب فسعد *
والتجربة هي المعيار الأصيل ولسان الحق الذى لا ريب فيه *

وكتاب « قيم حضارية فى القرآن الكريم » للأستاذ « توفيق محمد سبع » الذى نقدم له يعالج القيم الحضارية فى القرآن الكريم * ويبرز أبعادها مادية وروحية *

نسأل الله العلى القدير أن ينفع به فى مسيرتنا الموفقة
بأذن الله على طريق العلم والايمان وهو سبحانه الموفق والهادى
إلى أقوم سبيل ٥

دكتور: محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

مقدمة المؤلف

الحمد لله أغنى النعم على الإنسان - وعلمه الحكمة والبيان -
والصلاة والسلام على رسول الله - محمد بن عبد الله -
استثمر خصائص الإنسان في بناء مجتمع أفضل .. وتأسيس
حضارة أمثل .. تجد فيها الإنسانية المغذية أمنها وسعادتها ..
وتمضى بها قدماً الى صراط العزيز الحميد .

فقد كنت مولعاً منذ الصبا الباكر بقراءة المؤلفات الكثيرة
التي تتناول شرح الحضارة الإسلامية .. ونوازن بينها وبين
الحضارات القديمة والحديثة .. وكنت أحس بالمتعة والسعادة
عندما أقرأ الإجماع الرائع على أن حضارة الإسلام هي حضارة
التقدم الإنساني والعالمي .. لأنها تحترم خصائص الإنسان -
وتطلق يده في بناء الحياة مستهدياً بمنهج الله - الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. ولأنها لم توضع لجنس من
البشر ولا لبقعة من الأرض وإنما وضعت للحياة كلها
وللإنسانية جميعها من غير تمييز ولا تفرق .. ولأنها ليست
حضارة ثروة وكلام .. وإنما حضارة عمل ونظام .. تجد
فيها البشرية تحقيق ذاتها - وتمثيل ميولها ونزعاتها ..
وشحذ مواهبها وملكاتهما لتملاً رحاب الحياة بالعمل المثمر -
والجهاد البناء .. وكنت أشعر بأن الحديث عن هذه الحضارة
لا يحتاج من الباحثين الى الأدلة الكثيرة ليثبتوا هذه المعاني ..
لأن هذه الحضارة قد تحققت فعلاً في واقع الحياة - وعاشت
البشرية تجربة خصبة غنية نتطلع اليها الدنيا في تلك الآونة
كما نتطلع الى الفجر المنبثق من خلال الظلام .. أو الى الأمل
النابع من قطوب اليأس .

ومع تقديرى لكل الجهود المبذولة في هذا الصدد واستفادتى منها الا أننى كنت دائم التطلع الى كتابة من طراز جديد . .
كنت مشوقا أن أرى عنوانا لكتاب جديد يحدثنى مباشرة عن حضارة القرآن . . مقوماتها - عناصرها - آثارها . . خصائصها !! بحيث يعطى تحليلا وقعيا للعالم الذى صنعه القرآن .

نعم : كنت متحمسا لمثل هذا الكتاب الذى يعالج بالبحث الدقيق - القيم الحضارية فى القرآن الكريم - ويبرز جوانبها المادية والروحية ويحل الأسس الكريمة التى قامت عليها - والأخلاقيات السامية التى اتسمت بها - والذوقيات الرفيعة التى صقلت مشاعر البدو الجفاة فصنعت منهم تلك النماذج الفريدة فى تاريخ البشرية والتى وصفها الحق تبارك وتعالى بقوله : [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] .

كنت مشغوبا بكتاب يركز الأضواء على تلك الدفعة الحضارية الرائعة التى أمد بها القرآن الحياة والأحياء . . يوم كان الناس عبيدا أرقاء فأصبحوا بفضل القرآن سادة كرماء !!

وكنتم أحس بأن على الكتاب أن يستمدوا فى هذا الموضوع من كتاب الله الخالد مباشرة ويستقوا من نبعه الطهور - ليقدموا لتلك الفترة الضالة من حياة البشر نموذج حضارة عصرية متكاملة تقوم على العلم والايمان وتنقذ البشر كما أنقذته أول مرة .

ودراسة كهذه تكون بالغة الأهمية !!

(١) آية ١١٠ آل عمران .

لأن هذه القيم الحضارية - حين تلتبس في القرآن • •
وتستمد منه مباشرة فإنها ستمنحنا الثقة - وتثبت في قلوبنا
العزم ونقبل على تطبيقها بمنتهى الاذعان والحزم !!

وذاك أجدى علينا من أن نلتبس الدراسات في كتب
التاريخ • • فتتوزعنا دوربه ومنعطقاته وتضللنا شعابه
ومنحنياته • • ونعود في خاتمة المطاف بما لا بطمئن قلبا - ولا
يريح ضميرا لأنه - مهما يبلغ من الدقة والتحري - كلام
يصدق أو يكذب !!

وعملية البناء الحضارى - لاتتم كما ينبغى الا يوم تثق
البشرية في صدق التوجيه وسلامة الأساس • • وان منهجا
يضعه رب الناس لهو المنهج الحق • • الذى تتقبله البشرية
بكل الجد • • وتجد فيه مايلائم طبيعتها سواء في غرائزها
الفطرية - أو في أشواقها المتسامية - وصدق الله العظيم اذ
يقول : « هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة في
بطون أمهاتكم » •

هذا العلم الدقيق المستوعب هو الذى يضع للبشرية دستور
حضارتها - ومنهج سيادتها • • لأنه موضوع على علم
وبصيرة • • ولن تستطيع مناهج البشر أن تنهض بهذه
التبعات • • لأنها تجهل طبيعة الانسان - واحتياجاته - كما
تجهل ميوله واستعداداته • • ومايزال هذا الانسان رغم
تطور الدراسات العلمية لغزا عصيا من أين جاءه علم البشر ؟
وجد جهلا كثيفا وحجبا صفيقة - وماخفى من أمر الانسان
أكثر مما عرف •

(١) آية ٣٢ سورة النجم •

ان هذا المنهج الربانى الموثق بكل ضمانات القوة والفاعلية
قد احتواه القرآن الكريم ويوم نتجه اليه لاستجلاء أنواره
وأسراره فسيفضى الينا بالكثير .

ويوم نتجه عزائم المسلمين لتطبيق شريعته وأحكامه
فسيصنع لهم عالما ربانيا موحد القلب والفكر والشعور والعمل،
يسوده نظام واحد وتسرى فيه نغمة واحدة .

وتلك أمنية غالية على قلب كل مسلم يهفو اليها من
الأعماق .. لتنقذ حياة البشر من التشرد والضياع .. وتعيد
الى العالم تلك التجربة الحضارية التى عاشها محمد صلى الله
عليه وسلم والذين معه .. فاستنقذت حياة البشر من الجاهلية
الأولى وصنعت مجتمعا انسانيا كريما عز فيه الدليل - وطعم
الجائع - وتعلم الجاهل وازدهرت آمال الحياة ، فأشرقت
بنور الله !!

وما أحوج المسلمين .. بل ما أحوج البشرية جمعاء الى
منهج كهذا .. فى وقت ذلت فيه كرامة الحياة وامتهدت
خصائص الانسان .. وعاش ظامى الروح والوجدان بين
حضارة مادية حيوانية .. لا ترعى فيه الا ولا ذمة .. بعد أن
سلبته دينه وعقيدته وتركته نهبا للهواجس والهموم وفريسة
للقلق والضياع تمزقه الحيرة وتضنيه الحسرة وتعصره الآلام
وهو يشهد مصرع الحياة على أيدي « المتحضرين » القساسة ..
بل الغواة الذين راحوا يفرعون البشرية ويؤرقون حياتها
ويشردون وجودها ويضعونها كل لحظة على فوهة بركان ثائر
يهدد بالضرم ويقذف بالحمم وينذر بالويل والثبور !!

ولم يستطع ترف الحضارة المادية أن يسرى عن الانسان
.. بل ان الذين يعيشون فى قلب تلك الحضارة قوم تعساء

لأنهم غرباء بين معالم تلك الحضارة يحملون روحا ضالة تائهة
وانهم لفي ظمأ الى سكينه الروح .. وهذوء المشاعر .. انهم
في احتياج الى حضارة القرآن لا الى حضارة الرجل الأبيض
أو الرجل الأحمر !!

وان فطرة الانسان كما برأها ربه مادة وروح فلا بد من
حضارة تنهض بهما معاً ، وتلائم بينهما ملائمة دقيقة ، أما أن
تطغى المادة على الروح فتلك هي الحيوانية الفاجرة .. واذا
ما طغت الروح على المادة فتلك هي الرهبانية الخائفة التي
تفر من الحياة .. وتأخذ منها موقفاً سلبياً ، وما بهذا أمر الله !!

والاسلام في منهجه السديد ينهض بفطرة الانسان مادة
وروحاً .. فيجعل قلبه دائماً زاخراً بالايمان وضميره موصولاً
بالله ثم يطلق يده في بناء الحياة .. انه يتعهد الانسان ببناء
داخله ليبنى العالم من خارجه .. ويجعل من ايمانه الايجابي
رقيباً عليه وهو يمارس دوره في بناء الحياة .. هكذا الاسلام
في منهجه : ايمان يحرس الحياة .. وعمل جاد يترجم عن
العقيدة وعلم متخصص يخطط لذلك كله .. وبذلك تستجمع
هذه الحضارة خصائص رفيعة من عقيدة تنير القلب - وعلم
يشحذ العقل - وعمل يبني الحياة .. وضمير يراقب الله .

وفي هذا الجزء من الكتاب - وهو الجزء الثاني - تحدثت
عن البعث الجديد وخصائصه .. وكشفت عن أسرار الخالدة
التي تمكنت في أقصر فترة من عمر الزمن أن تنشئ عالماً
ربانياً ترفرف عليه راية الهدى والسلام .. وأن تستنقذ الفطرة
الانسانية من قبضة الشيطان لتعيد اليها صفاءها وبهاءها ..
ثم تطلقها تعمل وتدأب على عين الله !!

ثم انتقلت بعد ذلك الى توضيح معالم حضارة القرآن -
وشرح مقوماتها - وتحليل عناصرها الأصيلة وقيمها الرفيعة ..
التي صنعت انسان القرآن .. ثم عالم القرآن .

وكان لابد لى أن أتحدث عما أحدثته هذه الحضارة من أثر
عالمى ٠٠ وما أفادته منها أوربا بالذات من علم ومعرفة ٠٠ وما
أسدته الى العالم كله من سعادة وتقدم ٠٠ وكيف أن الحياة قد
وجدت كرامتها الضائعة ٠٠ وانسانيتها الضالة ٠٠ وإيمانها
بالله ٠٠ فمضت فى ضياء عقيدتها تبنى عالمها المثالى على تقوى
من الله ورضوان !! ٠٠ وتابعت المسيرة الحضارية الجليلة حتى
فترة التآلق والازدهار ٠

وبينت بعد ذلك كيف بدأت تلك الحضارة تنزلق عن
مرقاها العالى حين مال أصحابها الى الترف ٠٠ واستسلموا
لدواعيه ٠٠ ثم ما كان من انقراض العالم الكافر عليها ٠٠
ليحتجب ضياؤها عن الحياة فتتمكن حضارتهم الفاجرة من
جذب العالم الى الجاهلية مرة أخرى ٠

لقد فصلت هذه العوامل - التى أدت بالتدريج الى إسقاط
هذه الحضارة المثالية - ثم وضحت بعد ذلك سبيل الخلاص ٠٠
ورددت على مسامع الامة التائهة برنامج عمل حضارى رائع
متمثلا فى خطبة الوداع التى بدأ فيها رسول الله - قائد تلك
الحضارة - وكنما يبصر واقعنا المرير اليوم ٠٠ ويرى ما تعانيه
حضارتنا من كيد أعدائها ٠٠ وضعف أبنائها فأطلقها فى أرجاء
الدنيا وعلى مسامع نحو مائة ألف من المسلمين ٠٠ احتشدوا فى
عرفات ليأخذوا عن نبيهم :

« أيها الناس !! انى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم
تضلوا بعدى ٠٠ كتاب الله !! » ٠

نعم أيها الرسول الكريم ٠٠ ان محنة المسلمين اليوم تكمن
فى انفصالهم عن كتاب الله ٠

ومن هنا تبدأ المأساة .. ولن تسترد هذه الأمة مجدها ..
 الا يوم ترتبط بكتاب الله .. تطبيقا لنظامه ، وتنفيذا لأحكامه
 .. وسيرا على هداه .. ولن يصلح آخر أمرنا الا بما صلح به
 أوله بذلك .. وبذلك فقط تبدأ حضارتنا من جديد .. ولن يجد
 العالم كله شرقيه أو غربيه أسعد من تحقيق هذه الفرصة
 المباركة .. ليعيشوا مع انسانياتهم في وئام !!

وقد يكون من يمن الطالع - أن تخرج هذه الدراسة - في
 تلك الفترة الرائعة التي تقوم فيها مصر المؤمنة .. قلب العالم
 الاسلامي .. ومهد الفكر المستنير .. ومقر الأزهر الشريف
 ببناء دولة العلم والايمان .. وان هذه الدراسة .. اشارة
 ضوئية على هذا الطريق .. تتقدم المنهج .. وتعطي الدليل ..
 عسى الله أن يجعل من بلدنا الطيب .. نواة حضارة قرآنية
 عالمية تقوم على العلم والايمان .. وما ذلك على الله بعزيز ..

وستظل المملكة العربية السعودية باستمرار عامل جذب
 للإسلام وحضارته ..

وأمل في الله كبير - أن ينفع بهذا الجزء من الكتاب ..
 على قدر النية الطيبة في تأليفه ونشره .. وأن يؤنس به
 وحشتي يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم؟

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بجامعة الامام محمد بن سعود

الاسلامية

باب الأول

البعث الجديد

أسراره وعجائبه :

لم يكن معقولا أن تنسدل ستائر الظلام على الكون فتلف الحياة والأحياء - أكثر مما وصلت اليه في تلك الفترة القاسية التي سبقت مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . . ونزول القرآن الكريم . . ولم يكن معقولا ولا منصورا أن تنتقلص « انسانية » البشر وتنكمش كما تقلصت وانكمشت في تلك الفترة الرهيبة . . كما لم يكن مستساغا أن ينطمس نور الفطرة ويختفى وهجها المشع - وتتراكم عليها مخلفات القرون البالية - ونقاليد البيئات الساقطة - وأوزار المذاهب الأرضية كما حدث في ذلك الوقت بالذات . .

لقد تحول العالم كله الى فساد وأسلم زمامه للشيطان يقود مسيرته ويضلل خطاه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (١) » لهذا كله كانت البشرية تتطلع في شتى الآفاق - وقد شاقها - أن تمارس انسانياتها المهذرة الخدائجة - وأن تسرد اليها كرامتها السلبية . . منتظرة بزوغ فجر جديد يحيي الآمال المهيضة - ويطلب القلوب المريضة ويضع حدا لهوان الانسان !!

(١) آية ٤١ من سورة الروم .

والله سبحانه قد يترك البشر لأنفسهم في بعض الفترات التاريخية • • تتلقفهم فيها غوائل الحيرة - وتستبد بهم عوامل القلق وتتخطفهم هواجس الشك • • ويقوى نزوعهم وتطلعهم الى هدايات السماء • • ليذكروا نعم الله عليهم بإرسال الرسل ، وانزال الكتب ، وتوضيح السبل ، واعطاء المنهج والدليل • •

وهي نعم جليلة - تستدعى الشكر - وتستوجب الثناء - وتتقاضى الانسانية أن تظل ذاكرة لا تنسى - شاكرة لا تذهل - عارفة لا تجهل حتى تدوم النعم - وتطرّد الامدادات !! ولكن سبحانه - وهو الرحيم بعباده - لا يؤاخذهم في فترات التيه - على ضلال وقع منهم - أو انحراف صدر عنهم - لأنه بهم رؤوف رحيم • •

وانه جل جلاله ليطمئننا على ذلك - ويؤكد لنا تلك الرحمة ليزرع الأمل في النفوس ويقر الهداية في القلوب • • ويملاً الأفق حول الانسانية الضعيفة بدواعي الثقة والرجاء فيقول جل شأنه : [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١)] •

ويقول سبحانه موضحا الحكمة العالية في ارسال الرسل : [ليهلك من هلك عن بينة - ويحيى من حي عن بينة (٢)] • • •

ويصرح القرآن بأن على رأس هذه الحكم كلها - أن تنقطع حجة الناس على الله [لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٣)] •

-
- (١) آية ١٥ سورة الاسراء •
 - (٢) آية ٤٢ سورة الأنفال •
 - (٣) آية ١٦٥ سورة النساء •

وهناك حقيقة كبرى تفرض نفسها على الموقف • وهى أن
البشر عاجزون عن ادراك الايمان ككل • وبخاصة ماكان
مرتبطا بالجزاء والبعث واليوم الآخر كله وقضاياها • والرسل
هم الذين يقودون البشر قيادة حكيمة - على أساس من الايمان
الصحيح • والاعتقاد الجازم فى حقائق الايمان كله • سواء
منها مايتعلق بعالم الشهادة - أو عالم الغيب • قد يستطيع
البشر - أن يتوصلوا الى نظم تكفل لهم الراحة • وتقودهم
الى الفضائل وتربطهم بالحق والخير - وقد يستقل العقل
البشرى بفهم هذه الأمور • •

لكنه يعجز العجز كله عن فهم العالم الآخر • وعن معرفة
صفات الله • وكلها مسائل على جانب خطير من الأهمية
لتصحيح نظرة الانسان الى الحياة - وتحديد هدفه فيها • •
فمن أين للبشرية أن تستقى لتصل الى هذه المعارف ؟ !

لقد ضلت الفلسفة ضلالا بعيدا حين وضعت نفسها فى هذا
الموضوع • • وجاءت بما لا يستقيم فى عقل أو يستساغ فى
منطق • وزادت من شقاء الانسان وحيرته • وصاغت له
المعانى صياغة معقدة • • أما الأديان فانها تقدم المعرفة عن هذه
الامور فى بساطة ويسر وبطريقة سهلة مقبولة • • وبصيغة
نهائية لا تقبل شكاً أو جدلاً • •

ولو ترك الناس لعقولهم - على المدى الطويل - لانعكست
الحقائق فى عالمهم - وضلت تصوراتهم ضلالا بعيدا • •

أما ترك البشر من غير رسالة لمدة معينة • • فقد حدث
بالفعل - وقد يكون من وراء ذلك حكمة أعلى من ادراكنا • •
وأكبر من عقولنا - فان الانسان عندما ينصهر فى جو القلق
والحيرة والشك فى تلك الفترات الخاطفة من عمر التاريخ • •

يدعوه ذلك الى استخدام عقله واستعمال فطرته - والاستضاءة بفكره - وهى عناصر من نعم الله - وأفضاله لها نصيبها من ادراك قيم الخير والشر * * وهو نصيب يكبر أو يتضاءل تبعاً لاستخدام هذه الطاقات وشحذ قواها ونفض الغبار عنها واستعمالها فى الادراك والفهم :

قد يكون هذا - هو بعض مراد القدر الالهى من ترك الناس فى فترة زمنية دون رسالة أو رسول * * لتتحرر فيهم قوى التفكير المهملة وتتحرك طاقات الوعى المعطلة !! ولكنه - جل جلاله - لا يترك البشر لأنفسهم طويلاً * * الا ريثما يعرفون قدرهم * * ويدركون حجمهم - وبقدرون مدى احتياجهم لعون الله وهدايته * * فاذا استقرت هذه الحقيقة فى وجدانهم - جاء فضل الله - كما يجىء الغيث المبارك الى أرض ظامئه - طال تشوقها الى السقى - وتشوقها الى السقى - وتشوقها الى الماء * * فتكرع من هذا الفيض الغامر لتزدهر وتخصب * * وتنبت شتى الأزهار * * وتتحول الى بستان نصير *

وهكذا الانسانية قبل بعثة مصمد صلى الله عليه وسلم * كانت الجاهلية تلفها من كل جانب فى الفكر والتصوير ، فى السارك والعمل ، فى العقيدة والعبادة * * حتى لقد عبدت البشر من دون الله * * كانت هذه الانسانية تضرب فى تيه العماء * * وكانت مشوقة الى رحمة الله ننقذها من ضلال - وتريحها من كلال * * وترد عليها انسانيتها وكرامتها * * فلم يطل ترقبها وانتظارها طويلاً بعد أن بلغت ما بلغت من الانحلال والضياع *

واذما تجلى الله عليها فبعث اليها محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا من نفسها - ونبياً من جنسها - تعرف حياته

كلها - وتقدر فضائله جميعها ٠٠ وتراه بعينها بشرا يغدو
ويروح له من صفات الكمال والنبيل ما يعلى شأنه - ويعظم
قدره ٠٠ ويجعله معروفا « بالصادق الأمين » وبهذا يطمئن
قلوبها الخائف - ويسكن فؤادها الواجب - وتستمتع الى ما
يصدر عنه بكل الاجلال والتوقير ٠٠ وتأخذه بمنتهى الانقياد
والطاعة ٠٠

رسول من أنفسكم :

والى هذا يشير الحق تبارك وتعالى بقوله : [لقد جاءكم
رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم - حريص عليكم -
بالمؤمنين رءوف رحيم (١)] ٠

فهذه الآية الكريمة من كتاب الله ٠٠ منارة تضيء في ظلام
الحياة التى شفىها الفسوق وهدىها الظلام ٠٠ وأوهنها الطغيان ٠٠
ومزقها الفساد ، ولفها الظلام ٠٠ وستظل مرفأ الأمن كلما
اعتكرت الظلمات ، وران على الدنيا ظلم وظلام !! ستظل عامل
الانقاذ لهذه الأمة المسلمة كلما انحرفت عن منهج الله - وهدى
رسوله ٠٠ تجد فى العودة الى تعاليم ذلك الرسول ما يردىها
الى الكرامة والأمن ٠٠ ويثبت زمام الحضارة فى أيديها !!
ولنتأمل لحظات فى احياء هذه الآية وما تمنحه من عطاء !!

« أولا » : قوله سبحانه : [لقد جاءكم] فيه تكريم
للانسانية - ورعاية لحقها فى الهداية - ومغالة بخصائصها -
حيث جاءها الرسول صلوات الله عليه ٠٠ ساعيا الى هدايتها -
داعيا الى رشدتها وكرامتها - باذلا أقصى الجهد ليحفظ عليها
فيمنتها كيلا تتبدد فى ظلام الجهل ٠٠ أو تضيع فى ركام الجاهلية
٠٠ أو تتلاشى فى ظلال البغى والطغيان ٠٠

(١) آية ١٢٨ سورة التوبة .

والتعبير بقوله سبحانه « جاءكم » يعطى كل هذه الايحاءات
 ٠٠ فهو صلوات الله عليه قد جاء الى الانسانية المعذبة - على
 قدر وموعد ٠٠ دون أن تجيء هى اليه ٠٠ نعم جاءها رسولا من
 رب العالمين ٠٠ يحقق لها من وسائل العيش الكريم ، ودواعى
 الأمن والسلام ، ومقتضيات الكرامة والعزة ما هى فى أمس
 الحاجة اليه ٠٠ حيث كانت مهددة مضيعة فى كل مكان من
 أرض الله الواسعة ٠٠ تحس بالتمزق والفراغ - وتستنشعر
 اليأس والمذلة ٠٠ وتعانى من القهر والاستعباد ما لا يدخل تحت
 حصر ٠٠ وبينما هى فى ذلك الجو الخائق - واذا برحمة الله
 تتجلى عليها فتنبعث اليها بالهداية الراشدة ٠٠ التى تعصمها
 من كل فساد وشر ٠٠ فهو الرحمة المهداة - والنعمة المزجاة الى
 البشرية جمعاء فهى لم تبحث عن القيادة التى تلتف حولها -
 ولم تتكلف مشقة السعى اليها ٠٠ ولا مؤنة السؤال عن حقيقة
 أمرها ٠٠ ولا التحقيق فى المنهج الذى جاءت به ٠٠ لم تتحمل
 المشقة فى شئ من ذلك ٠٠ وانما جاءت الهداية الراشدة ٠٠
 بالمنهج القويم من لدن رب العالمين !!

فأية قيمة للانسان أغلى من تلك القيمة !

تجيئه الرسالة الكريمة ساعية اليه ٠٠ لتبحث عن مواطن
 الخلل فى كيانه - وفى العالم من حوله فتصلحها بيد الله - ومنهج
 القرآن ٠٠ ودعوة الحق ٠٠

وتلك هى أسمى مظاهر الاعتزاز ٠٠ ومن هنا تبرز القيمة
 العليا للبرية ٠٠ وأنها كريمة على الله ٠٠ لا يجوز أن تستذل
 بالنظم - أو تستعبد بالبدن ، أو تزدرى بالتحقير ٠٠ ولطالما
 لقيت الانسانية قبيل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم من
 ذلك الاذلال والامتهان ٠٠ وان أية حضارة لا تحترم خصائص
 الانسان لا يمكن أن تخلد ولا أن تعمر لأن الانسان أهم ركن فى
 بناء الحضارة ٠٠ وهو عزيز على الله بالاستخلاف ٠٠

ولقد حرص صلوات الله وسلامه عليه - أن يكتسب ثقة
الانسانية من أول لحظة .. لا بالخداع والغش .. بل بالحرص
البالغ على هدايتها - والنصح الكامل لها - والسعى الدائب
لاستنقاذها من الظلام .. وبإدله أصحابه أرق المشاعر وأنبل
الأحاسيس وقدموه على أنفسهم وأموالهم وأولادهم .. وبهذه
الثقة المتبادلة تم تشييد الصرح الحضارى على أساس من
الوعى الدقيق - والحب العميق - والطاعة الفاهمة .

وما يزال التاريخ حتى اليوم حائرا في فهم تلك الثقة التي
ترزت في كل الميادين .. حتى لو كلفتهم أن يضحوا بأنفسهم ..
ويقف المستشرقون بالذات أمام حجم هذه الثقة موقف المذهولين
.. يجيء أصحاب الرسول من الجهاد الشاق - ليوجهوا الى
جهاد أثنى للنو والساعة فلا يتخلف منهم أحد ، ولا يشذ فرد
واحد .

ويضرب الصديق من أعداء الله ضربا مبرحا يسلمه الى
الاعماء - ويحمل الى بيته - ويعتقد عتبة بن ربيعة ومن معه
من زعماء الشرك أنه قد مات لا محالة .. حتى اذا استنقاق
شيئا ما آخر النهار تكون أول كلمة ينطق بها : ما فعل رسول
الله ؟ ويرفض أن يتناول طعاما أو شرابا حتى يعرف ما فعل
رسول الله ؟ وحين يجاب الى سؤاله بأنه سالم صالح لا يكتفى
بذلك بل يصر على أن يذهب بنفسه - وهو في تلك الحالة
ليطمئن عليه .. ويخرج بين أم جميل بنت الخطاب - وبين
أمه .. الى دار الارقم بن أبى الارقم - حتى يدخل على رسول
الله .. وحين يطمئن عليه - يعود صحيحا معافى ويتناول
طعامه !!

وهذا خبيب رضى الله عنه - يرفعه المشركون على الخشبة
ويمعنون في تعذيبه .. ويقولون له أتحب أن محمدا مكانك ..

فيجيبهم لا والله العظيم .. ما أحب أن يشاك بشوكة في قدمه
ليفدينى بها .. فيضحكون عليه ويتركوه .. أى أن خبيثا
يؤثر أن يظل على ما هو عليه من الصلب على الخشبة .. ولا
يشاك محمد بشوكة !!

وامرأة من الأنصار تخرج يوم أحد وقد قتل أبوها وأخوها
وزوجها .. فلا تسأل الا عن رسول الله قاتله : ما فعل رسول
الله ؟ فيقولون : خيراً فتقول : أريد أن أنظر اليه فلما اطمأنت
عليه قالت : كل مصيبة بعدك جلل !! « أى يسيرة » ..

ولو ذهبنا نستقصى دلائل التفانى في الحب - لفاتنا
الاستقصاء .. فلقد وضعه أصحابه في قلوبهم وعيونهم وحل
منهم محل الروح .. فكان الواحد منهم لا يطبق أن يحرم من
مجلسه ساعات .. ومصدر تلك الثقة يكمن في قوله سبحانه :
[لقد جاءكم رسول .. الخ] ..

لقد بادلوه حبا بحب ووفاء بوفاء .. ونجلى هذه الثقة في
أحرج الظروف .. ويأبى الايمان الا أن يكون تضحية وحبا
وبذلا لله وفي الله !!

والخطاب في قوله سبحانه : [لقد جاءكم] للعرب لأن
رسالته بدأت فيهم - وانطلقت من أرضهم .. وقد اتخذ
صلوات الله عليه من ذلك منطلقا عاما لهداية البشرية جمعاء لأن
رسالته شاملة لا تقتصر على العرب .. وانما تنساح في بقاع
الأرض .. كما هو الواقع التاريخي لتلك الدعوة .. فقد اتخذ
منها نواة لبناء حضارة عالمية تقوم على الايمان والعلم ..
وتتجلى خصائصها الربانية للعالم بأسره ولطالما هتف في
البشرية النائمة بقوله : [يأيها الناس انى رسول الله اليكم

جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت (١) [٠ فهى بذلك رسالة ذات أفق عالمي ٠٠

« ثانيا » تأمل معى قوله سبحانه : [لقد جاءكم رسول]
 ينتصح لك أن القيادة الحضارية - لا تكون ذات أثر فعال في
 دنيا الناس - الا اذا كانت ربانية على شكل رسالة سامية
 تحمل أركى التعاليم عن رب السماء ٠٠ وبذلك تتوفر لها دواعي
 الثقة ٠٠ وتتضح أمامها معالم الطريق ٠٠ وتتجلى مناهج
 الاصلاح ٠٠ وتتقبل البشرية منها كل ما تنفله عن الوحي ،
 وما تحدث به عن الله ويكون لهذه القيادة أثرها في احداث
 تغييرات نفسانية في المجتمعات الانسانية ٠٠ تشبه التغييرات
 التي حدثت في الطين بعد النفخ فيه من روح الله ٠٠

وتتميز مانهج النبوات بمقدرتها الفذة على التغيير سواء
 في داخل النفس أو في خارج المجتمع وهم يتخذون من الأول منطلقا
 الى الثاني ٠٠ لأن النفس اذا زكت من الداخل - استطاعت أن
 تبني من الخارج - وأن تنشر الصلاح والاصلاح في البيئة من
 حولها ٠٠

وعندما يتم بناء النفس من الداخل - على أساس من
 الفضائل والمثاليات - فانها تغدو أصيلة ذات صبغة ثابتة لا
 تتلون - ولا تتغير - ولا تتقلب تبعا للمصالح والشهوات ٠٠
 وهذا هو المنهج السديد في التربية ٠٠ لا بد من ربطه بالعقيدة
 لينشأ عن ذلك قوة تهيم على وساوس النفس واتجاهاتها ٠٠ ولا
 تصبح قشورا ملصقة تسقط في مضطرب الريح ٠٠ أو ألوانا
 باهتة تذهب في ضوء الشمس ٠٠ أو خداعا ولؤما تلبس زى
 المصلحة ٠٠ ومن هنا فان لقيادة الرسل ٠٠ أثرا ضخما في

(١) آية ١٥٨ سورة الاحراف .

تحويل الحياة - و أحداث التغيرات فيها • ولقد جاء محمد [صلعم] الى الناس • • وكل شيء في الحياة فاسد • • وكل أوضاعها مقلوبة وكل فجاجها ظلام • • فما لبث أن صنع بالتربية المثالية رجالاً أحراراً صادقين ثم انطلق بهم في رحاب الحياة يصلح الفاسد • • ويقوم المعوج • • وينشئ التقدم • • أى أنه بدأ الإصلاح من نقطة محددة • • وهى « الانسان » وبعد أن استوثق من بناء الانسان • • سهل أمامه اصلاح الحياة • •

ولا شك أن النفس الفاضلة تشيع الفضل فيما حولها من الأرجاء • • وتصنع الكمال للحياة والاحياء • • والقاضى الفاضل يكمل نقص القانون بعدله وفضله • •

أما النفس الفاسدة فانها تفسد الحياة من حولها • • وتميل بالقوانين مع شهواتها • • وتستغل كل شيء لمصلحتها • • ومن هنا فان علينا - أن نبدأ في عملية البناء الحضارى بالانسان نكون ضميره وأخلاقه وفضائله • • ثم نطلقه ليعمل بهذه القيم النظيفه • • ولا يتم ذلك الا بمنهج الله الذى استودعه كل ما تحتاجه حياة البشر - ومصالح العباد • •

كل ذلك توحى به كلمة « رسول » لأنها تحدد منهج العمل الحضارى • • فهو منهج ربانى • • وليس منهجاً من وضع البشر لأن الرسول لا يقود البشرية الا بمنهج الله • •

كما أن هذه الكلمة توحى الثقة • • وأى ثقة أسمى من الثقة في رسول رب العالمين • • وحين تتم الثقة فسيتم النفع - ويحدث التغيير • • ويوم تنعدم الثقة فلا أمل في اصلاح • • مهما كثرت الدساتير • • والقوانين • •

وتوحى الكلمة أيضاً • • بالبصيرة في الاصلاح • • لأن منهجاً يضعه رب العباد لابد أن يكون مستوعباً لكل احتياجات البشرية ملبياً لجميع مطالبها - محققاً لسعادتها وأمنها • •

كما توحى كذلك بالالتزام .. لأن الرسول القائد لا يملك من أمر هذا المنهج الا أن يسهر على تطبيقه - وتنفيذه .. والارتباط به - لا يخرج عليه ولا يزيد فيه .. تلك كلها احياءات طبيعية تمنحها كلمة « رسول » في الآية الكريمة ..

« يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك - وان لم تفعل فما بلغت رسالة (١) » .

« ثالثاً » لننتأمل معاً في قوله سبحانه : [من أنفسكم] ولنتدبر احياءها .. فماذا تعنى ؟

يقول أبو السعود في تفسيرها : [من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء - أى أشرفكم وأفضلكم] اه .

وأقول : هذا تكريم جديد للبشرية اثر تكريم .. وتقدير لخصائصها بعد التقدير السابق - ورحمة حانية عليها - ونعمة سابغة عليها لا يمكن وصفا بحال .. ذلك أن القيادة الحضارية لم تجء غريبة عليها - ولا بعيدة عنها .. وانما جعلها الله رسولا من نفسها ونبياً من جنسها تعرف حياته كلها - وتقدر فضائله جميعها وتراه رأى العين يغدو «يرى روح بينها .. بما يتحلى به من صدق وأمانة وشرف ونبل وتواضع وبما يحظى به من محبة واجلال .. لقد لقب قبل البعثة بالصادق الأمين .. وتبنى المكرمات النبيلة « كحلف الفضول » الذى كان يقول عنه بعد النبوة : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم » ومن ثقتهم به أن حكموه في أخطر قضية تهدد وجودهم وهى مسألة وضع الحجر الأسود وما أخذوا عليه نقیصة قط .. ولا مغمزاً في خلق أو سلوك ..

(١) آية ٦٧ سورة المائدة .

فاذا جاءهم هذا الذى عرفوه واطمأنوا الى أخلاقه رسولا من رب العالمين • • فسيأنسون به - ويطمئنون اليه • • ويقبلون عليه •

وكلمة من « أنفسكم » تحمل معنى التمازج - والتعانق - والوحدة فهو قطعة منهم وبضعة من نفوسهم • • ومن ثم فهو لن يغرر بهم ولن يخدعهم - ولن يضلّهم • • وهل يخدع الانسان نفسه ؟ ! • • واذا كانت الوشائج متينة والروابط أصيلة الى هذا الحد فلن يطول بحثهم عنه - ولا تعرفهم عليه - ولا يجهلون منزلته وفضله :

ولهذا كان من رحمة الله الكبرى أن يكون الرسل الكرام من بيئات أقوامهم [والى عاد (١) أخاهم هودا - والى مدين أخاهم (٢) شعيبا - والى ثمود (٣) أخاهم صالحا] •

انه الرفق بالبشرية - على امتداد التاريخ • • حتى لا تتورط في الضلالة !! •

ومن هنا كان لابد أن تكون القيادة الحضارية من قلب المجتمعات التى تعمل فيها - لا أن تكون طارئه عليها لأن ذلك • • أدعى الى النفرة منها وعدم الانقياد لها • • أو على الأقل فانه يدعو الى تكلف المشاق فى البحث عن (هوية) القيادة وأخلاقها حتى يتم الأخذ عنها • • والثقة بها •

واذا كان الرسول عربيا - وكان القرآن عربيا - فان مجال دعوته وساحة حضارته هو العالم بأسره • • وليس المسلم

(١) آية ٦٥ سورة الاعراف .

(٢) آية ٨٥ سورة الاعراف .

(٣) آية ٧٣ سورة الاعراف .

العربي أكرم على الله من مسلم أعجمي . . لأن التفاضل في الاسلام وعند الله . . ليس باللون - ولا بالعرق - ولا بالجنس - بل بالتقوى والعمل الصالح . . « ليس لعربي فضل على عجمي . . ولا لأبيض فضل على أسود الا بالتقوى » « وان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » . . ولن تستطبع أية حضارة بشرية أن تدعى - مجرد ادعاء - بأنها عالمية لأنها تتهم فوراً بالاسراف والجهالة والادعاء . . اذ كيف تجترئ على أن تدعى لنفسها وضع منهج حضارى يلائم الحياة كلها والانسانية جميعها ؟ !

انه لن يقدر على ذلك الا رب الانسان . . الذى شاءت ارادته أن يحقق ذلك بالفعل على يد محمد « صلعم » لتظل تجربته قمة سامية في أفق الانسانية ترنو اليها بالنظر الرغيب . . لتحاول الوصول اليها - أو الاقتراب منها . .

ويوم يتم تنفيذ المنهج . . فسيتم لا محالة تحقيق هذا النمط من الحضارة !!

ان كلمة « من أنفسكم في الآية » تشع كل العواطف الانسانية النبيلة التى تمنح الثقة فى الداعية . وتجذب القلوب نحوه وتعطف الأفئدة عليه . . وهل يسع الانسان الا أن يثق بنفسه - ويقبل عليها - ويكرمها ؟ !

انها بهذا التصور كلمة ذات حساسية عاطفية ترمز الى فضل الله على الانسانية وتحفز الى حسن الاقتداء والامتثال !! والقراءة الثانية « من أنفسكم » بفتح الفاء من النفاسة - أى أن الرسول من أنفس القوم وأفضلهم وأشرفهم - وهذا حق .

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

وانه ليوحى مع مامر بأصول « القدوة » أى أن القيادة – لابد
أن تكون « قدوة » لتتعلق بها القلوب . . وتألفها النفوس
وتتمثلها فى العمل والسلوك ، وتقلدها فى كل ما يصدر عنها .

ولعل هذا هو السر فى اخفاق القيادات البشرية لأنها لم
تكن « قدوة » يوماً ما . . والرسول لا شك قدوة رفيعة . .
وانه ليحمل وساماً رفيعاً من رب العزة والجلال تتضاءل أمامه
كل الأوسمة وذاك هو قوله سبحانه يخاطبه : [وانك لعلى
خلق عظيم] .

والبناء الحضارى اذا لا يترك للظروف بل لابد من القيادة .
التي تتوفر لها « القدوة » .

« رابعاً » : قوله سبحانه : [عزيز عليه ما عنتم – حريص
عليكم – بالمؤمنين رؤوف رحيم وتلك كلها صفات تحمل فى
مطاويعها صدق الداعية – واخلاصه فى مداية قومه – وحرصه
على ايمانهم ورحمته بهم – ورقته معهم . . وهكذا تكون
القيادات !!

وتأمل معى قوله سبحانه : [ما عنتم] أى وقعتم فى العنت
أى المشقة والتعب . . فالرسول بهذا التصور الرائع . . يحمل
من العواطف الكريمة للبشرية ما يجعله دائماً يرضى بها على
الحرج ، ويحول بيضها وبين المشقة . . انه لا يدفع بها الى
المهلك ، والحروب ، ليتخلص منها كما تفعل الدول الحديثة
اليوم . . وكما فعلت القيادات التي سيطرت قبل النبوة . .
فقد ثبت أن البشرية كانت قد هانت عليهم – فدفعوا بها الى
حروب لا هدف لها . . ولا غاية وراءها سوى السيطرة والتسلط
– وسعة الملك وقوة النفوذ . . ومنهم من كان يزوج بالجنود

في الحروب ليتخلص من خطرهما ونفوذهما • واليوم حين نرى حروب العالم الحديث نرى أنها لا تخرج عن ذلك • • والآية تؤكد لنا أن الرسول - كان رحيمًا بالإنسانية - حريصًا على أمنها وسلامتها - لا يدفعها لحروب شيطانية • • بل لاحقاق الحق وازهاق الباطل • • ويمضى معها قداما الى المعارك وساحات الجهاد • لتتعلم منه الحرب والسلام معا •

وهذه الآية - يوضعها في آخر سورة التوبة - انما تأتي في السياق بعد آيات القتال والجهاد في سبيل الله - لتبرز هذا الجانب الهام • •

وقد نفهم من عموم قوله « ماعنتم » مع مامر - أن الرسول كان حريصًا على استنقاذ البشرية من العنت والارهاق والمذلة التي كانت عليها قبل مبعثه • • وأي عنت أشق من أن تمتنن كرامة الانسان - وتحترق آدميته - وتستعبد ذاته - فيسجد للبشر - والحجر - والشجر ؟ ! •

فالآية بهذا التصور - توضح لنا ما كان عليه البشر قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه من مأساة البعد عن الله - والخضوع للبشر وهي مأساة تهدد البشرية في قيمتها الرفيعة التي منحها الله اياها • •

وقوله سبحانه : [حريص عيكم] تؤكد المعاناة الشاقة ، والتجربة القاسية ، التي مارسها محمد صلوات الله عليه في سبيل هداية قومه • • لأن هذا الحرص ، على هداية الإنسانية يستتبع بذل أقصى الطاقة لتحقيق الهدف المنشود - ولقد بلغ الرسول في ذلك درجة عالية جعلت ربه يهدي قلبه بقوله : [لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين - ان نشأ ننزل عليهم

من السماء آية فضلت أعناقهم لها خاضعين (١) [وبقوله :] ان عليك الا البلغ (٢) *

ويقول : [وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٢)] *

ويقول [ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء (٤)]
ويقول : [فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٥)] *

كل هذا الكم الهائل من آيات التسلية لماذا ؟

لأنه صلوات الله عليه - بما طبع عليه من رحمة * * بل انه الرحمة المرسله - كان يبذل من قلبه ونفسه وروحه في سبيل هداية الناس فوق ما يتحمل البشر * * فأراد الله أن يردده الى القصد والاعتدال حتى لا تتلف نفسه * * صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله هذا الايحاء كله يمكن أن يستفاد من الآية * * وكم للقرآن من ايحاء واسع ودقيق يمنح الدلالة - ويعطي الثمرة - ويحفظ الطاقات !!

هذا - وما أحب أن أقف بالآية الكريمة عند الدلالة الضيقة للفظ فأجعل كل مراميها للعرب * * ولكني أفهم - بأن الخطاب أن يكن للعرب فلأن رسالة محمد قد بدأت فيهم * * ولكنها كانت نواة مباركة للحضارة العالمية * *

وكذلك لا أحب أن أقف عند المعنى الضيق « للعنت » وانما أجعله شاملا لما يقوله المفسرون من مشقة الجهاد ومن العنت الذي كان يسود العالم قبل محمد - وبما بذله الرسول الكريم في سبيل ذلك من جهد كبير * *

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) آية ٣ سورة الشعراء . | (٢) آية ٤٨ سورة الشورى . |
| (٣) آية ١٠٣ سورة يوسف . | (٤) آية ٢٧٢ سورة البقرة . |
| (٥) آية ٨ سورة فاطر . | |

نعم : لقد جاء محمد صلوات الله عليه يحمل مدنية العالم كله - وحضارة الحياة كلها - وسعادة البشر أجمعين - فكان « تمدين » العالم مناط رسالته وجوهر دعوته وأساس هدايته - وهل يتم ذلك الا برسول ومنهج ؟ !

قيادة ومنهج

لا يمكن لحضارة القرآن - أن تتحقق في دنيا الناس الا بقيادة حكيمة - ومنهج رشيد . . . وغاية هذه الحضارة : اسعاد البشرية - وتوجيهها وجهة ربانية . . . لتعبد الله وحده ، وتحيا قوية منيعة . . . وقد تم بالفعل تحقيق هذه الحضارة ، وقيامها على يد القيادات الكريمة المؤيدة بالوحي فقد انحصرت القيادة الكريمة المؤيدة بالوحي فقد انحصرت القيادة كلها في رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته . . . فكان قائداً دينياً . . . وسياسياً - وعسكرياً - وادارياً . . . ووجدت هذه المهام في شخصه النبيل مجالا خصباً فازدهرت وآتت أكلها وقد استعان بأصحابه الذين رباهم على نهج القرآن - وتعهدهم بروحه فحولهم الى « قيادات » لا صلة بينها وبين نفسها أولاً الا في الجسم . . . نعم لقد أصبح أبو بكر وعمر وعلي وعثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص - وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمر بن العاص وخالد بن الوليد وبلال وعمار وصهيب وغيرهم - أصبحوا خلقاً جديداً بعد أن صبهم الرسول المربي في قالب القرآن وصاغهم صياغة فريدة . . . وخلق منهم شخصيات عالية لا يستعصى عليها شيء من شئون الدين أو الدنيا فهم زهاد ، وعباد ، وقادة ، وعلماء ، وفقهاء ، ومحدثون ، وسياسيون ، ومحاربون . . . لا تعدم فيهم صفة من صفات الجلال والعظمة . . . وتلك معجزة القرآن وعجائب آثاره في

التربية * * * لقد صار أبو بكر مثلاً بهذه التربية القرآنية رجل حكم وأمير المسلمين ورأى التاريخ منه العجب ، حين ضرب بيد قوية على حركة الردة – ونهض بأعباء الحكم بعد الرسول كأحزم ما يكون الخليفة * * * ووجه الجيوش الإسلامية لتأمين الحدود وقمع التمرد * * * فأين كانت تلك المواهب قبل أن يمسها الرسول بتربيته الفريدة ؟ !

وهذا عمر بن الخطاب – الذي كان يرعى الأبل لأبيه الخطاب وينهره * * * ويمضى بين أقرانه فلا يعملون له أى حساب * * * ويبدد قوته في العصبية والخمر * * * إذا به بعد التربية النبوية يفجأ العالم كله بذلك النمط الفريد من الحكام * فيؤسس الدولة الإسلامية – ويقهر كسرى وقيصر ، ويبتكر من النظم الإدارية ما يكون معجزة عصره ، ويحقق العدالة في ربيع هذه الدولة الواسعة * * * ويسير الجيوش ويخطط لها * * * وترتفع سمعته ومكانته حتى يغطي على كل حكام الدنيا وعظمائها * *

فأين كانت تلك المواهب ؟ وهذا خالد بن الوليد لم يكن له من أثر في بيئته الضيقة الجاهلة سوى أنه فارس القبيلة * * كل مواهبه الحربية محصورة في ذلك النطاق المحلي – لكن التربية النبوية حين تعهدته وصقلته سلطت عليه الأضواء * * فبرز سيفاً لامعاً من سيوف الله لا يقوم أمامه شيء إلا حصده * * ورأى التاريخ منه عجائب القيادة العسكرية * * فسجل له أروع الصفحات *

وسلمان الفارسي كان ابناً (لموبدان) في إحدى القرى الفارسية * * ثم أخذ ينتقلب في الرق والعبودية إذا به يفاجئ أمته حاكماً جليلاً لعاصمتها * * وقد كان إلى الأمس القريب راعياً من رعاياها ويظل بعد ذلك الجد على ورعه وزهادته لا يغيره المنصب ولا تخدعه الوظيفة لأنه صناعة قرآنية ، وبلال

الحبشي ٠٠ يبلغ في الفضل مبلغاً يجعل عمر بن الخطاب يلقيه
بالسيد ٠٠ ويصبح وزير اعلام الاسلام ٠٠ فيصدق بصوته
الندى من فوق الكعبة مؤذناً بنهاية عهد الجاهلية وابتداء عهد
الاسلام ، وهذا سالم مولى أبى حذيفة ، يتمنى عمر وهو يجود
بأنفاسه أن لو كان حياً لاستخلفه فيقول :

لو كان سالم حياً لاستخلفته ٠٠

وغيرهم - وغيرهم من نأخذ ومن ندع ٠٠ وهم في الفضل
حلقة مفرغة ٠٠ تحولت بقدر الله الى معجزات التاريخ -
وقيادات العالم كله ٠٠ فسحوا كل نقص - وملأوا كل فراغ ٠٠
ونهضوا بما أسند اليهم من الأعمال بكل كفاءة واقتدار ٠٠

وكان منهم الحكماء الذين تتفجر البلاغة من جوانبهم ٠٠
وينصت التاريخ لأرائهم ٠٠ وتستجيب الدنيا لتوجيههم ٠٠
لأن محمداً الرسول رباهم على عينه ٠٠ !!

وهكذا - في حياة الرسول ٠٠ كان عمله بناء الرجال ٠٠
الذين سيقوم البناء الجديد على سواعدهم فلما قبضه الله اليه ٠٠
لم يحدث الفراغ الذي يزعزع الأمور - ويهزم النظام - ويطمع
الأعداء لان القيادات التي رباهها محمد كانت خليفة أن تسد هذا
الفراغ ٠٠ ولأن الايمان بالله ساد الموقف فخسعت الاصوات
للرحمن ٠٠ ثم بويع الصديق ٠٠ ومن بعده توالى تلك السلسلة
الذهبية من الخلفاء الراشدين الذين قادوا الأمة بمنهج الله -
ومبادئ الرسول - فازدهرت بهم الحضارة القرآنية وآتت
أكلها باذن ربها ٠٠ والى هذا تشير الآية الكريمة :

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد(١) » وهذا الكتاب هو القرآن

(١) الآية الأولى من سورة ابراهيم .

الكريم منبع الحضارة الخالدة وأساس الهداية الراشدة -
 ودستور الخير والنور ٠٠ وقد تجلى أثره في تلك النقلة الجبارة
 - وهي اخراج الناس من الظلمات الى النور ٠٠ وهي تعنى
 انقاذهم من برائن الضلال والهمجية والجهالة والوحشية لتزج
 بهم في آفاق النور ٠٠ آفاق المدنية الفاضلة والحضارة الكريمة
 والقيم النظيفة ، وانما يتم هذا الانقاذ ٠٠ وتحدث تلك النقلة
 « باذن ربهم » أى بارادته سبحانه ومتشيئته وبقوانين الحكمة
 العالية - التى ثلاثم فطرة البشر - وتتجاوب مع أرواحهم
 ومشاعرهم ٠٠ مما يكفل لها البقاء والاستمرار صاعدة وصاعدة
 لتظل تعمل عملها في حياة الناس ووجودهم فالقرآن هو المنهج -
 الذى تجد فيه الحضارة الانسانية كل آمالها ٠٠ وكل مقوماتها
 - وكل قيمها الرفيعة ٠ وكل التجارب الانسانية الواعية ٠٠
 وكل الخلاصات المباركة للوحى الالهى الموزع على الأمصار
 والاعصار والذى تتحقق بقيادته تلك الملازمة الدقيقة بين المادة
 والروح ٠٠ فهو لجسم الانسان وروحه - لمسجده ومجتمعه -
 لدينه ودنياه - لعبادته وقيادته ٠٠ لنظام حكمه - وأصول
 عبادته ٠٠ لقوانين تشريعه وسياسته ٠٠ لنظام حياته كفرد ٠٠
 ولعلاقاته بأسرته وجماعته ٠

وهكذا لا يدع القرآن مجالا الا ازدهر فيه ٠٠ فهو كتاب
 الحياة الخالد ٠٠ تجد متنفسها الطلق في رحابه ٠٠ وتذوى
 زهراتها - ويصوح نباتها ان انفصلت عنه ٠٠ وتأبى أحكام
 القرآن الا أن تطبق في رحاب الحياة ٠٠ وتأبى الحياة أن ترشد
 وتسعد الا بكتاب الله ٠٠ وما الفصل بين الدين والسياسة الا
 بدعة مجرمة تسلطت على المسيحية قديماً لانطوائها على نفسها
 واعتزلها حياة الناس وجنوحها الى السلبية ٠٠ وفي ظل ذلك
 العجز ٠٠ مضت الحياة في طريقها لا تلوى على الدين ٠٠
 وانفصل العلم عنها فما يألّفها ٠٠ لأنها قهرته وأفسدته

وسلطت على علمائها الحديد والنار!! لكن الاسلام لا ينسحب
من الحياة الا مرغماً - ولا يشجع العلم فقط بل يوجبه .. ولذا
كانت سمته الدين والدنيا .. العلم والعمل !!

وفي قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] ايماء الى
أن سبيل الحضارة الراشدة هو طريق الله طريق العزيز الحميد
بكل ما يتطلبه هذا الطريق من بذل الجهد - وادمان السعي -
ومقاومة المعوقات .. وانما تتم الاستقامة على هذا الدرب -
درب العزيز الحميد - بهذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله -
وبغيره لا تتم هذه الاستقامة - وانما يحدث الاختلال
والاضطراب والانحراف والضلال !!

وقد يحاول البشر - كما قدمنا - انشاء نظم حضارية -
أو بتعبير أدق ابتكار دستور حضارى يضمنونه كل متطلباتهم
واحياجاتهم - وبذلك يستقيمون على طريق الحضارة كما
فعلت وتفعل بعض الأمم قديماً وحديثاً .. ونحن نؤكد ..
بأن قوانين البشر ناقصة كما أن عقولهم ناقصة مهما بلغوا من
العلم - لأنهم لم يعرفوا ذلك الانسان حق المعرفة - حتى يضعوا
له ذلك الدستور الذى يلائم روحه - وعقله وطاقته واستعداده
وفطرته وميله ويلبى كل هوائيه ونوازعه وأنسواقه .. لأن
الانسان كائن معقد وجهاز مركب .. ماخفى من أمره أكثر مما
ظهر .. كل عصب من أعصابه - بل كل خلية من خلاياه فى
حاجة الى تحليل - حتى تعرف معرفة دقيقة .. وأنى للبشر
جميعاً بهذا الأمر ؟ ! .. وهناك عوالم خفية فى الانسان لم
يجترأ العلم حتى وقتنا هذا على أن يقول فى أمرها شيئاً
ووقف حيالها عاجزاً كليلاً فكيف يطمع فرد أو أفراد أو جماعة -
أو حتى جيل من العلماء - أن تضع لهذا الانسان دستوراً
حضارياً يلبي كل احتياجاته ومتطلباته .. انه لا يعرف ذلك

الا من خلقه وسواه وركب كل خلية من خلاياه واطلع على سره ونجواه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١) » •

على أنه من جهته الواقع التاريخي لم نظفر حتى الآن بقوانين بشرية - ولا بنظم حضارية قد كفلت لأصحابها السعادة • • وعلى الرغم مما يبدو في بعضها من مظهر خادع • • فإنها مصابة بشنتى الأمراض والعلل • • ولو ذهبنا نفتش في سوات تلك النظم - وفي انعكاساتها السيئة على مجتمعاتها لوجدنا ما لا يوجد نظيره في البلاد المتخلفة • • انها لم تورث أصحابها الا الشقاء والحيرة بما تضمنت من مأساة البعد عن الله • • فقد نزع من إيمانهم • • ووضعت مكانه ترفاً مادياً رخيصاً - لا يبيل أوام الإنسان ولا يروى ظمأ • • لقد أماتت هذه النظم روحه وأحيت شهواته وجعلته حيواناً منطلقاً!! وهكذا يصنع البعد عن الله • • لا نستثنى من ذلك أى نظام بشرى ، شرقى أو غربى ، كله فى الشر سواء!! لأن البشرية فى ظل هذه النظم تسقى بما آسن وملح أجاج!! بعد ابتعادها عن نبع الله الطهور • •

على أن هذه النظم - من ناحية أخرى - كثيراً ما يصاحبها الضعف الإنسانى • • الذى يجعلها أداة لخدمة طائفة دون أخرى ولتحقيق مصالح فريق دون فريق • • وهل يصلح البشر بمطامعهم وشهواتهم أن يرتفعوا عن المصلحية والنفعة!؟

ولنسأل المجتمع الأمريكى الذى يدعى أنه وصل الى قمة الديمقراطية والحضارة • • كيف يجعلون القوانين فى خدمة البيض دون السود • • وكيف يسخرون جندهم فى حروب مجرمة لمجرد اظهار القوة ابراز العضلات • •؟ كيف يتحيزون

• (١) آية ١٤ سورة الملك •

في ظل هذه الأنظمة للظلم الصارخ . . فيدعمون الصهيونية العالمية بالمال والسلاح والبشر ؟ وهكذا مما لا حصر له !!

أيمكن أن تتصور في ظل حضارة قرآنية مثالب كهذه ؟
أيمكن أن تكون الحروب مجرد الاستغلال واستعراض العضلات ؟ كيف والقرآن يخاطب أصحابها بقوله : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » أيمكن أن تكون القوانين لخدمة فريق دون فريق . . كيف والقرآن يخاطبهم : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة (٢) » ورسولهم يناديهم : « الناس سواسية كأسنان المشط » .

ولقد شهد العالم من عجائب هذه الحضارة ما جعله يتجه اليها طائعا مختارا لينعم بالعدل والحرية والاخاء والمساواة . . تلك المعاني التي كان يسمعها نغما ثم يفتقدها تطبيقاً ونظماً لقد وجدها في ظل الحضارة القرآنية حقائق مجسدة يتمثل فيها الكمال الانساني كله .

ان هذا المنهج الالهي هو الذي يرعى خصائص الانسان - ويحترم انسانيته . . وأما ماعداء من نظم البشر فانها تهدر كرامة الانسان وتستعبد روحه وتلغي طموحه وتبدد أشواقه وتدمر انسانيته وتمرغ كرامته في الأوحال - وهل عرفت الانسان حتى تعترف له بكرامة ؟! انها اما أن تحوله الى آله - أو الى حيوان لأنها تجهل طبيعة خصائصه العليا - كما تهمل انسانيته حين تجعله عبداً للآلة - أو أسيراً للشهوات . .

ذلك بعض مايوحيه التعبير الالهي « كتاب أنزلناه اليك » .

(١) آية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية الأولى من سورة النساء .

من خصائص البعث الجديد

يمكننا في عجالة سريعة أن نستنبط من الآية السابقة بعض خصائص هذا البعث الجديد الذى أحدثه الرسول الكريم فى الحياة • • فهياً لها من النظم الحضارية الرفيعة ما عجزت عن تحقيقه فى عصور العلم - والمدنية • • وماهى الآن فى أمس الحاجة اليه لتمارس انسانيته كما أراد لها وبها ، ومن عجب أن تتفجر هذه الحضارة من قلب الصحراء كما ينبجس الماء الصافى من قلب الصخر - لتملأ الحياة خصبا وأملا • • وتبت فيها أزاهير الربيع وأنفاسه • • وتغدق عليها من البركة والخير والحركة ما يجعلها أمل الحياة وروحها السارى ونظامها المحكم الدقيق وهذه الخصائص الرائعة - لها سمات عامة وملامح واضحة نجملها فى :

١ - أن هذا البعث الذى أيقظ النيام وبدد الظلام وكافح الجهالة لم يكن ممكناً ولا مستطاعاً فى أى تصور أن يتم فى هذا الظرف الوجيز - وبذلك السرعة العجيبة - وبهذا الشمول المستوعب - وعلى المستوى العالمى الا بدستور سماوى يضع مواده الذى خلق الانسان وعلمه البيان • • وأى حضارة تقوم على ظهر الأرض لابد لها من دستور يخطط وجهتها - ويحدد غايتها ويوضح مسارها ويبرز خصائصها ومقوماتها ، والا كانت حضارة عشوائية مضطربة - فهل كان ممكناً لذلك الجهل المتفشى فى العالم أن تنقشع سحبه بغير دفعة الهية يمنحها كتاب مقدس لا يتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟! وما يزال العالم كله يعجب العجب كله كيف استطاع محمد بهذا الدستور أن يفجر من قلب

الصحراء حضارة عالمية تعايش الانسانية في أجمل المدن -
وأرقى الحواضر بل تنشئ لها وجوداً حضارياً متميزاً لا يشبهه
نظام هنا أو هناك ٠٠ ولا يعتز به خلل في يوم من الأيام ٠٠ ولا
يحتاج الى اكمال نقص - أوسد شجرة أو اضافة جديدة تستدعيها
الحياة ٠٠ ولا تبلى نصوصه - أو تهرم فتصبح عاجزة عن
الأداء - أو محتاجة الى الرونق والماء كعهدنا بالنصوص
البشرية حين يتطاوّل عليها الزمن ٠٠ بل العجيب حقاً ٠٠
أنها تزداد على الزمن جدة ونضارة وتألقاً واستيعاباً لمشكلات
الحياة !!

وبهذا الدستور العجيب يبني محمد والذين معه هيكل تلك
الحضارة وهم الجفاة الحفاة رعاة الابل والشاة ٠٠ كيف انتقل
هؤلاء بوحى الله - وقيادة رسوله - الى أئمة وهداة من رعاة
غنم الى قادة أمم من مفاليك وصعاليك قد استعبدتهم شهواتهم
الى سادة فضلاء يعلمون الناس الحكمة - ويقودونهم الى
الحق والى صراط مستقيم !! كيف رسموا سياستهم ؟ وبنوا
مجتمعهم ؟ وحاربوا عدوهم وعبدوا ربهم وعبروا مع كل ذلك
عن فطرتهم البشرية تعبيراً سوياً متزنأ ٠٠ لم يكتبوا شهوة -
ولم يعطلوا غريزة - ولم يعيشوا حياة خاصة يصعب ترسمها
أو الاقتداء بها - وانما قاموا وناموا وصاموا وأفطروا وتزوجوا
النساء وزكوا أنفسهم بين صخب الحياة وضوضائها وبرزوا
الى الحياة بكل الطهر - وكل النبل ٠٠ لتسطع خصائصهم -
وتنفخ عطورهم - فتزدان بهم الدنيا وتنتفع بمواهبهم ابنة
وملكاتهم الصناع !! نعم لقد عاشوا بشراً من البشر - كما عاش
نبيهم وقائدهم - وتكونت منهم باقة انسانية رائعة لكل
زهرة منها عطر ولكل وردة سحر - ولكل واحدة مكانة !! تلك
معجزات الدستور الالهى ٠٠ دستور الحضارة الخالدة التى
تستمر وتستقر وتفيض الخير والبركة على الوجود لأنها من

وضع العليم الخبير ٠٠ وذلك بعض الايحاء الذى تتركه آية
[كتاب أنزلناه اليك] ٠٠

٢ - قوله سبحانه : [أنزلناه] تترك انطبعاً يقينياً لدينا
بسر هذا البعث وقوته - ومقدرته على احداث الأثر القوى فى
العالم بأسره ٠٠ وحركته الدافعة التى جددت نسيج البشرية -
وغيرت مسار الحياة ونقلت العالم نقلة كبرى الى حياة النور
والعرفان والحضارة - وذلك لأن دستور هذه الحضارة من وحى
السماء وليس من افك البشر ٠٠ ومن الحقائق الثابتة - وليس
من الأوهام الملفقة ٠٠ انه دستور « منزل » وليس بملفق ولا
مزيف ولا مستعار ولا مستورد ولا نابت من الأرض ولا نابع
من مطامع الناس ٠ ولا هو نتيجة لجهلهم - وقصورهم وضيق
عقولهم وعجزهم عن استيعاب الاجيال والانواع الانسانية
والحقب الزمنية المتطاولة - فأهم خاصية لهذا البعث أنه الهى
له منهج منزل من السماء ٠٠

وليس معنى هذا أن نعطل الجهود البشرية عن الاجتهاد
والمعرفة والفقه الدائم لأسرار الكون والحياة ٠٠ فان هذا
الدستور يشحذ هذه المواهب ولا يعطها بحال ٠٠ ويغريها
بالبحث والدراسة والجد لتستمر مسيرتها الحضارية فى تطور
صاعد وصامد ٠٠ انه يضع البشرية أمام حقائق التشريع -
وأصول العقائد - وصور العبادات ٠٠ وأنماط المعاملات ٠٠
يحل لها الحلال ويحرم الحرام ٠٠ وتلك قواعد ثابتة ٠٠ وأمور
لا يدخلها التطور ٠ أما مسائل العلم - ووسائل النهوض
بالمجتمع - وتطبيقات المعارف الانسانية فهى متروكة للعقل
البشرى فى اطار الأصول والمناهج العامة لهذا الدين ٠

فهناك أمور تتغير مع سير الحياة كالنظم السياسية
والاجتماعية ونتائج البحث العلمى المثمر ٠٠ فهذه أمور قد

أعطى الاسلام فيها الاطار العام مع أساس من اجمال ما يتغير مع سير الحياة •• تاركا للعقل البشرى أن يحدث عملية التكيف مع زمنه ومجتمعه وبيئته ••

وهناك أمور ثابتة لا تتغير كالعبادات •• والعقائد •• وتصورات الحياة الآخرة فهذه مسائل ثابتة لا تقبل التطوير •• وبذلك يستطيع الاسلام أن يتقدم بالحياة على أساسين :
الآصاله التي تحفظ الشخصية والتجديد الذي يخصب الحياة بالتفاعل المستمر مع الحاضر من أجل غد أفضل ومستقبل أمثل ••

وبذلك يكون الدين جهداً مستمراً يزيد الحياة نماء وبركة ،
ويزيد الانسان تقدماً •• ويحطم القيود التي تعوق مسيرته
الكريمة نحو الغد المرتقب •

وقد بذل محمد صلوات الله وسلامه عليه من الجهود الشاقة النبيلة - وهو ومن معه من الصفوة الممتازة حتى أخذت المسيرة الحضارية خطها الواضح المستقيم فقد عذبوا وشردوا وتحملوا من المشاق والمتاعب ما لا تكفى موسوعات الكتب لشرحه ••

وفي سبيل عقيدتهم ضحوا ببلادهم - فتركوها وانطلقوا الى حيث وجدوا البيئة الصالحة لترتيل آيات العفاف والطهر ••
وبناء الدولة الجديدة •• وهى المدينة المنورة •

وقد خاضوا هناك معارك ضارية وسقط منهم الشهداء والضحايا •• انها جهود مباركة قد بذلت •• لأن المنهج الالهى لا يتحقق بنفسه • بل لابد من جهود تبذل ليصبح واقعاً للبشرية ولكن هذه الجهود التى بذلها محمد - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه من بعده جهود موجهة وليست جهوداً

عشوائية ٠٠ فهذا الكتاب المنزل قد رسم للمسلمين سبيل الحياة الكريمة - ووسائل الكفاح الشاق - ومعالم الهداية الراشدة ٠٠ فهم ان حاربوا فعلى بصيرة - وان سالموا فعلى نور - وان باعوا أو اشتروا أو تزوجوا أو مارسوا أى عمل فى الحياة فان هذا الكتاب المنزل يوضح لهم مسائله ويحدد وسائله ، ولهذا فانه بعث يتميز بالبصيرة - والوضوح ، كل حركة من حركاته موجهة فى خطوطها الكبرى من الله رب العالمين ٠٠

وهكذا يصبح بعث الحياة ونشورها على يد محمد صلى الله عليه وسلم مستمداً من كتاب ثابت ودستور منزل يوضح الحقائق ويبين المعالم - ويضع الأسس - ويعلم الناس - وهو كتاب لا يهمل ناحية من نواحي وجودهم وانما يستوعب مطالبهم فى السلم والحرب ، ويلاحق قضاياهم المتجددة ، ويضع الحلول السليمة لمشكلاتهم المعقدة ٠٠

وفرق كبير بين أن تقاد الحياة الانسانية بمثل هذا الدستور الخالد الثابت - وبين أن تقاد بالتجارب الانسانية - أو الدساتير البشرية التى توقع فى التخبط والجهل - وتفضى الى الشقاء والتعاسة ٠

٣ - قوله سبحانه [لتخرج الناس] تشير الى الجهد الذى بذله الرسول ومن معه - والذى يبذله كل داعية لتحقيق مشيئة الله فى الأرض - وهو جهد يرتبط بالدستور المنزل فحقق نتائجه الطيبة وأثمر ثمرته المرجوة ٠٠ وكأنا الآية تشير الى أن هذا الانجاز الحضارى الذى تحقق بهذا البعث تم بأمرين :

الأول : ارادة القدر ٠

والثانى : جهود البشر ٠

وأن الثمرة لا تتحقق إلا بهما معا •• فجهود البشر مهما تبذل ليست شيئاً يذكر ما لم تقترن بالمنهج وتدعمها مشيئة الله ••

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده والمنهج الخالد • لابد أن يقترن بالجهد البشرى ليتم تطبيقه في دنيا الناس •• والا كان مجرد نظريات لا أثر لها في واقع الحياة •• ولا في سلوك البشر •• وقيمة أى دستور انما تكمن في تطبيقه تطبيقاً حاداً لا هزل فيه وليس في نصوصه النظرية •

وهذا الكتاب المنزل لا يعمل بطريقة سحرية تبعده عن الواقعية وانما يعمل طبقاً للفطرة ووفقاً لطاقات البشر - ونظام الكون - وتبعا للجهود المبذولة مقترنا ذلك كله بتأييد الله وعونه ، واذن فمن خصائص هذا البعث أنه تم بدستور السماء - وطاقة البشر •

ومن هنا - فان هذه التجربة الرائدة التى تحققت بمحمد وبمن معه - يمكن أن تعود اذا تحقق لها الجهد المبذول - والارتباط بالمنهج - والصدق في تطبيقه •

وذلك لأن التجربة واقعية مرتبطة بشروط •• ولم تحقق على يد السابقين بسر الاعجاز بل بواقع العمل - وصدق التطبيق والاخلاص في البذل •

٤ - قوله سبحانه : [لتخرج الناس] يعطى التعبير أهم خصائص هذا البعث •• وهو عالميته وعمومه لجميع البشر •• فليس محمد رسولا اقليمياً - ولا قبطياً - ولا وطنياً ، ولا لأمة ولا لجنس دون جنس • وانما هو رسول عالمي للناس كل الناس

لا فرق بين أحمرهم وأسودهم وأبيضهم • ولا بين عربهم وعجمهم • • ومن ثم فأفق حضارته عالمي • • للانسانية السادرة في الغي - السابحة في بحر الظلمات • •

وهذا يجعله بعثاً فريداً متميزاً على سائر الرسالات السابقة والكتب السماوية الأخرى ، فهي كانت لفئة من البشر في بقعة من الأرض لمدة من الزمن •

ولذا كانت فاعليتها محدودة لأنها لم تزود من الله بما يجعلها عامة شاملة • •

ان بعث محمد صلى الله عليه وسلم يعطى الدفعة الحضارية لكل البشرية المعذبة المعناة • • ومن خصائص هذا العموم أنه بعث يتجاوب مع العالم بأسره ويهز أعماق البشرية كلها لا فرق في التعاطف معه بين جيل وجيل - ولا بين جنس وجنس - ولا بين أمة وأمة - ولا بين رجل وامرأة • • انه للناس جميعاً وصدق الله العظيم اذ يقول : [وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً (١)] ويقول : [لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين (٢)] ويقول : [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (٣)] •

فأية قدرة نستطيع أن تحقق لدستور ما كل هذه الضمانات ؟ • • وأية خسارة تصيب البشرية عندما تنفصل عن هذا الدستور ؟ أو تلتمس التقدم في غيره ؟!

٥ - قوله سبحانه : [لتخرج الناس من الظلمات الى النور] يحدد التعبير القرآني النقطة التي بدأ منها البعث وهي [الظلمات]

-
- (١) آية ٢٨ سورة سبأ •
 - (٢) آية ٧٠ سورة يس •
 - (٣) آية ١٠٧ سورة الانبياء •

والغاية التي انتهى اليها وهى [النور] فهو بعث محدد البدء
والنهاية وقد تحقق فعلا وواقعاً كما رسمت الآية الكريمة ٠٠
وتوحى كلمة [تخرج] بالجهد المبذول ٠٠ لأن هذا الاخراج
لا يتم الا ببذل الطاقة على نحو ما قدمنا ٠٠ من توفر القوة
المنفذة المطبقة المحركة لهذا الدستور ليتحول بالممارسة والعمل
الى تجارب واقعية تحقق الحضارة وتصنع التقدم ٠٠ وكلمة
[الظلمات] تشير الى الواقع المرير الذى كانت البشرية تعيش
فيه ولا تجد كلمة تجمع من المساوىء المادية والمعنوية مثل
كلمة الظلمات ٠٠ فهى توحى بالوحشة - والتخبط - والجهالة
والضلال - والتيه - وغير ذلك مما كانت تعانيه البشرية قبل
محمد وهى وحشة جعلت البشرية تعبد الصنم - والبشر -
والشهوة - والمال ، والحيوان ٠٠ وتعبد من معين الشهوات ٠٠
ومن هنا فان كلمة [ظلمات] تحدد أبعاد الجهالة التى كان
عليها العالم كله قبل البعثة النبوية ٠٠

وقوله سبحانه : [الى النور] توحى بالأنس والهداية
والمعرفة والسعادة وهى كلمة جامعة تحمل فى مطاويها كل
خصائص البعث الجديد الذى أضاء فجاء الدنيا - وطارد مردة
الانس - وأبالسة الشر وجهالات الناس وأزاح عن الفطرة ركام
القرون البالية ومخلفاتها العفنة ٠٠ فأضاءت بنور الله ٠

ولعلك تلمح أن كلمة [الظلمات] وردت بصيغة الجمع
وكلمة [النور] وردت بصيغة المفرد ٠٠ فهل لذلك من سر ؟ ان
كلمة [الظلمات] توحى بأن للشر سبلا كثيرة متنوعة وشعاباً
مختلفة متباينة ٠٠ انها طرق ابليس وما أكثرها !!

أما [النور] فيشير الى الحق والخير وسائر المعانى الجميلة
المضيئة ٠٠ فليس له الا طريق واحد لا يختلف ولا يتعدد ولا

يتباين وما أيسر أن نسلك سبيل الحق •• انه سبيل الله ••
وسبيل الخير والرشاد •• ومن ثم فهو مريح واضح مستقيم •

وما أشق أن نسلك الطرق الى الباطل •• انها طرق
ابليسية ضالة موحشة قلقة •• تكمن فيها مخاطر الظلام ••
وشروره •• وما أشد التواءها •• وما أكثر سبلها وطرقها وما
أروع أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى : [وأن هذا صراطي
مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك
وصاكم به لعلكم تتقون (١)] ••

الأول في الآية طريق الله المستقيم •• والثاني طريق
الشیطان الملتوى المتعدد المسارب فلنسلك سبيل الحق -
ولنسضى بنوره •• فهو سهل مريح وهو واحد لا يتعدد !!

ولنتجنب سبل الباطل فهو شاق ومرهق •• تكمن فيه
الوحشة والمخاطر والضلال ، والآية توحى بأن الاحاد وعمر
المسلك لأنه ضد الفطرة فطريقه مظلّم عسوف أما الايمان فسهل
المسلك لأنه تعبير عن الفطرة فطريقه نور وضياء وسبيله سهل
مريح وبهذا نعلل سرعة تجاوب الناس مع البعث الجديد لأنه
تعبير عن فطرتهم التي طالما امتهنت - وتحقيق لكرامتهم
التي طالما وئدت •• ولأن طريقه مستقيم مأنوس مضى ومن
ثم تقبه الناس - واجتمعوا عليه - والتفوا حوله واستفادوا
به وظهر أثره في الحياة بصورة رائعة ••

٦ - قوله سبحانه : [باذن ربهم] يعطى الخاصية الجليلة
لهذا البعث وهو أنه ربانى •• ولولا أنه كذلك لما استطاع
البشر أن يحققوه وما ظنك ببعث يتم بمؤازرة اسماء ؟

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام •

ولعل هذا التعبير يضع قضية هذا البعث في اطارها السليم
 .. فهي قضية - مهما يختلف الناس في تعليل أسبابها قد تمت
 [باذن ربهم] وعندما يأذن الله فلا معوق لجهود البشر - لابد
 أن تصل الى غاياتها .. واذا كان الأمر كذلك فما يجوز أن
 يخدع البشر عن أنفسهم - ويركبهم الغرور .. لأنه لولا عناية
 الله لما تم هذا البعث وكأنما هذا الايحاء لون من التهذيب
 الخلقى والتربية النفسية وتعهد للرسول والذين معه حتى
 يظلوا مع الله في كل حركة يتحركونها - وفي كل خطوة يخطونها
 .. ومع كل ثمرة من ثمرات هذا البعث .. وأنه لا ينبغي أن
 يركبهم غرور ولا صلف فيذهلهم عن تلك الحقيقة الكبرى التي
 لا يمكن للحضارة أن تستمر الا بها .. تلك الحقيقة هي التوجه
 الى الله في كل لحظة .. والمستشرقون الذين ينظرون الى
 الأمور على قاعدة الاسباب والمسببات - أو المقدمات والنتائج
 .. ولا يلتفتون الى عنصر العون الالهي .. يعجبون العجب
 كله عندما يبحثون في أسرار هذا البعث - وعن نتائجه المذهلة -
 وسرعته الخاطفة .

يقول ويلز : [لم يعد التاريخ مصلحاً أبقظ النفوس -
 وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد
 وقد امتاز بيسر كلامه ووضوح دينه] وهذا الذي يذكره ويلز
 صحيح .. وعندما يذكر الرجل سهولة الدين الاسلامي ووضوحه
 فلأنه قد عانى من كهانة المسيحية - وغموضها - واحتكار
 أسرارها .. وكثرة التأويلات المربكة التي تكسبها تعقيداً
 وبعداً عن الواقع .

أما الاسلام فدين يتميز بوضوح الرؤية وليس فيه كهانة
 ولا كهان .. فيه علماء دين - وليس فيه رجال دين يتعيشون
 من الكهانة وينقطعون للدير ..

وذلك من الأسباب التي جعلت للبعث الجديد جاذبية
وجمالاً • لأنه يتميز بالبساطة والوضوح • واليسر •
والسهولة • ومعافقة الفطرة السليمة والانسجام مع الواقع •
ومن ثم انتشر الدين الجديد في أقصر مدة كما يقول ويلز وبأقل
جهد ••

ونقول بأقل جهد •• مع علمنا بما بذله الرسول وصحابته
من جهود صادقة — وبما قدموه من دماء وشهداء وبما خاضوه
من حروب !!

فذلك كله لا يقاس بالنسبة الى ما حققه من آثار عالمية ••
ولا بما يسفك من دماء أو ينصب من مشانق أو يقام من مجازر
عندما يريد البشر أحداث أقل التغيرات في النظم السياسية
والاجتماعية •• فلا تسئل عن الملايين التي يضحي بها — ولا
عن حمامات الدماء التي يغرقون فيها الحياة •• بينما لا تحقق
ثمرة ترجى لأنها تعبر عن التسلط والاعتصاب واللصوصية
والقرصنة !! •

وقد تحقق فعلاً لهذا السبب معنى لم يتحقق لغيره — وهو
ابتعاده عن الغرور وخداع النفس •• لأنه رباني في منهجه —
ومقوماته — وقيمه •• فلم نسمع أن واحداً من أصحاب محمد
[صلعم] •• قد خدعته نفسه ، أو استحوذ عليه مركب النقص ،
فنسب لنفسه شيئاً من هذا البعث العظيم •• أو راح يتبجح
بما أنفق من جهد ومال •• بل لقد كانوا يحبون أن يعيشوا
جنوداً مجاهيل لا تلمع أسمائهم — ولا تبرق صنائعهم •• وكم
من مواقف رائعة يعرفها الناس ولكنهم لا يعرفون أصحابها
في الاسلام •• فأين هذا من صلف الحضارة الحديثة — وما تدعيه
لنفسها من آثار في الحياة — وما يتبجح به أصحابها من غرور
طائش وكاذب مع أنه لم يثمر الا الشر والشقاء ؟!

ولقد كان القرآن حريصاً كل الحرص على أن ينسقى نفوسهم من آثار هذا الغرور الخادع ويكافح كل أسبابه ودواعيه فنسمعه يخاطب الرسول في غزوة بدر [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم - وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى (١)] *

وهكذا .. كل فوز أو انتصار أو نجاح فمرجه لله .. وبمثل هذه التربية تنشأ القيادات التي تسود الدنيا - وتعلم الناس .. انها تلتقى في الايحاء والهدف مع قوله سبحانه [لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم] كلتااهما تتعهد أرواح المؤمنين بنوع من التربية المثالية التي تجعلها دائماً مرتبطة بالله مصيراً وقدرأ .. وتنفي عنها الادعاء وحفظ النفس من الغرور والاستعلاء .. لأنها آفات لو تمكنت منهم لما استطاعوا أن يكملوا المسيرة الرائعة - التي بدأها معهم وبهم محمد رسول الله ..

٧ - قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] التعبير ببث الثقة - ويشيع الطمأنينة في قلوب البشر - ويؤكد لهم أن طريق هذا البعث يوصل الى غاية واضحة ونهاية قاصدة ونتيجة طيبة متمثلة في صراط العزيز الحميد .. وكامة [العزيز] توحى بأنه غالب على أمره ومن ثم فهو يدافع عن هذا البعث - ويحرس التغيير الذي يحدثه في الحياة ويرعى جهود القائمين عليه ويدفع عنهم كيد الشيطان *

وقوله : [الحميد] توحى بواجب الشكر على هذه النعم .. التي لا يحمد عليها الا الله .. ومن حقه سبحانه على البشرية أن نحمده على ما أسبغ عليها من نعم كثيرة أهمها : الايمان والهداية وهما قد تحققا للحياة كلها عن طريق ذلك البعث .. كل تلك الخصائص التي شرحناها تعطيها الآية الكريمة في غير عسر ولا مشقة ..

(١) آية ١٧ سورة الأنفال *

من آثار هذا البعث

استطاع هذا البعث الجديد أن يكتسح في فترة وجيزة تلك النحل الأرضية التي كانت أشبه شئ بانطفيليات السامة ٠٠ وأن يقتلعها من جذورها لينمو النبات المبارك مكانها ٠٠ فيملاً الحياة خيراً وبركة ٠٠ وكانت تلك النحل قد أغرقت الناس في دوامة الفجور والرذيلة والانحلال وقد استطاع هذا البعث أيضاً أن يكتسح معها بقايا الأشباح المتخلفة التي انحرفت عن الجادة ٠٠ ودخلتها بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان - فلا تعليم « بوذا » ولا مراسيم « كونفوشيوس » - ولا مبادئ البراهمة - ولا وثنية الروم ولا إباحية فارس - ولا شهوات الهند استطاعت أن تقف أمام الموج المكتسح الجارف التي نسف الخرافة والكهانة وقضى على المفاسد ٠٠ ومكن لكلمة الله في الأرض ٠٠ وأضاء معالم الوجود بنوره ورفع رؤوس البشر المنكسة الى السماء ٠٠ وأطاح بالمستبدين والغاشمين - والأشراف والنبلاء الذين طالما استعبدوا الناس ، واستذلوا رقاب البشر ليضع مكانهم على أريكة الحكم أناساً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، لا يريدون علواً في الأرض ولا فساد « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - ونمكن لهم في الأرض (١) » .

كان الاسلام في عنفوانه - شباباً يزخر بالحيوية فما لبث أن ضرب بقبضته القوية ضربة أطاحت بالفساد من أرض الله ٠٠ ثم ارتشفتة البشرية رحيقاً حلوا ٠٠ وعصيراً مفيداً تمشى في أوصالها المقرورة فأشاع فيها الدفء ، وبعث الحياة

(١) آيات ٥ ، ٦ سورة القصص .

من جديد فى تلك الأطراف اليابسة التى كانت تكسوها صفرة الموت •• فبث فيها ربيعاً جديداً أنبت ابراعم والأزهار ونضر وجه الحياة بالمنى - وملاً جوها بالعطر فانتعش العاثر وصح المريض وأشرق الأرض بنور الله وصدق الله وتمت كلمته اذ يقول : [هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١)] •

وهكذا لم يعد للنحل السابقة وجود يذكر فى ظل الاسلام ، وصار الناس بنعمة الله اخوانا تجمعهم عقيدة التوحيد - وتظلمهم مبادئه - وتقودهم أحكامه لا يستعلى أحد على أحد ولا يعبدون الا الله ••

بين نظامين :

وعن طبيعة تلك النقلة الرائعة التى أعزت الوجود كله •• وأسعدت البشرية •• وهيات لها مكانة رفيعة تزدهر فيها أخلاقها وخصائصها - يحدثنا ربيعى بن عامر رسول المسلمين الى يزدجرد القائد الفارسى فى مجلسه حين سألته عن طبيعة هذا الدين الذى يحاربون من أجله وعن الدعوة التى يستشهدون فى سبيلها فيقول :

« ان الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده - ومن ضيق الدنيا الى سعتها - ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » •

ولعل يزدجرد أدرك من خلال الكلمات المضيئة الواثقة أن عهده قد انقضى - وأن بساط الجور والظلم والفساد يوشك أن ينطوى • وأن الاسلام بالغ قصده ومدرك غايته •• حتى لا يعبد الا الله فى الارض ••

(١) آية ٩ سورة الصف •

لقد استطاع ربّعى أن يشرح أهداف الدعوة الجديدة في
بلاغة وقصد ٠٠ وأن يجعل كل كلمة من كلماته سهماً مسموماً
موجهاً الى قلب الدولة الفارسية التي طالما استباححت استغلال
البشر ٠٠ وتشويه معالم الفضيلة ٠٠ دون خوف أو تردد ٠

وهذا الفهم الواعي لرسالة الاسلام هو معنى عالميته فهو
ليس لجنس ولا لشعب ولا لأمة ولا وطن وإنما هو دين البشرية
جميعاً ٠ وبهذا تصبح حضارته عالمية الأفق ٠ تخرج الناس
من المعاني الضيقة الى المعاني الرحبة ٠ ومن خصائص
الجنس ومميزات اللون والعرق الى خصائص البشر جميعاً
ومميزات الانسانية كلها ٠ انها تخرج الناس من ضيق
الأرض الى سعتها وكفى بذلك امتداداً للساحة الحضارية
القرآنية ٠٠

ولنستمع في اجلال وخشوع الى الفرق بين النظامين -
نظام الجاهلية ونظام الاسلام ٠٠ والى طبيعة الانسان الجديد
الذي صنعه القرآن ٠

وذلك على لسان جعفر بن أبي طالب يخاطب النجاشي
عندما سأله عن حقيقة دينه ٠٠ وكانت قريش قد بعثت بوفد
منها على رأسه عمرو بن العاص ٠٠ تطالب بتسليم المهاجرين
الى الحبشة ٠٠ كما تصنع الدول الحديثة اليوم عندما تطالب
بتسليم « اللاجئين » وانتهد جعفر بن أبي طالب تلك الفرصة
٠٠ فأخذ يشرح قضية الاسلام ويوضح اضطهاد قريش فقال
للنجاشي : « كنا قوماً أهل جاهلية (١) نعبد الأصنام ونأكل
الميتة ونأنتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل
القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا

(١) ابن هشام جزء أول ص ٣٠٤ ، ٣٠٥

منا نعرف نسبه وصدقته وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان - وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا - وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى . . وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .

أى تحليل رائع للفرق بين النظامين كهذا التحليل ؟ وأى فهم متفتح لقضايا الاسلام وخصائصه العليا كهذا الفهم ؟ ولو أن كاتباً معاصراً أراد اليوم أن يكتب فى الفرق بين الجاهلية والاسلام لما توصل الى هذا . . مع الاستيعاب والانسجام والانطلاق . . وحقاً لقد أصاب جعفر جاهلية القوم فى مقتلها . . وأنصف الدعوة الجديدة ووضعها فى المكان العالى . . وكانت الموازنة دقيقة يخرج منها السامع بقبح أمرها ، وفساد طبيعتها ، وجلال الاسلام وسمو مكانته .

فاذا لاحظنا - أن جعفر بن أبى طالب كان تلك اللحظة يوقف موقف اللاجئ المضطهد الذى تطالب بلده بتسليمه والقاء القبض عليه - عرفنا الى أى حد كانت مبادئ الاسلام تضع أصحابها عقيدة وثقافة ووعياً وثباتاً فى أصعب المواقف وأقساها . . لقد شرح جعفر القضية شرحاً موفقاً . . لم يستطع وفد الشرك أن يفنده - ولا أن يطعن فيه - ومن ثم ظفر الوفد بتقدير النجاشى . . الذى استمع اليه بكل الوعى والاهتمام . .

وطرد سفراء قريش رغم محاولوه من رشوته . . وجذبه الى صفهم بتلك الوسائل الرخيصة . . ولم تفلح دعاية قريش في تشويه القضية وان كان وفد اعلامها يملك المال والوسائل المختلفة والمغرية . . لأنه وفد الضلال والكذب . . ونجح وفد المسلمين - لافى رد الوفد القرشى مخذولا فحسب - ولكن في الدفاع عن موقفهم والدعاية لقضيتهم - ودحض أكاذيب العدو . . واحداث التوازن في الرأى العام . . لأن الحبشة كانت تمثل قطاعاً كبيراً من الرأى العام ومن خلال ذلك نعرف كيف أن المسلمين - كانوا ينهضون بكل المهام التى توضح ظروفهم مع أعدائهم . . ولم تكن هجرة عشوائية - وانما كانت لها - أهدافها القريبة والبعيدة . . فهى من ناحية : فرار بالعقيدة الى جهة آمنة . . ومن ناحية أخرى : اعلام رائع بعدالة قضية المسلمين وصدق دعوتهم وكذب المشركين وسوء مقصدهم وقد أدت فعلا هدفها !! .

ولم يكن عمرو بن العاص زعيم وفد المشركين رجلاً قليل الحيلة أو ضعيف البيان وانما كان سياسياً بارعاً . . ومفاوضاً لبقاً - ولكنه فى هذا الموقف لم يكن مدفوعاً بعقيدة صالحة . . ومن ثم سقط دفاعه وذهب أدراج الرياح !!

حتى اذا مسته نفحة من روح الاسلام فيما بعد . . واستقرت عقيدته فى فؤاده . . رأى العالم منه الأعاجيب . . وأصبح شخصية عالمية تسلط الأضواء على مواقفه ، وهكذا الاسلام يصنع الرجال . . ويكفى أن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر واستخلصها من قبضة الرومان !!

ولنرجع الى صميم الموضوع فنسأل أنفسنا سؤالاً : . . أيمكن لهذه المبادئ التى شرحها جعفر بن أبى طالب أن يصد عنها أحد ؟ ! اللهم الا أن تنطمس منه البصيرة - أو تغلبه

شهوة الحرص على مصالحه - أو شهوة النفوذ في قومه - وهم قلة على أى حال ومع ذلك . . فقد جذبتهم روعة المبادئ . . فأقبلوا واحداً بعد واحد وفريقاً إثر فريق يدخلون في دين الله . حتى جاء نصر الله والفتح . . وهؤلاء الذين دخلوا في الدين بعضهم قد ضحى بمصلحته - وبعلاقاته - وبعضهم قد انسلخ من تبعية غيره دون خوف أو جبن . . لأن العقيدة تصنع الأبطال .

يقول ابن حزم : [كانت العرب بلا خوف قوماً (١) لقاحاً لا يملكهم أحد كربيعة وإياد ومضر وقضاعة - أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الحكم كابراً عن كابر - فانتقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله وهم آلاف آلاف وصاروا اخوة كبنى أب وأم - وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه طوعاً بلا خوف غزو أو اعطاء مال - ولا مطمع في عز . . .] الى أن يقول : وهكذا كان اسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة . . لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته . . وما اتبعه « أى الرسول » الأوس والخزرج الا وهو فريد طريد قد نابذه قومه حسداً نه اد كان فقيراً لا مال له ولا أخ ولا ابن ولا ولد ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب - نشأ في بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراد قتله] . .

وهذا التحليل يعطينا انطباعاً كاملاً بأن العقيدة الجديدة قد جذبت القوم جميعاً . . ولهذا تحولوا في لحظات مباركة الى صف الدعوة . . وصاروا لها جنداً أوفياء . . يبذلون أرواحهم من أجلها في سقاء . . بعد أن عاشوا في جاهليتهم

(١) عن تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٤٤
جزء اول طبعة أولى .

تجار حروب ، وأرباب فجور وفسوق . . لقد مستهم نفحة
عامرة من روح النبوة فبعث انسانيتهم الضائعة وردت
خصائصهم المغمورة تحت ركام الجهل . . فاذا هي تدأب
وتسعى بقدر الله !!

لقد استطاع محمد - صلوات الله عليه - أن ينفذ بمنهج
الوحي الى قلوبهم وضمائرهم . . وأن يبعث مواتهم الأدبي .
وأن يعيد بناء شخصيتهم التي عبت بها الشيطان . . وأن
يرتب عناصرها وينظم كيائها . . كما استطاع كذلك أن
يصلح الفاسد من أوضاع المجتمع وأن يرد الى المواهب
الانسانية كيائها . . تلك المواهب المهمة الضائعة . . وأن
يصنع معها وبها عالماً نظيفاً . . قد وضع فيه كل شيء في
مكانه الطبيعي . .

وقد أنس العالم كله الى هذه الدعوة التي لم تجنح الى
الاقليمية أو العصبية . . ولم يتجه بها قائدها الى جنسه . .
وانما أطلقها عالمية تسوى بين البشر جميعاً في الحقوق
والواجبات وتخرج الناس من جور الأديان الى سماحة الاسلام
ومن تقديس العباد الى عبادة الله وحده ولقد رأى صلوات الله
عليه في مجتمع الجاهلية صورة للعالم الذي لعب به الهوى
وأوبقه الشيطان رأى الانسان وقد هانت عليه انسانيته
فسجد للصنم والوثن وعبد الشجر والحجر . . ورأى عقولا
ضالة تؤمن بالسحر والخرافة والهامة وتفتنى في عصبية
ضيقة ما أنزل الله بها من سلطان ، رأى المواهب البشرية
خامات مبعثرة تنتظر الصائغ الذي يسبكها ويوجهها الوجهة
الطيبة في الحياة . . . رأى الشعراء يرتعون في الأشلاء . .
ويثيرون العداوة والبغضاء ويترنمون على قيثاره الثار والحرب
والفتك والضراوة . . . رأى العالم كله جائراً مستعبداً يتخذ

الناس بعضهم عبيداً وخداماً رأى الرذائل الانسانية كلها من
خمر ورباً وخلاعة وفجور وطمع وشهوة ومال وتأليه للبشر ..
نعم رأى ذلك في أنحاء العالم كله ..

رأى الفساد متغلغلا في نفوس البشر - وعبر المسالك في
كيانها .. قد اختلط بدمها وجرى في عروقها .. فكان لابد
ليجتث هذا الفساد من تربية الهية .. تقوم على منهج
سماوى وتنهض على مرونة المربى !! وقد النقى المنهج بالمربى
التقاء طيباً مباركا ..

فكان من نتيجة ذلك .. أن أثمر ثمرته وحقق هدفه ..
ولو أن وسائل الدعاية في العالم كله جندت لمهاجمة الباطل في
العالم يومذاك ما استطاعت أن تهدم رذيلة .. أو تقيم فضيلة
لكنها التربية النبوية .. ذات الوسائل الالهية التي تتعهد
الضمائر فتركز فيها العقيدة .. وتملأ القلوب بدواعى الايمان
وتغرس المبادئ في أعماق النفوس فتتحول الى قوة رائعة
توجه الشخصية .. وتخلق دوافعها النبيلة !!

واذا تصورنا الظلمات - وماتحمل من جهالة ووحشة
وخوف .. والنور وما يحمل من أنس ومعرفة وطمأنينة
أدركنا أن النقلة كانت كبيرة .. وأنها استغرقت وقتاً
واستنفدت جهداً .. حتى تحقق لها النجاح .. ولقد تحقق فعلا
نقل العالم من الظلمات الى النور واذا قلنا - ان البعث الجديد -
قد تحقق بهذه الدعوة .. فاننا نؤكد أن هذا البعث كان
عميقاً - وواسعاً - وشاملاً - وقوياً .. مما يجعله عجيبة من
عجائب القدر ولقد دافعت الجاهلية عن نفسها دفاع
المستमित .. ولم تستسلم طائفة من أول مرة .. ثم أذغنت
للدعوة .. وانقادت لله بعد أن قاومت وتلكأت وأعرضت عن
الله .. .

لماذا سهل تقبل الناس للدعوة الجديدة ؟

تميز الاسلام بالبساطة السمحة المحببة . . والواقعية
التي لا تستعصى على التطبيق . . وبالسهولة التي تبتعد به
عن التعقيد - وبالوضوح الذي يجعله أليفاً للروح . . متجاوباً
مع الحياة . . وبالملاءمة للعقل في تشريعاته . . وبالموافقة
للفطرة وحسن التعبير عنها والانسجام معها باعتباره [مادة
وروحا] وليس فيه كهانة ولا رهبنة تحتكر المعرفة وتفتت
على الناس . .

يقول ويلز (١) : [كان الاسلام في أول أمره خالياً من
التعقيدات اللاهوتية التي طالما ارتبكت بها النصرانية
وأحدثت شقاقاً قسى على الروح النصراني وليس للاسلام
كهنة بل علماء ومعلمون ووعاظ وهو حافل بروح الرأفة
والسخاء والوفاء والاخاء كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة
التي تنبت في الصحراء ولهذا جاز الى عقول الناس دون أن يجد
ما يصدده في غرائزهم] . .

وهذا الفيلسوف الأجنبي يشرح : كيف أن مولد الاسلام
كان حرباً على الكهانة وثورة على الخرافة . . خلصت الضمير
البشري من الأوهام ونزهت الذات العلية عن المشابهة -
وعقدت الصلة بين الانسان وربّه دون وساطة ؟ . .

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ محمد كرد علي .

ومن واقع التجربة القاسية التي عاشها هذا الفيلسوف - وهو يشهد الصراع بين العلم وبين الكنيسة وكيف كان سلطانها وبطشها بالمفكرين الأحرار يتحدث بهذه الحرارة .. لقد تحرر هؤلاء وأولئك بدعوة الاسلام ووجدوا فيها منطلقاً كريماً للحرية - وفتحاً للطريق المغلق أمام العقل الباحث ليكتشف ويرتاد ووضوحاً في تشريعاتها وأحكامها .. وبذلاً سخياً للمعارف الدينية دون ادعاء أو احتكار فمن حق كل مسلم أن ينال حظه من المعرفة - ومن واجب العلماء أن يوضحوا ويشرحوا .. والقرآن .. كتاب مفتوح واضح البيان - مشرق الدلالة يقرأه العام والخاص .. والنبي محمد صلوات الله وسلامه عليه .. يعلم البشرية كلها أمور دينها ودنياها .. يفسر الوحي المبارك ، ويقيم مناسك العبادة .. ويترك للبشرية أن تنقل عنه وتتكلم منه وأنه ليقف في معبده الخاشع ليصلى وراءه من أراد الصلاة .. ويتعرف على أسرار الدين ويسأله ببساطة عن كل ما بجهله .. وما هكذا الكهانة !!

ويشير « ويلز » الى خاصية ثانية في الاسلام .. وهى احتضانه للأخلاق الاجتماعية التى تجعل الفرد يحس بأنه عضو فى جماعة يسعد بسعادتها ويشقى بشقائها .. ومن ثم فهو يحارب الأثرة التى تجعل المرء منطوياً على نفسه - ويشجع الايثار الذى يدفع الفرد الى الامتزاج بالجماعة .

وهذه الأخلاق الاجتماعية مثل النجدة والوفاء والاخاء والرأفة .. أخلاق لا تجد بجسيداً فى المسيحية المترهينة التى اعتزلت الحياة وانسحبت من المجتمع - واستقرت فى الدير

منطوية على نفسها - كما لا تجد صداها في اليهودية - التي
مسخت كل الفضائل الاجتماعية مسخاً رهيباً - ووجهتها وجهة
نفعية مادية عنصرية !!

ولطالما قاست البشرية من تلك الأثرة الشحيحة . .
قبيل البعثة الحمديّة . . حتى اذا جاء محمد بهذا الدين الذي
يحتضن تلك الفضائل اندفع هؤلاء القاطنون اليه !!

وان ديناً يبذل المعرفة في وضوح وسخاء . . ويتبنى القيم
الاجتماعية ليطلقها في الحياة لهو دين العالم بأسره . . ودين
الوجود كله . . في ظله تنمو الذات الحرة - وبتعاليمه تزدهر
الارادة الشخصية . . ويتحرر الضمير الانساني من الانقياد
الأعمى . .

من أقوال المستشرقين

يقول المستشرق الهولاندى هورغورنجه : [من أراد الاعتصام (١) بعقيدة الاسلام لم يتمكن من طاعة حكومة مسيحية] ٠٠

ذلك أن الاسلام يربط بين المسلم وربه برباط مباشر ٠٠ فليس في حاجة الى شفيع أو وسيط وبهذا فإنه يتجه بالعمل الى ربه مباشرة - دون أن يرهق نفسه بترضى الكاهن أو تملق الكنيسة - أو الخضوع للحكومة المسيحية ٠٠

وفي الاسلام ميزة أخرى رائعة حقاً ٠٠ وهى مقدرته على أن يمنح أصحابه آراء نهائية في الكون والحياة والتشريع والأخلاق ٠٠ وبذلك يطبع شخصيتهم بطابع الثبات والاتزان ويكون لهم ذاتاً رصينة ٠٠ « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٢) ٠

ومن هنا فإن الاسلام يكره لأبنائه أن يميلوا مع الاتجاهات المختلفة ٠٠ وأن يتحولوا مع الآراء المتعارضة ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يكن أحدكم امعة] « أى تابعاً لغيره لا رأى له » ٠٠ انها عقيدة تبى شخصية المسلم على أساس ثابت وطيد ٠٠

(١) من كتاب حاضر العالم الاسلامى لشكيب ارسلان .

(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم .

ومرجع المسلم فيما يفتقر اليه من أمور دينه ودنياه كتاب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١)] *

فاذا قارنا بين الشخصية التي تبنيها عقيدة الاسلام .. وبين الشخصية التي تنشئها حضارة الغرب وجدنا الأولى ذاتاً رصينة تستمد المعرفة من دستور خالد ثابت لا يتغير ولا يتبدل .. ووجدنا الثانية ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين شتى النظم والديساتير *

يقول الفيلسوف محمد اقبال : [ان مثالية أوروبا - لم تكن من العوامل الحية المؤثرة في أبنائها - ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف المثل الأخلاقية - وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى - وصدقوني أن أوروبا أكبر عائق في سبيل الرقى الأخلاقى للإنسان - أما المسلم فان له من هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث الى الناس من أعماق الحياة (لا من المثالية البعيدة عن الواقع) والوجود وما تعنى به هذه الآراء من أمير خارجية في الظاهر يترك أثره في أعماق النفوس - والأساس الروحي للحياة عند المسلم : هو « ايمان يستطيع أقلنا استنارة أن يسترخص الحياة في سبيله » .. ان هذا الكلام المضيء يؤكد مجموعة من الحقائق عن الاسلام هي :

أن حضارة القرآن تملك المنهج الذى يشرح الحقائق ويرسم الطريق ويمنح المعرفة الثابتة الصحيحة - لأنها مستمدة من كتاب خالد - فهي من أجل ذلك معرفة نهائية لا تتغير ولا تتبدل

(١) آية ١٨ سورة الجاثية .

ولا تتناقض ولا تضطرب .. وان آثارها الفذة لتنعكس على
الفرد المسلم ثباتاً في المواقف وتضحيه في التصادم وقوة في
الرأى وبصراً بالأمر انها تنتج الذات البصيرة الثابتة
المهتدية ...

أما أوروبا فقد حاولت بمثالياتها التي تبتعد عن واقع الحياة
وتنفصل عن وجود الناس وبحيرتها بين شتى المذاهب
الديمقراطية .. التي لا تعطى الآراء النهائية في الكون والحياة
والدين .. حاولت أن تصنع شخصية مثالية .. لكنها لم
تفلح لأنها لا تستند الى منهج ثابت .. ولهذا أنشأت ذاتاً
ضالة تهيم على وجهها بين شتى الآراء ويشير الكاتب الى حقيقة
ثابتة في الاسلام .. وهى أن الحضارة القرآنية حضارة واقعية
تستمد من كتاب واقعى يتحدث الى الناس من قلب الوجود
والواقع .. ولا يستعلى عليهم - ولا يرتفع عن أفهامهم - ولا
يقود البشر بالوسائل الصناعية والتجارب البشرية بل
بالوسائل الطبيعية والمناهج السماوية .. وهو من قبل ومن
بعد كتاب الفطرة السليمة السمحة البسيطة التي تجد في رحابه
السمح ما يساعد على الازدهار .. وينشأ عن ذلك كله أن
أخلاقيات الحضارة القرآنية واقعية - ترتبط بواقع الانسان
وتبنى شخصيته المهذبة - وتحرس حركته في الحياة - وترعى
تطوره الصاعد .. دون أن تحلق في الخيال .. أو الأحلام
الطائرة الهوجاء !!

أما أخلاقيات الحضارة الأوروبية .. فهى المثالية .. التي
تقرأها فتسر .. وترى واقعها فتأسى .. انها لا ترتبط بالواقع
.. ولا تتحقق في الوجود .. هى شعارات خادعة براق لا تجد
طريقها الى الحياة الواقعية .. لأنها لم ترتبط بالعقيدة
الايمانية التي تشعلها وتضرم وقودها .. وتبعثها قوية في

الحياة ٠٠ وهذا هو السبب في أن الفلسفات المجردة لم تؤثر في الناس الا قليلا في حين أن الأدياء تستطيع أن تسيطر على قلوب الجماهير ٠٠ وتتقود سلوكهم في الحياة وتهيمن على كل قوى الانسان!! ولهذا أحدثت التحول في حياة البشر ونقلت المجتمعات الانسانية من حال الى حال ٠٠

نعم لم يستطع الفلاسفة أصحاب النزعات العقلية - أن يؤثروا في مجتمعاتهم - ولا أن يكونوا جماهير تؤمن بهم - ولا أن يحدثوا التحول في حياة البشر ٠٠ لأن دعواتهم جامدة يعوزها شعاع الروح ، وجافة تفتقر الى رشحات العاطفة ترطب هذا الجفاف ، ومضطربة تفتقر الى سند صحيح يدعمها ، وقلقة لا تثبت على شيء ٠٠ ومتناثرة كلما تكون مذهبا متكاملا ٠٠ ومثالية أحيانا ترتفع على الواقع وتسبح في الخيال ٠٠ وتستعصى على التطبيق ، على أن الفلسفة مهما تبلى من النضج لا تخرج عن كونها طفح عقول بشرية أفسدت مآهات الفروض وشطحات العقول ٠٠ فهي لا تمنح الثقة بحال ٠٠

أما المعارف التي تأتي عن طريق الأديان فمضيئة سمحة تدعم الثقة وتنعش الروح ٠٠ ونجد من الانس بها ما يدفعنا الى تمثيلها وتطبيقها ٠٠

وأخيراً هذا البعث قد ظهر الحياة من رجسها - وبعث الانسانية من رمسها - وسقاها من رحيق الله السلسل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زرع بهيج - وأشاع في هيكلها الرميم قوة محركة انتفضت بها فقامت تدأب وتسعى - وانطلقت بقدر الله - وقيادة رسوله - تحرر العالم - وتطهر الوجود - وتبنى الحياة - وتصنع حضارتها على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ٠٠ وهما النبع الصافي لمدينة العالم بأسره ٠٠

الباب الثاني

من خصائص الحضارة القرآنية

١ - استمدادها من القرآن وتجودها المستمر :

. الأساس الذى قامت عليه : تقوم الحضارة الاسلامية - على أساس منهج الهى يتمثل فى القرآن الكريم . . فهو كتابها الخالد - الذى يبرز مقوماتها - ويحدد مسارها - ويوضح غايتها . . ويشرح قيمتها . . ويبين أثرها . .

والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية المنزلة فهو كلمة الله الأخيرة الى البشرية ، وافاها بعد أن تنطعت شوطا بعيداً فى الرقى المادى والعقلى والروحى . . وبعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة . . واكتملت عاطفيا وفكريا . . فهو متضمن لكل القيم والمبادئ والنظريات والأحكام التى تلائم هذا النضج وتوازره وتساعد على ازدهار والاكتمال ولقد بدأت رحلة الحياة منذ فجر التاريخ ورافقها فى هذه الرحلة الخالدة رسل وأنبياء وفلاسفة وحكماء - وكتب سماوية - ومعارف أرضية . . لكن ذلك كان يمثل المعرفة البدائية فى طور الطفولة البشرية . . وكما شبت الانسانية عن الطوق . . تدرجت معها تلك المعارف لتسائر تطورها الصاعد . . وتساند تقدمها المطرد :

بين الكتب السماوية والقرآن :

كانت كل الكتب السماوية التى سبقت القرآن كالنثورة والانجيل كتباً اقليمية زمنية . . محدودة الطاقة تمثل فترات من التاريخ . . ثم يجىء غيرها ليحل محلها فى هذه البقعة أو تلك من الأرض ، ، وليس من بين هذه الكتب - ما يصلح

لتأسيس حضارة عالمية ممتدة وصاعدة . . لأنها لم تزود من
العليم الخبير بالطاقة الهائلة التي تجعلها قادرة على الاشعاع
المستمر عبر الزمان والمكان . .

لكنها دائماً ملائمة لعقول الناس . . ملبية لسنة التطور
لا تتناقض ولا تتعارض ويصدق بعضها بعضاً . . وتتشابه
في أصول الدعوة الى الله . . وكل رسالات الأنبياء على هذا
القانون من الصدق والتطابق وملاءمة ظروف البيئة ومقتضيات
التطور لأنها تمثل المنهج الالهي . . وتصدر عن رب السماء ،

على أن هذه الكتب السماوية - قد نالها من التحريف
والتشويه على يد أصحابها ما أفسدها وأبطل من فاعليتها
وحجب ضيائها وقلل من الثقة بها ، وجعلها ممتحنة ضعيفة
وفي ظلها نشأت عبادة الأشخاص - وعبادة المال - واستباحة
الربا والأعراض ، وقتل الانبياء - وعبادة العجل . . وتحول
أصحابها الى تماثيل جامدة للكهانة والجهالة والادعاء . .
وفقدت المعرفة البشرية كرامتها في ظل الكنيسة بعسد أن
اصطنعت الكهانة - واحترفت الرهبنة ولائت بالدير .

فهل تصلح كلتا الديانتين لاقامة حضارة مزدهرة نامية ؟

ان المسيحية - قد انسحبت من الحياة تماماً . . فهي
لا تصلح الا لتأسيس حضارة مريضة .

أما اليهودية : فقد عبدت المال - وأشاعت الربا فهي
لا تصلح الا لتأسيس حضارة مادية تمتن خصائص الانسان !!

ولكن ينبغي هنا أن نؤكد بأن انحرام الديانتين قد نشأ
من عبث أصحابهما وتحريف كتبهما . . فهو انحراف بشري

قاد الى افساد الكتب المنزلة . . وقد كان من الممكن أن تقود هذه الكتب أصحابها قيادة سليمة . . لو استمسكوا بها وساروا على هديها فالكتب السماوية في ذاتها قادرة على أداء رسالتها بشرط أن تظل على نقائها وصفائها أما حين تعتكر بفعل البيئة - أو تحرف بيد البشر فليس العيب فيها وإنما هو في طباع الناس ورواسب البيئات الساقطة . . وهكذا ينزل الحق صافيا من السماء ثم لا يلبث أن يعتكر بأفاعيل الناس !!

ومما ساعد على تحريف هذه الكتب أنها لم تنزل باللفظ والمعنى من رب السماء وإنما هي معان حكيمة - مستلهمة من الله احتفظ لها رسل الله موسى وعيسى بجلالها وتأثيرها ووضاءتها وجاذبيتها . . وسرت على ألسنتهم نغما مقدسا يلهب العاطفة ويوقظ الروح فلما ذهب الرسل الى ربهم نالها من الأتباع والقديسين ما جعلها فاسدة لا تصلح لشيء وتعددت الأناجيل - والعهود . . تعددا أفقدها كل قيمة وكثرت التفسيرات والتعقيدات في الديانتين وتحولتا الى كهانة وألغاز وأحاجي - كما كثر الدس لجذب الدين الى مصالح الناس . . ومازالوا كذلك حتى انحرفوا عن عبادة الله الى عبادة البشر :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وماأمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون (١) » .

وتورطت الكنيسة في العصور الوسطى . . فقامت بحركات القمع والارهاب للعلماء والمفكرين . . وادعت السيطرة على المعرفة وهي لا تملك منها قليلا ولا كثيرا . . وسخرت الدين بذلك للشهوات والأغراض . . مما زهد الناس فيه وبغض

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

الكنيسة اليهم فتركوها تسبح في جهلها ورجعيتها وانطلقوا في مضمار العلم من غير دين . . ومضت حضارتهم منذ ذلك الوقت تستمد من العقل وحده وتتنكر للدين وتنهض على العلم وتخاصم الله .

وانسحبت الكنيسة عن ميادين التوجيه - بعد أن انتصر الاتحاد عليها - وتمكن منها - فلم يعد يأبه بها أحد - أو يعرج عليها مخلوق . . ولذا شرعت أخيرا تستدرج الشباب اليها بوسائل الشهوة والمتاع الرخيص . . وتخلط بين الفتيان والفتيات في حفلات مخمورة !! ومما أسقط هيبتها الى الأبد ترحيبها بالعلاقات الشاذة الآثمة . . واصدارها للفتاوى المجرمة فالتقت بذلك مع كل المذاهب الاباحية وزادت فسخرت وسائل الاعلام - وأدوات التوجيه لاثارة الغرائز الدنيا .

تلك لمحة متدرجة عن تاريخ الديانتين السماويتين الكبيرتين . . وما نال التوراة - والانجيل من عبث العابثين . . نؤكد من خلالها أنهما لا تصلحان لإنشاء أية مدنية فاضلة . .

ومافظائع الصهيونية اليوم وتبنيها لحركات الهدم الأخلاقي - والتقويض العمراني الا انعكاس لما أحدثوه بالتوراة من تشويه . . وأين هم من التوراة - ومن موسى الكليم ؟ ! لكنهم مايزالون يتحدثون عن التوراة - ويحاربون باسمه ويفسقون على حسابه !!

وما المادية التي تجتاح الغرب الا انعكاس لما أحدثوه بالانجيل الذي مايزال القوم حتى الآن يرددون ترانيمه ممسوخة في الكنائس والأحفال الدينية . . وأين هم من الانجيل ؟ ومن السيد المسيح !!

أما القرآن الكريم : فقد نزل باللفظ والمعنى من لدن رب العالمين [وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين - على قلبك لتكون من المنذرين - بلسان عربي مبين (١)] .

فلم يحدث فيه ما حدث في غيره من الكتب المنزلة من تحريف أو تشويه وانما ظل متألّفا يرسل النور في كل اتجاه - ويبعث بالضوء في كل أفق - يقرأه الناس جمبعا بلسان واحد - لا تترجم ألفاظه لأنها فوق قدرة المترجمين - ولا يتعدد المصحف كما تعددت الاناجيل - ولا تتناقض آياته كما تناقضت آياتها - قد تحرف كلمة واحدة من المصحف فتقوم الدنيا وتقع لهذا التحريف اليسير . . . وهناك هيئات متخصصة للسهر على سلامة المصحف ، وتلاوة القرآن - وقراءته ليس لها عمل الا هذا وصدق الله العظيم اذ يقول : [انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (٢)] وكم أرادت الصهيونية العالمية - ومن قبلها الفرق المضللة أن تشوه المصحف - ولو بتغيير حركة أو سكون فما استطاعت الى ذلك سبيلا !!

والعجيب أن القرآن يزداد على الزمن جدة ونضارة كأنما نزل من السماء الآن . . . ويلاحق أحداث الحياة ملاحقة عجبية - ويرعى تطور البشرية - ويلائم الفطرة الانسانية . . .

ولا يتصادم بحال مع السنن الكونية - ولا مع قوانين العلم التي استقرت وأخذت وضعها . . . أما النظريات التي ما تزال في طور التجربة . . . فهي عرضة للخطأ ومظنة للوهم ولهذا فهي لاتعد قانونا علميا الا حين يستقر أمرها وتثبت

(١) آيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ سورة الشعراء .

(٢) آية ٩ سورة الحجر .

صحتها عندئذ تجد من القرآن ما يشجعها ولا يتصادم معها
بحال ..

ان القرآن لا يتبع الظن - وانما يشجع الحق - ويدعمه
ويمضى معه فى طريق واحد ولقد ذم الله أقواما يجرون وراء
الظنون فقال : [ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس - ولقد
جاءهم من ربهم الهدى (١)] *

وهو قول فصل فى هذا المقام .. يؤكد بأن القرآن لا يؤيد
الظنون ولا يشجعها .. لأنها تخضع لهوى النفس وضلال
الشيطان . ويوضح أن الحقائق هى طريق القرآن ومنهج الله
.. وذلك هو المعبر عنه بقوله [ولقد جاءهم من ربهم الهدى] *

والهدى : هو الدليل الموصل الى الحق - المفضى الى التوفيق .
وذلك هو طريق الله وطريق العلم الصحيح - اذى يستهدف
الحق لا الباطل .. واليقين لا الظن وبهذا التصوير يصبح
القرآن كتابا عالميا تجد فيه الحياة كلها ما يسدد خطاها ويدعم
تطورها ويرعى قضاياها .. وتجد فيه الانسانية كلها ما يرفع
شأنها .. ويعلى قدرها .. ويسمو بخصائصها ومواهبها
وملكاتها .. وله من قوة الاشعاع - وقدرة الطاقة ما يوازى على
تحقيق هذا الدور الحضارى الكبير .. ولقد قام القرآن فعلا
بذلك الدور الكبير .. وامتدت رقعة نفوذه فشملت العالم كله
ورددته القاصى والدانى .. وما زال يردده الى ذلك الوقت رغم

(١) آية ٢٢ سورة النجم .

وحشية القمع ، وعسف الارهاب - وما زلنا نجوب بلادا في
أرض الله .. لا نتوقع أنها تنطق حرفا واحدا عربيا لوطانة
لهجتها - فاذا بنا نسمع القرآن على السنة أبنائها عربيا
صافيا واضح الذبرات والقسمات والله في خلقه شئون .. ومن
أراد ذلك فليتبع أفواج الحجيج ويستمتع اليهم .. فسيري
الأعاجيب في هذا الباب .

ان كل الحقائق التي أفضنا في شرحها - فيما يتصل
بافرق بين القرآن الكريم والكتب المنزلة فذنتهم في تقريرها ..
ولكننا عندما نسمعها قوية أخاذا على السنة المستشرقين -
الذين تنزهوا عن التعصب والمذهبية ولو لساعات قليلة - نرى
أنها لا مبالغة فيها بل هي الواقع الذي لا يشك فيه ..

ولنستمع الى الخصائص الحضارية التي استودعها الله
كتابه الخالد على لسان رينان الفيلسوف الفرنسي - الذي كان
يعانى ازدواجا في شخصيته حينما ينتصر للحق - وحينما
ينحاز لآراء قومه .

القرآن نبع حضارى متجدد

يقول رينان : [ان القرآن هو أساس الاسلام ، وقد احتفظ بكيوننته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف - وعندما نستمع الى بعض آياته وما فيها من بلاغة وسجرتأخذنا رجفة الوله والوجد - وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع التى تنطوى عليها بعض تلك الآيات الالهية . . لا يسعنا الا أن نعظم هذا الكتاب العلوى ونقدسه - وقد دلتنى تحرياتي العلمية أنه لا صحة مطلقاً لما أريد الصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية والعادات القومية التى أراد بعض المتحاملين مثل [فولتير] أن يوجهوها اليه . . وهى افتراءات ذميمة وقحة كقولهم : انه كان يميل الى التسييد والسيطرة مع أن التاريخ يثبت أمانته وصدقه وتواضعه وأنه لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعة نبيلة وقلبه طاهراً - رقيق الشعور (١)]

ثم أردف ذلك ببيان أن هذه العصمة تخص القرآن وحده .

وعندما نلقى بعض الضوء على كلام رينان نرى أنه يتضمن مجموعة من الحقائق الضخمة التى تؤيد مانذهب اليه - وما قررناه من أن القرآن الكريم وحده هو نبع الحضارة العالمية وذلك لأنه أولا وكما يقول [رينان] - كتاب علوى يحتفظ بكيوننته القديمة - تلك الكيننة التى تجعله قادراً على التأثير فى العقول والقلوب . .

(١) من كتاب بين الحضارات والديانات لطفه مدور ص ١٢٦ - ١٢٧

والتي يظهر أثرها فيمن يقرأ هذا الكتاب الخالد - أو يستمتع إليه اذ تعثر به انتفاضة التأثير - ورجفة الولد وهزة الوجد ونشوة الفرح وذلك تبعاً لآياته التي تتوزع على الوعد بالجنة والوعيد بالنار . . أو وصف أحوال الأمم وتاريخ الدول وأوضاع الرسل مع أقوامهم وصراع الحق مع الباطل . . كل ذلك يتتابع في مد متلاحق . . ويرمى بأمواجه في النفس الانسانية فتتحرك معه انقباضاً وانبساطاً . .

[ورينان] يؤكد - أن تلك الخاصية مقصورة على القرآن الكريم وحده من بين سائر الكتب المنزلة - لأنه كتاب قد سلم من التحريف والدس . . واحتفظ بنقائه وصفائه ومقدرته على التأثير أما نصوص التوراة والانجيل فقد تحولت الى نغمات سمجة ثقيلة تتردد كالترانيم في الكنائس والبيع بعيدة عن أى تأثير . . فاترة باردة لا تورث خشية ، ولا تحدث أثراً . . !!

ولا شك أن المنهج الحضارى يفتقر الى كتاب ثابت المنهج ، قوى التأثير حتى يندفع الناس به بناء لصرح الحضارات على تقوى من الله ورضوان .

والخاصية الثانية : وهى حضارية - تكمن في روح التشريع التي ينطوى عليها الكتاب الكريم . . ففيه من النصوص الحية المتجددة ما يلائم روح التطور وما يدفع بعجلة التقدم الى الأمام وانها لتشريعات تتناول الحياة كلها ولا تترك سائناً من شئونها . . وهذه الخاصية النى يتميز بها الفقه الاسلامى من حيث نمائه - ومقدرته على الاستيعاب والشمول . لأنه يستقى الاحكام من كتاب يفيض بروح التشريع ، للعبادات والمعاملات والعقائد ، ونظم الحكم وأساليب المجتمع وفلسفة الأخلاق . . فهو بهذا نظام متكامل للحياة الانسانية يرسى

قواعدها على أسس سليمة .. ويخصب العلوم والمعارف التي
تستمد منه - وتأخذ عنه فهو يخصب الفقه ويمده بالأحكام ..
وهو يخصب علم الكلام ويزخره بالعقيدة الصالحة وما شئت
من معرفة حقيقية بالله ورسله واليوم الآخر .. وهو يثري
علوم الاجتماع بما يمدّها به من قوانين الحكم - ونظام الحياة -
وسير الحضارات .. ويمر التاريخ بأحوال الأمم القديمة
وما أصابها من قوة أو ضعف وكذلك سائر المعارف الأخرى ..

أنه بذلك محيط زاخر بالمعارف السديدة - والعلوم
الصحيحة .. وقد تمكن بناء النهضة القرآنية من تأسيس
علوم ومعارف كلها تستقى من نبع القرآن وتأخذ عنه .

ولكن يبقى بعد ذلك .. أن نؤكد بأن هذه الخاصية تجعل
منه أساساً للعلوم والمعارف وتجعله قادراً على العطاء السخي
للحياة من جميع نواحيها .. تؤكد العلاقة بين هذا الكتاب
الخالد وبين الحياة فهو يمنحها القوانين - والمثل الأخلاقية ..
ووسائل التقدم والنهوض ويعكس عليها الجلال والجمال ..
ويمضي بها على طريق الهداية والخير ويصب بكل ما فيه من
هداية ومعرفة في محيطها الكبير فتزكو وتسمو وتتقدم .

ويوم يسود نظامه - وتطبق أحكامه .. يوم تعز الحياة
عنه .. تضل وتميد ويلعب بها الهوى والشيطان ..

فقيمة هذا الكتاب الخالد تكمن في تطبيقه ليكون نظام
الحياة المتكامل .. يعبد به الله وتحارب به الجيوش -
وتحكم به الجماعة وتساسس به الأمور كلها ..

هذه الخاصية التشريعية التي يشير اليها [رينان] لا توجد في كتاب آخر . . ولا تتوفر الا في القرآن . . فهو كتاب الحياة - ومستودع الحكمة - ومستقر المعرفة . . ونظام السياسة والاجتماع . . كتاب العلم النافع الذي يثير العقل ويحركه . . لينطلق جواباً في ملكوت السموات والأرض . . من حكم به عدل - ومن مل به أجر - ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم . .

وما دام القرآن هو كلمة الله الأخيرة ، فهو يربط الناس بالتطور حتى لا تقف عجلة التاريخ فحضارة القرآن خصبة ولود تَمْضى كما صورنا مع ركب الحياة السائر ملبية حاجات البشر متجاوبة مع أهدافهم مستوعبة لمشكلاتهم . . تجد لكل مشكلة طارئة حلاً موفقاً ولكل سؤال جواباً سديداً . . فلا تجمد أمام ما ترد به الأعصار والامصار من مسائل جديدة . . لم تكن في العهد الأول للإسلام . . بل تقيس الحاضر على الماضي - وتلحق الفرع بالأصل - وتنظر في علة الحكم التي تشملها . . وتجتهد كذلك في الأقضية والاحكام .

وبهذا يأخذ التشريع الاسلامي سمته الحضارى ويبسط سلطانه على الحياة فلا تتفلت منه - أو تلوذ عنه لانه يلاحقها ملاحقة متطورة ويصدر عليها الأحكام الملائمة وما أجمل أن تتعانق روح التشريع مع قضايا الحياة . . فتمضى الحياة كلها مسددة الخطا كريمة الأهداف لانها نخضع لله - وتحكم بشرعه . . وما أقبح أن يلعب الشيطان بالناس فيضلهم عن شرع الله ودينه فيحكمون بغير ما أنزل الله - وكتاب الله بين ظهرانيهم !!

وهكذا يجب أن تتألق حضارتنا في رحاب القرآن وفي جو
 الايمان لتزدهر وتونق . . وتتوتى أكلها كل حين باذن ربها -
 وبذلك تضمن التجدد وتمضى في طريق النماء المتصاعد مع آمال
 البشر - وتقدم الحياة . وينبض قلبها دائماً بنبض الحياة
 ويخفق فؤادها بآمالها ويطرده سيرها على طريقها فتكون حضارة
 مؤمنة ربانية - حضارة الرقى المادى والروحي معاً .

ولا يمكن لهذه الحضارة أن تجف أو تذوى أو يصوح نبتها
 الا حين تنفصل عن كتابها الخالد . . وما هى الا أن ترتبط به
 فتجرى فيها دورة الحياة ويعود اليها النماء والازدهار -
 والحيوية والنبض - وبهذا تظل قادرة على مواجهة التحديات
 الحضارية الأخرى عبر القرون لانها مزودة بما يكفل لها القوة
 والقدرة والصمود والاستمرار والتجدد - وسيظل القرآن يمد
 تلك الحضارة بالايمان لتضى جوانب الحياة بالأمل
 والخير والحق والعدل والسلام وكل المعانى الطيبة والقيم
 النبيلة . . حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

مكانة العقل في حضارة القرآن

لم تعرف الدنيا ديناً يعتمد على العقل كما عرفت ذلك للإسلام - كما لم تعرف كتاباً يعتز بالعقل • • ويطلقه من أساره ويرد عليه كرامته كما عرفت ذلك للقرآن الكريم •

فالعقل - في حضارة القرآن • • هو الذى يتفاعل مع عناصر الكون ليبنى صرح الحياة - وهو الذى ينظر فى ملكوت السموات والأرض ليتدبر آيات الله • • وهو الذى يمضى فى رحلته المباركة باحثاً عن أسرار الطبيعة - مكتشفاً لقوانين العلوم - مدركاً لروح التشريع •

ويكفى أن القرآن الكريم آيات لقوم يعقلون - ولقوم يتدبرون - ولأولى النهى - ولأولى الالباب • • وأن كما هائل من آياته تخاطب العقل وتستحثه وتستثيره ليتحرك فى رحاب الله - ويتدرج فى دراسة آثاره وأسراره •

وأحكام الشريعة كلها إنما تستنبط بالعقل الرشيد من كتاب جامع لمعالم الخير - ودلائل الحق • • وبدون العقل يجمد التشريع • •

ويتحجر • • ويصبح الفقه الإسلامى قوالب جامدة وهياكل محنطة • • لا يتزيا بزى العصر ولا يلبس ثوبه الجديد •

وهكذا - نجد أحكام الشريعة لاتزدهر الا فى بيئة تعزز بالعقل - وتعتمد باستنباطه وقياسه واجتهاده • • وفى العصور التى تألفت فيها المواهب العقلية - ازدهر الفقه الإسلامى • • واتسعت آفاقه • • وفى العصور التى انكمش فيها العقل • • ضمر الفقه وأصيب بالعقم والهزال •

فالحضارة القرآنية - حضارة العلم - الذى يركز على العقل - ويعتز بكرامته .

وحضارة الايمان - الذى يتغذى بآثار القدرة الالهية - ومشاهد الكون ومظاهر الطبيعة . . التى يجد فيها العقل الانسانى مجالا للفهم والادراك وتقديس آلاء الله .

وحضارة التقدم - التى تستند الى العقل فى استنباط الأحكام - ومعرفة قضايا التطور فهل هناك اعتداد بالعقل أكثر من هذا ؟

لقد امتهنت كرامة العقل وصودرت أحكامه . . فى ظل الحضارات الأخرى القديمة والحديثة لكن حضارة الاسلام لا تقول بهذا . . بل تمنح العقل صلاحيات يمضى بها قدما ليؤدى رسالته الحرة فى بناء الحياة . . وما نريد أن نكرر مأساة العقل الانسانى فى ظل الكنيسة - ولا محنته فى ظل النظم المادية المعاصرة . . فالويل لمن يفكر تفكيراً حراً أو ينتقد مالا يستسيغ من الأمور فى ظل هذه النظم !!

ومن وسائل تكريم العقل فى الاسلام . . أن المسلم لا يكون عبداً الا لله . . ويثحر عن كل ما سواه ولنقرأ قوله سبحانه [اياك نعبد و اياك نستعين] وهى آية يرددها ملايين المسلمين فى صلواتهم مرات عديدة فى اليوم الواحد . . وهى تعنى أن الولاء كله لله - والاستعانة كلها بالله . . وأنه لا خضوع ولا ضراعة الا لجلال عظمتة .

ان هذه الآية تعنى تحرير العقل البشرى من الخضوع لغير الله سبحانه . . وتجعله سيداً للكون كله والحياة بأسرارها . . فأى تكريم هذا ؟

ان ذلك كله يعنى - أن الحضارة القرآنية . . تجدد فى العقل الانسانى ما ساعدها على الاستمرار والتجدد والنماء . . وهل الحضارة الا تتطور وتتجدد ونماء ؟

من آثار العقل في حضارة القرآن

أعظم ما للعقل الانساني من آثار في هذه الحضارة القرآنية
 ٠٠ هو تمكينه من استنباط الأحكام - التي يصدرها على
 القضايا الجديدة والأحداث الوافدة ليظل الفقه الاسلامي
 متجددا مرنا يلاحق الحياة ويمضي مع نيارها ٠٠ ولا يتوقف
 عن ملاحقتها *

وبذلك (١) « يصبح الدين جهدا مستمرا وعطاء دائما يزيد
 الحياة خيرا والانسانية تقدما ويحطم القيود التي تعوق مسيرته
 نحو غد أكثر اشراقا وهو جهد يبدأ من الله واليه الرجعى » *

وبهذا يظل العقل الانساني في مكانة مرموقة - من حيث
 اعماله في قضايا العصر ليجد حلا ملائما لها في كتاب الله أو في
 سنة رسوله - أو في أعمال السلف الصالح - أو في فتاوى
 الصحابة والتابعين - وهنا يدخل عنصر الحركة في حضارة
 القرآن - فلا تتوقف بل تمضي قدما مع الحياة وهذه الخاصية
 تجعل من القرآن كتاب حضارة متجددة ٠٠ مستمرة الى ما شاء
 الله ٠٠ يقول صلى الله عليه وسلم [معاذ] حين بعثه الى
 اليمن قاضيا :

« بم تحكم يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله !! قال : فان لم
 تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ؟ قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد
 رأيي لا آلو - أى لا أقصر - فضرب رسول الله في صدره
 [استحسانا لحديثه] وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول
 رسول الله لما يرضى الله ورسوله » *

(١) من كلمات الدكتور عبد العزيز كامل « مواقف اسلامية » ص ٦

لماذا استحسّن رسول الله كلام معاذ ؟

والجواب : لأنه تهدى الى روح التشريع الاسلامى ..
وجعل من اجتهاد العقل أساساً للحكم – وقاعدة للقضاء .. اذا
لم يجد نصاً فى القرآن أو الحديث .

ومن كلمات عمر بن الخطاب رضى الله عنه – فى عهده لأبى
موسى الأشعرى حين ولاء القضاء وقد اعتبره المسلمون قاعدة
للأحكام وأساساً للنظام ودستوراً للقضاء العالى :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا
سنة ثم اعرف الاشياء والامثال ففس الامور عند ذلك واعمد الى
أقربها عند الله وأشبهها بالحق » وهكذا – يجد العقل مجاله فى
التشريع الاسلامى – فيقيس ويجتهد – ليصل الى الحق –
ويصدر الحكم الصحيح .. ولاشك أن كلا من الاجتهاد والقياس
عمل عقلى صرف وهما يأخذان وضعاً كريماً فى التشريع على
عهد عمر – وبعده حين تتسع أمور الدولة وتستجد مسائل ..
ليس لها نص فى القرآن أو السند .. فلا يكون لها الا العقل ..
وقد اجتهد أئمة المسلمين فى قضايا عصرهم – واجتهد من بعدهم
فى أمور دنياهم – وكانت حضارة الاسلام فى تجدد مستمر ..
ثم حلت بالمسلمين كوارث ماحقة فى عهود الانحطاط والجمود ..
وكان من آثار ذلك أن أصيب العقل الانسانى بالشلل فأغلق
باب الاجتهاد .. لكن من الذى أغلق هذا الباب ؟

انه الجمود والتخلف – والعجز عن مسايرة الأحداث ..
ومواجهة تيارات الحياة وكان اغلاق باب الاجتهاد ظاهرة
مرضية دلت على عقم الأفكار وجذب القرائح ونضوب الملكات –
وتوقفت تبعاً لذلك حركة الحضارة القرآنية .. وفقدت أعز
عناصرها وأروع خصائصها ..

حركات الإصلاح الديني :

بعد المد القوى الذى تميز به الفقه الإسلامى فى عصور الازدهار وبعد عصر الأئمة الاربعة ٠٠ وكلها عهود خصبة ولود ٠٠ أثرت الحضارة - ونضرت وجهها ٠٠ وكان الدين عامل بعث - ودعامة تقدم ونهوض ٠٠ بما يحمل من قوة دافعة وعقيدة روحية سامية - وأهداف تقدمية للحياة ٠٠

ولكن الحضارة الإسلامية ٠٠ تأخذ فى الانحدار رويداً رويداً بسبب عوامل كثيرة سنفصلها فى الفصل القادم ان شاء الله ٠ ويصبح الدين بمرور الزمن مجرد شكل لا مضمون له ٠٠ فلا حركته تنظم الحياة ، ولا سره يزكى النفس ، ولا عقيدته تكافح البدع والخرافات ، ولا أحكامه تطرد بالاجتهاد والقياس ٠

وهكذا منذ الدولة العباسية يغرق الدين فى المظاهر ٠٠ ويبدو أثره فى المراكب ٠٠ وتدور شعاراته حول تأييد الخلفاء ٠٠ ثم يمعن فى هذا الاتجاه ٠٠ حتى تتجمد حركته - وتتوقف نهضته فى عهود الأتراك - وتتأنوشه الفتن والكوارث على يد التتر والصليبيين ٠٠ ويناله من التشويه - والمسخ فى تلك العصور ما يصيره جسداً من غير روح ٠٠

ويغلق باب الاجتهاد ٠٠ فلا يوجد من يفتى فى المسائل الجديدة أو يعالج القضايا الطارئة وتلك آفات كبار ، تعوق المد الحضارى ٠٠ وتتوقف تياره ٠

وما من شك فى أن ما أصاب الدين من مسخ وتشويه هو من أهم أسباب الشلل الحضارى ٠٠ وقد تنادت أصوات المصلحين من هنا وهناك لتحاول رد الدين الى مكانه من الحياة ٠٠ وتحريير العقائد من البدع والخرافات - وتنقية جوها من الشرك والوثنية ٠٠

والعودة بالشريعة الاسلامية الى مصادرها الأصلية
ومواردها العذبة ٠٠ ليرجع اليها صفاءها وجلالها ٠٠ ثم
معالجة الجمود الذي تمكن من الشريعة بفتح باب الاجتهاد
ليتمكن العقل من أداء رسالته في الدين - وفي الحياة البشرية ٠٠

لقد قام لفيف من المصلحين - في حقب متقاربة من هذه
العهود - ينفخون في هذا الهيكل الرميم وينادون بضرورة
الاصلاح ولكن نداءهم كان في الأعم الغالب صيحة في واد ، أو
نفخة في رماد ، وبعضهم أصاب الهدف - وبعضهم اقترب منه
٠٠ ولكنهم جميعاً كانوا مخلصين ٠٠ على تفاوت بينهم في
التطرف أو الاعتدال ٠٠

كانوا رواداً دينيين ٠ ٠ يريدون أن يغيروا وضع الدين في
المجتمع ويعيدوا اليه جلاله - وجماله - ليسطع من جديد في
آفاق الوجود فيبدد حاشية الظلام وعلى رأس هؤلاء جميعاً -
ابن تيمية - وابن القيم *

ومنهم محمد بن عبد الوهاب شأن متأثراً بابن تيمية -
وقد ازدهرت دعوته في نجد - وأثمرت ثماراً طيبة ولكنها ظلت
اقليمية لم تمتد الى العالم الاسلامي ٠٠ وان امتدت روحها في
الحركات الاسلامية الأخرى ٠٠ وتهدف الى تنقية الاسلام من
شوائب الشرك والوثنية - ومنع التوسل بالانبياء والاولياء
والصالحين - ومحاربة البدع - والعودة الى كتاب الله وسنة
رسوله *

وقد لقي هذا الشيخ تأييداً من أمير الدرعية (محمد بن
سعود) فاحتضن دعوته وناصرها ومانزال هذه المبادئ سائدة
في السعودية حتى وقتنا هذا ٠٠ وكانت وفاة الشيخ عام ١٢٠٦هـ

ثم جاء الأفغانى ٠٠ الذى طوف فى العالم الاسلامى كله يحمل الاصلاح الدينى - ويدعو الى الوحدة الاسلامية ٠٠ ليدفع بها غائلة المستعمر والى الحكومة الدستورية ليفمع شره المستبد ٠٠ وكان يرمى الى تحرير العقليّة الاسلامية ليعود اليها صفاؤها فتجتهد وتقيس ٠٠ وتفهم أسرار الوجود - ومراد الوحي المقدس ٠٠ كما كان يأسى لتخلف المسلمين فى مضمار الحضارة وقعودهم عن ملاحقة الركب ٠٠ واستكانتهم للمستعمر ٠

ولقد كان ثائراً شديداً الثورة ٠٠ ولكنه كان فصيح المنطق قوى الحجة - جريئاً لا يرهب أحداً فى الحق - وكان يحمد الله أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول : ومن امتزاج هذه السمائل فيه ، اتسعت حوله الأرض وامتد أمامه الأفق وانصرف همه البعيد عن الدار والزوج والعشيرة الى الوطن الاسلامى كله - وقد آمن بدعوته ايمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ٠

وقد أثر فى عصره - وترك من بعده تلاميذ تبناوا مذهبهم - وساروا على نهجه ٠٠ ولم يكن تلاميذه فى مكان واحد من الوطن الاسلامى بل هم متفرقون فى جنباته ٠٠ وعندما نقوم دعوة [جمال الدين] بروح الانصاف ٠٠ نقول انها ذات بواعث دينية مخلصة - أراد من ورائها أن يبدأ بتغيير نظام الحكم ٠٠ فاتخذت طابع الثورة والعنف وامتزجت بالسياسة منذ أول لحظة ٠٠ واذا لم تكن قد نجحت فيما هدفت اليه فقد أوجدت مدرسة تؤمن بالعقل - وتناقش بالمنطق - وتركز على الوحدة الاسلامية ٠٠

لقد أوجد [الأفغانى] فى العالم الاسلامى رأيا عاماً
متفتحاً - يؤمن بالتطور . . ويهتف بالحرية . . ويندد
بالمستبدين . . ومات سنة ١٨٩٧ م .

وجاء من بعده بل من أعظم تلاميذه [الشيخ محمد عبده] -
الذى رأى أن الإصلاح الدينى لا يتم الا عن طريق التربية
الدينية . . فسلك اليه سبيلاً رقيقاً - متأنياً . . وبدأ بإصلاح
علم الكلام . . والاعتماد على العقل فى تفسير القرآن وفتح باب
الاجتهاد ومكافحة البدع والخرافات . . وقد اشترك فى
السياسة ثم عاد فاجتواها ولعنها ولم يترك مؤلفات كثيرة لأن
المناصب التى شغلها حالت بينه وبين التأليف . . وله كتاب
الاسلام والنصرانية - وتصدى للمبشرين برود قاطعة ورده
على هانوتو الفرنسى مشهور معروف . . ومات الامام عام
١٩٠٥ م

ولقد قام الكواكبي . . يدعو الى حرية الفكر - وكرامة
العقل - ومكافحة المستبد - وتطهير الدين من الخرافات . .
وهو شامى حلبى ، وكان صحفياً بليغاً ، ومسلماً متحرراً ، وهو
من تلاميذ الامام ، الذين اشتهروا بمقاومة الاستبداد التركى -
ودعوا الى العلم الذى يحرر أصحابه من العبودية والرق .

ومن دعاة الإصلاح والتحرير الدينى ، الفيلسوف محمد
اقبال ، ومانزال كلماته النابهة أجراساً قارعة على دروب
التجديد - وثورة على الجمود والرجعية ، ودعوة صريحة الى
فتح باب الاجتهاد وتطوير أساليب الدعوة الى الله لتساير
منطق العصر :

ومن هؤلاء أبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي • •
وكلهم ينادى بتحرير الفكر الاسلامي من الجمود ليتمكن الدين
من قيادة الحياة ، وتتمكن حضارة القرآن ، أن تسود من جديد ،
ولقد نظر هؤلاء المصلحون – الى جوهر الدين – ورأوا بثاقب
فكرهم أن المسلمين لا ينتقدون في بلادهم الا بدفعة دينية قوية •

ورأوا في اغلاق باب الاجتهاد جريمة شنعاء بعد أن فقهوا
قول ربهم [ان في ذلك لذكر لمن كان له قلب – ان في ذلك لآيات
لقوم يعقلون] وهي آيات كثيرة في كتاب الله تهيب بالعقل
البشري أن يؤدي دوره في استنباط الأحكام وتطوير الحياة –
وملاحقة أحداثها •

الاجتهاد وأثره في تطوير الفكر

يقول محمد اقبال في كتابه الخالد « تجديد الفكر الديني في الاسلام » :

« ان القرآن هو الأصل الاول للشريعة - وهو ليس موسوعة قانونية - لأن غرضه الاساسي أن يبعث في الانسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله - وبما بينه وبين الكون من صلات - وليس من شك في أنه يقرر بعض المبادئ والأحكام العامة للتشريع » . .

ومغزى هذا الكلام . . أن على العقل البشري أن يمضى مع تيار الأحداث المعاصرة مستهدياً بالقرآن والسنة مجتهداً ماوسعه الاجتهاد . . لأن القرآن ليس موسوعة قانونية فيها كل الاحكام - والقوانين . . بل انه يتعرض للخطوط العامة وأمهات المسائل الكبرى . .

ويقول بعض الكتاب المعاصرين الباحثين في الفقه الاسلامي (١) :

« على أن المذاهب الأربعة مع احاطتها وشمولها ليست الا تفسيرات فردية لم يهجز بخاطر واحد من أئمتها الزام أحد باتباع مذهبه وانما تركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه للناس، وهم الذين أغلقوه بعد أن فشا الجهل وتغلبت الأهواء على

(١) من كتاب تاريخ التشريع واحوال الفقه للمرحوم احمد أبو الفتح ص ١٩٣

العقول فأجمع الفقهاء على اغلاق باب الاجتهاد المطلق المستقل
وأن يكون العمل بمقتضى المذاهب الأربعة » .

وهذا الكلام يزيد - على ما مر - بأنه وضح لنا سبب
اغلاق باب الاجتهاد وهو تغلب الأهواء وانتشار الجهل - وأن
الفقهاء بسبب ذلك قد أجمعوا على تعطيل الاجتهاد المطلق
المستقل واقتصروا على المذاهب الأربعة .

والحقيقة أننا نرى أن الحاجة ماسة جداً الى نوع من
الاجتهاد وهو الذى يتناول المسائل الجديدة فحسب - تلك
المسائل التى بات الافتاء فيها واجباً . . فقد أوجدت النظم
الاقتصادية المعاصرة ألواناً من المعاملات . . ما يزال الافتاء فيها
خاضعاً لهوى الأفراد ، منهم من يحل ومنهم من يحرم . . ولا بد
من هيئة متخصصة (كمجمع البحوث) تقول رأيها صريحاً
واضحاً لا لبس فيه - وما أكثر المسائل التى تنتظر البت فيها ،
أما الموضوعات التى أفنتى فيها الأئمة الاربعة فليس هناك
مقتض لاعداد النظر فيها الا عندما يظهر عدم ملاءمتها . .

ولأن الاجتهاد هو سر حيوية الفقه ، وازدهار التشريع ،
نسمع مستشرقاً مثل « فون كريمر » يقول معللاً هذه الحيوية :
انما كان ذلك لما تحلى به فقهاؤه من عمق ودقة فى التشريع
واجتهاد فيه [.

ان هؤلاء جميعاً يرون فى الاجتهاد مزية رائعة بالنسبة
لحضارة القرآن فهو الذى يجعلها أشبه بالماء المتجدد لا الماء
الراكد الآسن الذى تتولد فيه الحشرات ويرتفع البعوض .

وهذه المزية تجعل من هذه الحضارة منطلقاً يمتد ويتراعى
ليغطي احتياجات البيئة المتجددة ويلبى نداءها - ولقد مارسه

الثقافات الأعلام في عصور التاريخ الزاهرة ، اجتهد عمر في الغاء سهم المؤلفة قلوبهم - بعد أن ذهبت الحاجة اليه لأن الله أعز الاسلام ولم يعد أحد في حاجة الى تأليف ٠٠ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، كما اجتهد فألغى حد السرقة في عام المجاعة لأن السارق مضطر ومعرض للموت ، كما أنه جمع المسلمين على صلاة التراويح عشرين ركعة ٠٠ وأنهى ما كان ييسود المجتمع من خلاف فقد كان بعضهم يصلّيها ثمانى ركعات ٠٠ وبعضهم يصلّيها عشرين ٠٠ واشتد الخلاف بين الفريقين فجمعهما عمر على خطة سواء ٠٠ ورأى في هذا الاجتماع مظهراً من مظاهر الوحدة الاسلامية ، ولقد اجتهد هذا الخليفة العظيم في كثير ٠٠ وله فكر اقتصادى متميز ٠

واجتهد غير عمر ممن جاءوا بعده - وما يزال الخير موجوداً في هذه الأمة الى يوم الدين فهناك علماء قد نجهل أسماءهم وشخصياتهم ، وفيهم أهلية الاجتهاد ٠٠

ولسنا ممن يقول : لم يترك الاوائل للأواخر شيئاً ٠٠ ولكننا نقول كم ترك الاوائل للأواخر أشياء وهل يطالب الاوائل باختراع قضايا ومسائل ليست في عصورهم ليجدوا لها حلولاً ملائمة ؟ ٠٠ ان لكل عصر سمته ومشكلاته وقضاياها ٠٠ وقد تعقدت أموره - وجدت مسائل لم تكن من قبل فلنجتهد كما اجتهدوا وجزاهم الله عنا خير الجزاء أما أن نهدر ملكاتنا ونلغى عقولنا - ونلوذ بالصمت فذلك جبن عن المواجهة الجريئة - وتقصير في حمل الأمانة - وخيانة لله ورسوله ٠

ان خصائص مدنيّتنا الاصيلية الزاهية تجد حيويّتها في الاجتهاد ٠٠ وانه لشيء مؤلم حقاً أن تزيف تلك الخصائص على أيدينا فتنكمش وتضمّر ٠٠ فهل يعود العقل الاسلامى الى التمحيص والبحث ويمارس الاجتهاد ؟

يقول المستشرق الفرنسي رينان : [وما يدرينا بأن يعمر العقل الاسلامى الولود - والكثير المواهب الى ابداع مدنية أروع من زميلتها بل ما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوروبية الحالية التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم فى خصائصها العليا] •

ان الرجل الأجنبى يذرف الدمع على مأساة التحجر العقلى التى منى بها الفكر الاسلامى ويمنى نفسه بأن يعود العقل الاسلامى الولود الى الابداع والبحث مرة أخرى لينشئ مدنية أكثر ملاءمة للحياة •• ويرى أن حضارة أوروبا - قد استمدت خصائصها العليا من الاسلام •• ويتوعد تلك المدنية الأوروبية بمصير فاجع عندما يزدهر الفكر الاسلامى ثم يتوسع الرجل الأجنبى فى تبرير الجمود العقلى للمسلمين - ويؤكد بأنه ظاهرة تصيب كل الامم فيقول :

« لا يصح لأوروبا أن تطبع الاديان الغير مسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً اذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية •• ان محمداً العظيم - قد أتى بديانة انبثقت عنها مدنية عالمية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرين بالجمود والتخلف ففترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الدول بما فيها أوروبا المتعجرفة » •

وهو كلام يدور كله حول تبرير الجمود الذى أصيب به المسلمون - ويستنهض عزائمهم - ليسموا الثغرات الموجودة فى صرح بنائهم الحضارى •• بالاجتهاد الذى ينشأ عنه تحرر الفكر وازدهار المدنية وانطلاق الحياة بما كان من قبل •

ويقول الشيخ محمد عبده (١) معلقاً على كلمات رينان مبدياً إعجابه بدفاعه عن المدنية الإسلامية : « تالله لو انبريت أنا بنفسى للدفاع عن الاسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده كما أجاد ذلك العبقري .. ثم قال : ومما يزبد هذا الدفاع رونقاً وجلالا صدوره عن لسان أجنبي غريب عن الاسلام ينصفه بهذه الروعة - ثم ينتقد دينه ثم يختتم الامام كلامه بقوله : فمرحى مرحى وعليك السلام يا ابن الكرام !! » ..

وقد نجد لرينان تصريحاً من أجل ما قرأنا في انصاف الاسلام - ومدنيته والاشادة بخاصية الاجتهاد الذى لم يوجد في المسيحية .. ولا كان سمة من سماتها لأنه يعتمد التحرر العقلى .. والفهم الذكى ومن أين للكنيسة بذلك ؟

يقول : | انه ليس في الاسلام أساطير ولا خرافات فالمجهود العلمى والمنطقى بارزان في معظم الأفكار الاسلامية - فاذا درست مذاهبه الاربعة لا تجد غير دساتير أخلاقية مبنية - وشواعر روحية سامية ، وقواعد تعبدية منسجمة - ترمى في النتيجة الى تحرير الحق من كل باطل - وما البروتستانتية التى نشرها الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون في أواخر القرون الوسطى بأوربا الا صورة لتقليد البساطة الاسلامية - سواء في طقوس العبادة أو في استئصال عادات الزخرفة المقتبسة من أساطير الاغريق » .

وفي هذا التصريح الأخير يبرز أمران على جانب عظيم من الأهمية :

(١) من مقال نشر بمجلة العروة الوثقى في حذنه .

(أ) الاشادة بالمذاهب الاسلامية - النى حررت الفقه الاسلامى من الجمود وضبطت مسائله وحددت وسائله واجتهدت بالعقل الملهم والفكر المتحرر والقريحة الصافية .

(ب) الاعتراف الواضح بنزعة التحرر التى أسبغها الاسلام على المسيحية الثائرة على الجمود الكنسى - الذى امتنن كرامة العقل - واحتكر مسائل العلم - ووأد حرية الانسان وهذا الاعتراف الأخير سنرجع اليه بعد قليل لانه فى غاية الاهمية .

ولقد كان رينان فى أخريات أيامه باحثاً حراً فى الأديان . بعد أن تحرر من الرهينة التى لم يرض عن نظامها . وشرع يسدد الضربات الى المسيحية المخرفة . ويشيد بالاسلام ومناهجه الفذة فى البحث والاستدلال - وكانت عاقبته أن كفرته الكنيسة - ونبذته .

ولقد نرى الحرارة والاخلاص فى كتابات اقبال والمودودى فيما يتصل بوجوب فتح باب الاجتهاد ليسهم فى انشاء فقه أفضل - ومدنية أمثل . ونرى هذا الاخلاص يبلغ مداه عند اقبال اذ يقول : « العالم الاسلامى اليوم يتأثر بما يواجهه من قوة جديدة أطلقها من عقالها تطور الفكر الانسانى تطوراً عظيماً فى جميع مناحيه - وانى لا أرى ذلك موجباً للتمسك بهذا الرأى الجائر - اغلاق باب الاجتهاد - والرأى عندى هو ما ينادى به الجيل الحاضر من أحرار الفكر فى الاسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم وعلى هدى ما تقلب من أحداث العصر - انه رأى له ما يسوغه كل التسويغ - كما أن حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقى بالتدريج يقتضى أن نجعل لكل جيل الحق فى أن يهتدى بما ورثه من آثار أسلافه - من غير أن يعوقه ذلك من مشكلاته -

ثم يقول ٠٠ ان الطريقة التي اتبعها نبي عالمي كمحمد في التشريع هو أنه يعلم أمة معينة ويتخذ منها نواة لبناء شريعة عالمية - وهو بهذا العمل يؤدي حق المجتمع الكبير « اه ٠

وهذا الفيلسوف يرمى الى أكثر مما ندعو اليه ٠٠ لأنه يريد تجديد أسلوب الدعوة الى الله بحيث تلائم روح العصر وتلبس ثوب الحياة الجديد ٠٠ وتفسر المبادئ التشريعية تفسيراً عصرياً يقتنع به المثقفون وأصحاب النظريات الجديدة والعلوم الحديثة ٠٠ لا أن نتجمد في قوالب محفوظة نردها ترديداً أبلي ٠٠ دون التفات الى مقتضيات العصر ٠٠ ولا ربط بين الحياة والدين ٠٠ انه يطالب بأسلوب عصري في الفهم والأداء وتفسير التشريع كما أنه ينادى أبضاً بوجوب الاجتهاد في المسائل الجديدة حتى لا يتوقف المد الفقهي ولا شك - أن « اقبال » بهذه النزعة الرامية الى التجديد يعد طليعة فكرية اسلامية رائدة ٠٠ ونرى فعلاً أنه لابد من أن نعيش حياتنا طويلاً وعرضاً وعمقاً ٠٠ نفهم أسرارها ، ونستبطن دوائها . وندقق في فهم اتجاهاتها ٠٠ ثم نربطها بالدين لا أن نتحول الى دمي جامدة مكرورة ما نسمعه هنا نسمعه هناك ٠

لابد من فهم جديد وتفسير جديد وربط جديد واستيعاب لمطالب العصر ٠٠ وكل ذلك يدعو الى ثقافة متكاملة تعين على الادراك السليم - وتطوير المعرفة الدينية لا أن نعيش على هامش الحياة ٠٠ وهذا بدوره يؤدي الى فاعلية الدين وربط الناس بمدينته ويقول أبو الأعلى (١) المودودي مؤكداً فتح باب الاجتهاد داعياً الى استعمال العقل :

(١) من كتابه نحن والحضارة الغربية ص ٢٠٠ بتصرف بسيط .

« من من المسلمين يستطيع أن يجحد فضل الأئمة الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ؟ ولكنهم على كل حال كانوا بشراً وكانوا يملكون من اكتساب وسائل العلم ما هو حاصل لعامة بنى آدم ولم يكن يأتيهم الوحي وانما كانوا يستعملون عقلهم وبصيرتهم ليسبروا غور كتاب الله وسنة رسوله فكل ما تحقق عندهم من المبادئ كانوا يستنبطون منه الفروع للقوانين والمعتقدات فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون عوناً لنا ونوراً يسعى بين أيدينا ولكنه بداته لم يكن ليتخذ أصلاً ومصدراً - وإن الانسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فار اجتهاده لا يمكن أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للدنيا لأن التعقل والعلم الانساني يتقيدان أبداً بقيود الزمان - وإن كان هناك من يتحرر عن ملابسات الزمان والمكان فهو اله العالم وحده » .

ويتابع حملته قائلاً : [القرآن والسنة هما المنبع الذي يستنبط منه جميع البشر في كل زمان ومكان علوماً وأفكاراً وقوانين بحسب أحوالهم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم وضروراتهم وما دام العلماء المسلمون يستمدون العلم من هذا المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند الى التفكير الصحيح فإن الاسلام سيظل يسابر الزمن ولكنهم تركو التدبر في القرآن - والتفحص في الأحاديث وراحوا يقلدون السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى واتخذوا اجتهاد الفقهاء والمتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يعدل وجعلوا الفروع التي استنبطها السلف هي الأصل مكان أصول الكتاب والسنة - ولما حدث هذا كله وقف سير الاسلام بغتة وجعلت قدمه تتراجع الى الوراء بدل أن يخطو الى الامام وغدا حملته وورثته ينغمسون في شرح وتفسير المسائل القديمة بدل أن يهدوا العالم في ميادين العلم والعمل الخ » .

مامغزى هذا الكلام ؟

انه يرمى - كاقبال - الى تجديد شامل - وارتباط بالمنابع
الأصيلة للتشريع - وهما الكتاب والسنة . . . وأن نحرر
عقولنا من الجمود - وأن نطلع عن تناول المسائل القديمة الجافة
- وأن نطور معرفتنا الدينية لنقود المسلمين الى العلم والعمل -
وهذا كلام يوجب علينا - أن ننظر في أساليب الكتب الدينية . .
وعباراتها المعقدة - ومفاهيمها البالية - فالحق أن كتب التوحيد
مثلا لا تهدي الى معرفة نافعة . . . ولا تشعل عاطفة التدين . .
ولا تكسب الدليل الواضح . . . ولا ترد شباب الاسلام من
الجموح الى الهداية الرشدة .

وكتب الفقه والتفسير والحديث ينبغي أن يعاد النظر في
أسلوبها وشرحها . . . وكذلك البلاغة العربية . . . التي يجب أن
تهتم بالنصوص ونقد الأساليب ، لا أن تسرف في ارجاع
الضمائر - واخراج المحترزاد والتفنن في المصطلحات القديمة .

كل ذلك من وسائل الاصلاح - التي ترمى الى تيسير
المعرفة - وفهم مطالب البيئة - وازدهار المدنية الاسلامية . .
انه الاجتهاد العام الشامل الذي يعود بنا الى الكتاب والسنة
لا التعبد بما قاله السلف - ولا التعصب للأراء التي
استنبطوها . . . فلدينا المصادر التي استنقوا منها . . . ومن
حقنا أن نمارس الفهم تبعاً لروح العصر .

ان الاجتهاد - والقياس - والاجماع . . . كلها وسائل تمكن
العقل الواعي من أداء رسالته وتحقيق أهدافه . . . وكلها لا بد
أن تستند الى مأخذ صحيح يوجبها ويقتضيها .

يقول الآمدى فى كتاب الأحكام مشيراً الى الاجماع * [اتفق
الجميع على أن الأمة لا تجتمع على الحكم الا عن مأخذ ومستند
يوجب اجتماعها] * *

ومعنى هذا أن الاجماع عمل عقلى يعتمد على مأخذ ويستند
الى موجب ولا شك أن العقل هو الذى يدرك ثم يقره رأى العام
المتخصص ليكون اجماعاً * *

فالبحث فى الأدلة - ودراستها بروح العصر - قد ينشأ عنه
فهم جديد لحكم من أحكام الله ويرضى عنه أهل رأى فيصبح
اجماعاً * * فيكون الاجماع بهذا الفهم وسيلة من وسائل
التيسير - ورعاية المصالح * *

والاجتهاد * ، بذل الجهد للوصول الى الحق * * والمجتهد
قد يتخذ القياس وسيلة من وسائله وقد يجتهد بالفهم من
الدليل * * وبذلك يختلف الاجتهاد عن انقياس * * فالاجتهاد
عمل المجتهد - والقياس وسيلة من وسائله * *

لكن الشافعى رضى الله عنه يجعلها اسمين لمعنى واحد *

يقول فى الرسالة : [هل الاجتهاد هو القياس ؟ أم هما
مفترقان * * قلت : هما اسمان لمعنى واحد] *

على أى حال * * فنحن نرى أن كلا من الاجتهاد والقياس
عمل عقلى يثرى الأحكام ويزيد الحياة العلمية خصباً ونماء * *
سواء اتفقا أم اختلفا !!

ويقول الشوكانى : [اتفقوا على حجية القياس الصادر منه
صلى الله عليه وسلم] *

ونحن نقول : وكذلك ان صدر عن غيره - وكان له مساهم شرعى وسلمت وسائله - بأن كانت علة الأصل موجودة في الفرع فحينئذ يثبت للفرع حكم الاصل .

ومن هنا فانه يجب أن ندرك بأن الفقه الاسلامى قد توقف منذ زمن ليس بالبعيد - لان المسلمين قد ابتلوا بمصائب هددتهم في ديارهم - وصرفتهم عن أهدافهم - وانحرفت بخط حضارتهم . . وعلى رأس . . هذه النكبات - الغزو التتري - والصليبي - والجمود التركى والاستعمار ، ومن قبل ذلك . . نكبة الأندلس - ومأساة فلسطين - ومنازعاتنا الداخلية - وتفكك وحدة المسلمين - واستسلامهم للظروف . . كلها عوامل صرفت جهود المسلمين عن الابداع والتقدم وحولت العلوم الى مسائل نظرية وذهنية - وفصلتنا عن ينابيع شريعتنا - فانصرفنا عن التطبيق الحى - والتوليد المثمر - وفي أثناء توقف الفقه الاسلامى كان العالم يتطور بسرعة مذهلة - حيث اخترعت الآلة وأحدثت تغييرات في العلاقات البشرية . . لم يضع المسلمون ما يناسبها من الاحكام . . ولم يدلوا برأى في هذا العالم الجديد . . وما نشأ فيه من ظروف اقتصادية . .

وعندما نقول بالتنوير : فاننا نفرق بين الشريعة والفقه . . فالشريعة مصدر ثابت يحتوى المبادئ العامة . . أما الفقه - فهو القانون المتطور الذى يستقى من الشريعة وهو عنصر لا ينبغى أن يتوقف عند عصر أو جيل لأنه مرتبط بالحياة المتجددة . .

والامل معقود على الأزهر الشريف في تحرير الفقه الاسلامى . . بل الفكر الاسلامى كله . . وفي تحريكه أيضاً ليظل دائماً ملائماً لروح العصر مستوعباً للقضاء الجديدة بحيث يبرز الفقه

في ثوبه الجديد وهو ثوب عصرى ملائم يجد فيه القارىء
العصرى ما يبدد شكوكه - ويرضى مطامحه - وتجد فيه
حضارة القرآن ما يساعدها على الانطلاق والتجدد والنماء
المستمر .

(ب) ثبات صبغتها وابتعادها عن أهواء البشر :

ومن الخصائص الكبرى لحضارتنا القرآنية - أنها ذات
صبغة الهية - ما دامت مرتبطة بكتاب لا يأتية الباطل من بين
يديه ولا من خلفه . وهذا يجعلها ذات صبغة ثابتة في خطوطها
الكبرى ومراميها البعيدة . ويحصنها ضد أهواء البشر
وشهواتهم لأن الحلال والحرام والخير والشر - وما يجوز وما
لا يجوز كلها أمور ثابتة في كتاب الله وسنة رسوله . وكلها
تطبق على البشرية بطريقة واحدة لا فرق بين كبير وصغير ولا
بين حاكم ومحكوم ولا بين رجل وامرأة . الجميع أمام
التشريع سواء .

ولو أن تشريعاً بشرياً صدر عن جماعة أو أمة لما أمكن
أن يفزه عن نزعات الهوى الى الحد الفنى بنشئ الثقة فيه أو
العمل به . لأننا لا نأمن أن يكون هذا الفانون لمصلحة طبقة من
الأمة دون طبقة - كطبقة العمال مثلاً - كما لا نأمن أن يكون
لمصالح جنس دون جنس بأن تراعى فيه مصالح الرجال دون
النساء كما حدث في معظم قوانين العالم حيث اعتبرت المرأة من
سقط المتاع . أو تستهدف فيه مصالح فئة دون فئة كمصلحة
الجيش - أو القضاة أو رجال الدين دون مصالح الفئات الأخرى
.. ومن هنا يجيء الاختلال وينشأ الظلم ، ومآسى العالم كله في
القرون الوسطى ناجمة عن هذا الاتجاه . .

وعنصر الطاعة والالتزام والتوقير انما يتوفر للمنهج
الرباني بخلاف غيره من المناهج البشرية .. فان الناس تنمرد
عليها وتنتقدها وتتهمها ..

وتحليل الحلال وتحريم الحرام في هذا المنهج الالهي من
خصائص المولى عز وجل .. فليس لأحد أن يحرم أو يحلل ..
« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين (١) » .. وعندما يحلل القرآن أو يحرم
.. فانه يربط هذه الأمور بالعقيدة التي تجعل المسلم يبادر
بالامتثال ويسارع اليه .. لأنه بعد أن آمن بربه لا يسعه الا
أن يحل حلاله ويحرم حرامه .. ولا يجد لنفسه حيرة فيما
اختاره ربه .

ومن ثم فقد مكث الرسول ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة
يعلم القوم « لا اله الا الله » وبعد أن استوثق من غرس العقيدة
في أعماق الضمير شرع يبني عليها .. فبدأت الأوامر والنواهي
التي لا يسع من استسلم لله الا أن ينفذها بعد أن لم يعد للمسلم
في نفسه شيء . وبعد أن لم يعد يرى لنفسه اختياراً الى جانب
ربه .. لأن العقدة الكبرى قد انحلت - وهي عقدة الشرك
والجاهلية .. فكل شيء بعد حين ميسور .

لقد نزل تحريم الخمر والكئوس مترعة على أكف القوم ،
والشفاه متلمظة ، والأكباد متقدة ، والنزوات حامية حادة
مستعرة ، فاذا بالقوم يكسرون تلك الكئوس ويريقونها على
الأرض ، ويخرجون بالذنان الى شوارع المدينة وسككها فتسيل
بالخمر وتظل رائحتها الى أمد طويل ، رائدhem في ذلك « وانتقوا
الله واسمعوا » .

(١) آية ٨٧ سورة المائدة .

[يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (١)] •

وبهذا التكوين العميق لضمير القوم ، أصبح كل شيء ميسورا وانطوى بساط الجاهلية وطعنها الاسلام في تقاليدها الكبرى طعنة نجلاء خرت على أثرها صريعة تتلوى ، لتحل محلها شريعة الله وأحكامه - ولم تكن الرجعية الجاهلية لتتنازل عن تقاليدها بسهولة وانما استماتت في الدفاع عن نفسها ، وفي الحفاظ على تقاليدها وشهواتها ، ولما لم تجد لنفسها مجالا تعيش فيه •• بعد أن استسلم القوم لله - استسلمت هي وألقت السلاح ودخلت في هذا التغيير الاسلامي - واعتنقته وآمنت به ، ثم تفاعلت معه ودافعت عنه ، ثم وصل بها الأمر أن ضحت بالروح والمال والولد في سبيله !!

كل ذلك ، لأن هذا التغيير قام على أسس سليمة ، عندما تعهد أولا ضمائر القوم فغرس فيها العقيدة ثم بدأ بعد ذلك يلقي بالتكاليف ••

ان التحليل والتحرير انما يخصصان لأمر خارجة عن طاقاتنا ومعرفتنا ، قد نفهم سرها في بعض الأحيان • وقد نجهل من ذلك الكثير ، وقد نجهل السر كله ، وقد يأتى الوقت الذى نفسر فيه ذلك السر ، بواسطة العلم - أو التجارب •• والمهم أننا في كل ذلك نستجيب لقدر معتقدين أن الله وحده هو الذى يعلم مصالح العباد وسعادتهم - وأن في تحرير أمر ما مصلحة عليا أو حكمة خافية قد استأثر بها علم الله الذى وسع كل شيء علما ولقد كنا نسمع حديث البخارى ومسلم [اذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان فى أحد جناحيه

(١) آية ٢٤ سورة الانفال •

داء وفي الآخر دواء (١) [زاد مسلم] وانه يتنقى بجناحه الذى فيه
الدواء جناحه الذى فيه الداء [• وكم تشكك الناس فى هذا الأمر
- وطعنوا فى الحديث • • لأن غمس الذباب فى الاناء مما تعافه
النفس وتستقذره • •

وظلوا : يتساءلون عن الحكمة • • ثم جاء العلم فأثبت
أن هناك جراثيم موجبة على أحد الجناحين وسالبة على الثانى ،
وأن الغمس يحقق المصلحة لأن أحد الجناحين سيبطل عمل
الآخر •

وقد جاء أيضاً تحريم لحم الخنزير ، فتشكك الناس فى
الأمر ، وقالوا : ان قوما يأكلونه فلا يصابون بأذى ؛ وان
صحتهم دائماً لقوية ، ثم ثبت بعد أنه يورث الدودة الشريطية
ثم ما يزال الطب يكتشف أضراره الى اليوم •

ففى جريدة الأخبار بتاريخ ١١/١/١٩٧٢ ، نشرت مقالا
تقول فيه :

« اتضح أن دهن الخنزير يسبب حصوة المرارة ويؤدى الى
زيادة [الكولسترول] وتصلب الشرايين كما أثبت الدكتور
« دام » الدانمركى - وتحدث بهذه الذئائج الى الدكتور المصرى
عبد القادر سيد أحمد الأستاذ المساعد بصيدلة القاهرة منذ عامين
وبعد أن كانوا يجهلون التفسير العلمى لهذا الأمر أصبحوا
يعرفون بأن دهن الخنزير مركب بطريفة تخالف سائر
الدهون » ا ، هـ

وهكذا لا يحرم الله شيئاً الا لحكمة ، قد نجهلها فى حينها
ثم يجيء الوقت الذى يكشف فيه العلم عن أسرارها - أو بعض
أسرارها •

(١) رواه أبو هريرة - وفى رواية ابن ماجه اذا وقع فى الطعام •

والمسلم ينقاد لأمر الله لا محالة بعد أن يؤمن به الها قادراً
قد أحاط بكل شيء علماً ، وهل كان من الممكن أن يخضع القوم
لقاعدة تحريم الربا وهو كان متغلغلاً في مجتمعاتهم سارياً في
دمائهم يستعملونه أضعافاً مضاعفة ؟ ولقد ذقت المدينة
المنورة مرارته على يد اليهود المتخصصين في المعاملات الربوية ،
وبانت تنتظر الخلاص منه .

لم يكن سهلاً أن يستسلم القوم لتحريم الربا ، لو صدر
عن أى ملك أو عظيم ، حتى ولو أعدموا نصف المجتمع ، وجندوا
كل وسائل الاعلام وأنفقوا كل ميزانيتهم ولكنه سر الله الخالد
الذى يستودعه أحكامه ، جعل القوم ينقادون لأمر الله ،
ويصيخون الى النداء العالى : [يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا
أضعافاً مضاعفة (١)] .

وقوله : [وأحل الله البيع وحرم الربا (٢)] ان هذه
الاستجابة لم تنشأ عن سطوة القانون ، ولكنها نشأت عن
خشية الله ، وتلبية دواعى الايمان .

ولنأخذ حالة تحريم الخمر فى الاسلام كنموذج يوضح لنا
الفرق بين قوانين البشر وأوامر السماء .

أخذ تحريم الخمر فى الاسلام شكلاً متدرجاً ، لتتهيباً
النفوس وتنقاد ، لأن المجتمع الجاهلى كان غارقاً فيها الى
الأذقان يشربها الصبوح والغبوق - ولا يتأثم واحد عن شربها ،
حتى عمر بن الخطاب ، يقول طرفة بن العبد :
وما زال تشربى الخمر ولذتى
وبيعى وانفاسى طريفى ومتبلدى

(١) آية ١٣٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ٢٧٥ سورة البقرة .

ويقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنى امرؤ أجبيء الملة من بابها
لا يتصور في مجتمع هذا شأنه أن تحرم الخمر دفعة واحدة،
بل لابد من تهيئة نفسية تجعل القوم بتجاوبون مع منطق
التحريم ، كانت المرحلة الأولى لتحريمها ملطفة خفيفة ، وهي
قوله سبحانه : [ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخفون منه
سكراً ورزقاً حسناً (١)] .

فكانت أول ما يطرق حس المسلم وضع السكر أى الخمر
في مقابل الرزق الحسن ، فكأنما الخمر ليست من الرزق
الحسن ، انها همسة لطيفة تلقى بمضمونها في حس المسلم .

ثم تأتى المرحلة الثانية لتفتى بلسان الشرع بأن اثم الخمر
أكبر من نفعها ، [يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير
ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما (١)] ولكل شيء في الحياة
نفع ، لكن اذا غلب الاثم على النفع فكيف يستتساغ الشيء ؟
انها همسة قوية تترك في وجدان المسلم فكرة ضرر الخمر !!

وتجىء المرحلة الثالثة . كصيحة عالية لتلقى في روع
المسلم التناقض بين الصلاة والخمر . [يأيها الذين آمنوا لا
تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (٢)] واذا
كانت الصلاة خمس مرات في اليوم والليل موزعة في أوقات
متقاربة غالباً - فأين هو الوقت الذى يتسع للسكر ثم الافاقة

(١) آية ٦٧ سورة النمل .

(١) آية ٢١٩ سورة البقرة .

(٢) آية ٤٣ سورة النساء .

بين وقتين ٠٠ لقد ضاق أمر الخمر ٠٠ وقلت الفرص التي تتسع لها ٠٠ ولعل هذه الآية تكسر عرف الادمان الذي أطبق عليه العرب ٠٠ صباحا ومساء ٠٠ وفيه تنفير منها لأنها تتنافر مع الصلاة ٠٠

ثم كانت المرحلة الرابعة صيحة عالية حاسمة بعد أن تهيأت النفوس فلم يعد لها الا أن تتمثل على الفور [يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١)] *

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء فنزلت آية البقرة «واشربها أكبر من نفعهما» فلما قرئت على عمر قال : اللهم بين لنا بيانا شفاء في الخمر فنزلت آية النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فلما قرئت عليه قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء فنزلت آية المائدة : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » الى قوله سبحانه : « فهل أنتم متهون » فقرئت على عمر فقال : انتهينا انتهينا ٠٠ ولما نزلت آية التحريم هذه في سنة ثلاث بعد وقعة أحد لم يحتج القوم الى أكثر من مناد يطوف على القوم قائلا : [أيها القوم ٠٠ ان الخمر قد حرمت] فمن كان في فمه جرعة مجها - ومن كان في يده كأس قذفها - ثم حدثت عملية تطهير عام بكسر الدنان ٠٠ وحطم القوارير ٠٠ وشق الزقاق ٠٠ واللقاء بكل ذلك في سكك المدينة وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر - وكفى تقبيحا للخمر أنها عمل شيطاني - وأنها تذهب العقل - وأنها تسقط الكرامة وتخل بالمرءة ٠٠ وتبدد المال وتلقى بالعداوة والبغضاء بين الناس ٠٠ وأن في شربها مخالفة لله

(١) آية ٩٠ سورة المائدة .

ورسوله لقوله سبحانه : [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول] تم التعقيب على ذلك بقوله : « واحذروا » فانظر الى الحسم القاطع في التحريم الذى لا يبقى معه شبهة ولا تعلقة . . وكفى أنها رجس وخبت !! لكن ماذا كان موقف القوم ؟ لنستمع الى حزم التنفيذ بعد أن استمعنا الى حسم التحريم وقد مضى أن عمر نطق على الفور بعد سماع قوله سبحانه : « فهل أنتم منتهون » قائلاً : انتهينا يارب وكررها . . وقال أنس رضى الله عنه : حرمت حرمت وما حرم على العرب شئ أشد من الخمر !! ثم قال أنس فأخرجنا الحباب - أى أوانى الخمر - الى الطريق العام فصببنا ما فيها ، فمنا من كسر حبه ، ومنا من غسله بالماء والطين .

وقل أنس أيضاً : كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبى طلحة وما شربهم الا « ففيخ » أى عصير البسر والتمر فاذا مناد ينادى فقال القوم : اخرج فانظر : فسمعتة يقول : ألا ان الخمر قد حرمت قال : فجرت فى سكك المدينة فقال لى أبو طلحة : اخرج فأهرقها - فهرقتها - وقيل : كان رجل يشرب الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفته اذا بداخل دخل عليه فقرأ آية التحريم فانفصلت الكأس من فيه فى الحال ولم يذق لسانه قطرة مما فيها الى الأبد ، وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال أو الجريد أو العصى ثم جلدوه أربعين ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة - لأنه اذا شرب سكر - واذا سكر هذى - واذا هذى افترى - وحد الافتراء ثمانون كما يقول على كرم الله وجهه - وهجرت العرب الخمر هجراً - ثم اتسعت رقعة الاسلام ، فزهد أهل البلاد المفتوحة فى الخمر ونفروا منها اذعاناً لتحريم الله ، والذين يحصون شاربى الخمر فى العالم يجدون المسلمين أزهد الأمم فيها . ثم لا يكاد يشربها شارب الا مستخفياً يهرب من ضميره ومن مجتمعه ويؤمن بأنه يرتكب

معصية غليظة .. ولننظر هنا في مجموعة من الأمور وهي مستخلصة مما مر :

أولا : أن التحريم قد صدر متدرجا مراعاة لحالة القوم – ثم جاء التحريم الحاسم في النهاية .

ثانيا : أنها حين حرمت الخمر كانت الاستجابة سريعة فأريقت وفاحت بها طرق المدينة .

ثالثا : أن هذا التحريم لم يصدر عن ملك أو أمير تخشى عقوبته ولكن صدر عن اله حكيم ترهب سطوته .

رابعا : أن القوم لم يتكبدوا في التحريم عنتا أو ينفقوا مالا وإنما هو اعلام عام على لسان مناد بسيط .

خامسا : أنه رغم جهالة القوم وأميتهم وتغلغل الخمر فيهم وتمكنها منهم لم يشذ فرد واحد عن الامتثال .

سادسا : أن هذا التحريم قد تم تنديذه – بشكل لا رجعة فيه ولا ردة الى يوم الدين ..

بعد هذا التحليل نأتى الى تجربة بشرية خاضتها أمريكا في سبيل تحريم الخمر ، فقد قام أولو الأمر فيها بدعاية واسعة ضد الخمر وطاردوها في بلادهم . وكشفوا عن أضرارها المادية والأدبية والعقلية بأدلة ناهضة من تعاليم الطب . وعرضوا الافلام على الشعب ثم اجتمع حزب المؤتمر الأمريكى وقرر القطع بتحريم الخمر بأغلبية ساحقة ، وسن لذلك قانونا . واستقرغت الحكومة كل جهدها في تنفيذ القانون وهى أقوى أمم الأرض ، وحظرت بيعها وشراءها وتصديرها واستيرادها ولكن الأمة الامريكية لم تستطع الصبر على تركها وتحولت الى

شربها سرّاً - فارتفع ثمنها وفسد ماؤها بالغش ، وتورط في شربها الفتيان والفتيات لأن كل محظور محبوب ، فاضطرت الحكومة الى التراجع في هذا القانون - وسحبته بعد مضي أربعة عشر عاماً - وأحلت ما حرمت بالأمس « ويقدر ما أنفقته أمريكا ضد الخمر (١) بما يزيد عن ستين مليوناً من الدولارات - وما نشر من الكتب والنشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة - وما تحملته من نفقات طول مدة التحريم لا يقل عن مائتين وخمسين مليوناً من الجنيهات - وأعدمت نحو ثلاثمائة نفس - وسجنت (٥٣٢٣٣٥) نفساً ، وبلغت الغرامات نحو ستة عشر مليوناً من الجنيهات وصادرت من الأملاك نحو أربعمائة مليوناً وأربعة ملايين من الجنيهات ، ومع ذلك فلم يزد الأمريكي الا نهما بالخمر وعنادا في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ الى سحب القانون واباحة الخمر اباحة مطلقة » .

ونجد أنفسنا في بداية الأمر مضطرين الى توضيح كيف حل الاسلام هذه العقدة حلا جذريا في مجتمع غارق في الجهالة بعيد عن ذلك في القرن العشرين . رغم بذل الجهد وانفاق المال ووسائل الدعاية ؟

والجواب : أنه فرق بين أن تصدر الأوامر من البشر وبين أن تصدر عن خالق القوى والقدر !! . فان الله عز وجل لا يقرع آذان الناس لأول وهلة بأوامر الدين ونواهييه ، وانما تساق هذه الأوامر والنواهي بعد تأسيس العقيدة . . ثم يخاطبهم الأوامر والنواهي بعد تأسيس العقيدة . . ثم يخاطبهم سبحانه بعدها عن هذا الطريق - يستجيش في وجدانهم تلك العقيدة .

(١) عن كتاب تنقيحات لأبي الأعلى المودودي .

ويستنهض عزائمهم بداعي الايمان .. ولا شك أن المسلم يؤمن بالله قبل أن يؤمن بالعقل ومقاييسه ، ولهذا فانه يستجيب لنداء السماء ، ويذعن لله ورسوله ، لأنه قد آمن بهما فلا يتصور أن يخالف لهما أمراً أو نهياً . والايمان حافز ايجابي يحدث عند المسلم مناعة ضد المخالفة ويجعله مطيعاً لربه ، وذلك هو مقتضى الايمان [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] .. ولن تستطع قوانين الأرض جمعاء أن تحرك هذا الباعث في الفطرة الانسانية وانما تحركه العقيدة وحدها ، فأنت خير بين أن تؤمن أو لا تؤمن بادئ الأمر . فاذا اخترت طرق الايمان فعليك أن تنقاد لأمر الله الذي آمنت به ، وأسلمت اليه روحك وقلبك .

وتلك أهم خصائص المنهج الرباني يستشير الايمان في وجدان المؤمن وضميره فاذا به ينقاد ويدعن من غير مشقة ولا عناء .

« ومن ذلك يتضح أن بعث الحاسة الخلقية في الانسان (١) وتنشئة الضمير المحاسب فيه - ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة - كل ذلك ليس في مقدور العلم ولا في طوق العقل والمنطق بل هو مما يحققه الايمان نفسه » .

فهل اعتمدت أمريكا على الايمان في تحريم الخمر ؟

الواقع أنها لم تعرف الايمان حتى تنتفع بثمراته .
ولذا فشلت في التجربة ..

(١) من كتاب نحن والحضارة العربية للمودودي ص ٦٩

على أن للحضارة القرآنية سبباً آخر في قاعدة التحريم والتحليل وهو ثبات المقاييس وعدم اضطرابها ٠٠ وذلك على النقيض من القوانين الوضعية التي تتأثر بالعواطف والميول - وأحكام العقل وشهوات النفس واسترضاء الناس ٠٠ فيؤدي بها ذلك الى الاختلال والاضطراب ٠٠ ويخضعها لكثرة التغيير والتبديل بالزيادة أو النقصان لأنها فعلاً تخضع لقوانين مضطربة دائمة التغير منقلبة دائمة القلب فتميل معها حيث مالت ٠٠ وفرق بين أن أستمجيب لأمر ربي الذي أمنت به - وبين أن أستمجيب لأمر السلطة التي لا أثق في أوامرها ٠٠

وجميع الأصول الكلية في الاسلام ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق فيه هي من وضع الله وتبليغ رسله وليس للرأى فيها دخل وإن كان للانسان أن يستنبط فروعاً جديدة من تلك الأصول مراعاة لاطوار الحياة وظروف مجتمعه فانها لا بد أن تنسجم مع الاطار العام ٠٠ وتنطبق على أصول الشرع حتماً ٠٠ وهما كتاب الله وسنة رسوله ٠٠ فانهما المرجعان الأصيلان مهما اختلفت الظروف ٠٠

ومن بركات هذا المنهج الرباني أن يريحنا من الاعتساف والتكلف فلا نغنى أنفسنا جرياً وراء القوانين المختلفة : التي لا تنشئ الا ذاتاً ضالة شاردة ٠٠ لأننا لا نستطيع كبشر أن نضع المقاييس الثابتة للأخلاق والمدنية التي لا تتزلزل ولا تضطرب ٠٠

بخلاف المنهج الرباني فان الحرام فيه وكذا الحلال مطردان الى يوم الدين فما يكون حراماً اليوم لا يحل غداً ٠٠ وما يكون حلالاً اليوم لا يحرم غداً ٠٠ اننا نسلم مقودنا الى ربنا ونتق في قضائه وعدله ٠٠ فسفينتنا تجري باسم الله - ومن

أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ٠٠ وإن أمة نحكمها
مبادئ واحدة وتسرى في كياناتها عقيدة واحدة لخليقة أن تتحد
شعوراً ووجداناً وضميراً ٠٠ لأن الدستور الذى تستمد منه
واحد ٠٠ وأنه ليصنع الأمة كلها بطريقة واحدة لأنها فعلاً
تسقى بماء واحد ٠٠ وتمارس عبادات واحدة ٠٠ ومناسك
واحدة وذلك يودى الى تميز شخصية هذه الأمة وبروز طابعها
الحضارى [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] ٠

[الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (٢)] وتلك
هى عناصر الشخصية لتلك الأمة الحضارية مهما تختلف بها
الديار ٠٠ أو الاجناس والالوان ٠٠

وهذا هو السر فى احساس كل مسلم باحساس أخيه لأن
العقيدة صنعت للجميع وجداناً مشتركاً ٠٠ ومشاعر حية
نابضة ٠٠ فما يستقر مؤمن فى مضجعه حتى يسارع بتفريج
أزمة أخيه ٠٠ وما يقر له قرار حتى يطمئن عليه لأنه منه بمنزلة
العضو من جسمه « مثل المؤمنين فى توادعهم وتراحمهم كمثل
الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن
بالحمى والسهر » ٠

(د) انفتاحها على جميع الحضارات الانسانية :

وهى خاصية تكفل لها النماء المطرد - والازدهار الدائم .

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ١ سورة الحج .

وهى التى كفلت لها بقاءً متجدداً عبر القرون .. فهى حضارة تأخذ وتعطى .. تأخذ تجربة حياة نافعة .. وتعطى غيرها ما يكون لديها من ثمرات .. وبهذا التجاوب المستمر والتفاعل الخلاق - لا تعيش فى عزلة عن تجارب البشر .. ان هذه الحضارة تؤمن أن الحضارات الانسانية كلها هيكل ضخمة - قد شيدته جهود البشر جميعاً .. فكل شعب فيه لبنة .. وما يستقيم وضع حضارة تنطق انواراً على نفسها والا فهى عرضة للاختناق كما فعلت الرهينة فى القرون الوسطى انها حضارة لا تصد عن تجارب البشر بالتعصب - ولا تبخل عليها بالعطاء .. وقديماً أعطينا فسخونا فى البذل .. بيد أنها لا تأخذ عن غيرها قوانين التشريع - ولا مبادئ الأخلاق لانها تملك من ذلك منهجاً أصيلاً وثروة ضخمة .. فهى تنفق منه على العالم بأسره وتمنحه للبشرية جمعاء .. ولكنها تأخذ تجارب الحياة وفروع المعرفة .. وكل ما يرتبط بنتائج العلم التجريبي .. والابتكار المثمر فى شئون الحياة .. بشرط أن يكون فى ذلك ما يثرى حضارتنا - ويعود على مجتمعاتها بالخير .. أما حين تتعارض هذه الأمور مع عقيدتنا أو تراثنا .. فأننا لا ننقله .. وانما نرفضه .. كما رفضنا فنون النحت قديماً لأنها تنطوى على فكر وثنى ..

انه اذن : أخذ بصير يعتمد على النقد ويخضع للتمحيص - وليس نقلاً عشوائياً بلا تبصر ولا روية .. وليس عجيباً - ولا عيباً - أن تأخذ حضارة عن حضارة بهذه المقاييس فتجارب البشر ليست ملكاً لأحد والآخذ اليوم كم أعطى بالامس والعكس بالعكس .. فلا فضل لمأخوذ منه على أخذ ..

يقول الأستاذ العقاد : « انه لا يطلب الى أمة أن تتبدع ثقافة جديدة ولا يعاب عليها أن تحج الى المعرفة حيثما وصلت

اليها - وانما يعاب عليها أن تنطفيء شعلة الثقافة الانسانية في يديها وأن تنقطع عن السلسلة » .

وعلى هذا الأساس فقد تفاعلت العقلية العربية الاسلامية مع الثقافات الفارسية ، واليونانية والرومانية تفاعلاً خصباً . . واستطاعت العقلية العربية بما منحت من خصائصه الاستيعاب الحضارى (١) - أن تستثمر ذلك كله في اقامة حضارة رائعة تتمازج فيها عناصر شتى .

ولكن الطابع الذى يسودها ، هو الطابع الاسلامى . . الذى يصورها فى بوتقة ، وينقيها من الشوائب . . ويجعل لها اشعاعاً خاصاً حيثما ينعكس على الناس يحسون بالروح الاسلامى الغالب . . وعندما نقتبس كل مفيد من الثقافات ونافع من التجارب فاننا لا نتوقف عند حد الأخذ . . ولكننا نأبى الا أن نتعرف على الأسرار والدخائل مماناة ودأباً ثم نحاول بالعقلية المبدعة أن نضيف اليه أو نحذف منه . . أو نبتكر مثله . . انه لا يستغرقنا بحال - ولا يلغى ارادتنا . . بحيث نظل نستورد الحضارة دائماً . . وانما نحاول أن نضع الحضارة بروحنا - وعلى أرضنا - مع الاستهداء بتجارب غيرنا من غير صد عنها - أو فناء فيها وبذلك نحفظ بتوازننا أمام أى عطاء حضارى .

لقد كان موقفنا من حضارات الأهم الاخرى هو ذلك الموقف الذى حددناه . . لا نجمد على أفكارنا وانما نتفاعل مع غيرنا . . فنقبل منه ما يتفق مع شريعتنا - ومع واقعنا - ومع تراثنا - ونرفض ما نراه ماساً بوجودنا - أو مصادماً لتقاليدنا . . وعندما نأخذ - فاننا لا نكون نقلة مستعبدين . . بل أحراراً

(١) عن كتاب اثر الحضارة العربية فى الغرب ص ١٠٥ .

ناقدين .. نسمح للعصارة الطبية النافعة أن تسرى في كيائنا
ونستبعد النفائات الضارة .. ونطبع كل ذلك بطابع حضارتنا
القرآنية .. ونبتكر من كل ذلك جديداً رائعاً ينفع الناس ويفيد
التقدم ويثرى الحياة *

ان لدينا دائماً المقاييس التى نقيس بها ما نأخذ وما ندع ..
وهى مقاييس حضارية لها أصالة روحية ومادية نستطيع
بها أن نأخذ وندع .. انها تمكننا من عملية التقويم للأفكار
والأشياء وللقيم وللخطيطات الوافدة .. ما كان من ذلك كله
ملائماً لهذه المقاييس قبلناه والا رفضناه ونقدناه *

نحن اذن فى عالم الافكار والاشياء نقبل وندع لنا نظرتنا
الى تاريخنا دون أن نرتفع الى المستوى الذى يحجب عنا أخطاءنا
- أو نهبط الى المستوى الذى يحجب عنا الحسنات .. ولنا فى
رسولنا الرائد أسوة حسنة .. فقد منحنا تجربة النقل
الحضارى بمعيار الاسلام ومبادئه .. فلقد قبل من قيم
الجاهلية وترك على باب الكعبة بعد فتح مكة : « ألا ان
كل ماثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة
الكعبة وسقاية الحاج - ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية
وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق ، من تراب ؛ ثم تلا
قوله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم
ان الله عليم خبير (١) » *

وبهذا - نتمكن من صناعة واقعنا وبناء حاضرتنا - وابرار
ملاحننا .. أما أن نعيش فى عالم كله من صنع الغير ، فنعيش
مستوردين .. نكتفى بالاستهلاك والاستخدام دون الانتاج

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

والإبداع فهذا ما لا يرتضيه الشرف وهو موقف لم تسلكه حضارتنا القرآنية في أيام ازدهارها .. وليست عملية النقل الحضارى عملية سهلة - ولا هى مأمونة العواقب .. لأن الحضارات الانسانية ذات عناصر متشاجنة تتشاجن غصون الشجر .. فأخذ عنصر وترك عنصر أمر صعب - بمثابة بتر عضو من كيان متكامل .. ويزيد من صعوبة أن النقل مفسد - لأنه تقليد ضرير يلغى الشخصية - ويسقط الكرامة - ويفسد المغزى المستهدف .. ويكون شبيهها بالترجمة الحرفية لنص من النصوص دون التصرف فيها .. ولهذا فإن شراح الحضارات يحذرون من التقليد وينبهون الى خطورته .. وبالنسبة لأمة كأمتنا - سواء فى القديم أو الحديث - تزداد مسئوليات النقل الحضارى لأننا نملك أضخم رصيد - من تراث العقل والعاطفة .. ومدنية الحياة الفاضلة - ولأننا أصحاب منهج ربانى .. قد تلوثه العادات الدخيلة .. فلنكن على حذر فيما نأخذ أو ندع - كما فطن آبائنا من قبل، .. وفى هذا بلاغ !!

وعملية الاقتباس الحضارى تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم .. فكما لا ننقل كمية من الدم من شخص الى آخر الا بعد تعيين فصيلة الدم بالنسبة لهما .. ونتأكد من اتفاقهما ..

فكذلك الأمر هنا - لابد أن نضع فى الحسبان : هل ما ننقله يتصادم مع تعاليم ديننا مع أصول حضارتنا - مع قديم تراثنا ؟ فإذا تأكدنا من أنه لا يصادم شيئاً من ذلك قررنا صلاحية الاقتباس - لأنه فى هذه الحالة يكون صحيحاً .

ثم ننظر بعد ذلك فى أمر آخر قبل ممارسة النقل .. ما الكمية التى نقلها ؟ لأننا لو نقلنا كمية كبيرة من الدم - أو أقل مما ينبغى - فإن النتيجة تكون سيئة .. وكذلك هنا لابد من تحديد الجرعة التى تفيدها وتنهضها

حضارتنا دون تخمة أو فراغ ثم نشرع في النقل فيكون مثمراً
مأمون العاقبة ..

ومن البدائة الواضحة أن موقفنا من حضارة الغرب ينبغي
في كل لحظة أن يأخذ هذا الاتجاه فما كان مفيداً مثمراً قبلناه -
وما كان ضاراً فاسداً رفضناه ، انه موقف النقد البصير .. لا
موقف التقليد الضرير .. لأن النقل من غير تمييز فناء ومعة -
والاعراض التام جمود ومضرة ويجب أن نعترف دائماً بأننا
بشر نخطيء ونصيب - وننهض ونكبو - فلسنا وبخاصة في
عهود الانحطاط - نملك كل حسن - وغيرنا يملك كل قبيح ..
لأن ذلك غلو واسراف وبذلك الشعور الطبيعي - نواجه الحياة
.. لا متعصبين ولا متخاذلين .. بل متواضعين متجاوبين ..
فما كان الكمال يوماً ما وقفاً على فريق .

على أن حضارة الغرب وما فيها من بعض النواحي الطيبة -
انما هي نبعة من أيكتنا - وغصن من دوحتنا .. منا أخذت ،
وعنا نقلت كما تحدث بذلك أصحابها ..

فاذا أخذنا عنها يوماً ما فانها تعطينا بعض ما أخذت منا
وهل الحياة الا أخذ وعطء ؟!

واذا ما نظرنا الى تجربة النقل الحضارى على الصعيد
العملى وجدنا المسلمين قد تفاعلوا مع ثقافات العالم وقرءوا
فلسفة اليونان وهضموها ونقدوها واستوعبوا عصارته
النافعة - ونقلوا ذلك كله الى العالم بأسره . وكذلك في عالم
الأشياء كالصنائع والحرف وسائر أنواع النشاط الحيوى قد
نقلت هذه الأمة منه كل صالح .. ونبذت كل ردىء وأعطت
الكثير من هذه « الأشياء » للعالم بأسره .

(١) أى شجرة من حديقتنا .

في عهد الرسول ﷺ الله وسلامه عليه - لم يصد عن التجارب النافعة راكتساب الخبرات الجديدة من النير ٠٠ في طبقات ابن سعد عند الكلام على وفد ثقيف ذكر أن عروة بن مسعود وغيلان بن سمة لم يحضرا حصار الطائف لأنهما كانا « بجرش » يتعلمان صنعة العرادات والمجانيق والدبابات - وجرش بلد بالأردن - وبنفس الاسم بلد باليمن وقد استفاد صلوات الله عليه من معرفة عبد الله ابن أريقط النصراني للطرق في حادث الهجرة حيث كان دليل القوم ٠٠ ولم يصد عنه لأنه نصراني .

وبتلك الروح الحضارية - التي بثها محمد صلوات الله عليه في أصحابه - استطاعت هذه الأمة عندما وضعت عن كاهلها عتاد الجرب ونفضت عن وجهها غبار الصحراء أن تصعد في مراقى الحضارة بسرعة مذهلة - وأن ترفع على أنقاض اليونان والرومانى والفرس حضارة تابنة الأصول باستنة الفروع ٠٠ يتألق في عنصرها فكر الاسلام وثقافة العرب ثم أخضعت لسلطانها حضارات لم تخضع لها من قبل وكان لها خصوم الداء لم ينالوا منها أدنى نيل ٠٠ لأنها قد أثبتت وجودها في مجال التحدى الحضارى اثباتاً أرغم الخصوم - ونشر المعارف والعلم وأفاد العالم بأسره وكان السبب في كل ذلك يرجع الى جلال المثل العليا - وقابلية التحضر والتمدين وفقه الثقافات وهى ميزات رفيعة قد اختص الله بها هذه الأمة المساجدة النبيلة لتظل مرفأ الأمن على مر الزمن ٠٠ ومنارة العلم والمعرفة على امتداد التاريخ . وليصدق فيها قول الحق تبارك وتعالى : [كنتم خير أمة أخرجت للناس] .

وقد أثبتنا - أن هذه الأمة ليست كما بصورها أعداؤها
جافية الطبع غليظة المشاعر بعيدة عن أى تقدم - وإنما ذلك
ينطق على البدو فقط - أما العرب المتحضرون فقد كان في الشام
والحجاز والعراق واليمن حضارات رائعة - ومدنية عقلية
وثقافية ووجدانية انعكست على شعورهم - وفي انتاجهم * *
ولغتهم * * ثم جاءهم القرآن الكريم على قدر وموعد ليسمو بهذه
المواهب والمكاتب * * وينفض عنها غبار الجاهلية -
ويستنفدها من معنى السرف والغلو - ويصبها في قالب
الحكمة * * وينطلق بها ليؤسس مدنية العالم كله وحضارة
الحياة جمعاء * * *

وانك لتلمح في شهادات الأوربيين - تقرير عذو
الخصائص بكل أمانة ووضوح يقول ويلز في كتابه ملخص
التاريخ : [هب العرب يظهرون ماخفى من مواهبهم فبهروا
العالم بما أتوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد
اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها ونفخوا ميهها من روحهم
واستودعوها الحياة والقوة فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة
الحلقات محكمة السرد لا يمسها انقطاع ولا وهن وما جانا
العلم والمدنية الا عن طريق العرب لا عن طريق اللاتين] *

ان خاصية الاستيعاب الحضارى التى يحدثنا عنها هذا
المستشرق لم تلغ شخصية هذه الامة بل أبرزتها على الصعيد
العالمى - وحققته وسلطت عليها الاضواء لانها لم تكتف بالنقل
واستيراد الفكر بل عمدت الى الابداع والخلق وصناعة
الحضارة ، والعالم كله يعرف كيف أن الكندى والفارابى وابن
سيناء فى الشرق وابن باجه طفيل وابن رشد فى الغرب قد توفروا

جميعاً على فلسفة اليونان فجددوا دارسها وجلوا طامسها
وكمّلوا نقصها وطبّعوها بسملة الحرية والعبقرية والنضج
وبعثوا فيها نبض الحياة . . ولقد وضع ابن طفيل قصته
الفلسفية « حى يقظان » فكشف عن مواهب فنية في التخييل
والتصور والتعبير وقد نقل هذه القصة الى اللاتينية
(ادوار بوكوك) فظهر أثرها في آداب القوم .

أرأيت هنا كيف تتفاعل الثقافات - ويتم التبادل ؟
وعن تأثير الفكر العربى - و حضارات العالم وآداب
الدنيا بعد الفتح الاسلامى . ، وكيف أن هذه الثقافات قد
اندمجت كلها فيه يقول الدكتور طه حسين (١) .

« تحققت اذن هذه الظاهرة العربية الغربية - واتحاد
العالم بفضل ظهور الاسلام وبفضل انتشار اللغة العربية
والثقافة الجديدة الى أمة واحدة متحدة فى كل شىء ، تقريبا
لغاتها العلمية والادبية واحدة هى العربية بها تتكلم وبها
تنشئ ، الشعر والنثر ربحا وتؤلف كتبها العلمية - وظلت هذه
اللغة - هى لغة هذا القسم العظيم من العالم القديم وكانت
الآلات السائدة فى العالم العربى قوية . . كانت البلاغة
المفتوحة خاضعة لسلطان الادب اليونانى وهو الى الان أقوى
أدب عرفه الانسان . .

والى جانب هذا الأدب كانت تقوم فى الشام والجزيرة
والعراق آداب أخرى سامية - منها آرامية ومنها يهودية وكانت
هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس وأثرت فى نفوسهم
وكونتها تكويننا خاصا ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب كانت
تقوم فى الشام والجزيرة والعراق آداب أخرى سامية - منها

(١) ص ١٢ من حديث الشعر والنثر يتصرف بهسير .

أرامية ومنها يهودية وكانت هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس وأثرت في نفوسهم وكونتها تكويننا خاصا ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب تلقى الأدب العربى حتى عجزت عن أن تثبت له واندمجت فيه واستحالت الى جداول قوية خصبة ولكنها كانت تنتهى دائما الى هذا النهر العظيم - ولم يستطع الادب الفارسى أن يثبت للأدب العربى فى بلاد فارس - فكان الشعر الذى ينشد فى هذه البلاد فى القرن الاول والثانى والثالث للهجرة هو الشعر العربى - وكان العلم طول هذه المدة عربيا وكانت الفلسفة عربية . . وكذلك فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا فان الآداب القبطية واليونانية والآرامية لم تثبت للأدب العربى بل قام الأدب العربى مقامها جميعا وانكمش الأدب اليونانى . انكماشا عظيما وتقلص ظله فى هذه البلاد . . ولقد قاومه الفرس والترك وقاومته أوربا فى اسبانيا وأفريقية الشمالية وما تزال تقاومه ولواؤه مرفوع « ا . هـ

نقلنا هذا الكلام . . لنؤكد كيف أن حضارة القرآن قد أخذت فى عالم « الأفكار » وأعطت ولكنه الاخذ البصير الواعى . . الذى يستتبع الروية . . وينتج الابداع . . كالنحلة تمتص رحيق الزهر . . ثم تحوله فى باطنها الى عسل حلو . . ثم تقدمه للناس . . ولم تكن أمتنا كعدسة التصوير تنقل الشئ بلا تصرف . . ولكنها كانت تثبت وتنقى . . وتبدع وتبتكر . . وتأخذ وتدع ثم تصوغ من ذلك كله فكرا عالميا رواء الاسلام وطابعه وروحه . .

نحن نؤمن بأن الأدب العربى فى مطلع عصر النهضة قد انفتح على الأدب الاوربى فى مطلع عصر النهضة انفتاحا أثمر القصة والمسرحية . . ونضوج الشعر السياسى والاجتماعى . . وتحرر الأساليب العربية من الصنعة . . كما كان له أعظم الأثر فى نضوج النقد الادبى . . والبحث العلمى

كل ذلك التأثير والتأثر ظاهرة صحية مادام لا يلغى الشخصية ولا يصادم المثل العليا ولا يتعدى شئون الثقافة والعلم وتجارب الحياة . .

شخصية الحضارة الاسلامية :

وبهاتين الخاصتين لحضارة القرآن وهما الربانية - والانفتاح - تبرز شخصيتها التي لا تخرج عن كونها كيانا انسانيا عاما ذا شخصية معنوية فيها جانب التراث المجيد - الى جانب عنصر التجديد المتطلع دائما الى التسامى . . الى جانب الأمل الممتد المشحون بالحوافز الايجابية البناء لمستقبل دائم الارتقاء والصعود نحو الافضل لخير الاسرة الانسانية جمعا . . بحيث ينمى فيها بواعث الخير وبحرك حوافز العمل ويخطط لكل ذلك بالعلم ليجعل من الانسان خليفة لله في الارض بينهما بالعمل . . ويخططها بالمعرفة . . ويدعمها بالايمان ليتصعد دائما ويرقى ، ولا يتأخر فيشقى وليبنى ويعمر ، ولا يخرب ويدمر ، وليمضى الى ربه على صراط مستقيم ممتد . . هو صراط الله العزيز الحميد . .

يقول الدكتور خلف الله أحمد : | ان الحضارة الاسلامية هي تلك الحضارة التي قامت على أساس رسالة سماوية هي الاسلام ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى من القرآن ومن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله | .

ويقول الدكتور حزين : | ان الاسلام قد استطاع أن يضيف على البلاد التي شملها لونا من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والسياسة حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف أرضهم وديارهم | .

ونحن لا نكتفى بماذهب اليه الدكتور حزين من أن الاسلام
- أو بتعبير أدق القرآن يصنع لهذه البلاد قدرا حضاريا
مشاركاً • • ولكننا نقول : انه يوحدنا قلبا ووجدانا وفكرا
وسياسة واجتماعا ويضع لها تاريخا واحدا وأملا وألما واحدا
وطموحا واحدا بحيث يسودها مايسمى في التعبير العصري
« ائتلاف النغمة » •

وبهذا تأخذ الحضارة القرآنية صبغة الاستمرار
والاستقرار لأنها تصاحب حياة البشر منفتحة على غيرها من
الثقافات والمدنيات تتمثلها حضارة الجنس البشري كله من غير
تعصب ولا استعلاء ولا جمود ولا تهافت • • وكما أن الاسلام
مصدق لما بين يديه وماخلفه من ديانات الجنس البشري
مؤمن بجميع النبوات والكتب المنزلة فكذلك حضارته هاضمة
لما بين يديها وما خلفها من ثقافات البشر • • متفاعلة مع
الحاضر - متطلعة الى عالم أفضل • •

وهذا يضيف عليها سمة العبقريّة عبقرية الاستيعاب -
والهضم - والابداع والتأثير والتأثر ، واستمداد هذه الحضارة
من القرآن يجعلها ملتقى كريما لكل الثقافات والتجارب الممتدة
عبر التاريخ • • لأن القرآن محيط زاهر تصب فيه روافد الكتب
السمائية الاخرى • • وهي من غير شك تتضمن خلاصة الفكر
الانساني - والتجارب البشرية • •

وكل ذلك ينضج على هذه الأمة الاسلامية علما وفكرا
وثقافة وحضارة وتجربة يجعلها وريثة سريعة لكل تعاليم
الوحي ولكل تجارب البشر • • وكفى بذلك شمولا واستيعابا •
وكفى بذلك جلالا وكمالا !!

وأينما التقى العالم بهذه الحضارة فهو واحد فيها روحه •
 وشعوره وطموحه وأمله وفطرته ونظام حياته - وأسس
 مجتمعه - وأشواق روحه ومستقر هدايته وسعادته •

(د) ملامتها للطبيعة البشرية :

تتميز الحضارة القرآنية بأنها تقوم على أساس منهج
 ملائم لطبيعة الانسان وفطرته متناسق مع ميوله وغرائزه -
 متكيف مع خصائصه العليا - ينميها ويحتفظ لها بالتجدد
 والازدهار - ويبث فيها من الحوافز ما يجعلها قادرة على أداء
 دورها الأصيل - دور الاستخلاف في الارض - بحيث ترتقى
 دائماً في سلم الصعود بالتفاسل المستمر مع عناصر الكون
 والدأب الكادح في بناء الحضارة - وبحيث يظل الانسان
 باستمرار - مهما ارتقى حضارياً - سيد الكل ما أنشأ وبنأ -
 وليس عبدا لهذه الأشياء ، لانه صانعها بيديه • •

ان الحضارة الحديثة - في نشوة انتصارها المادى -
 ذهلت عن مركز الانسان في الأرض ومقامه من خلافتها -
 راحت تسخره للأشياء - ولا تسخر الأشياء له فاحتقرت بذلك
 ذاته - وامتهنت خصائصه - واحتقرت مواهبه مع أنه الاساس
 الأول لاي نظام حضارى كما مر - فهي بهذا التصور حضارة
 مادية تجعل الانسان مجرد آلة للانتاج - ونطبق عليه المنهج
 الآلى - أو المنهج الحيوانى • • الذى لا يرفع أية خاصية من
 خصائصه كإنسان له مطامح ومطالب وأشواق !!

وانها لماسة رهيبة حقا أن يستذل الانسان وتمتهن
 سيادته على الأرض الى هذا الحد فى ظل حضارة تدعى أنها قمة
 الحضارات •

أما الحضارة القرآنية - فأنها تضع الانسان في وضعه الصحيح ومقامه الموقر - تتقدم له منهج ربه لينطلق به في رحاب الحياة • • وهو منهج من وضع العليم الخبير - الذى يعرف لمن يضع المنهج ؟ وكيف يضعه ؟ لأنه يعلم كل احتياجاته • • وكل مواهبه وملكاته لا يخفى عليه من ذلك خافية !!

فاذا وضع هذا الخالق العليم منهجاً للانسان فهو منهج بصير مهتد لأنه وضع على علم ونور • • فهو خليق أن يقود مسيرة الانسان على وجه الارض الى غاية فيتهاسعاده وسيادته ليكون دائماً سييداً للكون من حوله وليس عبداً الا لربه •

وفي الانسان - ذلك العالم المجهول - والجهاز المعقد - نواح لا يعلمها الا خالقها ومناطق لم يكتشف، العلم شيئاً منها - ومهما تتقدم علوم الحياة فإنها عاجزة عن استيعاب خصائص الانسان • • وادراك نواحي ضعفه ومعرفة تلافيف مخه ونشاط عقله وافرازات غدده • • وتأثير كل ذلك على كيانه العام • • وعلى أخلاقه وميوله !!

وتتقدم العلوم المادية - لا يعنى أن يواكبها نفس التقدم في علوم الحياة أو بالأحرى في العلوم الانسانية لان التعقيد في هذه العلوم أشد وأصعب منها في الأولى •

وماتزال دراسة العقل الانسانى هي عفذه العقد في البحوث العلمية لم يعرف العلم من أمرها الا أقل القليل • • على أن هناك خصائص عامة للانسانية - وخصائص فردية لكل انسان فمن الذى يستطيع أن يحدد هذه وتلك ؟ ومن الذى يلاحظ في منهج التربية كل هذه الفروق ؟ ويحيط علماً بهذا الانسان ؟

ان حقيقة الانسان تسير في موكب من الأشباح بحيث لا يستطيع العلم رؤيتها بوضوح ، والذين يدرسون هذه الحياة كمن ضلوا طريقهم في غابة لفاء متشابكة الفروع - متشعبة الغصون أو في قلب دغل سحري لا تكف أشجاره عن تعبير أماكنها وأحجامها على حد تعبير الطبيب الأمريكي المتخصص (ألكسيس كاريل) :

ان الدارسين لهذا الانسان العجيب يعيشون في متاهة فحتى الآن تخفى عليهم أسرار الظواهر الانسانية فيقفون حيالها حيارى مبهورين *

ان لهذا (١) الانسان عوالمه المادية الظاهرة من أعضاء وأعصاب وله عوالمه الداخلية من غدد وأحشاء، وأجهزة وله عوالمه المعنوية من أحوال نفسية وحياة وجدانية من الرضا والغضب والحب والكره والانقباض والانبساط كل ذلك لم يكتشف بعد وماخفى منه أكثر مما ظهر وصدق ربنا اذ يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢) » حتى سر النطفة لم يدرس الانسان دراسة معقولة لابد أن تتعاون علوم مختلفة - علوم الطب - والوراثة - والحياة - والنفس - والاجتماع - والأخلاق - والتاريخ وغيرها من كل ماله مساس بالانسان ماديا وروحيا فكيف السبيل الى استخلاص حقائق نهاية تنشأ عن هذه الدراسات ؟ ان الطب مايزال عاجزاً حتى وقتنا هذا عن زرع عضو مكان عضو * * وعن مجرد « تخليق » انسان في أنبوبة اختبار فكيف بمعرفة هذه العوالم ؟

(١) راجع الجزء الأول من كتابنا قيم حضارية في القرآن جزء اول فقد اشبعنا الكلام في هذا الموضوع .
(٢) آية ١١ سورة الذاريات .

ان كل هذه المصاعب في مجال الدراسات الانسانية تجعل من الصعب على أى انسان - أو على أية جماعة - مهما يكن حظها من العلم أن تضع منهجاً لذلك الانسان . . كل الانسان . . ذكره وأنثاه طفله وشبابه وشيخه . . عالمه وجاهله . . حاضره وغائبه . . بحيث يلائمه ويحقق كل آماله على مر الأيام . . وبحيث لا يتغير ولا يتبدل . من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على عاتقه وضع منهج كهذا ؟

لعمري : ان العلماء ليتخصصون في دراسة فترة من فترات العمر الانسانى في جيل مامن الأجيال - كفترة المراهقة أو الطفولة - أو الشباب وتضع كل جماعة منهم منهجاً للفترة التى تخصصت فيها . . ثم تجيء الدراسة بعد استنفاد الجهد والوقت والمال ناقصة صغيرة خرقاء !!

وان الأطباء ليتخصصون في أعضاء الانسان لكل عضو طبيب بعضهم للعين وبعضهم للقلب وبعضهم للأذن - وبعضهم للطفل - وبعضهم للمرأة ، ومع ضيق الحيز الذى تخصصوا فيه فانهم يخطئون التصور وفي تشخيص المرض ووصف الدواء .

لماذا ؟ لأن كل عضو كالعين مثلاً . . وان بدا لنا ضئيل الحجم له أجزاءه الدقيقة التى تجعل منه عالماً معقداً . . فكيف بالعقل والغدد والأعصاب ؟ !

وهذا الجهل المطبق بطبيعة الانسان جعل طبيباً أمريكياً متخصصاً له مكانته العلمية (١) يكتب تحت عنوان : « الانسان ذلك المجهول » يقول : « اننا لا نفهم الانسان ككل . . اننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . . وحتى هذه الأجزاء

(١) هو الدكتور اليكس كاريل .

ابتدعتها وسائنا - فكل واحد منا مكون من مركب من
 الأسباب تسير في وسطها حقيقة مجهولة - وواقع الامر أن
 جهنا مطبق فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك
 الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب . . لأن هناك
 عوالم غير محدودة في دنيانا الباطنية وما زالت غير معروفة . .
 اننا لا نعرف مثلاً : كيف تتحد جزئيات الموعد الكيماوية لكي
 تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

كيف يقر «الجنيس» - ناقلات الوراثة - في نواة البويضة
 الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ كيف تنظم
 الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها مثل الأنسجة والأعضاء ؟
 ماهي طبيعة تكويننا النفساني والفسولوجي ؟ . .
 اننا لا نعرف مثلاً : كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي
 والسوائل والشعور .

ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . . نحن ن
 حاجة الى « فسيولوجية » الخلايا العصبية . . ثم الى أى مدى
 تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟
 اننا نجهل وجوه النشاط العقلي والروحي ومقاومة النعيب
 والكفاح ضد الأمراض .

اننا لا نعرف كيف يزداد الاحساس وقوة الحكم والجرأة
 والنشاط الديني ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الانسان واضطرابه
 في المدنية العصرية وبتأثيرها ؟ ؟ ؟ !

وهكذا أسئلة ستظل بلا جواب لأن معرفتنا بأدسنا
 ما زالت بدائية في الغالب .

ثم يخلص الى تلك الحقيقة التي نريد اوصول اليها :
وهي أن علم الانسان أصعب العلوم لأن الانسان نفسه
عقدة العقد في هذا الكون . . اه .

وهذا كلام رجل واجه الحقيقة - وعرف طاقة العلم وحدوده
وملك الأجهزة اللازمة ولكنه قرر افلاس العلم في هذا المجال . .
وان هذا الواقع العلمي الذي يتحدث عنه الطب يبرز حقيقة هامة
هي استئثار الذات العلية بمعرفة الانسان . . ومن ثم فهي
التي تضع له منهجاً يلائم تلك الطبيعة المعقدة . . اذ ليس في
امكان الانسان أن يضع لنفسه ذلك المنهج الملائم لأنه فوق
علمه وتجربته فمن رحمة الله به ورعايته له أن قام عنه بذلك
العمل وقدمه اليه فضلاً منه وكرماً بينما أطلق يده في عمارة
الأرض يبني ويهدم ويجور ويعدل ويحل ويركب ويخطئ
ويصيب ويكتشف من خاماتها وعناصرها ويتعرف على أسرار
الكون ويرتبط بها برباط الصداقة ليعيش في عالم مأنوس
يكتشف مادته ويستبطن دخليته لأنه مزود بالطاقات من ربه ،
التي تجعل منه أهلاً لتلك المهمة لكي يتحكم في المادة على عالم .
أما أن يتجاوز الانسان حده فيطمع فيما ليس له فذلك مجرور
وبغى !!

ان مجال البحث الانساني هو دراسة الكون وعناصره . .

فاذا انسجم الانسان مع حقيقة وضعه واكتفى بأداء دوره
فانه يصبح سيد الأرض وعناصرها . . باستخلاف الله اياه
ومنحه العلم بها والخير بشئونها والاستمتاع بطيبتها
وجمالها . . وليست الأرض فقط ولكن السماء تؤازره في أداء
دوره على وجه الارض فياله من كائن عظيم عزيز على ربه أمين
على هديه كريم في كل حين .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى الى السموات فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم (١) » .
ولننظر بتأمل دقيق فى قوله سبحانه : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون - يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٢) » .

ان هذه الآية - ونظائرها اشارات ضمنية على طريق الانسانية تومىء الى قصور معرفة الانسان وجهله بشئون نفسه وشئون الحياة من حوله وتأثره بالهوى والشهوات وبالضعف الذى يفقده القدرة على التوازن . . بحيث لا يستطيع بجهالته - وشهوته . . أن يخط لنفسه منهاجاً فى الحياة . . لأنه لا يعرف منها الا ظاهرها . . ولا يكاد يدرك أسرارها . . وان كان مزوداً من ربه بالمعرفة التى تمكنه من استغلال المادة والانتفاع بثمرات الأرض فى اطار جليل من مشيئة الله وهده . . وهذا المنهج الخالد الذى وضعه ربنا هو منهج الحياة كلها ليس لفترة منها دون فترة - ولا لفئة من الناس دون فئة - ولا لحزب دون حزب . . ولا لشعب بعينه - ولا لأمة بذاتها . . وان البشرية اذ تدعن له - وتعمل به وتتعاظم هدية مباركة من ربها تجد الأُنس وتحقق السعادة وتحس بالطمأنينة والسكينة . لأنه يرضى كل نوازعها . . ويتجاوب مع جميع مطامحها ويلبى جميع احتياجاتها . . ويعتد بخصائسها وملكاتنا . . وانه ليعطى الحياة عطاء سخياً - وقد ظل هذا الدستور يحكم الحياة بالفعل ويعطيها من غير حدود فى جميع المجالات . . تشريعاً - وإدارياً - وسياسياً - واجتماعياً - وعلمياً - وأدبياً . .

(١) آية ٢٩ سورة البقرة .

(٢) آية : ٦ ، ٧ من سورة الروم .

دون أن تظهر فيه أية تناقضات • • أو توجد ثغرات • • في حين أن دساتير البشر تتعارض • • وتتضارب – ويلحقها النقص • • ويظهر فيها الخل وتضاف إليها تعديلات شتى • وإضافات كثيرة • •

ولقد استطاع هذا المنهج أن بصيب من الجاهلية مقتلا – وأن يصنع رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه – وأن يلمس المواهب الكامنة في نفوسهم فاذا هي تنطلق من عقالها لتحدث أثرها في الحياة • • فكان كالغيث المبارك هطل على أرض البشرية الجذباء فأحيا موائها • • وأنبث فيها كل رائع من الزروع والثمار وهكذا تحولت الحياة بمنهج الله الى بستان نضير فيه من النبات أحسنه وأزكاه ومن الثمر أطيبه وأحلاه كما استطاع هذا المنهج أن يصنع ضمير الأمة ووجدانها وأخلاقها • • ويحدد لها رسالتها في الحياة • • فأنشأ مجتمعا متناسقا تسوده نعمة واحدة لا نشاز فيها ولا اختلاف وكانت له مقوماتها التي لا يشركه فيها مجتمع سواه • • والعجيب في أمر هذا المنهج أنه أخرج هؤلاء القوم من الصحراء • • فانتزع الجاهلية من أعماق نفوسهم – وثبت العقيدة في وجدانهم • • ثم عمد الى أرواحهم فطهرها من كل دنس – وحرداها من كل ضعف والى مواهبهم فشحذها وأطلقها تعمل على عين الله • • وتنوعت تلك المواهب وتعددت الكفايات تنوع زهرات الروض لتسد كل ثغرة – وتكفى كل عوز – وتقيم كل بناء وعندما أرادوا أن يقيموا دولتهم – التي كانت أمل العالم كله – لم يستعينوا بدستور من دساتير الأرض – ولم يستوردوا مبادئ ولا نظما – ولم ينتدبوا خبيرا من بلد آخر ليستعينوا به في عملية التخطيط والبناء – وإنما أقبلوا بكل الثقة والحزم على قرآن ربهم – يقودهم نبيهم ورسولهم – ليلتمسوا فيه كل النظم الحضارية التي تجعل بناء دولتهم شامخا • • فمُنحهم

القرآن أسرارہ - وأسبغ عليهم أنوارہ - وأمددم بكل ما يطلبوا وكانت دولتهم المؤسسة على تقوى من الله ورضوان هي منارة الدنيا في العلم والعقيدة والسياسة وصدق الله العظيم اذ يقول : [أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون (١) آ]

انها الدولة النموذجية في العالم كله . . يرى الناس فيها مثاهم الأعلى في العقيدة . . فلقد كان لتلك العقيدة الصافية أثرها في كل حركات الاصلاح التي قامت في أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة عندما أعلنت أن الله واحد منفرد بالسلطان ونزهته عن التجسيد والنقص . كما أنها أعلنت استقلال الانسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون أية وساطة كان لذلك كله أثر كبير في تفتح أذهان الشعوب الى تلك المبادئ الرائعة كما كانت هذه الدولة النموذجية مثل الناس الأعلى في ميادين العلم والفلسفة من طب وكيمياء ورياضة وفلك . . فلقد أفاق أوربا على صوت علمائنا يدرسون هذه العلوم في مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها . . ولقد ترجم كتاب القانون في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر كما ترجم كتاب الحاوي للرازي وهو أوسع من القانون في نهاية القرن الثالث عشر - أما كتب الفلسفة فان الغرب لم يعرف شيئاً عنها الا عن طريقنا فنحن الذين قدمنا له كتب الفلسفة اليونانية مهذبة - منقحة - وتخلل أوربا تنقل عن حضارتنا حتى في عهد نابليون . . حيث تستمد أروع القوانين - وأدقها متمثلة في كتاب « خليل » الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي وقد جاء متشابهاً مع أحكام الفقه المالكي يقول سيديو :

(١) آية ١٢٢ سورة الأنعام .

« والمذهب المالكي هو الذى يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب أفريقية وعهدت الحكومة الفرنسية الى الدكتور بيرون فى أن يترجم الى الفرنسية كتاب المختصر فى الفقه للخليل ابن اسحاق بن يعقوب المتوفى (١٤٢٢ م) » .

أما تأثيرها فى الفنون بالنسبة لأوربا فيكفى أن نسمع الاستاذ ماكسييل يقول : « كانت أوربا مدبنة بأدبها الروائى الى بلاد العرب - والى الشعوب العربية الساكنة فى النجد العربى السورى تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى المنشيطه التى جعلت القرون الوسطى الأوروبية مختلفة روحا وخيالا عن العالم الذى كان يخضع لروحه » .

ولا تسئل عما أحدثته حضارة القرآن من آثار عالمية أخرى فى مجالات الحياة . فلذلك فصل يأتى ولأن هذه الرسالة عالمية انسانية [وجدنا أنها عقد ينتظم كل المواهب والمكان من جميع الأمم والشعوب والعناصر فأبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والخليل وسيبويه والكندى والغزالى والفارابى وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ليسوا الا عباقره قدمت حضارتنا فى أشخاصهم نماذج انسانية للفكر المتفتح والعقل الخصيب (١)] .

ولقد كان انشاء هذه الدولة الحديثة بجهود الرسول والذين حوله أعجوبة فريدة فى الزمن حيث كان رجالها الزهاد والعباد والحكام والقضاة والساسة والمحاربون والقادة والعلماء والفلاسفة والدارسون والأدباء والشعراء . . وغير

(١) عن كتاب من روائع حضارتنا للأستاذ الدكتور مصطفى السباعى .

ذلك من معجزات الفكر الانسانى . . ولقد عاشوا عازمين عن
 مناعم العيش - ومزاعم الجاه - ومغريات الشهرة والطين . .
 وتجلت الحياة القوية بمظاهرها وخصائصها . . التى لم
 تتوفر فى عهد من العهود .

لقد كانت تلك المواهب مبعثرة فى ظلام الجاهلية ضائعة
 فى حطامها - مبددة فى العصبية - وشرب الخمر ولعب الميسر
 مهذرة فى المهاترة والمفاخرة . . تنتظر اليد الصناع والصائغ
 الماهر الذى يجمعها من شتات . . ويحييها من موات . .
 وينفض عنها غبار الجاهلية ثم ينفخ فيها من روح الله لتتألق -
 وتزدهر وتضىء وتملأ الحياة كلها عملاً وتستوعبها كفاحاً
 شريفاً ونضالاً سامياً من أجل مستقبل أرقى لكل الناس . .

ولم يكن هذا الصائغ الصناع الا مولانا رسول الله الذى
 جاءها على قدر وموعد ومعه منهج ربه فاكسح ركام الجاهلية
 ثم وضع الأساس ثم أقام على البناء على بركة الله . .

من عجائب هذا المنهج

من استعراضنا السابق ... للآثار العجيبة التي تركها
المنهج الالهي في عقائد القوم . . ومعارفهم وعلومهم نستطيع
أن نقطع - بأنه لا يتصور في عقل بشر - أن يتم هذا التحول
في حياة القوم - بل في العالم بأسره الا بمنهج الله الذي خلق
فسوى والذي قدر فهدى . . والا بقيادة النبي العظيم الذي
طبق المنهج بكل الحزم . . والصدق والثقة والايمان . . ولذا
تمت كلمة ربك صدقا وعدلا فكان من آثار هذا المنهج مجتمع
متناسق القوى والملكات على النحو الذي سرحنا من قبل وكان
أن انتفضت القرائح العربية الخصبة انتفاضة الأرض حين
يجودها غيث السماء . . فتنبت من أفانين الزهر والنبات مالا
يدخل تحت حصر - وتعطى من يانع الثمار مايسد حاجة الناس
كذلك حدث بالنسبة للمواهب العربية حين مازجها هدى الله . .

فقد تحققت كل الكفايات التي كان المجتمع الجديد في حاجة
اليها . . التي كان لابد منها لصنع التقدم !! وتمضى هذه
الكفايات - مزودة بمنهج ربها - حتى تقطع بعيدا في صناعة
الحضارة لاتقتصر منها على جانب واحد . . بل تبرع في شتى
الجوانب ففي عالم الأفكار . . وفي عالم الاشياء وفي عالم
التخطيط والبناء في هذه الميادين ابداع مثمر خلاق لا يكتفى
ببسد العوز وانما يفيض خيره وغيثه على العالم الظامى الى
قطرة من ماء . .

وتوجد سائر أنواع النشاط الحيوى في هذا المجتمع فالمسلم
يعبد الله في المسجد - ويحارب العدو في الميدان ويصرف السلعة
في السوق ويحكم بين الناس بالعدل . .

أنه مجتمع العجائب حقا في كل أموره • • ولا غرابة في ذلك فانه يستقى من نبع الله الطهور !! ولقد كسا العارى - وأطعم الجائع - وأعطى المحتاج وأوجد العمل لكل قادر - وعاقب المنحرف - وأقام حدود الله •

مجتمع حل التناقضات الموجودة في داخله بكلمة الله وروح الاسلام • وكان الرسول حريصا كل الحرص على أن يحتفظ لهذا المجتمع بكل ضمانات الوحدة - وأن يقنلج جذور الجاهلية الأولى فكان لايفتأ يردد (١) « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من مات على عصبية » وعن جابر بن (٢) عبد الله قال :

« كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الانصارى : يالأنصار !!

وقال المهاجرى • ياللمهاجرين !! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « دعوها فانها منتنة » لقد أوشكت الحرب الأهلية أن تقوم بين المهاجرين والانصار ولكن الرسول الذى يريد الوحدة لقومه • • يردعهم على صنيعهم • • ويبين لهم أن العصبية منتنة • • أى قذرة لأنها قد ماتت مع الجاهلية الاولى • • وهكذا أغلق الرسول كل الابواب في وجه كل خلاف أو عصبية أو جهالة وهكذا ماتت العصبية أو كادت • • وتناسقت القوى البذاءة لتصنع مجتمع الايمان • •

وكان أصحاب رسول الله أشبه شئ، بباقية زهر نضير - لكل زهرة عطر • • وكانوا كالحلقة المفرغة في الفضل - وكانوا نماذج حية في حسن الطاعة والاقتداء •

(٢) رواه البخارى •

(١) رواه ابو داود •

وبذا قامت حضارتهم على سواعد الرجال العظماء . .
فكانت قوية الدعائم شامخة البناء . .

يقول رينان : [أن بعض الأديان قد أسستها أيدي النساء
ولكن الاسلام قام على سواعد رجال أولى عزم كمحمد (صلعم)
يعرف فيه كل منصف أنه قدس الأهداف - انه دين الحزم
والجد دين البساطة والمساواة والحرية والعدالة] ورغم تعدد
الأجناس والامم والعناصر التي دخلت رحاب هذا الدين فانه
قد استطاع أن يستوعب خصائصها - وأن بفجر ملكاتها - وأن
يصهرها في بوتقة وأن يصوغها صياغة رائعة . . تعطي من
أنفس ما تملك للحياة كلها - وليس لجنس أو عنصر أو أمة
وأصبحوا جميعا بنعمة الله اخوانا . .

ولم يقل واحد من هؤلاء أنا فارسي - أو رومي - أو حبشي
لأن أساس التفاضل في الاسلام هو التقوى التي تستقر في
القلوب والضمائر . . ولا تتغير الاجناس ولا تتلون بتلون
البشرة . .

ولهذا ساد بلال وعمار وصهيب في هذه الدولة الجديدة . .
وأصبحوا رسل حضارة للعالم بأسره . . وفجر الاسلام
مواهبهم فأعطت الحياة علما وخيرا وإيمانا وعدلا وكرامة !!

ان هذا المجتمع الطيب قد أعطى من نفسه أكثر مما طلب
منه ، ووصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : « ويؤثرون على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) » .

انه مجتمع الايثار لا الأثرة فقد أعطى من غير أوامر انطلاقا
من الايمان والعقيدة ولهذا جاءت الآية واصفة لا أمرة وهذا من
عجائب المنهج الرباني .

(١) آية ٩ سورة الحشر .

(ه) تكامل جوانبها واتساق عناصرها :

وهو تكامل يعنى انسجاما رائعا فى العناصر واتساقا فريدا فى الملكات ، واستيعابا شاملا للدين والدنيا - وجمعا رائعا بين المادة والروح وشمولا عاما لكل مساحى الحياة . .

والحقيقة أن القرآن بوصفه منهجا لتلك الحضارة فيه بيان كل شىء كما وصفه رب العزة والجلال فهو لم يدع ناحية من نواحي الحياة الا ذكرها . . بل لم يدع أملا للانسانية الا حققه . . ولكنه مرتبط من قبل ومن بعد بجهد البشر ليحققوا مبادئه - ويطبقوا أحكامه - ويعيشوا نظامه . . وهو نظام متكامل لا يغنى فيه شىء عن شىء، فينبغى أن يؤخذ كله بمنتهى الطاعة والحزم والانقياد - أما أن تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض فذلك هو الخسران المبين . . فالعقيدة - والعبادة - والأخلاق - والمعاملات - والحدود - كلها نظام ربانى لا ينبغى أن يمس بتعديل أو جرح . . وانما يجب تطبيقه كما أراد الله فى جميع الأوقات . . فلا يجوز أن نلجأ اليه وقت الازمات ثم نتخلى عنه أوقات الرخاء، لأنه مسلك لئيم . . وليس الدين مادة ترف نأخذ حيننا وندعه حيننا آخر ولكنه نظام الحياة والعقيدة معا . . وهذا الكتاب ليس نظريات للحفظ والمدرسة - وانما هو مبادئ للتطبيق والممارسة . . وكل آية تطالب بترجماتها فى الحياة وبتحويلها الى عمل وسلوك فلا بد من تمكنه ليؤدى دوره فى قيادة الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا .

وهكذا . . لابد من فقه هذه الخطوط العامة . . وتوخيها . . ولا علينا فى هذا الاطار أن نستفيد من نجارب البشر - ومن غير التطبيق يصبح هذا الكتاب فلسفة نظرية أو رياضة عقلية وقد يتخذ قوم مادة للتغنى - والتجويد أو حجابا يتبركون به

ومال هذا نزل القرآن !! وانما نزل ليكون منهج حياة ونظام
مجتمع وأساس حضارة ولتطبق قيمه ومبادئه ليتحول الى
سلوك تصطبغ به الحياة - ويسير عليه المجتمع . . وانه
ليؤدى دوره بجهاد البشر وبجهودهم ومدى استفادتهم
واستيعابهم . .

ولا يعمل بطريقة سحرية قط وتلك هى الواقعية العملية ،
ان هذا التكامل بالسواعد الفنية - وروحا تعبد الله بالقلوب
الزكية . . وهو يمزج بين العنصرين فى كيان المسلم ويلائم
بينهما ملائمة دقيقة بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر . .
ويبنى حضارته على أساس من ذلك التكامل - ولعنة
الحضارات المادية أنها أهملت جانب الروح وأنهكت قواها فى
المادة وسخرت نفسها لمطالب المال والدولار وباعت عقيدتها
فى بورصة العقود وغدت جسما منتفخا متورما تراه لأول وهلة
فتظن به العاقبة ويروعك رواؤه بينما هو مصاب فى قلبه بشتى
الأوصاب والعلل . . ولا يمكن للحضارة الانسانية أن تقوم
على عنصر واحد مهما قوى ذلك العنصر لأن ذلك ضد الطبيعة
والفطرة .

واذا كانت أعراض الفناء لم تظهر أمامنا بشكل واضح
على تلك الحضارات فانها دفينه باطنية وانها لتتمثل فى أزمة
الضمير - والأخلاق وسوءات الفجور والعريضة - ومظاهر
الاباحية والاحاد انها حضارة للدنيا فقط . . بل للحيوانات . .
وليست حضارة الآخرة ولا الآدميين ويكفى أن تلك الحضارات
المادية صنعت الحضارة بيديها ثم عبدتها من دون الله . .
فالآلة والانتاج والقيمة الفائضة وما الى ذلك من ثروة
الشيوعية كلها آلهة تعبد من دون الله . .

واستعبدت بذلك قلب الانسان وضميره . . وكذلك حضارة الغرب باعت أخلاقها في عالم الارقام والاسلحة والمتفجرات . . | أفرايت من اتخذ اليه هواه واضله الله على علم (١) | وهذا الضلال الساذج « من غير علم » يمكن حل عقده بسرعة متى اتجهت الفطرة - وانقاد القلب . ووضح الدليل . . أما الضلال العالم - أو العلم الضال فهو خبيث شرير متعدد المسارب في دخائل النفس متغلغل الجذور في أعماق الوجدان والاحاد في هذا العصر كله من هذا الطراز الخبيث الذي تعنيه الآية الكريمة .

ومن ثم فالجاهلية التي يخوض الناس غمارها في هذا العصر . . أشد نكرا من جاهلية القرون الأولى . . لانها جاهلية مغرورة بالعلم ومنجزاته !!

وكما أن التكامل يعنى انسجاما بين الروح والجسد فهو أيضا يجمع بين العقيدة والعمل - وبين القيادة والعبادة - بين المجتمع والمسجد - بين العلم والدين - بين الأخلاق والسلوك - بين الدنيا والآخرة . . بين النظرية والتطبيق . . بين الحرب والسلم - كما يعنى تكاملا في الحياة من حيث الفهم السياسى والوعى الاجتماعى والعلاقات الدولية وعلاقات الأفراد ببعضها على صعيد المجتمع وفي رحاب الأسرة ويوضح علاقة الانسان بربه وبنفسه وبالكون من حوله . . كل ذلك ينسجم ويتناسق ويتلاقى في كتاب كريم لا يكلفنا أكثر من التأمل فيه - والاستمداد منه والمعاشة له والعمل به والثقفة التامة فيه ، فإذا كل أهدافنا تتحقق - وبجميع مشكلاتنا تحل - وإذا بأعدائنا يندحرون .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

ولقد انطلق به الرسول وأصحابه فبنوا مجتمعا تميز بالخلق - وتحرر بالعقيدة - وساد بالايمان ولقد خاضوا بالقرآن معارك كثيرة ضد الجهل والأمية - وأشاعوا العلم وحذقوا ضروب الثقافات وتفجرت مواهبهم الذكية فملأت الحياة معرفة وثقافة •

و ضد التخلف : فنهضوا بمجتمعهم - وبنوا قواعده - وأسسوا اقتصاده - ونشطوا في العمل والتجارة والبيع والشراء - وأثروا من أعمالهم فتصدقوا على البائسين - وتبرعوا للجيش - وأعانوا على صنائع المعروف •

وخاضوا معارك عسكرية : فحاربوا - وانتصروا - وفتحوا الدنيا وأسسوا أمجد الحضارات •

ومعارك اقتصادية : فزرعوا الأرض - ووزعوا الماء - وحاربوا الظلم والاستغلال وكافحوا الربا - وطوروا الجيش المحارب •

ومعارك سياسية : فبعثوا سفراءهم الى الأقاليم لشرح قضية الاسلام - وتحركوا « دبلوماسيا » ليقتنعوا العالم بعدالة مبادئهم - وهل كانت هجرتا الحبشة - وبيعة العقبة - ومكانبة الملوك الا أعمالا سياسية واعية ؟! وهل كان تأمين الطرق في أول عهد الرسول بالمدينة واصطناع الموده بالنسبة لمن يقيمون على امتدادها الا عملا سياسيا واقتصاديا ؟

ثم كان في تأصيل مبدأ الشورى والتلاحم الفكرى الدائم بين الرسول وصحابته وأنشاء « ما يشبه المجالس المتخصصة » كمجالس الحرب - ومجالس الشورى - وعيئات الافتاء مناهج سياسية رائدة لم يزل العالم كله يتطلع اليها حتى وقتنا هذا ؟!

ومعارك اجتماعية : ضد نزعات الجهل والحق والسفاهة والتفرقة العنصرية التي شن الرسول عليها الحرب من أول لحظة . فجعل بلالا مؤذنه يصدح بكلمة التوحيد من فوق الكعبة . ويلقبه عمر بالسيد . . وهكذا نجحوا فيما فشلت فيه أمريكا الآن وهكذا خلا مجتمعهم من مشكلات العنصرية ومشكلات اللون والعرق والجنس ، وتسادت جميع القوى فيه للبناء والتعمير وأبرزت أنفس مواهبها فنجلت في المجتمع كفاية وعدلا - وخلقا وعقيدة وإيمانا بالله .

وعلى الرغم من أنهم نهضوا بكل هذه الأعباء - فإنهم استعانوا على كل ذلك بتقوى الله - ولم تشغلهم الشواغل عن ذكر الله - ولا عن أداء الصلاة - حتى وهم أمام العدو وفي جبهة القتال [يأبىها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلمكم تفلحون (١)] ومع ذلك فالاعداد المادية مطلوب [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢)] وهي قوة متطورة تأخذ شكلا يلائم العصر ويناسب البيئة ولهذا أطلقها القرآن .

هكذا فهموا التكامل - وطبقوه - وأنشأوا على أساسه حضارة قرآنية متكاملة .

وكما يعنى التكامل الجمع بين كل ما مضى فإنه يعنى أيضاً تحقيق مصلحة الفرد من حيث هو فرد ومصلحة المجتمع بوصفه مجتمعاً من غير تعارض بين المصلحتين - فان مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد فما ينبغى أن تطغى واحدة على الأخرى كما فعل العالم الرأسمالى - الذى نزع نزوعاً فردياً ، فترك للفرد أن يفقد زمام

(١) آية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) آية ٦٠ سورة الأنفال .

نفسه - وأن يفعل ما يشاء ويقول ما يريد باسم الديمقراطية - وكذلك لا يجوز أن تطغى مصلحة الجماعة كما فعل العالم الشيوعي حيث ألغى إرادة الفرد ، وزكى النزعة الجماعية ٠٠ فلا أمر ولا سلطان ولا إرادة إلا للجماعة أما الفرد فيشبهه الترس في الآلة ، ولقد شقى العالم من جراء هذه التناقضات التي عادت عليه بأوخم العواقب ، وكل سوات العالم الرأسمالي تتركز في الفردية ، وكل سوات العالم الشيوعي وما فيه من أهراب وقمع ودكتاتورية إنما ترجع إلى النزعة الاجتماعية أما الإسلام وحضارته ، فإنه يجعل مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة - وذلك لأنه إذا صلح الفرد صلح المجتمع - وهل المجتمع إلا أفراد ؟ ومن ثم نجد القرآن يحث الفرد على الروح الجماعية فيخاطبه كثيراً ضمن الجماعة [يأيها الذين آمنوا - يا بني آدم - يا عبادي - يأيها الناس] ، وذلك ليكافح في الفرد المسلم نزعات الأنانية ويشعره بأنه عضو في مجتمع يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ونسمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » فالفرد هنا مطالب برعاية شأن الجماعة ٠٠ كما نرى الجماعة مسئولة عن الفرد ، من حيث تقويمه وكبح جماحه ورده إلى الحق والعدل [وانتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (١)] وتقوم قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي المعروفة برسالة التوجيه المعنوي على هذا الأساس ، والله يقول : [فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولبنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (٢)] ٠ ٠ لا بد في ظل الآية من رأى عام مسلم يمكن أن يسمى جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليقوم بواجبه في الدعوة نحو المجتمع الكبير ، هذه

(١) آية ٢٥ سورة الانفال .

(٢) آية ١٢٢ سورة النوبة .

المسألة التي يحلها الاسلام حلا طبيعياً ملائماً للفطرة ، ما تزال حتى اليوم تقسم العالم الى قسمين : رأسمائى ، وشيوعى . . . والواقع أنه لا تعارض على الاطلاق بين النزعتين كما مر لکنه، ينبغي التنبيه الى أن الاسلام يجعل الخطيئة فردية – كما يجعل الصلاح فرديا والحساب عليها كذلك فردى لا دخل للجماعة فيه [من عمل صالحاً فلنفسه من أساء فعليها (١)] . وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء (٢)] فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٣) . فليس هناك فى الاسلام ما يعرف بالتكفير الجماعى عن خطايا البشر كما تزعم المسيحية ، التى تدعى أن المسيح قد تحمل الصلب ليكفر عن خطايا البشرية !!

هنا فقط ، يبرز الطابع الفردى فيما عدا ذلك لا تعارض بين مصلحة الفرد ولا بين مصلحة الجماعة .

الرسول ومسئولية الجماعة :

فى ضوء الهدى النبوى نستطيع أن نلمح الأساس السليم لبناء مجتمع قوى ، تتحمل فيه الجماعة المؤمنة مسئوليتها كاملة . . . لتحدد الاطار الذى تتحرك فيه حرية الأفراد . . . ولا تترك لهم أن يفسدوا ويفسدوا ويهتكوا الأعراض ، باسم الحرية .

ونرى فى الحديث الذى سنسوقه الآن آية الرشد النبوى – وقوة الدلالة على هذا المعنى – وتحديد المسئولية الجماعية – وحدود الحرية الفردية . التى لا مجال بعدها لشرح أو توضيح

(١) آية ٤٦ سورة فصلت .

(٢) آية ١٢ سورة العنكبوت .

(٣) آيتا ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .

فلا نترك للأفراد أن يفعلوا ما يريدون - ويقولوا ما يشاءون ولو كان الحاداً وكفراً باسم الحرية •• ولا نتحامل عليهم من غير مقتضى أو موجب لأن ذلك امتهان لحقوقهم - ومصادرة لحريتهم •• وهذا تأخذ القضية وضعها السليم وهى أن مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة والعكس •

بين النزعة الفردية والجماعية :

روى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبى [صلعم] قال :

« مثل القوائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها اذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً ولم نوذ من فوقنا !! فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً - وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » •

بهذا التمثيل الرائع •• يحل رسول الله [صلعم] من وراء الغيب مشكلة ما يزال العالم الحديث متورطاً فيها الى اليوم •• وهى مشكلة النزعة الفردية والجماعية •

والحديث يرسم الاطار السليم الذى ينبغى أن تتحرك فيه حرية الأفراد • فاذا تجاوزوا ذلك هلكوا - وأهلكوا المجتمع كله •• ومجال هذه الحرية ألا تؤذى أحداً وألا تضر بمصالح الآخرين فى اطار الدين والخلق ، فمن حق أى فرد أن يتكلم بحرية ما لم يجرح شعور الآخرين وأن يفعل ما يحب ما لم يسيء الى المجتمع - وما لم يخرج على الفضيلة •

فاذا تجاوز ذلك فعلى الجماعة أن تضرب على يده اصلحته
هو ولمصلحة المجتمع نفسه لا أن تتركه يعربرد وينزو كما تفعل
أمريكا اليوم ، بل العالم الغربى كله ، ومهما كان المبرر فلا بد
من قمعه ليرتدع !! فان أهملت الجماعة واجبها في تأديب المارق ،
ورد الغوى فلننتظر سوء العاقبة !!

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يختار لتوضيح
المشكلة الاجتماعية أسلوب التصوير الحسنى المألوف لينتضح
المعنى ويبرز الأثر ، وهو يؤثر السفينة وركابها لان أحداً في
الحياة لا يجهل أمرها ، فالأمة في مجموعها الكبير - قاداتها -
وجمهورها ، تشبه بقوم مختلفين ركبوا سفينة ، فأما القادة -
الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر - فهم في أعلى السفينة
لأن هذا هو وضعهم ، انهم في الحياة والواقع قدوة فليكونوا في
أعلى السفينة ، لأن هذا هو وضعهم في الحياة وأحكام الشريعة
السمة التي تتجه بالمجتمع كله الى الخير - اذا أحسن تطبيقها
والسهر عليها هي السفينة التي تتجه بالراكبين الى شاطئ
السلام متى أحسنت قيادتها وهذا التشبيه بجميع عناصره
يلتئم ليكون هيكلًا عامًا تشبه فيه هيئة المسلمين جميعا - من
يقومون على حدود الله - وهم الحكام - رمن يقعون فيها وهم
العامة • بهيئة قوم ركبوا سفينة - بعضهم أعلاها وبعضهم
أسفلها - بعد أن استهموا على قسمتها ، كما يشبه مسئولية
قادة الأمة عن عبث العابثين بمسئولية من ركبوا أعلا السفينة
ومن ركبوا أسفلها •

ويتمم الرسول شرح الموضوع : فيبين لنا ان هؤلاء الذين
أصابوا أسفل السفينة يريدون الحصول على الماء ليشربوا :
وأنهم يريدون ألا يصعدوا الى أعلى السفينة لأن ذلك يؤذى من
في أعلاها وانما يؤثر الطريق الأسهل • والخطر في الوقت

نفسه ، فتحدثهم نفوسهم أن يستعملوا حريتهم الفردية بأن يخرقوا خرقاً في نصيبهم من أسفل السفينة فيشربوا دون ازعاج أحد ، ومادروا أنهم بحماقتهم سيجذبون السفينة كلها الى القاع . .

والأمر بعد ذلك يتوقف على همة من في أعلى السفينة – ومقدرتهم على التصدي لهؤلاء الحمقى ومنعهم . . فان فعلوا ذلك فقد أنجوا أنفسهم – وأنجوا من تحتهم والا هلكوا جميعاً لأن الغرق لن يقتصر على جماعة دون جماعة .

ولهذا التمثيل انطباع رائع عن مفهوم الحرية ومسئولية الجماعة فكما أن مستقبل السفينة كلها متوقف على جهود من في أعلاها . . فكذلك شرع الله كله متوقف على نشاط القائمين على الأمر وحكام هذه الامة . . وكما أن على من بأعلى السفينة أن يضربوا على يد من بأسفلها فكذلك واجب القادة والحكام أن يقيموا حدود ويبدروا مفاصد الغرغاء والسوقة . .

وكما أن نفوس السوق قد حدثتهم بخرق السفينة من أسفل فكذلك حال السفهاء في المجتمعات كلها يريدون أن يجذبوا باجرامهم وفسادهم المجتمع الى الهاوية .

وكما برروا عملية خرق السفينة بأنهم لا يريدون أن يؤذوا من فوقهم فكذلك حال الدهماء يبررون فجورهم دائماً بأنهم لا يؤذون الا أنفسهم . فما شأن غيرهم بهم ؟ انها حرية وكما قالوا : « نخرق في نصيبنا » فكذلك يقول الدهماء اننا نسيء الى أنفسنا . . وانها حريتنا الشخصية . . وكما أن مصير من في السفينة متوقف على قوة الجماعة العليا فكذلك مستقبل هذه

الأمة متوقف على درء الفساد عن مجتمع ومعاملة المنحرفين وكما يأخذ من بأعلى السفينة على يد من بأسفلها لمصلحة الجميع . . فكذلك كبح جماح العصاة فيه سلامة المجتمع كله . . وأن الحزم انما يتجلى في اقامة حدود الله .

وتبقى نقطة حاسمة في الموضوع وهى أن الذين فى أسفل السفينة يفهمون غباوة وجهلا أن المكان الأسفل لهم وحدهم فلهم حق خرقه أو تركه .

هذا بالضبط - هو مفرق الطريق بين حق الفرد والجماعة . صحيح أنه مكانهم ولكن من قال انهم يستعملون الحرية فى خرقه وهل هذه حرية ؟ ان هذا العمل لن يعود عليهم وحدهم بالضرر ولكنه سيؤذى غيرهم . . فباسم المصلحة العامة يجب أن ضرب على أيديهم . . ولو أن خرق السفينة لا يؤذى الجميع - بل يقتصر على أصحابه لجاز تركهم . . لكن كيف وحريتهم فى ذلك تتعارض مع مصلحة الجماعة ؟ ومن هذا يفهم أن الاجرام لا يهدد المجرمين فحسب بل يهدد المجتمع كله !!

هكذا دائما أصحاب المذهب الفردى يثرون بالحرية . . ولا يتوقفون فيها عند حد . . ويقولون :

ان هذه الحرية ملكنا . . أما الاسلام فقد جعل للحرية الفردية اطاراً تتحرك داخله ولا تتجاوزه وهى ألا تؤذى الغير - والا فعلى المجتمع الكبير أن يصادرها - وعلى أولى الأمر أن يأخذوا أصحابها بالحزم وبذلك يسلم أمر المجتمع !!

أرأيت الى روعة التشبيه وعمق تأثيره فى النفس - وحس توضيحه لمفهوم الحرية الفردية - ومسئولية الجماعة القيادية .

ذلك هو أساس الفوز في الدنيا والآخرة . . لا مانقراء اليوم من بحسوث وكتب حول الحريات العامة . . من أراد التزبية الاجتماعية الواضحة في أسلوبها البسيط وقالها الفطرى . . ومغزاهما الواضح فليلتمسها في هدى رسول الله !!

ان هذا الحديث يحدد مساوىء المذهب الفردي . . كما يحدد واجب المجتمع في كبح جماح الأفراد ورد غوايتهم وهكذا يبدو جلياً أن الجماعة مسئولة عن الأفراد . . اذا ما تجاوزوا حدودهم . . وأن مصلحة الأفراد من مصلحة الجماعة – وكذلك مصلحة الجماعة من مصلحة الأفراد فهذا هو حجم المشكلة . . في وضعها المعقول !!

وهكذا نرى أن الاسلام لا يفصل بين الفرد والجماعة ولا يضعهما في معسكرين متصارعين يحاول أحدهما أن يغتال حقوق الآخر فما دام للفرد نزعه استقلالية – ولكنها لا تخرجه عن كونه عضواً في المجتمع فقد روعى في منهج الاسلام أن يوازن بين النزعة الفردية والجماعية دون أن ينفى إحدى النزعتين لحساب الأخرى – ودون أن يسحق الفرد لحساب المجتمع – أو يضرب نظام المجتمع كله لحساب فرد أو أفراد . . انه يهتم بالإنسان من حيث هو انسان له خصائصه وقيمه سواء كان فرداً أو عضواً في جماعة وهذا لون من التكامل – الفرد للمجتمع – والمجتمع للفرد – وبهذا تنطلق الحضارة القرآنية من غير عقد ولا ضغائن !!

ولعل في شرح الخصائص البارزة لحضارة القرآن من وحدانية مطلقة – ومن تناسق وشمول . . ومن روح انسانية نبيل يتجلى في تشريعها وفي واقعها العملى .

وكل ذلك ونحوه .. جعل منها أمل الادمانيين المريضة
المضطهدة المستذلة .. فالتقت بها على قدر وموعد - وكان هذا
اللقاء من اللحظات الحاسمة في التاريخ .. بل من المنعطفات
الكبرى في خط سير الحياة فمن جهالة يملؤها السفه والفجور الى
حضارة يملؤها العلم والنور .. ومن ضلال الخرافات الى
حقائق المعارف - ومن شتات التفرق الى ائتلاف الشمل - ومن
العداوات والثرارات الى الأخوة والموادات .. وصدق ربنا
اذ يقول :

[واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار
فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] *

(١) آية ١٠٣ سورة آل عمران .

الباب الثالث

قيم الحضارة القرآنية

(١) القيمة الايمانية : عندما ننظر في مجموعة القيم التي تنهض عليها حضارة القرآن - فاننا نوكد من البداية أنها ليست قيما متناثرة . . بل هي متعانقة تعانق الأمواج في المحيط الهادئ ، . . يمتزج بعضها ببعض ويتشابك اللاحق منها بالسابق في تتابع وانسجام حتى تكون في النهاية هيكلًا ضخماً لأروع حضارة عرفها الانسان . .

ونقصد بالقيمة الايمانية : تلك العقيدة المتكاملة التي يتحرك بها المسلم في مجال الحياة عابداً لربه ومجاهداً في سبيله وساعياً في الخيرات باذنه . . وهذه العقيدة ايمان وثيق بالله لا يتزعزع . . وثقة تامة في عدله وقضائه وتصديق شامل بكتبه ورسله . . ومعرفة يقينية باليوم الآخر على نحو ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فاذا استقرت هذه العقيدة في وجدان المسلم دفعت به الى البذل والتضحية وأداء كل واجب يكلف به أو يطلب منه . .
يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (١) [.

وبهذه العقيدة تتحرك كل الحوافز الإيجابية لدى المسلم . . عندما ينادى بها . . ومن ثم كان السبيل الأمثل الى استجاشة

(١) آية ٢٤ سورة الانفال .

عاطفته - واستجابة قلبه - وتحريك وجدانه وانقياده الى
 اى تكليف شاق .. يبذل فيه روحه وماله أن ينادى بهذا
 النداء الحبيب :

« يأيها الذين آمنوا » ثم تتوارد التكاليف بعده فى سهولة
 ويسر ..

ان هذا النداء مفتاح سحرى يفتح قلب المسلم ووجدانه ..
 يلقي اليه بكل الوعى وبكل القلب بل بكل الحب .. فيخشع
 وينقاد وتصدر الأعاجيب .. وكم للطاعة والانقياد من آثار فى
 بناء الحضارات .. لقد أحب المسلمون نبيهم حباً عميقاً صادراً
 عن العقيدة .. فاطاعوه فى كل ما أمر .. وصدقوه فى كل ما حدث
 به عن الله .. وهكذا ما ان تنزل آية من السماء بتحليل أمر أو
 تحريم الا سارعوا بداعى الحب ودافع العقيدة مهطعين
 مستجيبين ..

وتلك هى أكرم ثمرات القيمة الايمانية فى بناء حضارة
 القرآن .. انها تملك بهذه القيمة السيطرّة الكاملة على أبنائها
 .. وقد رأينا كيف حرمت الخمر بكلمات وفى لحظات !! وكيف
 انطوى بساط الجاهلية كله باسم العقيدة والايمان ..

وقيمة أى نظام حضارى ليست فى نصوصه المكتوبة -
 ولكن فى تطبيقه العملى .. ولقد استطاعت حضارة القرآن أن
 تصنع لأبنائها وجداناً - يسالم أو يحارب - ويحب أو يكره -
 تبعاً لعقيدتهم .. فهم قد أحبوا فى الله - وكرهوا الله - وسالموا
 وحاربوا الله .. قاطعوا أبناءهم وآباءهم وأمهاتهم لأنهم على غير
 عقيدتهم .. وأحبوا الفقراء والعبيد والأعاجم لأنهم على عقيدتهم
 .. وضحوا بالمال وبالوطن فى سبيل عقيدتهم .. ولم يكن

شىء فى الوجود أعز على المسلم من عقيدته فمصيبتة فى المال
يحتملها ٠٠ وكذلك فى الولد والأهل ولكن المصيبة فى الدين لا
تحتمل ولا تطاق ٠٠ وإذا اختلفت العقيدة فلا أنساب بينهم ٠

لقد روى أن أبا سفيان قدم المدينة فدخل على ابنته أم
حبيبة - وكان ما يزال مشركا ٠ فلما ذهب ليجلس على فراش
رسول الله طوت عنه الفراش فقال يابنية ما أدرى ؟ أرغبت بى
عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ ! فقالت : بل هو فراش
رسول الله وأنت مشرك نجس !!

فهل تتصور أن بنتاً تزجر أباهما ٠٠ وتنهره وتضن عليه
بالفراش كهذه البنت ؟ ٠٠ انها العقيدة فصلت بين الأب وابنته
٠٠ فلم يعد للأبوة بعدها تأثير !!

ولقد أنشأت العقيدة لأصحابها حباً فى نبيهم - الى حد
لا يتصوره التاريخ لانه حب يصدر عن الايمان ٠٠ بل ان
الايمان لا يتحقق لمسلم ما الا اذا كان الله ورسوله أحب اليه
من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه ٠٠

قال عروة بن مسعود الثقفى بعد رجوعه (١) من الحديبية
يخاطب المشركين : [أى قومى !! والله ما رأيت ملكا يعظمه
أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً - والله ان تنخم نخامة
الا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم
ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ٠٠ واذا تكلم
خفصوا أصواتهم عنده - وما يحدون اليه النظر تعظيماً له ،
والله لقد وفدت على الملوك - على كسرى وقيصر والنجاشى
فما وجدت أحداً يعظمه أصحابه كما يعظم هؤلاء أصحابهم] ٠

(١) زاد المعاد جزء ٣ ص ١٢٥ ٠

وقد كانوا في الحروب يفتدونهم بأرواحهم – ويتلقون عنه
السهم بأبدانهم – ويؤثر الواحد منهم أن يموت ولا يشاك
رسولهم بشوكة * * ويسألون عن سلامته قبل أن يسألوا عن
ذويهم وأهليهم في الحروب فاذا اطمأنوا الى سلامته قالوا : كل
شيء بعد ذلك جَلْ !!

العقيدة والضمير :

لقد صنعت هذه العقيدة وجدان المسلم – وكانت رفيقاً
عليه في روحاته وغدواته ، في يقظاته وهجعاته – سواء وهو
فرد أو ضمن جماعة * * فأوجدت له ضميراً حياً يستحي من الله
ومن الناس ، ونفساً لوامة تؤنب على المعاصي والمخالفات –
وعاش المسلمون الأولون في حراسة ضمائرهم لا تغريهم الدنيا
بكل سحرها – ولا تطرف أعينهم بكل جمالها – قد أخرجها
من قلوبهم فهان أمرها على نفوسهم * * واقتدوا برسولهم في
الصدق والأمانة والعفة والنزاهة والاستقامة والايثار فبلغوا
من ذلك ما لا مطمع لاحد في وصفه * * وقد قرءوا في كتاب ربهم
« ان الله كان عليكم رقيباً (١) » فراحوا وغدوا في ظل هذه الرقابة
وان أحدهم ليظفر بتاج كسرى فيجيء به الى أمير المؤمنين * *
وفاء بحق الأمانة * *

ومما حبيب الناس في هذه العقيدة بساطتها وسماحتها فهي
ليست عقيدة تثليث – ولا كهانة ولا تعقيد وانما هي عقيدة
وجدانية سمحة [انما الله اله واحد (٢)] ١

(١) آية ١ من سورة النساء .

(٢) آية ١٧١ من سورة النساء .

وهذا السمو في الوجدانية كان له أثره في رفع مستوى
الانسان . . . وتحرير النفوس من طغيان الملوك والأمراء ورجال
الدين . . . وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين - كما كان
له أثر في خلو هذه الحضارة القرآنية من كل مظاهر الوثنية
وآدابها على مر الزمن *

وعنده الوحدة التي تنادى بها عقيدتنا تطبع كل الأسس
والنظم بطابعها فهي وحدة في تصور الاله - ووحدة في
الرسالة - ووحدة في التشريع . . . ووحدة في الأهداف العامة
ووحدة في الكيان الانساني وفي أسلوب المعيشة ونظام التفكير .
وأساسيات الخوق *

وبسبب هذه البساطة اعتنقها القاصي والداني وأشد
الأجانب بصفاتها وسماحتها . . . ووجدوا فيها سمو العاطفة
وشرف الوجدان . . . فهل حاولت حضارة الغرب، يوما أن تخضع
أصحابها لرقابة الضمير ؟

(ب) القيمة العلمية :

من القيم التي نادت بها حضارتنا : القيمة العلمية . . . وهي
قيمة لاتنفصل عن العقيدة - وانما ترتبط بها وتصدر عنها ذلك
أن هذه العقيدة تقوم على أساس علمي - وأحكام شريعته
انما تزدهر في الأجواء المثقفة - وهذه العقيدة أيضا تؤكد دور
العلم في الحياة وتهتف بالعقل البشري أن يتأمل في خلق الله
وأن يتدبر في ملكوته وأن يتخذ من هذه المشاهد غذاء لعقيدته ،
وقوة ليقينه وإيمانه [قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما
تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١)] . . . فالكون كله
مسرح تتجول العقيدة في جنباته وتطير في آفاقه عابدة مسبحة

(١) آية ١٠١ من سورة يونس .

مستلهمة من بدائع صنع الله وروائع خلفه معنى العبودية والاحلال والخضوع ٠٠ وهكذا نجد العقيدة في هذا المجال عقلا يشتغل وايماننا يشتعل ويقتينا يتزايد ويربو ٠٠ وبهذا الفيض الدافق والالهام المتجدد تظل الشعلة الايمانية متقدة باهرة الضياء لأنها تستمد من معين لا ينضب يؤازرها كون مشحون بكل جليل - وعقل مدرك لكل بديع وجميل !!

والعجيب أن القرآن لا يشجع على العلم الديني فحسب ٠٠ ولكنه يشجع على كل علم يؤدي الى نفع البشرية ويفضي الى تقدم الحياة ورفقيها ٠٠ وزيادة ارتباطها بالله ٠٠ ولنقرأ في ذلك قول الله سبحانه [ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (١)] ٠

فانظر كيف جمعت الآية أشتاتاً من المعارف الحيوية وأنماطا من المشاهد الطبيعية ثم طلبت الى المسلم أن يتأمل في كل ذلك بعقل الباحث المفكر وليس بالنظرة العجلى ثم ختمت الآية بما يفيد أن العلماء هي أخشى الناس لله ٠٠ واذا نحن نظرنا في تلك اللوحة القرآنية التي تعرضها الآية السابقة وجدنا منها ما يرتبط بعلم النبات (فأخرجنا به ثمرات) ومنها ما يرتبط بأنواع التربة وعلم طبقات الأرض (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها - وغرابيب سود) ومنها ما يرتبط بعلم الانسان (ومن الناس) ومنها ما يرتبط بعلم الحيوان (والأنعام والدواب) ٠٠ وهي نظرات فاحصة تقوم على دراسة واعية وتصل الى نتائج محددة ٠٠

(١) آية ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر .

ان هذه الآية تشير الى موضوعات علمية ٠٠ وتترك للعقل
البشرى أن يتجول في رحابها مكتشفاً وملاحظاً ومجرباً ٠٠
ولكن هذا العلم في الجو الاسلامى علم باسم الله لا باسم أحد
سواه ٠٠٠

وبذلك يطرد نفعه للحياة كلها وللانسانية جمعاء ولا
يسخر للغواية والشهوات وتدمير الحياة واستعباد الناس ٠٠
وأول آية تنزل على الرسول الأسمى تؤكد هذه المعانى (اقرأ
باسم ربك الذى خلق) وبذلك يأخذ العلم في جو حضارتنا
منطلقاً ربانياً ٠٠ وويل للعلم ان انفصل عن الله - وويل
للحياة منه !! وهكذا يصبح شعار الاسلام هو العلم ٠٠ وشعار
حضارته هو الثقافة والمعرفة الشاملة ٠٠ والقرآن الكريم آيات
لقوم يعقلون لقوم يتذكرون لقوم يتفكرون لأولى الالباب -
لأولى النهى والكون كله فيه آيات لقوم يعقلون - فيه آيات
للموقنين - ا وفي أنفسكم أفلا تبصرون (١) [ومن آياته
خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك
لآيات للعالمين (٢)] ٠

وتأمل معنى هذه الآية الكريمة : [أم هو قانت آناء الليل
ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى
الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب(٢)] ٠

ماذا ترى ؟ ألسنت معى فى أن مزيجاً رائعاً وصحياً بين
عبادة الله وبين العلم النافع قد التقى فى رحاب هذه الآية !!؟

(١) آية ٢١ سورة الذاريات .

(٢) آية ٢٢ سورة الروم .

(٣) آية ٩ سورة الزمر .

فهذا القانت العابد لا يرتفع الى قمة التقوى الا اذا صحب عبادته علم نافع يضىء جوانبها ، ويفسر أحكامها ويوضح أهدافها ٠٠ وبذلك تكون عبادتنا لله على بصيرة ونور ٠٠ وليس كعبادة الجاهل الذين يؤدونها كيفما اتفق ٠

فهل رأيت امتزاجاً بين العلم والعبادة أكثر من هذا ٠٠؟

والواقع أنه لا يستوى عند الله عالم بأسرار عبادته وجاهل بها ٠٠ بل ان مجال التفاضل بين الناس ، والارتفاع بأقدارهم هو العلم النافع [يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات (١)] ٠

ولهذا كرم الله العلماء تكريماً لا مطمح وراءه لرفعة ٠٠ حيث أضافهم الى نفسه والى ملائكته فى الاقرار بربوبيته ووحدانيته وعلمه :

[شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (٢)] ٠

ومن أدبيات العلم فى حضارتنا - أن يكون خالصاً لله - فهو علم عابد - مسبح - موصول بالله ، والعلوم كلها اذا سارت فى هذا الطريق أدت أهدافها وبارك الله خطاها ٠

[واتقوا الله ويعلمكم الله (٣)]

ومصدر هذا العلم أساساً هو الله ٠

[وقل رب زدنى علماً (٤)]

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

(٢) آية ١٨ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٨٢ من سورة البقرة .

(٤) آية ١١٤ من سورة طه .

وما يجوز لعالم أن يغتر بعلمه •

أوتيتهم من العلم الا قليلا]

والعلم في جو حضارتنا علم متكامل • • يعبد الله ويبني
الحياة • • ويعتمد على التطبيق • • لأنه ليس علماً نظرياً • •
فالرسول صلوات الله عليه يطبق العلم في جميع المجالات • •
فهو يجعل فكاك الأسير في غزوة بدر تعليم عشرة من صبيان
المسلمين القراءة والكتابة • • وهو أول عمل علمي تطبيقي
يبدل في مجال مكافحة الأمية •

ولا يقتصر على ذلك • • بل يخطط بالعلم للمعارك كما
علمه ربه وكما أشار عليه أصحابه •

كذلك يستخدم العلم في مجالات الاقتصاد والسياسة • •
فكلها تعتمد على الأسلوب العلمي فتملك الأرض لزارعها ،
وتوزيع الماء ، وتحرير المعاملات المالية من الربا كله عمل
علمي في مجال الاقتصاد وكذلك مسائل البيع والشراء والقراض
والتجارة !!

ولقد كاتب الرسول ملوكا ، وعقد معاهدات ، وأعطى
العالم في عصره مفهوما واضحا عن قضيته وعدالتها • • وبعث
بالوفود المختلفة ، واستقبل الوفود المختلفة وأنشأ مع الجميع
حواراً مثمراً حول الاسلام وأهدافه • • وأرسى قواعد التعامل
مع أهل الذمة على أسس من السماحة والبر • • وهكذا نرى
العلم يدخل في جميع الميادين •

ويمضي العلم مع الدين في رحلة البناء والتطوير صديقاً
ودوداً • • وتتميز حضارة القرآن بذلك من بين جميع الحضارات
الأخرى • • ولقد استطاعت هذه الحضارة الفريدة أن تنشئ

نظاما للدولة قائما على مبادئ الحق والعدالة مرتكزا على الدين والعقيدة دون أن يكون الدين عائقا يوماً ما عن رقى الدولة واطراد الحضارة . . بل لقد كان الدين حافظاً على الرقى باعثاً على التقدم لأنه ليس دين خرافة وكهانة . . بل دين حياة وبناء ومن بين جدران المساجد تفجرت ينابيع الحضارة وفاضت أنواع التقدم في بغداد وقرطبة ودمشق والقاهرة وغرناطة . . ثم امتدت الى العالم كله . . ان حضارة القرآن لم تعرف يوماً ما الفصل بين الدين والدولة . . فما جاء دين الله الا ليحكم الحياة . . ويسدد خطاها . . ولا بد لدنيا الناس من دين الله !!

ولكن هذه المأساة انما أنشأت في القرون الوسطى وفي ظل الكنيسة عندما انحرفت الكنيسة فامتنت الحرية ، واحتكرت المعرفة . . واضطهدت العلماء وتبننت رجعية الفكر . . ولهذا انطلق العلم في مضمار الالحاد من غير دين !! لكن ما ذنب الاسلام وهو دين الحياة الذي تذبل الحياة بدونه ويصوح نبتها ؟!

لقد كان رئيس الدولة هو الخليفة ، وأمير المؤمنين ، والحكم عنده للحق والتشريع للمختصين . . ولكل فريق من الناس عمل . . والتفاضل بالتقوى .

هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا . . ليس فيه امتياز لأحد . . فالرؤساء أجراء وليسوا أمراء . . وهم هداة وليسوا جباه . . وكاد الفرد المسلم يقول للحاكم أحيانا : السلام عليك أيها الأجير فلا يغضب !!

وفي ظل هذه العقيدة المتفتحة السمة . . وجد العلم مجالا للبحث والابداع . . وتفتحت الآفاق أمام العلماء فبحثوا في كل

شئ ، وكتبوا عن كل شئ . . ومارسوا التجربة العلمية
الرائدة في أرقى مظاهرها . . ووصلوا الى كثير من النتائج
الرائعة في شتى الميادين ، وأهدوا أوروبا كل ذلك العلم ، فما
وصلهم العلم التجريبي الا عن طريق حضارتنا ، وما أخذوا
الفلسفة اليونانية الا عن طريقتنا . . وما عرفوا مناهج البحث
العلمي الا من وسائلنا !!

وسياتى مزيد ايضاح لما استفادته أوروبا منا وما
أخذته عنا وبخاصة في مجالات « التكنولوجيا » من الطب
والكيمياء والضوء والفضاء !! . . كل هذه الانجازات العلمية
الحضارية كان يصحبها الهدى ، ويسددها الدين . . وتنعشها
الروح . . ولم تكن مادية جافة . . ولذا كانت مباركة نافعة
لنا وللإنسانية من حولنا كغيث السماء الذى ينبت الجنات وحب
الحصيد .

يقول برتراند راسل محاكما مدنية الغرب : [الحضارة
الحديثة أعامت الاهتمام بالروح والعالم اليوم بحاجة الى دين
جديد يجعل غاية الانسان خارج هذه الحياة] .

وكانما هذا الفيلسوف الانجليزى يعنى رسالة الاسام ،
وحصارة القرآن . . ففيهما يوجد الحل النهائى لمسألة
الحضارية القائمة . . لأن الاسلام يربط فى وجدان المسلم بين
عالم الحياة وعالم الآخرة .

وهذا لا شك أعظم حافز على تصحيح وجهة العلم . .
لأنها تجعل مناط السعى لليوم الآخر . . ولا تكون الدنيا هى
غاية الانسان ومبلغ علمه وأمله فيعيش حيوانا منطلقا ، ومن
دعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه [اللهم لا تجعل الدنيا
أكبر همنا ولا مبلغ علمنا] . .

وقد ذم الله ذلك اللون من العلم الذى ينفصل عن الآخرة
ويكتفى بظاهر الحياة فقال فى شأنه « يعلمون ظاهراً من
الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (١) » .

والواقع أن الآية تنطبق على حضارة الغرب اليوم . .
نمهما بلغت من التقدم المادى . . فانها لا تخرج عن كنهها
مرتبطة بظاهر الحياة لأن علم الانسان بالحياة وبنفسه
محدودة . . فهو مهما يرتق علم ظاهرى . . لم يصل الى
جوهر الحياة . . وهو من قبل ومن بعد منفصل عن الآخرة
تماماً ومن ثم عبدت الحياة . وأهدرت قيمة الانسان فى عالم
المادة والأرقام ودنيا « الدولار » ومنطلق حضارتنا هو الربط
بين الدنيا والآخرة فى وجدان المسلم ليراقب الله فى كل حركة
وفى كل خطوة ، ومع كل انجاز حضارى ، اتفقا بقوله تعالى :
« سبحانه الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٢) » . فنحن
نبنى الحضارة لا لنعبدها . ولكن لنكون ساداتها - نستمتع
بآثارها ونقر بفضل الله فى كل حين ، ونظل نعبده فى كل وقت
وبذلك ندمى الفضيلة والخير فى ربوع حضارتنا .

يقول الدوس هيكسلى : فى الوسائل والغايات : « ان
الفضيلة والخير لا يمكن أن تنمو أو تعمر اذا لم يكن هناك
نظرة قائمة على التوحيد وعقيدة يكون البشر فيها عباداً لله » .

ويبدو أن القوم فى ظل الحضارة المادية - قد سئمو
الترف - كما سئمو الاحاد والانفصال عن الله فعادوا يطالبون
بحرارة بأن يرجعوا الى حظيرة الايمان - وذلك بعد ما لفحتهم
أعاصير الفجور والكفر فدمرت شخصيتهم وسحقت أرواحهم ،
انها رجفة شوق وانتفاضة فطرة لترتوى الأرواح من نبع الله ،

(١) آية ٧ سورة الروم .

(٢) آية ١٣ سورة الزخرف .

وعبابه الدانور ، والاسلام لا شك هو طريق النجاة في محيط
الفتن والأهواء ، بعد حياة الرجز والفجور ، فالى رحاب الاسلام
يا عبدة المادة فماذا يجدى الترف اذا ذهب الايمان بالله ؟
والايمان هو المعتصم القوى الذى تلوذ به الأفراد والجماعات
في قطوب اليأس وخطوب الحياة فيمنحها الثبات والاستمسك
في الخطوب والكروب والملمات ويفيض عليها من مسكينة الروح
ما ينعش صدرها ، ويلطف وهجها وينشئ لها الثقة والأمل في
يوم لا بخس فيه ولا ظلم ولا هوان !!

ولا تكتفى حضارة القرآن باصطحاب العلم في رحلة
الحياة ، ولا بتكريم العلماء ، ولا بفتح الطريق أمام العقل
الباحث ليكتشف ويرتاد ويرجع بزاد طيب من اليقين ، ولا
بخلق أجواء علمية تزدهر فيها الثقافة ، ولا بوضع أدبيات
لذلك العلم ، وانما تأبى الا أن تضع أساسات للمناقشة
العلمية الهادفة ، وقانونا للمعرفة الكريمة . وقاعدة لما يعرف
بأدب البحث والمناظرة - وذلك باستعمال الذوق - والنزاهة
الخلق - والخضوع للحق ، والابتعاد عن التجريح والسباب ،
حتى مع أهل الكتاب « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي
أحسن (١) » وبوجهنا ربنا الى دليل المنطق وحكم العقل وقاعدة
الحق « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا
الحق (٢) » « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا
وبينكم (٣) » ويقتبح القرآن أسلوب الجدل العقيم الذى يعتمد
على اللجاجة والمراءى من غير استناد الى العقل ، أو الى العلم ، أو
الى مذهب السماء فيقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير
علم ويتبع كل شيطان مريد (٤) » وما أقبح الغرور الخادع ،

(٢) آية ١٧١ سورة النساء .

(٤) آية ٣ سورة الحج .

(١) آية ٤٦ سورة المائدة .

(٣) آية ٦٢ سورة المائدة .

والاعراض عن الحق والتكبر على الحقيقة» ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانياً عطفه ليضل عن سبيل الله (١) « كما يكره القرآن لأتباعه أن يجمدوا على الضلال القديم ، أو يتحجروا على المعرفة الضارة - أو يهملوا عقولهم في البحث والتقصي ، فيسقطوا في هاوية التقليد الضرير الذي يهدر الكرامة ويلغى الشخصية وذلك قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولوا كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير (٢) » ان القرآن في كل ما مضى يضع أساساً كريماً للمناقشة العلمية ، التي تفصل بأصنافها الى الحق ، وتقام عليها الأدلة بأسلوب مهذب ولهجة هادئة متزنة ، وفي كل ذلك تحديد لمناهج المعرفة ومذاهب التفكير ، ولقد تحققت كل هذه الأسس في مجتمع الحضارة القرآنية ، فكم نصبت حلقات العلم - وأديرت فيها مناقشات هادئة وهادفة ، وتحررت فيها العقول من الجمود ، وسطعت الحجج والبراهين ، ولم تترك هذه المناظرات أى اثر للحقد أو الضغينة ، وكانت في واقعها التطبيقى مفخرة من مفاخر هذه الحضارة .

(ج) العمل قيمة عليا في هذه الحضارة :

إذا كان العلم قيمة عليا في مجتمع القرآن ٠٠ سواء منه ما يرتبط بالعقيدة ، أو يتعلق بالتخطيط وشنئون الحياة - فان العمل ، هو الترجمة الحية والتجسيد العملى لنظريات العلم ، ذلك أن العقيدة على المستوى النظرى تحتاج الى العمل ليبرز عنها ويبرزها من نية في الضمير الى عمل في الحياة على شكل

(٢) آية ٨٠ سورة الحج .

(١) آية ٢١ سورة لقمان .

عبادة قانتة من صيام وحج وجهاد وصلاة ولهذا فان العمل هو
الجانب التطبيقي للعقيدة ، وتظل العقيدة حبيسة القلب - حتى
يترجم عنها العمل - ويصبها في قالب محسوس من جهاد
أو صلاة .

وهكذا نظريات العلم المتعلق بالحياة . انها الأخرى لا
يمكن أن تثمر في المجتمع وتنبش الحضارة إلا اذا ترجمها العمل
الى وجود مائل . .

فالعلم في الاسلام ليس علما نظريا ، بل علم يترجم الى
عمل - وللعمل في القرآن مكانة مرموقة . . وانه لعمل يتسع
لحياة ويستجيب لمطالبها - ويتجدد معها وبها - عمل يشمل
شئون الخدمات الانسانية كلها ووسائل الإنتاج وتطوير
أدواتها ، وهو في الوقت نفسه ينظم طاقة الأمة ويوجهها نحو
الهدف الكبير . . وهو يشمل الاعداد لملاقاة العدو وتطوير القوة
وتصاعدها لتردع أعداء الله وبهذا كله يكون العمل في خدمة
الحياة ، وصناعة الحضارة .

ولابد للعمل في حضارة القرآن أن ينتظمه تخطيط دقيق .
وبهذا يبرز الترابط بين الايمان والعمل والعلم .

لقد ذكر العمل في القرآن في نحو ثلاثمائة وستين آية تصلح
اساساً لأرقى اللوائح العمالية في الحياة ، كما تتناول جوانب
مختلفة من هذا الموضوع الكبير .

فالعمل في منهج حضارتنا للذكر والأنثى [فاستجاب لهم
ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من
بعض (١)] . ولابد أن يتم متقناً بحيث يبذل فيه أقصى الجهد

(١) آية ١٩٥ سورة ال عمران .

(انا لا نضيع أجر من أحسن عملا (١)) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) •

والعامل في جو حضارتنا يحرسه ضميره ويراقبه ربه :
(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٢)) فهذا جهاز متابعة دونه كل أجهزة البشر • لا يستخفى منه ولا يحتال عليه والتفاضل بين الناس يكون بالعمل : (ولكل درجات مما عملوا (٢)) :

وأجر الأجير لا بد أن يتم بوفاء وعلى الفور (أعطوا الاجير أجره قبل أن يجف عرقه والعمل في حضارتنا شرف وكرامة وحياة قد مارسه الأنبياء ، ونهض به العظماء (اعملوا آل داود شكراً) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : (انى لا أحب أن أجلس وأنتم تعملون) •

ويقول عمر بن الخطاب • انى لأرى الرجل فيعجبني ، فأسأل اله عمل ؟ فان قالوا : لا سقط من نظارى) • ولا بد من العلاقة الانسانية بين صاحب العمل وأعماله حتى ولو كان العامل رقيقاً (لا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون) •

وبهذه المفاهيم الواضحة ، انطلق بناء حضارتنا في الحياة يخططون بالعلم ، وينفذون بالعمل ، ويراتبون الله بالضمير الوازع والخلق الزكى وقد كافحوا البطالة في مجتمعهم فكانت كل الأيدي للبناء ، والتعمير ، وتنوعت أعمالهم • فبنوا المجد - وحاربوا العدو وأنشأوا المعازل وحفروا الخنادق وعبدوا الله •

(١) آية ٣٠ سورة الكهف •

(٢) آية ١٠٥ سورة التوبة •

(٣) آية ١٦ سورة الاحقاف •

ولم يكونوا يحتقرون العمل ، بل كانوا يبعدونه شرفاً
وكرامة - ولهذا ازدهرت حضارتهم وآتت أكلها ، باذن ربها . .

(د) الجهاد في حضارتنا تعبير عن العقيدة

تترابط القيم الحضارية بعضها ببعض ترابطاً قوياً في
وجدان الدارس . بل في محيط الحياة ، ذلك أن العقيدة على النحو
الذي صورناه تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من
كيد المتربصين . . والاسلام نظام عالمي جاء ليغير الحيات
ويكتسح ركامها ، فلا بد أن يجد من الأعداء في كل من يتصدى
له - ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي العقيدة من
كيد المتربصين - وهجمات الجاهلية ، لتأخذ هذه العقيدة مجراها
العتيد في هداية البشر ، من غير تعويق ، ولا صد على مر الزمن :

فالجهد درع تحتمى به العقيدة في مواجهة أعدائها
والصادين عنها وليس وسيلة ارغام ولا سبيل قهر (لكم
دينكم ولى دين) (أفاننت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (١))
(لا اكراه في الدين) ولم يحدث يوماً أن تحولت حروبنا للقهر
والارغام أو للطغيان والبغى ، وانما كانت دائماً حروب تحرير
وتطهير ودفاع عن المثل والكيان والكرامة ووسيلة لدفع الظلم
ورد العدوان « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على
نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا:
ربنا الله (٢) » : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
لله (٣) » وينهى ربنا عن البغى والعدوان فيقول : (فمن اعتدى

(١) آية ٩٩ سورة يونس .

(٢) آية ٢٥٦ سورة البقرة .

(٣) آية ٣٩ سورة الحج .

(٤) آية ١٩٣ سورة البقرة .

عليكم فاعتدى عليه بمثل ما اعتدى عليكم وانفوا الله واعملا أن
الله مع المتقين (١) *

وهكذا يأخذ الجهاد في الاسلام دور الدشاع وقرار العقيدة
ونصرة المستضعفين « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا
أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا
واجعل لنا من لدنك نصيرا (٢) » وذلك لأن العقيدة الاسلامية
درع يحمي كل المستضعفين في أرض الله ، لاننا لا نحتكر القوة
بل نسخرها لخدمة الحق ، وحفظ كرامة الحياة ، وارهاب أعداء
الله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون
به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم
وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون »
وليس في طبع الاسلام ولا من أخلاقه أن يفسد في الأرض فمن
وصايا الصديق لا تقتلوا طفلا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة ولا
تعفروا ناقة الا لمأكله ، وستجدون قوما يعبدون الله في الصوامع
فدعوهم وماخلوا أنفسهم له) :

ومتى كان المسلمون مهاجمين أو معتدين ؟

أفي غزوة بدر ؟ ! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطانهم
وعوملوا بوحشية فاجرة ؟ أم في غزوة أحد وقد زحف جيش
الشرك على المدينة يريد أن يستأصل شأفة المسلمين ؟ أم في
الخنندق وقد تواطأ الكفر مع النفاق مع اليهود فكونوا جيشاً
ضخماً يريدون غزو المدينة والقضاء على من فيها ؟ أيلام

(١) آية ١٩٤ سورة البقرة .

(٢) آية ٧٥ سورة النساء .

(٣) آية ٦٠ سورة الانفال .

أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم كل ذلك برفق وسماحة •

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس من غير تضيق ولا منع • • ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب :

[لهم مالنا وعليهم ما علينا] •

ومن آثار تلك السماحة أحب النصارى حكم المسلمين وفضلوه على حكم طوائفهم • • وكانوا دائماً يجدون في الاسلام العدالة والانصاف •

والسلام في الاسلام هو الأصل الاصيل • •
(يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة (١))
ولكنه السلام العزيز القادر :

(فلاتهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم (٢))
ولعل في اشتقاق كلمة : « الاسلام » من السلام مايوحى بمنهجه في الحياة •

ولذلك فان الحرب في الاسلام ضرورة لا يلجأ اليها الا اذا سدت المنافذ محاولات السلام :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم (٣)) •

وهنا نشير الى أن الجهاد يجب أن يستمر وترتقى أساليبه، وأن يتطور تبعاً لروح العصر وأن تمتلك باستمرار مايرهب

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة •

(٢) آية ٣٥ سورة محمد •

(٣) آية ٢٢٦ سورة البقرة •

عدونا ليظل لواءنا مرفوعا وصوتنا مسموعا ويوم تغفو هذه الأمة عن أمجادها وتجنب عن مواجهة أعدائها يوم يبتليها الله بالذل والخسف والصغار فما ترك قوم الجهاد الا ذلوا * * ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف سبباً في تفتيت وحدتهم – وتفريق كلمتهم – واسقاط كرامتهم – لانهم فقدوا الحصانة التي يكلفها لهم الجهاد المقدس *

واذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فان توحيد الكلمة هو سر بقاءها فهل تتحد كلمتنا ؟ وهل تلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد – وتحرير الارض – وارغام العدو ؟ !

ان حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر الا اذا أمنت عدوها .
ولذا كان علينا أن نأخذ حذرنا :

(ياأيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (١)) *

ومع واقع التجربة التي خاضها آباؤنا * * نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلهم ، ولا استنابوا على هدهدة الأمانى *
وانهم خاضوا معارك ضارية ضد أعداء الله ونازلوا أغنى دولتين كبيرتين في العالم فانتصروا عليهما * * وحكموا بلادهما * *
ومكثوا عاشوا بالجهاد أعزة كراما * * والمسلمون اليوم في حاجة الى اجتماع الكلمة على أساس من عقيدتهم – لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم وينقذوا تاريخهم *

ومن ثم تكون لهم الكرامة في الأرض ولينصرن الله من ينصره *

(١) آية ٧١ سورة الانساء *

العبادة وقيم الأخلاق في حضارتنا :

وترتبط العقيدة بالعبادة ارتباطا وثيقا ذلك أن العبادة تعبير عن العقيدة كما مر ومالم ترتبط بها فان العقيدة تغدو سلبية عقيما كبذرة لاتنبت عودا ولاتؤتي ثمرا •

واذا كانت العبادة ترجمة عن العقيدة فان لهذه العقيدة أثرها في حراسة العبادة فهي لها حافز ايجابي يحرك الباعث عليها • • ويحول دون التقصير فيها ويجعلها متقنة خاشعة رائدها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » •

وان حضارة تدعمها عقيدة صالحة – وتترجم عنها عبادة صادقة ، ويخرسها ضمير حي ويخططها علم نافع • • ويبينها عمل جاد لهى حضارة خالدة فيها كل مقومات الجلال والعظمة وعندما تسود المجتمع روح العبادة الواحدة يصلى صلاة واحدة – ويحج الى مكان واحد ويؤدى زكاة واحدة ويصوم صوما واحدا ويتجه الى قبلة واحدة ويتعامل مع بعضه بقانون واحد فان نظاما رائعا يسرى فى جنباته وهو « وحدة العمل » • • وهكذا – تصنع العقيدة وحدة الضمير وتصنع العبادة وحدة العمل وتصنع القبلة وحدة الوجهة • • وهذا التناسق فى مجتمع الحضارة القرآنية سبيل هذه الأمة الى اتحاد المشاعر وائتلاف القلوب • • وهذه الوحدة ليست ظاهرية فحسب – بل انها تنبع من أعماق الوجدان •

ومن ثم فاننا نجد أن الرقعة التى غمرتها حضارة القرآن قد تميزت بهذا التجانس • • وبذلك الوحدة الجامعة – ومادامت كلها تسقى بماء واحد – وهو القرآن • • فلا بد أن تتحد شعورا وقلبا وعملا وحركة • • ولا بد أن يسودها نوع من ائتلاف النعمة •

ولم تقتصر هذه الوحدة على مامر ، بل تجاوزت ذلك الى التعبير الفنى . . فقد شملته روح واحدة وسرى فيه ذوق مؤتلف .

[حتى أن الباحثين فى الفنون الاسلامية قد لاحظوا وحدة الأسلوب والذوق فى أنواعها المختلفة فقطعة من العاج الاندلسى - وأخرى من السنيج المصرى - وثالثة من الخزف الشامى - ورابعة من المعادن الايرانية تبدو رغم تنوع أشكالها ذات أسلوب واحد وطابع واحد] .

وكذلك فن هندسة المساجد وزخرفتها على الطراز الاسلامى، له أيضا تلك الخاصية .

وهذه العبادات المختلفة تمد الحضارة بأخلاقيات سامية .
لعلها من أهم الخصائص التى تتميز بها حضارتنا . . فما هذه العبادات فى مضمونها السامى الاوسائل لتعويد المرء على أن يحيا بأخلاق صحيحة . . ولكل عبادة منها فلسفة أخلاقية متميزة .
تتمازج جميعا لتنشئ الصدق والاخلاص والامانة والعدل وحب الحق والانتصار له . . وكراهية الباطل والنفور منه . . لأن من أخلص لله محال أن يكذب على سواء .

ومن هنا كانت العبادات روافد أخلاقية تصب فى الساحة الحضارية وتقود مسيرة هذه الحضارة على صراط العزيز الحميد . . وهذه الأخلاق تتسم بالثبات والعمق والوحدة نتعامل بها فى داخل بلادنا كما نتعامل فى خارجها . . ونتعامل بها مع المسلمين كما نتعامل مع غيرهم . . ونستعملها فى الحرب كما نستعملها فى السلم . . ولعل حضارة الغرب التى تكيل ،

(١) عن كتاب الدكتور مصطفى السباعى من روائع حضارتنا .

بكيلين ، وتتعامل بوجهين ٠٠ وتطبق الدساتير العادلة داخل بلادها - دون أن تستخدمه في مستعمراتها ٠٠ لعلها بذلك تفقد عنصر الوحدة الأخلاقية ٠٠ لأنها لم تستمد الاخلاق من عقيدتها ٠٠ ولم تستلهمها من عبادتها فعدت هذه الأخلاق نفاقا وخداعا ٠

نعم : لقد احتبست مبادئ الثورة الفرنسية في فرنسا وحرمت على غير الفرنسيين ٠٠

ولقد أقامت أمريكا تمثال الحرية في نيويورك ليكون أول ما يراه القادم الى تلك البلاد بينما تنطق أعمال أمريكا في خارج بلادها باضطهاد الحرية - وابتادة الأحرار ٠

انها أخلاق للمزايدة - ولاطلاق الشعارات الرنانة ٠٠ ولكنها عذد التطبيق لا تعنى الا الفجور والختل ٠٠ فأين هذا من أخلاق حضارتنا ؟

لعمري ما فتحنا الدنيا الا بأخلاقنا - وما سدنا العالم الا بأخلاقنا وما حاربنا الا دفاعا عن الأخلاق ٠٠ وما كان نبينا الا متما لكارم الأخلاق !!

أرأيت كيف أن العبادة هي النبع الفياض الذى يسقى حضارتنا بكل القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ٠٠ ؟؟ ٠٠ وللعبادة في حضارتنا فلسفة أخرى تدعم جانبها من أخلاقها ٠٠

ذلك الجانب هو خلق الطاعة والامتثال ، فهي تعبير صادق عن الالتزام في اجلال وخشوع حتى في تنفيذ الجوانب التى لا يدرك العقل مغزاها ٠٠ وهي جوانب تتجلى فيها بطولة الايمان ٠

ولقد شاهدت بنفسى فى تأمل واع - وأنا بالمزدلفة - كيف أن الناس - كل الناس رجالا ونساء - على اختلاف أوساطهم الاجتماعية ينحنون على الأرض - تنكأونها بأناملهم

– باحثين عن الجمرات لرجم ابليس رمز الشر والتضليل في هذا الوجود !!

تصورت الناس في ذلك المشهد – فقلت لنفسي : سبحان الله !! أتستطيع قوة من قوى الأرض أن تسخر هذه الجموع الحاشدة لجمع الحصى من الأرض ؟ وهل اذا ضمنا السلطة القاهرة التى تقهرهم على هذا العمل أتراهم يقبلون عليه بتلك الطوعية – وبهذا الشوق ١٩٠٠

حتى اذا تم لهم جمع الجمرات المحدودات وضعوها في حرز نظيف ثم انطلقوا بها بعد منتصف الليل الى منى ليقتضفوا بها حجرا قائما هو رمز لابليس !!

ولو رأيت الناس وهم يقذفون الجمرات .. بكل قوة وبكل حرارة ليصيبوا بها رمز الشر كله في الوجود – ولو رأيتهم كذلك وهم يزدهمون على الكعبة لتقبيل الحجر الأسود – ولو رأيت تدافعهم في الطواف والسعى ، ولو رأيتهم في عرفات وعلى جبل الرحمة يدعون ويلبون .. وينفذون بكل دقة ووعى ما يطلب اليهم ومن بينهم الشيخ الفانى والمرأة المترهلة والفتاة الشابة .. والأسود الزنجى والابيض المدنى والفلاح القروى .. ومن أقبلوا من أقاصى الارض لو رأيت ذلك كله لعرفت كيف يعبر الحج عن خلق الطاعة والامتثال وكيف يعبر من جانب آخر عن بطولة الايمان الذى يتجلى في تنفيذ أمور لا يدركها العقل ولكن لا يخالجه شك في حكمته .. وان لم تظهر له تلك الحكمة – يكفى أن الدين أمر بها – وأن الرسول فعلها .. فعليه أن ينفذ وينقاد .. ومن هنا ندرك سر الكلمة الخالدة التى أطلقها عمر وهو يقبل الحجر الأسود يعبر بها عن خلق الطاعة والامتثال : [أعلم يا حجر أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك !!]

ألست تحس الصراع في نفسية عمر بين ما هو واقع من تقبيل الرسول للحجر - وبين ما لا يعقل وهو تقبيل حجر لا يضر ولا ينفع؟! نعم : ولكن الرسول قبله فغدا بتقبيله شيئا آخر .. غدا عبادة ربانية تؤدي بكل الحزم وبمنتهى الانقياد . بل وبكل الحب والشوق والولاء ولهذا الامتثال أثر حضارى يعرفه كل من يتدبر .. فان مجتمع الحضارة يدين بالنظام .

ويؤمن بالعمل ويعتمد على طاقة الجماهير .. فاذا أمكن بدستور الشريعة أن يعمل الناس في كل أرجاء الدنيا عملا واحدا - يؤدي بطريقة واحدة فما أجمل النظام وما أجمل الطاعة وما أقدرها على خلق مجتمع منظم ينبع النظام عن عقيدته ويصدر عن طبيعته ويعبر عن فطرته .. فيصبح خلقا له وطبعا كامنا فيه .. ولا يكون عملا صناعيا - تتحكم فيه القوانين والنظم .. وخلق بالمسلمين بعد ذلك أن ينطلقوا بهذه القيم لبناء حضارة القرآن ودعم أركانها .. بكل الصدق - وكل الطاعة وكل النظام .

والعبادات من جانب آخر . توحد الشعور - وتحقق المساواة - وتنقش على الطبقة - وتجعل من البشر جميعا وحدة كبرى .. ولكل هذه القيم أثرها في بناء الحضارات ودعمها ..

يقول الفيلسوف اقبال : | على أننا لا نستطيع أن نتجاهل بأن وضع الجسم عامل حقيقى في تعيين اتجاه العقل - واتخاذ قبلة واحدة لصلاة المسلمين أريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة - كما يكفل الاحساس بالمساواة الاجتماعية .

ويقوى أو اصرها - ويقضى على الشعور بالطبقية - أو تفوق جنس على جنس آخر - ان قوة روحية تحدث لو حمل البرهمى الأرستقراطى المختال في جنوب الهند على الوقوف مع

المنبوذين كتنفا الى كتف كل يوم خمس مرات ٠٠ ان وحدة الذات المحيطة بكل شىء التى تخلق جميع الذوات وتكتب لها البقاء ٠٠ هى التى تصدر عنها الوحدة الطبيعية الضرورية لجميع البشر ، وانقسام البشر الى أجناس وأمم وقبائل قصد به سهولة التعارف لا غير - وعلى هذا فان الصلاة الى جانب ما لها من قيمة فكرية تشير بذلك الى وحدة جميع البشر كحقيقة من حقائق الحياة الكبرى] ٠

وللصلاة فلسفة أخرى حضارية ٠٠ من حيث انها وسيلة من وسائل استكشاف الذات ٠٠ تؤكد وجودها - وقد تفنى شهودها في ذات خالقها - حين تذوب شوقا في السجود الخاشع الطويل - وهى في الوقت نفسه تشحذ ادراكنا الباطنى لشهود الحقيقة الكبرى حين تتجرد النفس من علائق الطين ٠٠ وتصفو من أكرادار المادة كما أنها تعبر عن مكنون الشوق الزاخر في الفؤاد ٠٠ وهكذا تتعاون الصلاة مع العقل في البحث عن الحقيقة ، العقل يمضى في رحلة البحث جوابا منطلقا في الآفاق يرى ويستكشف ويعانق الحقائق فيعرف ، والصلاة أسلوب استكشافى رائع ، توجه الهامنا الباطنى نحو الحقيقة الكبرى .

ولنترك اقبال يتحدث إلينا بأسلوبه الممتع معبرا عن الوجد الواله الذى يصبه العابد في صلاته فيقول : [الصلاة من حيث هى وسيلة للهداية الروحانية فعل حيوى نكتشف به شخصيتنا فجأة - تلك الشخصية التى تشبه جزيرة صغيرة - مكانها في خضم الوجود الأكبر للحياة ٠٠ وهى في الوقت نفسه تكملة للنشاط العقلى الذى يتأمل في الطبيعة تأملا عمليا يجعله على اتصال وثيق (بسلوك الحقيقة) فتشحذ بذلك ادراكنا الباطنى لشهود الحقيقة شهودا أوفى وأعمق والصلاة تعبير عن مكنون الشوق الزاخر في الأعماق الى من يستجيب

لدعائه في سكون العالم الخيف .. وهى فعل فريد من أفعال
الذات تثبت وجودها في نفس اللحظة التى تنكر فيها ذاتها | ..

أى أننا في الصلاة نثبت وجودنا من حيث أننا نحاول
استكشاف الحقيقة الكبرى - في الوقت الذى ننكر فيه تلك
الذات فناء في الله .. وتجردا له سبحانه .. فلا وجود لنا مع
وجوده ، ونحن اذا تأملنا الزكاة وجدنا فيها اثبات الذات
بالعطاء السخى والبذل الندى ومقاومة الشح .. والصوم بما
يحملة من معنى الصمود في وجه المغريات واللذائذ يحمل معنى
تحقيق الذات أيضا والحج بما يتجلى فيه من تعويد العقل على
الخشوع لربه حين تخفى عليه وجوه الحكمة انه أيضا يشهد
سلاح الاستكشاف لأنه تعبير عن خضوع الذات لربها الذى
خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ..

يقول اقبال : [وصور العبادات كلها في الاسلام بما تحمله
من صدق انطباعها على سيكولوجية المنزع العقلى ترمز الى
اثبات الذات وانكارها] .. لأنها جميعها تقاوم المعوقات فيتم
بها اثبات الذات - وتفنى في الله تعبيراً عن الاخلاص والتجرد
فترمز بذلك الى انكار الذات ولأنها تستسلم لربها وتنفاد
لأوامره من غير جدل ولا مرأ ..

ولهذه الآثار التى تحققها العبارة في كيان المسلم - فلسفة
حضارية في طبع الناس على النظام والطاعة والامتثال
وتجاربهم مع القيادات وانجاز ما يطلب اليهم من مهام بعيدا
عن الشرثرة والجدل والمرأ .. كما أن لها حكمتها العالية في
تكوين الشخصية الحضارية التى تتسم بالتجرد والاخلاص ..
وقد عاشت هذه القيم النبيلة في مجتمع الحضارة القرآنية
وتحققت فعلا أمام العالم .. وكانت سمة بارزة من سمات
حضارتنا .. وتكون معها وبها عالم نظيف ..

بعيد عن كل ثرثرة أو ادعاء - ينكر ذاته في العمل والبناء
ويؤثر أن يعيش جنديا مجهولا على أن يكون أسطورة تغزو
قلوب الناس كما هو خلق الحضارات المادية ، أو صدرا بارزا
تعلق عليه الأوسمة والنياشين ..

(هـ) الحرية في مجتمعنا الحضارى :

تنبع الحرية من العقيدة كما ينبع الماء من النبع ..
وهكذا تنطلق من العقيدة قيمة حضارية عليا لها أعظم الأثر في
قوة الشخصية واثبات الذات والفصل في مسائل الحق والباطل
.. ألا وهى الحرية التى هى فى الواقع سمة الحضارة المتفتحة ..
أما الحضارة الجامدة فتدين بالعبودية للبشر - وتطبع أبناءها
على الجبن وتسلبهم أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهى نعمة
الحرية .. وللحرية فى المفهوم الإسلامى منطلق واسع فهى
تمرح حيث توجد العقيدة - وإذا كان معنى العقيدة ببساطة أن
تدين بالعبودية لله - وننتحرر من كل ما سواه - فإن معنى
ذلك بوضوح أن النظم والقوانين والدساتير والأوضاع
والأشخاص وقوى الشر كله لا تستطيع أن تستعبدنا أو
تستذل رقبتنا لأننا عبيد لله فقط ..

وفيما عدا ذلك فنحن أحرار ومن امتن حريتنا سحقتنا
ومن ثم فإن حضارتنا هى التى أعلنت ميلاد التحرر البشرى ..
وحررت الضعفاء من بطش الأقوياء .. بل حررت الحياة من
العبودية والجهل ووضعت للحرية ضمانات قوية حتى لا
تستغل أو تستذل .. وسرت نزعته التحرر منا الى المسيحية
فشارت على العبودية والجهل .. وانطلقت مع العلم تبني الحياة ..

واققص عمر بن الخطاب من ابن عمرو بن العاص حاكم
مصر لأنه لطم طفلا على وجهه وقال له : أنا ابن الاكرمين

نسبنا !! فلما شكنا والد الغلام الى الخليفة لم يسكت على امتهان الحرية ..

وانما أحضر عمرا وابنه وقال لابن الفلاح اضرب ابن الأكرمين نسبنا !! ثم التفت الى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

وعقيدة المسلم من جانب آخر تحرره من ضغط الشهوات ومن صراع النفس الأماراة ولا تفتأ تناديه بأن يتحرر من المطامع والمال والشهوات كلها .. وهو يجاهد في هذا الميدان بسلاح الارادة فاذا استطاع أن يسكت ذلك الصراع في باطنه فقد أتيح لقوى الخير أن تنتصر .. وبذلك يتحرر من الباطن .. ويصبح سييدا لنفسه ومستعليا عليها لا عبداً ذليلا لها يخضع لشهواتها ..

وبذلك الجهاد النبيل .. المستمر لم تعرف حضارتنا ذلك الطراز المتبذل من الناس وهم عبيد الشهوات .. وانما عرفت رجالا أولى حزم وعزم يزدان بهم الوجود وتسمو بهم الانسانية ويعبرون عن الحرية الحققة .. حين يرتفعون على أنفسهم وشهواتهم وكم في حضارات اليوم من عبيد الشهوات !!

ومن تحرر من الباطن .. فمحال أن يستعبد من الخارج .. وبهذا تأخذ الحرية امتدادها في حضارة القرآن .. وتعبّر عن نفسها تعبيرا حقيقيا في شتى الميادين .

فهى حرية شخصية فى اطار الدين والفضيلة ومصلحة الجماعة .. وليس لأحد فى هذا الاطار أن يصادر حريتك أو يعتدى عليها ؟!

وهى حرية الكلمة : التى أخذت امتدادها فى حضارة الاسلام
فمكنت كل فرد فى ظلها أن يعبر عن رأيه وفكره بأى أسلوب
يرتضيه . . وجعلت فردا من الشعب ينقد أمير المؤمنين ويسأله
عن ثوبين لبسهما . . وجعلت امرأة تنقد رأى عمر فى مجتمع
عام . . ومن اعتزازهم بحرية الكلمة . . ما كان يصدر عنهم
من آراء فى مجالس العلم وفيهم المسلم - والمسيحي - والشيعي
- والمجوسى . . فما كان أحد يصادر حرية أحد وانما كانت
آراؤهم الحرة تأخذ وصفها فى تلك المجامع قال خلف بن المثني :
« لقد شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف
مثلهم فى الدنيا علما ونباة . . وما كان أحد منهم يصادر حرية
أحد وهم : الخليل بن أحمد وهو سنى - والحميرى الشاعر وهو
شيعي - وصالح بن عبد القدوس وهو زنديق ثنوى ، وسفيان
بن مجاشع وهو خارجى صفرى ، وبشار ابن برد وهو شعوبى
خليع ماجن - وحماد عجرد وهو زنديق شعوبى منحل - وابن
رأس الجالوت الشاعر وهو يهودى ، وابن نظير المتكلم وهو
نصرانى ، وعمر بن المؤيد وهو مجوسى ، وابن سنان الحرانى
الشاعر وهو صابىء . »

كان هؤلاء يجتمعون فيتناشدون الاشعار ويتناقلون
الاخبار ويتجادلون فى مسائل العلم فما كان أحد يحاصر أحدا -
أو يصادر رأيه - أو يضطهد حريته .

ان هذا ان دل على شىء فانما يدل على حرية الكلمة فى تلك
الحضارة الى أوسع مدى يتصوره العقل . . ولو أن المسلمين
جماعة متعصبون لصادروا حرية الكلمة وبخاصة حين تصدر
عن غيرهم ولقد كان الخلفاء يجمعون طوائف العلماء مع اختلاف
مذاهبهم وديانتهم - وكانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها

علماء الديانات والمذاهب كلها وكان يكفل لهم حرية الراى قائلا لهم : « ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل منكم بكتابه الدينى كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية . . فهل رأيت الى سمو الحرية فى حضارتنا ؟ » .

وهى حرية العقيدة : التى تجعل لاهل الطوائف الاخرى أن يعيشوا فى ظل حضارتنا آمنين وأن يمارسوا شعائر دينهم كما يحبون – ولا تكره أحدا منهم على الدخول فى الدين – ولا تهدم لهم كنيسة أو بيعة . . . والقرآن فى هذا المجال يعطى انطباعات سمحة ومبادرات سامية . . فهو يطبع فى وجدان المسلم احترام الاديان كلها . . . والتصديق بالرسالات جميعا وبالكتب المنزلة من السماء لا فرق بين كتاب وكتاب . . . ويؤكد لاتباعه أنها جميعا حق – وأنها تصب فى محيط القرآن والاسلام . . . [شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وحيننا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (١)] « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكة وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . . (٢) »

وفى نطاق الواقع العملى . . . عاشرنا كل الطوائف على امتداد التاريخ فما شكوا منا ولا شكونا منهم – بل لقد كانوا يأتون الينا . . . ويرحبون بحكمنا لما يجدونه عندنا من سماحة ونبل وليس بإمكانى أن أستفيض هنا لأن المحيط واسع . . . ومجال الكتاب ضيق .

(١) آية ٤ سورة المائدة .

(٢) آيتا ٣١ ، ٣٢ من سورة الاعراف .

وفي هذا المجال أذكر هذه القصة الطريفة لأنها أدل على معنى التسامح - وعلى حرية العقيدة في حضارتنا (في كنيسة يوجنا الكبرى في دمشق التي صار أمرها إلى المسجد الأموي الآن - رضى المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ورضى المسلمون أن يؤدوا فيها صلاتهم - فكنت ترى في وقت واحد أنباء الديانتين يصلون متجاورين . . هؤلاء إلى القبلة - وأولئك إلى الشرق) .

فهل بعد ذلك تسامح - أو حرية - ؟ اللهم ان حضارتنا لم تعرف الطائفية يوما من الأيام ولا كانت من طبيعتها فليسأل أعداؤنا في العالم أنفسهم عن ذبحوا ويذبحون من المسلمين وعن مساوىء الطائفية التي يتورط فيها الجميع مدفوعين بحمق أعمى على الاسلام الذى حررهم وطهرهم وعلمهم مالم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم من قبل . . وما أكثر المذابح التي أقاموها للمسلمين !! وان الصهيونية الوالغة في الدماء لتحاول اليوم . . وبأسم أمريكا - أن تستعيد الوحشية البربرية بما تمارسه من قتل وابادة واستئصال لغيرهم من أرباب الأديان . . وبما تفعله من هدم للمعابد والكنائس وانتهاك للمقدسات والعقائد . . كل ذلك وهى تدعى انتسابها الى التوراة وموسى وسليمان !! وانها لتحلم بهيكل سليمان وأرض الميعاد وشعب الله المختار .

وتتخذ الدين شعارا لكل هذا الاجرام والفساد - ولتحقيق تلك الأطماع -

وهى حرية للمرأة : فى اطار التصون والعفاف وفى حدود رسالة البيت - ونظام الامومة - وانها لحرية تتسع للبيع والشر والتجارة والملك . . وتتسع لطلاب العلم وبذل الجهد

في خدمة المجتمع - ولكنها لا تتسع للفجور والفوضى . . لقد كانت قبل الاسلام تباع وتشترى وتمتهن بالشذوذ - والاباحية ويحرق جسدها بعد موت زوجها - ويشك في أمرها أهى انسان أم شئ آخر ؟ وتستباح بالفوضى وتعصب بالاكراه وتمنع بالعضل - وتورث كالمناخ لكنها في ساحة حضارتنا قد انطلقت حرة كريمة تجاهد في سبيل الله . . وتصنع الحياة - وتربي الأطفال ، وتتعلم العلم ، وتفتى في الدين ، وتستشار في الزواج . . وتعصم من الوأد ، وتمارس العمل في المجتمع وتمضى في ظلال الفضيلة والخلق لتجلس في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لتسمع منه وتأخذ عنه - ويطول بى الموضوع لو ذهبت أستقصى وأستشهد .

مجتمع القرآن

من بركات النهج الالهى - أنه كون جماعة من البشر
فصنعهم على عين الله - وصاغهم صياغة فريدة وجعل منهم
نموذجاً يحتذى للعالم بأسره . . وهذه المجموعة الانسانية
التي قادها محمد صلى الله عليه وسلم لم تتكون بين يوم
وليلة . . وانما تكونت مشاعرها الطيبة وأخلاقها النبيلة في
أعوام من عمر الرسالة كانت كلها حافلة بضروب التربية
النفسية والخلقية والاجتماعية ولم تكن لحظة تمر عليهم دون
أن يكتسبوا المعرفة الجديدة وينهلوا من ورد الله الطهور وقد
أراد الله لهذه التربية أن تمضى مع الفطرة في هدوء واتساق
وعلى مهل . . فكانت واقعية في كل أوضاعها - ولذلك حكمة
عليها - وهو أن تتمكن البشرية من معاودة التجربة كلما أحست
أنها ابتعدت عن الله وسارت مع الشيطان .

لقد كان أول ما فعله الرسول هو القضاء على الجاهلية بكل
ما فيها من ضلالات فأمات الوثنية والعصبية في وقت واحد
وهى نعرات توهم العزائم وتفتت القوى وترهق المشاعر
وتمتنن كرامة الانسان وهتف فيهم يقول الحق تبارك وتعالى:

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » فكان
هذا ايذاناً بفجر جديد تنطلق فيه الانسانية الى أهدافها موحدة
القوى شديدة القصد ملتزمة الشمل قوية الارادة لا تفرقها
نزعات التعصب ولا مغريات الجاهلية .

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات

وانظر في قوله سبحانه : [ياأيها الناس] فهو يناديهم مجتمعين لأنه يريد منهم أن يعيشوا كتلة مؤتلفة تندفع بمواهبها لتبني الحياة دون تمييز بين فريق أو جنس أو وطن أو فئة أو عرق أو دم .

وقوله سبحانه : « انا خلقناكم من ذكر وأنثى » تعبير عن بواعث الوحدة في الحياة . . فكيف يعقل أن نتفرق ونحن من أب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء مهما اختلفنا شعوباً أو ألواناً أو قبائل . . كلها ظواهر سطحية لا تؤثر في أصل البشرية الواحد فما ينبغي بعد هذا أن يلعب بنا الشيطان فيفترقنا أبائيد باسم الطائفين أو العنصرية - أو القبلية أو الوطنية أو القومية أو ماسوى ذلك من المعانى الضيقة بعد أن أكرمنا الله بالأصل الواحد - وكأنما يؤكد الله لعباده أن هذه الاختلافات لا يجوز أن تتخذ ذرائع للفرقة وعوامل للجفوة ، بل هن في الواقع وسائل تعاون وصفاء لأن الاصل واحد والرب واحد والرجعى اليه سبحانه .

يقول اقبال [ان الاسلام دين غير اقليمى وغايته أن يقيم للإنسانية جمعاء مثالا للألفة والانسجام باجتذاب معتنقيه المنتمين الى أجناس متنافرة ثم تحويل هذه المجموعة الى كتلة لها شعور بذاتها ، وكيانها كيان خاص بها - ان الاسلام يميل الى خلق ارادة عامة وضمير جماعى فى هذه الأوفاض من الناس (١)] .

ثم يحدد سبحانه - المعيار الذى توزن به القيم ويتفاضل فيه الناس . . انه ميزان التقوى والعمل الصالح - وكل القيم بعد ذلك هباء لا وزن عند الله . . [ان أكرمكم عند الله أتقاكم] . ولقد تمكن الرسول فعلا من إقامة هذا النظام العالمى العجيب -

(١) الأوفاض : الأخلاط المختلفة من اجناس شتى .

نحت ظل راية واحدة ، ليست راية الجنس ولا القبيلة ولا اللون ولا الرق فكلها رايات زائفة لا يعرفها القرآن - وهتف فيهم بقوله : [من قاتل تحت راية عميه - أى جهل وضلال - يغضب (١) لعصبية أو يدعو الى عصبية فقتل قتل قتلة جاهلية] ويقول لهم [كلكم بنو آدم (٢) وآدم خلق من تراب ولينتهين اقوام يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان] ويقول لهم كلما ثارت ريح العصبية السموم : « دعوها فانها منتنة » * * وهذه قاعدة قام عليها المجتمع الجديد والذي تحاول البشرية أن تحققه اليوم فتخفق - لأنها لا تسلك اليه الطريق السديد * * طريق العزيز الحميد ليجتمع الناس تحت رايته سبحانه فيحسوا بانسانيتهم وكرامتهم * * وذلك قوله « لتعارفوا » فهذا التعارف أساس العلاقات الانسانية مهما يتطور الزمن - وتنتقدم الأيام * * وهو تعارف يضيف على الحياة ثوبا رائعا من الألفة الانسانية - والاخاء الكريم - ويعين على اكتساب الخبرات وازالة الفوارق بين البشر * * كما يقضى الى التعاون على البر والتقوى * * أما يوم تتصدع وتتمزق الروابط وتطغى العصبيات ونسمع (شعب الله المختار - الدم الجرمانى - أبناء الله) فهو اليوم الذى نجد فيه انفسنا مع الجاهلية وجها لوجه * * ان الله خلق البشر ليتحدوا ويتضامنوا وتألف قلوبهم ومشاعرهم لينهضوا بدورهم فى الحياة وهو بناء الحضارة وصنع التطور واستثمار ماخلق الله فى الأرض وهو دور لا يتم بالفرقة والشتات بل يحتاج الى التعاون والالفة وانماء العلاقات الانسانية الفاضلة ويستظل البشرية فى حاجة الى هذا النداء العلوى حتى تكف

(١) رزاه ابر داود .

وهو حسن .

(٢) ريت بلغذا الناس واد آدم الخ ابن سعد فى طبقاته عن ابي هريرة

عن السفاهة والجهل - وما دام في الدنيا سود وبيض -
وبراهمة ومنبوذون فنحن في حاجة ماسة الى هذا النداء ٠٠
أين هذا الذي نراه اليوم من تفرقة بين الناس من تلك الواقعة ؟
جاء قبيس بن مطاطيا - وكان منافقا - الى حلقة فيها سلمان
الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس
والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل - أي محمد صلى الله عليه
وسلم - فما بال هؤلاء ؟ - يريد سلمان وصهيبا وبلال - فقام
اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبي صلى الله عليه
وسلم فأخبره بمقالته فقام الرسول مغضبا يجر رداءه حتى
أتى المسجد ثم نودى للصلاة (نداء الى الاجتماع العام وفي
صلاة العيدين) فخطب في الناس وقال : يا أيها الناس ان الرب
واحد والأب واحد (١) وان الدين واحد » ٠٠ وهي حادثة واقعية
تدل على مدى اهتمام الرسول بمكافحة تلك النزعات الآثمة -
نزعات التفرقة في المعاني الانسانية ٠٠٠

وكان اهتمامه بمكافحة التفرقة العنصرية أقوى وأشد ٠٠
ولذا لم يعرف هذا المجتمع تفرقة من أي نوع وسلك أصحابه
من بعده هذا النهج ٠٠ فكانت حضارتهم انسانية نبيلة ٠٠
فهو صلوات الله وسلامه عليه لم يرض لأبى ذر وهو أكرم
صحابته أن يسب بلالا فيقول له يا ابن السوداء ٠٠ بل قرعه
وقال له : أعيرته بسواد أمه ؟! انك امرؤ فيك جاهلية !! ولقد
استخذى أبو ذر وقال لبلال : قم فطأ على وجهي - أي ضغ
قدمك على وجهي تكفيراً عن تلك المقالة !!

وكان عبادة بن الصامت شديد السواد بائن الطول - ولما
جاء المسلمون لفتح مصر وتوقفوا أمام حصن بابليون رغب
المقوقس في المفاوضة فتكون وفد المفاوضة من عشرة فيهم

(١) رآه البخارى ومسلم وغيرهما .

عبادة - وقد جعله عمرو بن العاص رئيساً للوفد - فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة ابن الصامت فهابه المقوقس لسواده وطوله . . .

وقال : نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى . . . فقال وفد المفاوضة : ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً - وهو خيرنا وسيدنا والمقدم علينا - ونحن جميعاً نرجع اليه - وقد أمره الأمير علينا وأمرنا ألا نخالف له رأياً فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم - انه لا ينبغي أن يكون الا أقلكم وحونكم ؟ فقالوا جميعاً : انه من أفضلنا موضعاً وسابقه وعقلاً وليس يعيبه سواده أو يؤخره . . . ما دام عقله وعلمه وفضله يقدمه فلما وجد منهم الاصرار قال : تقدم يا أسود فكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد كلامك ازددت خوفاً فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السود : ان فى جيشنا ألف أسودهم أشد سواداً منى !! ألا ترى الى حضارتنا ما أروعها وأسمى انسانيتها !! - لقد كان الناس جميعاً والى وقتنا هذا يرون السواد منقصه - ويرون الأسود ممتنها حقيراً لا يجوز أن يخالط البيض . . . فانظر ما فعلته حضارتنا بالسود ، بلال يؤذن من فوق الكعبة - ويخطب ابنة أحد شرفاء قريش ويلقبه عمر ابن الخطاب بالسيد ، وعبادة بن الصامت رئيس وفد المفاوضة لدى المقوقس . . . لأن علم الرجلين وفضلهما يقدمهما ، وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادى فينادى فى موسم الحج ألا يفتى الناس الا عطاء بن رباح امام أهل مكة وعالمها وفقهها . . . وكيف كان عطاء هذا ؟ كان أسود أعور أفتس أمثل أعرج مفلفل الشعر - وكان اذا جلس بين تلاميذه فى حلقة الدرس بدا وكأنه غراب فى حقل من القطن . . . هذا الرجل الذى وصفناه - تقدمه حضارتنا بعلمه وفضله وتجعل منه اماماً يفتى فى دين الله ومدرسة يتخرج على يده الألف من البيض .

وممن قدمهم علمهم وفضلهم في حضارتنا - مع سواد بشرتهم عثمان الزيلعي صاحب شرح الكنز في فقه الأحناف - والحافظ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي (٧٦٢ هـ) مؤلف الراية وكلاهما أسود من زيلع - ومنهم نصيب الشاعر ..

ولقد قام هذا المجتمع على الحب والايثار .. بعد أن كان يحيا في جاهليته على الاثر والسطو .. وهل يتصور انسان ما أن يجيء اليوم الذي يتقاسم فيه العربي مع أخيه داره وأرضه وماله وأزواجه وكل ما ملكت يده .. برضى نفسى وارتياح ضمير وحسن امتثال لله ورسوله ؟ ! .. فانظر الى عجائب التربية الفريدة .. التى تبلغ هذا المدى فى السماحة والايثار .. الذى وصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وما دام وزن الدنيا عندهم قد خف وهان فلتتهن عليهم أعراضها .. كانوا أولا يعيشون لدنياهم وينطلقون على هواهم ويحيون لساعتهم فصاروا اليوم يعيشون لآخرتهم - ويجدون الأنس فى ارضاء ربهم - والسعادة فى البر باخوانهم .. انها القيم الجديدة تجد سبيلها الى أعماق النفوس البشرية فتستحيل الى قوة تهيم على كل وسواس النفس ومسالك الحس وأعماق الضمير .. وتوجه الحياة وجهة جديدة وهكذا تعاليم السماء - ومناهج النبوات .. ليست قشوراً ملصقة ولا تراويق مفتعلة - وانما حقائق علوية تبني باطن الانسان وتصوغ مشاعره وعواطفه فلا يقر للمؤمن قرار بعدها حتى يفرج كربة أخيه - لانه مرتبط به برابط الايمان الذى هو أغلى عنده من الحياة .. ويردد الرسول على مسامعهم : ٦ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة (١) ٦٢ مثل المؤمنين فى توادهم

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .

وتراحمهم كممثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالحمى والسهر .

فالمجتمع بنية حية تحس وتتأثر ماأصاب عضواً منها
أصاب الآخر وهكذا يتحول الشعور الفردى الأنانى الى شعور
جماعى انسانى فى ظل تعاليم السماء .

وتأخذ التجربة الايمانية امتدادها الرائع حين تصبح
واقعا يعيشه الأفراد وتنتقل من عصر الى عصر تحمل سر الله
وشرف الحياة . . ولا تكون مجرد مثاليات وشعارات تستعصى
على التطبيق فنرى التسابق فى الخيرات والتنافس فى الجهاد
والتبرع بالمال تأخذ مداها فى مجتمع الايمان - ويخلو هذا
المجتمع من كل التناقضات والعقد لأنهم كانوا يستعينون
عليها بالله - وتجد كل الفضائل الانسانية متنفساً طلقاً فى
رحابهم المبارك فتملأ حياتهم بالعطر . . وتضفى عليهم
الجمال والجلال فهم أعفاء - أمناء - أوفياء - كرماء - أعزاء -
صادقون ، هم كما وصفهم ربهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً
تنتقلب فيه القلوب والأبصار (١) » - ويعمق الرسول صلوات
الله وسلامه عليه تلك القيم فى أعماقهم متذرعاً بالايمان
والعقيدة فاذا بها تصنعهم من الداخل صناعة ربانية . . تضىء
بها الحياة ويزدان الوجود وتسعد البشرية وتتعانق قيم العلم
والعمل والايمان فى هذا المجتمع فتسرى فى جنباته روح الجد
الحازم والجهاد الصادق والعمل المخلص لله رب العالمين -
ويبنون دولتهم الجديدة على تقوى من الله ورضوانه ويتلفتون
الى أنفسهم فاذا هم جميعاً سواعد قادرة على انجاز ذلك البناء
الحضارى العجيب . كل الكفايات والمواهب قد وجدت فيهم

(١) آية ٣٧ من سورة النور .

وتفجرت منهم . . فلم يحتاجوا الى أى معونة ولم يفتقروا الى
 أى مساعدة . . وانما اكتفوا اكتفاء ذاتياً وبارك الله لهم فى
 أوقاتهم - وفى مواهبهم فجادت بأطيب الثمرات - وتهديهم
 بصائرهم الصافية الى أروع النظم الاجتماعية والسياسية
 والى أنبل القيم وأزكاها . . يهديهم اليها قرآنهم - ويقودهم
 نبيهم . . وتتوالى توجيهات هذا الرسول القائد حتى يكتمل
 بناء الدولة الجديدة وتتأصل مبادئها - تنشأ العلاقات الدولية
 على أساس من كرامة الانسان - وتقوى الله الكبير المتعال . .
 ويكون لها وجرد دولى كريم يصوغ معاهدات السلام ويحارب
 أعداء الله ويكاتب الملوك والرؤساء ويستقبل الوفود من كل
 مكان وتقبل الدنيا عليهم فما تطرف أعينهم - وما تحول
 وجهتهم وانما يستخدمونها فى مرضاة الله .

ويؤصل هذا المجتمع مبدأ الشورى - ويجعلها أساساً
 للحكم ويكافح الاستغلال ويزرع الأرض ويقسم الماء ويبنى
 المسجد ويكافح الأمية ويطلب العلم وتموج جنباته بالنشاط
 الدائب والعمل المثمر الخلاق . .

وهكذا يوجد انسان القرآن ، الذى تتطلع الدنيا كلها الى
 عدله وأمانته وأخلاقه وشخصيته والذى تتوازن فى وجدانه
 مطالب الدنيا ومطالب الآخرة . . فلا يهمل واحدة منهما لحساب
 الأخرى ولنستمع الى وصف هذا الانسان الرائد - انسان
 القرآن - على لسان ألمانى مسلم ومن خلال تصويره يقول :
 [ان الاسلام ينظر الى الحياة بسكينة واحترام - هو لا يعبد
 الحياة بل يعدها مرحلة يجتازها فى طريقه الى مرحلة عليا -
 وبما أنها مرحلة - ومرحلة لا بد منها فليس للانسان أن يحتقرها
 أو يقلل من قيمة هذه الحياة الأرضية ، ان مرورنا بهذا العالم
 فى سفر الحياة لا بد منه وقد سبق به تقدير الله - فالحياة

الانسانية لها قيمتها الكبرى ولكنها واسطة وآلة - والاسلام لا يسمح بالنظرة المادية القائلة - مملكتي ليست الا هذا العالم - ولا بالنظرة المسيحية التي تزدرى الحياة وتقول : - ليس هذا العالم مملكتي - وهذا هو انسان القرآن « ١٠ هـ

وطريق الاسلام هو التكامل كما مر ونحن ندعو ربنا فنقول : ا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (١) ومحال أن يكون الاسلام حجر عثرة في سبيل جهودنا المبذولة لانعاش الحياة وهو أيضاً لا يرى فيها خطراً على جهودنا الروحية . فالواقع أن مجتمع القرآن قد لاءم بين الحياتين فقد كانت دنياه زاهرة بالمجد - زاهرة بالعمل - زاهية بالجمال . . بناها بناء كريما وأرسي دعائمها على تقوى الله . . وقد كانت آخرته ثابرة في وجدانه وقلبه . . لا ينساها ولا يهملها ولا يغفل عنها مهما منحت الحياة . . وبهذين معاً تم التنسيق بين مطالب الدنيا والآخرة . . وتم صنع أكرم حضارة . هذه حضارة الحق والعدل بناها محمد صلوات الله وسلامه عليه . . بمؤازرة الرجال المخلصين - الذين صنعهم على عبده . . فكانت أرفع نموذج حضارى للبشرية جميعها . . وقد امتد ظلالها حتى شمل الحياة كلها ودخل الناس في دين الله أفواجا . . فهل نستعيد هذا المجد ؟

الباب الرابع

ذوقيات الحضارة القرآنية

صياغة الذوق وعجائبها :

من أعجب ما صنع القرآن في هؤلاء الجاهليين - أنه لم يكتف باعلان الحرب على الجاهلية الحمقاء - وطى بساطها الفاجر ووضع قيم جديدة رفيعة مكان القيم البائدة .. وطبع القوم بطابع العقيدة التي صاغت ضمائرهم، وكونت مشاعرهم، وصنعت وجودهم وجعلت منهم نماذج فريدة ولكنه فوق هذا أبى الا أن يصوغ أذواقهم - وأن يجعل من هذه الذوقيات الراقبة قرآنا يتلى - لتظل البشرية مشدودة الى هذه الصفوة الكريمة التي تالقت زمناً ثم غابت عن الوجود .. تاركة فيه عطرها .. وسحرها ..

وان هذا العطر ليسطع فينعش الصدور الحرجة - ويحيى الآمال المهیضة - ويمنح القدوة الفاضلة ..

وهذه الذوقيات الرفيعة ربما غاب عن بعض الناس أنها قرآن يتلى - وسنة تدرس - وتجربة حضارية عاشتها البشرية .. تمثلت أولاً في وجود الرسول الكريم - ثم تحققت بمنهجه وسرت في مجتمعه - ثم ما لبثت أن ذاعت في كل أفق - وانتقلت الى كل قطر - وحملها الاسلام على جناحه القوى أينما غدا أو راح .. وزاد من عمق هذه التجربة .. أنها لم تؤخذ عن نظرية مكتوبة - وانما سرت بالقدوة في مجتمع النبوة ..

فان ذوقيات القرآن كلها قد تمثلت في محمد صلوات الله وسلامه عليه - فكان هو الذوق الرفيع في كل قول أو عمل .. فأكله وشربه وكلامه وتعامله وتسامحه وترفعه ونبله وفضله كلها روائع ذوقية ما أحوج العالم اليها اليوم - وعندما تتحول الذوقيات الى نبض حي يسرى في عصب الأمة ويتمثل في معاملاتها - وأقوالها وأفعالها .. فان الفضل يرجع الى الدستور الخالد الذى قذف بالنور في وجدانهم فاذا بها تضيء .. فتصدر عنه أرق المشاعر وألطف الذوقيات والذين يدرسون الحضارات الانسانية - لا يجدون فيها ذلك الجانب الجمالى الا مصنوعاً - أما أن يتمثل في القيادة - ويحويه الدستور فذلك أمر بعيد ..

وهذا جانب من جوانب العظمة في حضارة القرآن .. تأبى الا أن تتكامل .. فلا تدع جانباً من جوانب الانسان الا تدخلت في تكوينه وبناءه على أجمل وضع وأبهى صورة وهذه الذوقيات التى نحن بصدد الافصاح عنها لا تقتصر على الجانب الروحي - ولا على المادى - وانما تجمع بينهما فهى حضارة تستكمل صور الجمال والذوق المادى والمعنوى معاً .. وقد تروق حضارة الغرب - وتبرق في العين القاصرة الكليلة لما تستجمعه من حسن ظاهرى مصنوع .. ولكن ذلك لا يخدع أصحاب البصائر النافذة .. فانها تخلو من أى جمال روحى - يضىء عليها الصفاء والوداعة والحب .. تلك الروحانيات التى تنشئ السعادة وتروى عاطفة الانسان وماذا تصنع كل مظاهر الجمال الخالب اذا ذهب الايمان؟! وهو مصدر أنس في هذه الحياة!!

وعندما أدرك القوم افلاس حضارتهم في معانى الروح .. وجمالها أخذوا يتجهون نحو الشرق عليهم يجدون فيه ما يسد فراغهم الروحي .. ويتيح لهم واحة روحية عذبة النسائم شذية العطور .. تريح أعصابهم المكدودة وتنقذهم من تلك

الحياة المصنوعة ٠٠ التى لا ذوق فيها – ولا جمال ٠٠ فليس عجيباً أن نرى من الأمريكيين من يعتنقون البوذية ٠٠ أو البهائية أو الاسلام ٠٠ فراراً من جحيم المادة ودوقيات الجمال المصنوع !!

وهناك مجموعة من الشباب الفرنسى اعتنقت الاسلام ٠٠ وراعها ما فيه من جمال فطرى رفيع ٠٠ ومن ذوقيات روحية آسرة وانهم ليجتمعون ويتدارسون القرآن ويحفظونه ويقودهم زعيم مسلم رومانى ٠٠ ويلبسون ثياب الشرق الجميلة البيضاء ٠٠ وبعضهم يطلق لحيته على صغر سنه – بذوق وجمال – ويقولون : « نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب والاسلحة وأفقدتنا انسانيتنا حين أمانت أرواحنا وأحيث شهواتنا ٠٠ ولقد وجدنا فى الاسلام كرامتنا واطمئناننا الرحى ٠٠ فعدنا بذلك الى الفطرة الصافية النقية » ٠

ويقول مستشرق انجليزى اعتنق الاسلام متحدثاً عن ذوقيات الحضارة الغربية [] انها حضارة تفقد الشرف والجمال ٠٠ وفقدانها للشرف أمر لا يختلف فيه الناس – وفقدانها للجمال لأنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطرى وجمال الخلق – أما جمال اللباس وجمال الطبيعة وجمال المدن وجمال البيت وجمال المرأة فانها جميعاً مصنوعة ٠٠ تنزع الى المادية الحيوانية فى كل شئ] ٠

ولعل فى ذكر هذا الكلام ما يدعم نظرتنا الى حضارتنا – ويغير نظرتنا الى حضارة الغرب مهما يكن فيها من بريق وترف ٠٠ فان الذوق السليم يأبى الا أن يصدر عن الفطرة وهم حرب على تلك الفطرة لا يكادون يرجعون الى حكمها فى شئ ٠٠

ولقد تبهرنا حضارة الغرب الحديثة بما ابتكرت وتبتكر
من « بروتوكولات » ونظم مادية - وبما استحدثت من أساليب
التعامل - وبما أنشأت من ذوق في إطار العلاقات الانسانية !!

تبهرنا « هذه الذوقيات » برقتها وجمالها - ولطفها ونقف
أمامها مشدوهين مرددين : ما أطفهم ما أرقهم !! حبذا لو كانوا
مسلمين وما درينا في لحظة من لحظات المحاكمة الذهنية لحضارة
الغرب أنهم نقلوها منا وأخذوها عنا - وسرت اليهم من روائع
حضارتنا ٠٠ يوم خالطونا في الأندلس وعاملونا في الشرق ٠٠
فأقبلوا عليها ونشبتوا بها - واستعملوها في حياتهم - أما
نحن فقد تخلينا عنها يوم تخلينا عن مبادئ حضارتنا - ثم
نسبنا التاريخ ٠٠ وأصبنا بفقد الذاكرة !!

وساعد علي ذلك انتصار الغرب علينا - فتأصلت هذه
العقدة في نفوسنا ٠٠ استحكمت في أذهاننا والمغلوب مولع
بمتغلبه الذالب دائماً كما يقول ابن خلدون !!

الرسول والتجربة الذوقية

إذا كان العالم كله يعتبر الذوقيات كماليات تزدان بها الحياة وتكتسى جمالا ونظرة .. فانها في حضارة القرآن أساسيات تستقى من كتاب جامع لأسرار الجمال - وروائع الكمالات .. فهي بهذا التصور عبادة .. ومن ثم فقد تحرك المجتمع بهذه الذوقيات الى العالم كله فبهره بجمالها وكمالها .. فنقلها عنه .. وأخذها منه .. والحق أن القرآن الكريم قد تحول بمحمد [صلعم] الى تجربة حية نابضة تتجسد في عمل .. وتتجسم في سلوك .. فكان يتحرك بين أصحابه بالطهر كله - وبالجمال كله - وبالأناقة كلها .. ولقد امتدت اليه الأعين فسبأها جماله وبهرها جلاله وكماله فنقلت عنه بالقودة - وأخذت بالناسي واقتبست بالمحبة .

ولقد جمع الله في شخصه كل ما هو ذوق وجمال .. مما يعتبر الآن رقياً وتحضراً .. ولا يكاد يخطر للبشر على بال .. فانظر الى ذلك العربي الأمي كيف صقله القرآن وتعهده الوحي وأدبه الله .. فصار نموذجاً للذوق الرفيع والجمال الباهر .. ولقد جملة ربه بكمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وسلامة الأعضاء وتناسقها واستنارة الوجه بما تحدثت عنه كتب السيرة ولم تستطع الوفاء به كان ازهر اللون - أدهج نجل [أى واسع العير شديد سواد الحدة] - أبلج أزج أفلج مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية ليس بالطويل البائن - ولا بالقصير المفرط .. ومع ذلك فلم يكن أحد يماشيه الا طاله مهما كان طويلا - اذا ضحك تبسم - وافتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام - لا يقهقه - ولا يكثر من الضحك .. اذا

تكلم تمهل - وكرر الكامة ثلاثاً في المواضع الهامة - وأسمع
بصوته .. وكأنما النور يخرج من بين ثناياه .

قال البراء بن عازب : ما رأيت من ذى لمة سوداء في حلة
حمراء، أحسن من رسول الله !

قال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن
الشمس تجرى في وجهه وإذا ضحك تلالاً !!

وقال ابن أبي هالة : يتلأأ وجهه كما يتلأأ القمر ليلة
البدر !!

وقال على كرم الله وجهه : من رآه بديهة هابه ومن خالطه
معرفة أحبه - يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله !!

وعجيب أن يشتد إعجاب أصحابه به الى هذا الحد ..
فقد توجد هذه الصفات في قائد أو ملك أو أمير فلا يلتفت إليها ..
وقدموها في هذه الأساليب بكل حرارة وصدق .. فهل يتحمسون
في التحدث عنها ولا يقلدونها !؟

أما نظافة جسمه وطيب رائحته وعرقه وتنزّهه عن الأقذار
فقد خصه الله من ذلك بالكمال الرائع ليكون تأثيره في العالم
بأسره قوياً كبيراً .. لأنه قدوة في كل مظهره وكل جوهره .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : بنى الدين على النظافة .
ويقول أنس : ما شممت عنبراً ولا مسكا ولا شيئاً أطيب من
ريح رسول الله ..

وعن جابر أن رسول الله مسح خده قال فوجدت ليده
برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة (١) عطار ٠٠ اذا صافح
أحداً ظل يشم الطيب في يده يومه كله ٠٠ واذا مس راس صبي
عرف من بين الصبيان بريحتها ٠٠ وروى البخارى في تاريخه
الكبير عن جابر : لم يكن النبی يمر في طريق فيتبعه أحد الا
عرف أنه سلكه من طيبه ٠٠ وكان يقول « ان الله جميل يحب
الجمال نظيف يحب النظافة » فأين هذا من قذارة الرهبان -
وما كانوا يعتقدونه أن الاستحمام مناف للزهد ٠٠ وكانوا
يعدون أزعمهم وغلهم في النجاسات ٤٠٠!

وكان يحث أصحابه على التجل ، والامتنشاط ، وتحسين
الهيئة ويشبه الرأس الثائرة الشعر برأس الشيطان ٠٠ لأنها
تصدم ذوقه المرفف وتؤذى شعوره النبيل ٠٠

وطريقته في الطعام هي الآية المثلى في الذوق ٠٠ كان
يغسل يديه قبل الاكل وبعده ويبدأ بسم الله ٠٠

ويعلم الصبي الذي يليه كيفية الطعام ٠٠ وكان يأكل مما
يليه وما قدم اليه شئ فعابه ٠

وقالت عائشة : لم يمتلىء جوف النبي شبعاً قط - ولم
يكن يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه ، ما أطعموه أكل - وما
سقوه شرب وفي صحيح الحديث قوله [أما أنا فلا آكل متكئاً |
أى متمكناً في الجلسة التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته -
وكان يقول : « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ٠٠ وكذلك نومه
كان قليلاً وان عينه لتنام ولكن قلبه لا ينام » ٠

(١) جؤنة العطار : الرعاء يضع فيه البعير .

وكان انسانا بكل ماتحمله الكلمة من معان . . وكانت له مهابة وجلالة تبهر كل من يلقاه حتى الأعداء . .

ولقد روى عن (قليلة) أنها لما رأت أنه أرعدت من الفرق (١) فقال : يامسكينة . . عليك (٢) السكينة !!

وفي حديث ابي مسعود أن رجلا قام بين يديه فأرعد وخاف فقال له : مون عليك فأنى لست بملك وكان يقول لمن يهابه : انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . . وكانت تقصده العجوز فتتحدث اليه فلا يتبرم بها . . ولا يتغافل عنها . . وكانت الجارية الصغيرة تأخذه من يده فتنتطق به الى جهة ما فينطلق معها . . ولم ير ماذا رجيله بين جليس - ولم يكن ينزع يده من يدي مصافحه الا اذا بدأ بنزعها . . وكذلك كان لا ينزع أذنه ممن يسر اليه بالوسادة التي يجلس عليها - ويفسح له في المجلس - ويرعى كل عزيز قوم ويعطيه حقه ويسأل عن أصحابه ان غابوا - ويعودهم ان مرضوا - ويواسهم ان نكبوا - ويساعدهم ان احتاجوا - ولا يترفع عن عمل البيت في أوقات فراغه مساعدة لأزواجه . .

ولم يكن يشغله شيء عن جانب الضعيف - وقضاء حاجته وذلك لفرط انسانيته ورقة شعوره - جاء عدى بن حاتم الطائي يوما الى المدينة وهو لم يسلم بعد وحضر مجلس رسول الله وحوله أصحابه بعد منصرفهم من إحدى الغزوات يلبسون الدروع ، وعدة الحرب . . فראה هيبة الصحابة لنبيهم واحترامهم له وبينما هو كذلك اذ جاءت اليه امرأة فقيرة من

(١) الفرق : الخوف .
(٢) ما أجمل اللفظ العياشي في هذه الجميلة يا مسكينة عليك السكينة وما اللطف الجناس !!

اماء المدينة وقالت : أريد يارسول الله أن أسر اليك شيئاً !!
فقال لها : انظري في أى سكك المدينة أخلو لك ؟ ! ثم نهض معها
ووقف طويلاً يستمع اليها ثم عاد فلما رأى عدى هذا تملكته
روعة هذه الروح الانسانية .. وبهره ذلك الذوق الرفيع .. في
رسول الله .

وكان سمحاً في كل شئ وفي بيعه وشرائه بنوع خاص -
يعطى من يسأله - ولا يبخل بما يجد - وقد يقول لمن يريد منه
مالاً : مامعى شئ ولكن ابتع على حسابى !! وقد أوتى خزائن
الأرض ومفاتيح البلاد - وغنائم الحرب وفتح الله عليه بلاد
الحجاز واليمن والجزيرة العربية وما دانى ذلك من الشام
والعراق - وهاداه جميع الملوك فما استأثر بشئ منه ولا أمسكه
لنفسه أو لأهله ومن أقواله : [ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً يبييت
عندى منه دينار الا ديناراً أرصده لدينى] وأتته دنائير مرة
فقسمها وبقيت منها بقية فدفعتها لبعض نسائه لتحفظها حتى
الصباح فلم يأخذها نوم وظل ينتقلب على فراشه ولم يسترح
حتى قام فقسمها ثم قال : الآن استرحت [!!] واقتصر في
ملبسه ومسكنه ونفقته على ماتدعو اليه الضرورة :

وكان أحلم الناس - وأشجع الناس - وأفصح الناس ..
وقد بلغ من خلة الحياة ذروتها ..

قال أبو سعيد الخدرى : كان رسول الله أشد حياء من
العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه وكان
لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره - ولا
ينادى أصحابه الا بأحب الأسماء اليهم - وكان اذا بلغه ما
يكره عن أحد لم يقل ما بال فلان بل يقول : ما بال أقوام ؟

وقال : لم يكن الرسول فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح - وكان أصدق الناس لهجة والينهم عريكة (١) وأكرمهم عشرة - وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره لا خلقه - من جالسه أو قاربه لحاجة صابره . وصفه ابن أبي هالة فقال : « كان دائم البشر - سهل الخلق - لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ لا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه » - قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء - وكان يمازح أصحابه - ويخالطهم ويحدثهم ويلعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويقبل الهدية ولو كانت كراعا ويكافئ عليها ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمساكين ويعود المرضى في أقصى المدينة .

وقد بلغ الذروة في العفو والصفح والمجاملة وصلة الرحم وسمو التواضع - والعدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة . . . وكان كثير الصمت - يقلل من حجم الكلام ويكثر من حجم العمل . . . ولهذا أنشأ جيلاً يفعل أكثر مما يقول ، يقول ابن أبي هالة : كان صمت النبي على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر . . .

ومن خصاله التي تدخل في باب الذوق : نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والامر بالاكل مما يلي والامر بالسواك ونتف الابط وحلق العانة وغير ذلك فقد كان يكره رائحة الثوم والكراث وسائر الروائح الكريهة . . . وينهى أن يدخل المسلم المسجد وهو على تلك الحال .

(١) العريكة : الطبيعة والخلق .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله !!
فحياتك كلها ذوق ولقد حاولت أن ألتقط من الدر ما وسعني
ولكن ماذا أصنع وماذا يصنع غيري والدر كثير !! وحياتك
يا رسول الله كلها لطافة ومروءة وحياء وجمال فمن أين يؤخذ
الذوق العالى ان لم يؤخذ عنك ؟ ومن أين تلتمس القدوة ان لم
تلتمس منك ؟ .. يا من ارتفعت مكانتك الى سماء لا يطار لها
غدو ورواح .

على جناح .. ودنوت تواضعا حتى خالطك الناس في كل
دان الى أيدي العفاة (١) وشاسع
عن كل ندد في الندى وضريب (٢)
كاليد أفرط في العلو وضوءه
للعصبة السارين جد قريب

وتلك يا رسول الله هي التربية في أسمى أساليبها ..
تختلط بأصحابك .. لتؤصل فيهم الذوق والحكمة وتعمق في
وجدانهم الأدب والخلق .. وتغرس في أفئدتهم كل المعاني
النبيلة !!

أنه اذا كان الذوق جمالا في النفس الانسانية ورقة في
الشعر وحساسية في الوجدان تجعل الأعمال تصدر عنها في أنهى
صورة - أروع مظهر - وأكرم جوهر فهكذا كان رسول الله رقة
لا عهد لأحد بها - وأناقاة لم تصدر قبله عن ملك ولا قيصر -
ولقد تعهدته العناية الربانية من مفرق شعره الى أخمص قدمه
فصاغت منه ذوقا مكتملا يمشى على قدمين بين الناس .

(١) العفاة : المتقراء الطالبون للمعطاء

(٢) ضريب : نظير .

فكان كما وصفه ربه « وانك لعلى خلق عظيم » ومن أين
جئت، وجدت جمالا ورقة !!

ولقد استطاع أن يطبع حضارة القرآن بطابع الجمال فكانت
حضارة الجمال المادى والمعنوى حضارة الطهارة والنقاء -
طهارة الثوب وطهارة النفس وطهارة الوجدان .. ولم يصدر
عن أصحابه الا ما كان جميلا .. والدارسون لفنون الجمال ..
ينظرون الى جمال الروح وكل ما يصدر عنه من صفاء القلب
وسمو الشعور وبسلامة الضمير ورقة المشاعر على أنها أعلى في
مستواها من قيم الجمال المادى لأن جمال الباطن يستتبع
جمال الظاهر .. وقد احتفت حضارتنا بهذا العنصر من الجمال
لم تتخل عن الجمال المادى يوما من الايام لانها حضارة
المادة والروح .

وان أروع ما يروينا في هذه التجربة أنها قد تحققت في
سمتها العالى وانتقلت من المصحف الى مشاعر القوم وصارت
واقعا تعيشه البشرية وسلوكا تمارسه وعملا تنبأه فتوجت
الصورة الانسانية بأروع تاج - ورصعته بالدر والخلود
ووضعت على مفرق البشرية كلها فازدان جبينها بأجل تاج
وهيا تلها وسائل - التسامى الازدهار .. وهكذا من فدامة (١)
وغلظة - الى رقة وحساسية .. لم يكتفوا بالجلال بل مزجوه
بالجمال فصدرت عنهم الصورة الباهرة التى استقرت في ضمير
الزمان .. وانتقلت الى صحائف التاريخ فراعت مظهرها وجوهرها
ولله في خلقه شئون فمن كان يصدق أن هؤلاء العرب الغلاظ
أولى الخشونة والفظاظة سيعلمون البشرية كلها أفانين الذوق
ويفجرون فيها ينابيع الحكمة وتنقل عنهم أوريا فتجد عندهم
كل جميل وجليل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

(١) الفدامة : الجهالة والخشونة والغلظة والحق .

وما أحوج العالم كله اليوم - ونحن في نهاية القرن العشرين الى مثل تلك الذوقيات الرفيعة ٠٠ بعد أن فقد الاحساس بالجمال بين صخب الحياة وهدير الآلة وقعقة السلاح وأزيز الطائرات وفلسفة (الدولار والمارك) ٠٠ وهل يساعد ذلك الجو الهادر الرهيب على تنمية الذوق أو ترقية الاحساس !؟

من الروائع الذوقية في القرآن :

ينضح القرآن الكريم بالأفانين الرائعة من الذوق العالي - والادبيات الرفيعة - لتظل تمتد الحياة ونضر وجهها ٠ كلما أمعنت في الغلظة - وأبعدت في المادة - وأوغلت في الفساد ٠٠ وتقف هذه الذوقيات حارساً أميناً يصون ذوق هذه الأمة من كل ابتذال - ويحرسه من تدهور ٠٠ ويمده بالتألق والضياء ٠٠ ولقد تناول القرآن مسائل ذوقية - هي آية في الحساسية ، فوضحها وبين آثارها ٠٠ وكأنما هي غضة جديدة تنزل الآن ٠٠ بل كأنما نزلت لتعالج ما نشكوه الآن من فساد الأذواق - وجفوة المشاعر ٠٠ حتى لكانما الجاهلية التي حاربها محمد صلوات الله وسلامه عليه وقضى عليها قد عادت من جديد بكل ما فيها من فظاظة وغلظة ٠ ٠

وسألتقط من الدر ٠٠ بعض ما يسمح به هذا البحث - راجياً أن أتمكن من معالجة هذا الموضوع مرة أخرى تحت عنوان « ذوقيات القرآن » ٠٠ وهاك نماذج متنوعة منها :

(١) النظافة والطعام :

يقول سبحانه لنبيه : « وثيابك فطهر (١) » ٠

(١) آية ٤ سورة المدثر .

وقد فهموا منها نقاوة الظاهر فلبسوا أجمل الثياب -
وتطيبوا بأحسن الطيب - ونظفوا أبدانهم وتجنبوا الروائح
الخبیثة - وبرزوا في أبهى منظر وأكرم مظهر .. وكانوا في ذلك
مثلاً يحتذى ..

كما فهموا من الآية أيضاً نقاوة الباطن فتعهدوا سرائرهم
- وطهروا ضمائرهم وترفعوا عن الرذائل كلها .. وبذلك
تجملوا ظاهراً وباطناً .. وتآلقوا : مادة وروحا ..

ومن هذا الباب أيضاً : « يا بني آدم خفوا زينتكم عند كل
مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قل من
حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. قل
هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك
نفصل الآيات لقوم يعلمون (١) » *

فهموا منها : التزين للصلاة - فلبسوا أبهى ثيابهم توقيراً
لربهم - وتعطروا بأزكى الطيب *

كما فهموا منها : الاعتدال في المآكل والمشارب فسلکوا
مسلك « الوسطية » من غير افراط ولا تفريط - وهذا من صميم
الذوق الحضارى .. ألا تخرج الى الناس ممثلاً تتجشأ
وتلهث !! كما أن الامتلاء ينافي الرشاقة - ويودى الى التخمّة -
والترهل وهى آفات تقلل الجهد - وتضعف الجسم - وتذهب
النشاط - وتدعو الى النوم والتثاؤب .. وتجلب الأمراض
للجسم ومن ثم فالبطنة أساس الداء - والحمية رأس الدواء ..
والأطباء ينصحون بعدم الامتلاء حتى يسلم الجسم ..

(١) آيتا ٣١ و ٣٢ من سورة الاعراف

كما فهموا من الآية : أن يستمتعوا من الطيبات في حدود ما أحل الله . . . مأكلا وملبساً ومسكناً . . . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقد تمثلوا هذه التعاليم . . . وطبقوها في مجتمعهم فكانت أساساً لكل ذوق حضارى - وانتقلت عنهم بالقدوة - وقلدهم غيرهم فيها ، وبخاصة بعد اتساع الفتوحات في فارس والروم . . . والاندلس . . . لم يبق في هذه البلاد مجال لأى ذوق اقلیمی . وانما شاعت بينهم ذوقيات القرآن . . . ولقد مر أن الرهبانية بتعاليمها الرجعية وقسوتها المهلكة - كانت تعد التمتع بطيبات الرزق والتنعيم بما أحل الله ، رجساً من عمل الشيطان كما كانت تحارب النظافة والتجمل لأن ذلك كما زعموا - ضد الروح . . . فلما شاعت ذوقيات القرآن بددت ذلك الجهل واكتسحت هذا الغشاء .

لقد حدثوا عن (مكاريوس) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه ذباب سام وكذلك « يوسيبس » كان يحمل على ظهره قنطارين من حديد ويقيم أعواماً ثلاثة في بئر قد نزع . . . كل ذلك قصداً الى تعذيب الجسم لتزدهر الروح !!

ووقف الراهب يوحنا على رجل واحدة ثلاث سنين - وكان اذا تعب أسند ظهره الى صخرة .

وبعض الرهبان لا يكتسبون (١) - وانما يتسترون بشعورهم الطويلة ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ويسكنون المغارات والكهوف والمقابر ويأكلون الحشائش ويتأذمون من غسل الأعضاء وأزهدهم أوغلهم في النجاسات . . .

(١) تاريخ أخلاق أوربا « تأليف ليكس » عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للتدوى ص ١٦٨

فأين ذلك كله مما توحىه الآيات السابقة ؟ بل أين ذلك مما طبقت، حضارتنا من نظافة واعتدال وقصد . . ؟ وابتعاد عن النجاسات والأقذار واستعمال للطيب – واستمتاع بطيبات الحياة ؟

هذه ذوقياتنا وتلك ذوقياتهم !! وعندما شاهد العالم تلك الذوقيات الرفيعة، تأثر بها واقتبسها وهجر تلك الوحشية والخسونة . .

(ب) توفير القيادات :

ورد في سورة الحجرات قدر صالح من الأدب مع الله ورسوله . . والخذل عنهما دون إبطاء أو تردد وعدم صدور أية بادرة تجعل للانسان حظاً معهما . . كما ورد في مطلع السورة أيضاً لون من الأدب الرفيع لا عهد للدنيا به . . من خفض الصمت في مجلس رسول الله – وتوقير مشهده – والاستئذان عليه عند الرغبة في زيارته – وندائه بروح الاجلال والتوقير وتخير الأوقات المناسبة لتلك الزيارة . .

وهذا يبرز معنى كبير هو ما نسميه بالتعبير العصري « احترام القيادات والثقة بها وتوقير أوامرهما » وقد سلك أصحاب رسول الله – بعد هذا التأديب المستمر – وبعد تلك التربية الاجتماعية – مع رسولهم – ومع علمائهم – وجميع قياداتهم مسائل الذوق الرفيع والأدب الكامل بحيث كان الواحد منهم لا يستطيع أن يملأ عينه من رسول الله استحياء وتوقيراً . . ولنستمع الى صوت الوحي الالهي يحمل إلينا تلك الذوقيات الرفيعة فنحس بنداوتها – ونصارتها وجدتها – كأنما تتنزل الآية . . كما نحس بحاجة الحياة إليها أكثر من أى وقت مضى يقول جل شأنه : ٦ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا

بين يدي الله ورسوله - وانتقوا الله ان الله سميع عليم -
 يأبىها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا
 تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم
 لا تشعرون - ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك
 الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم - ان
 الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (١) | •

ان هذه الآية تتسامى بجمالها وجلالها - الى أفق رفيع ••
 فهي توضح المعالم التي تنشئ، المجتمع النظيف المذهب - مجتمع
 له أدب مع الله ومع رسوله يتمثل في توضيح حدود العبد مع
 الرب - ومع الرسول المبلغ عن الله - فلا يسبق العبد المؤمن
 آلهة في أمر أو نهى ولا يقترح في قضاء أو حكم ولا يتجاوز
 ما يؤمر به أو ينهى عنه - ولا يجعل لنفسه حظاً مع خالقه
 ويبرأ من كل حول وطول وقوة أمام حول الله وطوله وعلمه ••
 توقيراً وخشية منه وحياء وأدباً معه •• ولهذا العالم أدب
 خاص مع الرسول في خطابه - وزيارته والتحدث اليه ••

وتبدأ الآيات بهذا النداء الحبيب : « يأبىها الذين آمنوا »
 وهو نداء الله الجليل الى عباده المؤمنين يحرك به عواطفهم
 ويستميل به مشاعرهم ويستجيش وجدانهم بذكر الصفة التي
 تميزهم من المجتمعات الأخرى وهي صفة الايمان •• وهي التي
 تربطهم به وتشعرهم بأنهم منه واليه •• فهم صناعة ربانية
 ومن ثم فهو سبحانه يمنحهم من التشريعات ما يصلح ظواهرهم
 وبواطنهم •• ولا يتركهم ليستوردوا مبادئ أو نظماً أو يهيموا
 على وجوههم بين شتى الحضارات الأرضية •• وانما أمدهم
 بكل ما يلزمهم حتى الذوقيات وهنا ينبغي أن تزدهر ثقفتهم في
 هذا الأفق الرباني وأن تستسلم له في كل شيء ••

(١) الآيات اول سورة الحجرات على التوالي .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا - أو لو صح كذا .. فكره الله ذلك .

وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يدي رسول الله .

وقال مجاهد : معنى لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله - يعنى لا تفتاتوا على رسول الله بشيء حتى يقضى الله على لسانه .

وقال الضحاك : لا تنقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . .

وقال على بن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . . وعلى أى قول فالآية ترسم منهج التلقى والتنفيذ . . وتصوغ حياة القوم على لون من الخلق العالى والذوق الرفيع . . وقد تأدب القوم بهذا الأدب مع الله ورسوله فما عاد مقترح يقترح على رسول الله بشيء . . أو يتبرع بالادلء برأى . .

ومن تأثير هذا الدرس فيهم أنهم دائماً كانوا يتخرجون أن يجيبوا عن شيء يسألهم عنه الرسول . . بل كانوا يقولون : الله ورسوله أعلم - حتى ولو كان ذلك الشيء واضحاً جلياً . . استمعوا للأدب والتزاماً للذوق !!

ولقد بدأ رسول الله فطبق هذا القانون على نفسه . . فى أدق الظروف وأحرجها . . بل فى أمس الأمور وأشقها - أمر أن يتزوج زينب بنت جحش بعد طلاق زيد بن حارثة لها - فتزوجها . . وقد كان زيد هذا رقيقاً لرسول الله فأعتقه ثم تبناه قبل تحريم التبني ثم زوجه بزينب ابنة عمته وكانت على حظ وافر من الشخصية والجمال . . وقد تمنعت زينب

بادىء الأمر . . لكنها سرعان ما أذعنت لله ورسوله . . ثم أوحى الله إلى نبيه - أن يتزوج من زينب بعد مفارقة زيد لها وانقضاء عدتها منه . . ليبطل مبدأ جاهلياً قد تعودته العرب وهو تحريم الزواج من زوجة المتبنى . . ولقد أقبل زيد ذات يوم إلى الرسول يشكو له من زينب ، بعد أن وقعت بينهما جفوة فقال له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . وكان عليه أن ينفذ ما أوحى الله إليه فيأمره بطلاقها . . فعاتبه الله في ذلك :

(واذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها (١)) .

ولقد كان العرف الاجتماعي قاسياً . . لا يرحم وهو عرف يحرم الزواج من زوجة المتبنى . . ولهذا استحيا الرسول بادىء ذي بدء . . ثم مال بث أن نفذ . . ومن ينفذ إذا لم ينفذ الرسول ؟

ولقد بين الله الحكمة في ذلك بقوله :

(لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم) .

واذن : فالأمر أمر تشريع . . والله سبحانه يريد أن يبطل هذا الأمر على يد الرسول وبعمله وتطبيقه .

ولهذا أنزل فيه آيات كريمات . . والقصة تعطى درساً رائعاً في الالتزام والتنفيذ ودقة التطبيق حتى على الرسول نفسه - بل انه لأولى أن يسارع إلى التنفيذ . دون أن يتردد أو يفكر بعد أن أوحى إليه ربه .

(١) آية ٣٧ من سورة الاحزاب

ومعكذا القوانين . . لا تطبق على الناس فحسب - ولكن
على القيادات قبل الناس - ليتخذوا منهم قدوة صالحة .

ولننظر الآن في سوآت التطبيق الدستوري والقانوني . .
انها تنفذ على الشعب - لا على الحكام . . وأين هذا من قول
رسول الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد
يدها !! » وأين هذا من تطبيق الرسول على نفسه - في أخرج
الظروف - وفي أدق الأمور ؟ !

ولم يقف التشريع عند هذا الحد - وانما انتقل نقله
جديدة هي حسن الأدب مع الرسول في الحديث . . بحيث
ينعكس على نبرات القوم وكلماتهم : (لا ترفعوا أصواتكم) .

ومن الأمور الاجتماعية التي نشكو منها الآن الصخب
والضجيج المقاطعة في القول وعدم تمكينك أن تدلى بوجهة
نظرك . . يحدث كل ذلك في اجتماعاتنا العامة مع القيادات
ومع الناس بعضهم مع بعض وهذه السمات دليل على
الهمجية . . فكلما كان المتحدث أخفض صوتاً وأكثر توقيراً
لحدثه وأصبر على الكلام كان ذلك حسناً . . وهو في الوقت
نفسه قمة الذوق الحضاري . . وهو ذوق تؤازره السماء . .
ويتنزل به الوحي مع القيادات المؤمنة . . لكي تصان هيبتها
وتحترم كلمتها . . ولذلك أثره في دعم النظام واستتباب
الأمن وتنفيذ أحكام الله ، أما حين تختل القيادة وتسقط
هيبتها فلا أمل في نظام أو صلاح .

ولقد تأثر مجتمع الصحابة . . ومجتمع الحضارة
القرآنية بهذا التوجيه تأثراً عظيماً وطبقوه في كل وقت .

قال البخاري : في سبب نزول الآية كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي حين قدم ركب تميم في السنة التاسعة للهجرة . . . وقد أراد من رسول الله أن يؤمر عليهم رجلا منهم . . . فأشار أحدهما بتأخير الأقرع ابن حابس - وأشار الآخر بتأخير القعقاع ابن معبد - وفي بعض الروايات . . . أن أبا بكر قال لعمر ما أردت إلا خلافي - قال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما ، فنزلت الآيات . . . فلما أخذ ذلك الدرس ووعياه أم يعودا يتحدثان في مجلس رسول الله إلا السرار أو أخا السرار .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع صوته لرسول الله بعد ذلك حتى يستفهمه وقال أبو بكر بعدها : والله يارسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار (الهمس) وروى أن ثابت بن قيس بن شماس كان جهر الصوت أصم فلما نزلت الآية توهم من فرط الحساسية أنها نزلت فيه وقال : أنا الذي أرفع صوتي على رسول الله فأنا ممن حبط عمله . . . وأنا من أهل النار - ثم مكث كئيباً في بيته منطوياً على نفسه ، وقد أغلق رتاج بابه وأوثقه وأصر على ذلك حتى يحكم الله في أمره ، فلما افتقده الرسول بعث إليه فانطلق بعض القوم إليه فأنبأهم نبأه فأتوا النبي فأخبروه فقال الرسول : لا : بل هو من أهل الجنة . . . وفي رواية أخبروه أنه يحيا حميداً ويموت شهيداً ويدخل الجنة ، وقد صح ما أخبر به رسول الله فقد مات شهيداً في حرب مسيلمة الكذاب باليمامة . . . وكان يحمل كفته وحنوطه معه يومذاك ويتأهب للقاء الله .

وقد قال فيه أنس بعد أن أخبره الرسول بأنه من أهل الجنة !! وهذا الكلام من أنس ينطوي على الثقة التامة بكلام رسول الله . . وهكذا ارتجفت قلوبهم تحت وقع هذا النداء - وكان فيهم من فرط الذوق وشدة الحساسية ورقة الشعور ما يجعلهم دائما يتلمسون مواقع الرضا والسخط من رسول الله حتى لا يفعلوا ما يزعجه من قريب أو من بعيد - فتلك هي التربية المؤمنة . . وكانت السماء لا تبخل عليهم بالتأديب اذا صدر منهم ما ينافي شيئاً من هذا الأدب الرفيع ، وقد روى أن أبا بكر وعمر بعد أن انتهيا وأعلنا تأديبهما في القول مع رسول الله نزل قول الله سبحانه : (ان الذين يغضون) .

فهكذا تتجاوب السماء معهم رقة كما تجاوبت معهم زجراً لتصلحهم صقلاً كريماً وتطهرهم من كل ما يمس الذوق الرفيع أو يصدم الشعور النبيل . . وكذلك نلمح في هذه الآية الربط بين التقوى والأدب مع الله ورسوله لانه ثمرتها . . ومن انتقى الله تأدب مع رسوله لا محالة .

وكأنما القوم لا يرضون الذوق الرفيع فحسب حين يتأدبون مع الله ورسوله . . بل يتجاوبون مع التقوى ويرضون رب العزة والجلال . أو قل ان ارضاء الله ورسوله هي الذوق في ذروته العالية - فما أروع أن يثبت القوم عليه فيصبح خلقاً لهم - ثم يستطرد السياق لينتقل بنا الى لون آخر من الأدب مع رسول الله وذلك قوله سبحانه : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات الخ » - ولقد وقع هذا الحادث من وفد تميم حين قدموا على الرسول في العام التاسع وهو عام الوفود بعد فتح مكة . . حين أقبلت وفود العرب تعلن عن استسلامها لله ودخولها في الدين وكان هذا الوفد من الأعراب

الجفافة - فذهبوا الى بيوت أزواج الرسول في وقت حرج -
 وذاووه بصوت مرتفع - وتسفلوا اليه من وراء الحجرات . .
 وكانوا ينادون : يامحمد اخرج الينا فان مدحنا زين وسبنا
 تسين - فكره النبي منهم ذلك وتأذى منه لأنه أمر يחדش
 الحياء ويسبى الى الذوق فنزلت الآيات وهكذا يفرض القرآن
 هذا الذوق على القبائل الوافدة دون أن يجاملها أدنى مجاملة -
 ثم ينظر الى أنها جديدة . . لأن توقير الرسول أهم . . والنقطة
 به انما تصدر عن توقيره والتزام الأدب في التعامل معه . . مما
 ام تكن هناك مراسيم ذوقية تفرضها الآداب العليا - وبخاصة
 مع القيادة الكريمة - التي تبذل وقتها كله في العمل من أجل
 الجماعة وربما تكون في وقت راحة أو نوم . . فان الأمر يصير
 الى الفوضى . . فكيف تقترح عليها المدخل ؟ وتنادى بمثل هذا
 اذاء من وراء الحجرات ؟ . . ولهذا الأمر أثره في صقل مشاعر
 تهم وتربيتهم حتى يعرفوا للرسول حقه في أوقات الراحة . .
 . . وجاه المسلمون وفهموا أنه يوحى بالتزام الأدب مع كل
 . . فنجأوا به شخص الرسول الى كل أستاذ أو
 . . أو خليفة أو قائد لا يزعجونه حتى يخرج اليهم . . وهذا
 . . ائع الحضارة القرآنية .

يحكى أبو عبيدة : « وهو المعروف بعلمه وذكائه وورعه »
 عن نفسه بعد فهم هذه الآيات فيقول : « ما دقت بابا على عالم
 قدما حتى يخرج في وقت خروجه » .

وبهذا تصنع السماء أذواق القوم . . فيتجاوبون معها
 . . ومن ثم فنحن لا نعجب كيف تم صنع
 الجزء ، فتحول القوم من غلظة البداوة الى قمة الذوق ؟ !

يرتبط بهذا اللون من أدب « القيادات » قوله سبحانه في
 سورة الأحزاب : « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا

أن ياذن لكم الى طعام غير ناظرين اناء ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن (١) » ان هذه الآية تضع أساساً لتوقير بيت الرسول فما ينبغى أن يقتحم دون استئذان - كما لا يجوز أن يفرض أحد نفسه على مائدة الرسول دون أن يدعى اليها ، ومن دعى فليجب ، وأن هذه الدعوة ان تمت فما ينبغى التبكير بوقت طويل - وأن الطعام اذا انتهى فما ينبغى أن يطول المكث . . . وتشقيق الحديث بين المدعويين في أمور شتى لأن ذلك يخرج صاحب البيت . . . وانما طعام يعقبه انصراف ليستريح الداعي - وأن التحدث مع أزواج رسول الله له قاعدة وأدب وهو أن يتم من وراء حجاب لأن ذلك أدعى للطهر وأنفى للشك . . . وأقرب الى روح التوقير والاجلال . . . ولا يحق لأحد أن يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين من بعده لأنها أمه . . . !!

سلسلة من الذوقيات الرفيعة ، تعلم القوم آداب المائدة - وذوقيات الدعوة الى الطعام - وحسن الأدب مع رسول الله . . . ولهذه التعاليم أثرها في بيئة بدوية لم تكن تعرف عنها شيئا . . . لأنها كانت تقتحم وتلح دون استئذان - وتحضر الطعام دون دعوة وهكذا من كل ما يصدر عن جفاوة الطباع . . . وما أحوج المجتمع اليوم الى رعاية هذه الآداب . . . فكم يلقي الداعي من عنت . . . عندما يدعو شخصاً فيبطل في المجيء الى درجة مؤسفه . . . ويظل بقية الضيوف في انتظاره . . . ثم يحضر بعد مضي ساعة من الدعوة . . . وقد يبكر فيحضر قبل ذلك بوقت طويل . . . وقد يحضر اليك من لم يخطر على بالك من غير دعوة وقد يكون الطعام قليلا !! وأقبح من ذلك فتح

(١) انه ٥٣ من سررة الاحزاب .

مجالات الكلام بعد الطعام . . وإذا كانت هذه الذوقيات أساساً
مع مولانا رسول الله فما أخرى أن تكون أدباً ملتزماً مع جميع
القيادات ومع كل الناس لتصبح رصيصة من أدبيات حضارتنا
القرآنية !!

ما أجمل أن نطلق هذه الذوقيات اليوم . . الدعوة محدودة .
ومقيدة بوقتها . . ولا كلام بعد الطعام !!

ومن الذوقيات الخاصة بالرسول وحده ألا تتكح نساؤه من
بعده توقيراً وتكريماً . . ولأن كل واحدة منهن أم المؤمنين فهذا
تشريع يدخل في باب التوقير والاحلال لمولانا رسول الله . .
ولأمهات المؤمنين !!

(ج) رعاية الحرمات :

للبيوت حرمة يجب أن ترعى - وقداسة ينبغي أن
تصان . . فلا يحق لمسلم أن يقتحم بيت أخيه من غير استئذان
في الدخول - واذن من صاحب الدار . . وما يجوز على الإطلاق
أن يفاجأ الناس بدخول الغرباء، خيفة أن تتطلع الأعين على
خفايا البيوت وكم فيها من عورات . . عورات الطعام واللباس
والكلام . .

ولعل لذلك الاستئذان أثراً في تضيق فرص الغواية ، وقطع
دابر الفتنة . . والقضاء على عوامل الشك التي يتزلزل لها
كيان البيوت . . انها « ذوقيات أسرية » للحفاظ على كرامة
البيت المسلم : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم
حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم
تذكرون فان ، لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم
وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون

عليم . . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها
متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (١) » .

ففى جو هذه الآيات - نستشعر حرمة البيوت - وكرامة
الآدميين . . فبيوتنا سكن لنا نفى إليها لنجد الأمن والهدوء . .
فتستقر الأرواح والنفوس . . وهى لا تؤدى تلك الغاية الا اذا
كانت حرماً آمناً . . لا يستباح بالاقتحام . . ولا يدخل بدون
إذن . . لان أعين الداخلين قد تتقح على ما لا يحب صاحب البيت
أن يعرفه أحد . . وقد يكون ذلك مباءة للفساد . . بما يهيه من
فرص الغواية - التى تنشأ عن ذلك الولوج المفاجيء . . ولقد
كان الجاهليون يقتحمون دون استئذان .

ويقول أحدهم : لقد دخلت . . وقد تكون ربة الدار
مكشوفة . . أو مع زوجها فى حالة لا يجوز أن ترى . . وكان
ذلك يؤذى ويحرج كما يعرض النفوس للفتنة . .

من أجل ذلك شرعت ذوقيات الاستئذان . . على هذا النمط
العالى من حسن الأدب وتوقير البيوت والاستئناس فى الآيه
والاستئذان . . وكأنما يوحى التعبير القرآنى بطريقة
الاستئذان وأسلوبه ولطافته . . حتى لا تفزع النفوس قرب
مستأذن عنيف يطرق الباب بقوة . . أو يدق الجرس بعنف
وذلك كله ازعاج . . وكأنما الآيه تقول : استأذنوا بلطف
وايناس . .

فان كان أهل البيت بداخله - وسمحوا لكم بالدخول
فادخلوا . . فان لم يكن فيها أحد فلا تدخلوا : « فان لم تجدوا
فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة النور .

فان كان أهلها بها وسمحوا فالفقوا عليهم السلام زيادة في
الأنس . . وقلولوا لهم : السلام عليكم أندخل ؟ فان سمحوا
فادخلوا . . وان لم يسمحو فلاتكؤ ولا انتظار بل انصراف
فورى « وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم » .

ولا ينبغي ان تستشعروا في الرجوع غضاضة فللناس أسرار
وأعذار . . وهم الذين يقدررون ظروفهم « والله بما تعملون عليم »
فهو المطلع على ما في القلوب - من دوافع ونيات . . وهناك
بيوت عامة كالفنادق - ومنازل الضيافة المنفصلة عن السكن -
فلا بأس بدخولها دون استئذان دفعا للمشقة [ليس عليكم جناح
أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم - والله يعلم
ما تبدون وما تكتمون] فما دامت النيات طيبة والدوافع كريمة
فلا بأس في الدخول والله سبحانه يعلم تلك الدوافع والنيات . .
فصححوا قلوبكم تصح أعمالكم . .

وما أجل تلك الذوقيات . . وما أجدد أن تحييتها بدقة في
مجتمعاتنا الحاضرة . . فقد يخيل اى أن الناس قد غدوا طفيليين
وكلما تقدم الزمن - قلت أذواق الناس - وقلت رعايتهم لتلك
الحالات الرفيعة من حرمة البيوت وكرامتها . . وكم في البيوت
من أسرار . . وأيسرها أنك في بيتك يجب أن تكون آمنا من كل
مباغطة وسطو . . فكلامك وأثاثك وزوجك وحالاتك كلها
حرمت يجب أن تصان وتحفظ . . والعجيب أن نلمح دقة
القوم في التطبيق - وحسن الاستجابة لله . . فما كانت
ذوقيات نظرية - وانما غدت واقعا يعيشه الناس . . وكم
نفتن بالغرب وحضارته حين نرى مراسيم الاستئذان والدخول
. . وننسى أن ذلك قرآن يتلى . . وآداب تلتزم . . ومنهج
قد حققته التجربة العملية في حياة آبائنا . . ولنستمع الى
دقة التطبيق . .

أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي عمر الأوزاعي
باسناده عن قيس بن سعد بن عبادة قال : زارنا رسول الله
في منزلنا - فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد
خفيا (١) - قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ؟ فقال :
دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ثانية : السلام
عليكم ورحمة الله فرد سعد خفيا ، ثم قال رسول الله الثالثة :
السلام عليكم ورحمة الله . . ثم رجع رسول الله واتبعه
سعد فقال يا رسول الله : اني كنت أسمع تسليما وأرد عليك
ردا خفيا لتكثر علينا من السلام قال : فانصرف معه رسول
الله : وأمره سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصه - أي ثوب
من خز أو صوف - مصبوغ بزعفران أو ورس فاشتعل بها ثم
رفع صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل
صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . . فأنت ترى أن
الرسول صلى الله عليه وسلم عليه ينهض بتطبيق الآية فيرجع
حين لا يسمع الاذن الصريح بالدخول . . وأنت ترى سعدا
طموحا يريد أن يظفر من الرسول بالسلام الكثير حتى تحدث
البركات . . وأنت ترى الرسول يدخل حين يلحقه سعد فيبرر
له الأمر . . وأنت تحس أن الدعوة الحارة التي صدرت من
الرسول إلى سعد وآل بيته إنما هي بسبب فقهه ورغبته في دعاء
الرسول وحيلته الذكية التي تجلت في الرد الخافت ليظل
الرسول يسلم عليه . . وهكذا بدأت القيادة الكريمة بتنفيذ
الأمر . . فكان سلوكا للقوم .

وقد روي أن رسول الله كان يأتي الدور من ركنها الأيمن
أو الأيسر ولا يستقبل الباب من تلقاء وجهه وذلك رغبة في
التوقي كيلا تقع العين على شيء . . لأن الدور لم يكن عليها
مستور .

(١) خفيا : أي بصوت خفيض .

وفي الصحيحين : لو أن انسانا اطلع عليك بغير اذن
فحذفته (١) بحصاة ففقت عينه ماكان عليك من جناح - وقال
هشيم - قال مغيرة - قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد
آذاه الرمضاء فأتى فسطاط (٢) امرأة من قريش فقال السلام
عليكم أأدخل ؟ قالت أدخل بسلام فأعادت وهو يراوح (٣) بين
قدميه قال قولي : ادخل قالت : ادخل فدخل . انه الاحتياط
والتدقيق . . فهو لم يفهم من عبارتها الأولى الاذن الصريح
ولهذا توقف حتى سمعه .

وجاء في الصحيح عن رسول الله أنه نهى أن يطرق
الرجل أهله طروقاً وفي رواية ليلا يتخونهم (٤) وفي رواية أن
رسول الله قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال : انتظروا
حتى تدخل عشاء يعني آخر النهار حتى تمشط الشعثة -
وتستحد المغيبة - أى تتطيب من الشعر الداخلى .

فهذا من الذوقيات العالية . . التى لا تفاجى المرأة وهى
غافلة أو نائمة لأنها تحب أن تتزين لزوجها ومن ثم
فلااستئذان على الأهل والاخوة واجب أيضا لان أحداً لا يحب
أن يرى واحدة منهن عريانة فأين هذا مما نحن فيه اليوم ؟ . .
ربنا ألهمنا الحكمة والسداد حتى نطبق ذوقيات قرآننا . .

لكن الخدم من الرقيق - والأطفال المميزون الذين لم
يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان الا فى أوقات ثلاثة . .
فانهم يستأذنون فيها : هى الوقت قبل صلاة الفجر حيث
يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها فيلبسون

(١) حذفته : قذفته ورميته .

(٢) فسطاط : خيمة أو شيء يشبهها .

(٣) يراوح : تعبر بغير التردد لان الاذن غير صريح .

(٤) يتخونهم : يظن بهم الخيانة كما فى القاموس .

ثياب الخروج - ووقت القيلولة عند الظهرية حيث يخلعون ملابسهم عادة ويلبسون ثياب النوم وبعد صلاة العشاء لما مر وسماها القرآن « عورات » لانكشاف العورات فيها - في هذه الأوقات يستأذن الخدم والصغار المميزون لثلاث تقع أعينهم على العورات . . ولذلك أثره في تربية الطفل سليمة حتى لا يرى ما لا ينبغي فيترسب ذلك كله في شعوره فما أرق التربية وما أنظفها !!

وقد سمي القرآن هؤلاء « طوافون » لأنهم اعتادوا الدخول . . وترددوا على البيوت . . وتلك رحمة من الله . . حتى تطرد الأمور ببساطة . . ولا يحصل العنت . . وفي هذا يقول ربنا سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات الخ (١) » .

(د) ادب التحية :

من ذوقيات الحضارة الحديثة اهتمامها بالتحايا - والقائما في الصباح والمساء وفي جميع الأوقات بألفاظ معينة . . وابتكارها لكل جديد من الاساليب وجميل من الكلمات . . ولاشك أن للتحية أثرها في الدلالة على نضارة العواطف ، ورقة المشاعر - وحيوية الأمة . . بل ان التحية المتميزة تحمل شخصية الأمة - وتدل على تقدمها الحضارى . . والاسلام بخلاف التحايا كلها على أنها مجاملات تبتعد عن روحه . . وتنفسل عن طموحه . . ويشتهق من كلمة « الاسلام » تحية كريمة تحمل معنى الحب والأمن والوداد . . ومن في الدنيا يكره السلام أو يزعج فيه ؟ ! انه تحية نابضة بكل المشاعر

(١) الآية ٥٨ من سورة النور تحمل هذا المعنى وتؤديه ،

الطيبة زاخرة بشتى العواطف الكريمة ، تحمل خصائص هذه الأمة وروحها . . ورغبتها فى السلام . . وما أجمل ذلك اللحن العذب . . والدلالة الكريمة التى تفيض من قولك لأخيك المسلم « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . . انها تفتح مغاليق القلب - وتفجر أغرز ينابيع الحب . . وهى فى الوقت نفسه تعبير عن شخصية الأمة المسلمة - وعن روحها فى دعم السلام . . فتحياتها السلام . . ومساعدتها للسلام . . ووجهتها السلام «بأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة (١)»

« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا (٢) » . . انها رمز الايمان ودليله . . وبرهان الحب وسبيله . . ويكفى أنه اسم من أسمائه سبحانه . . وهى تحية أهل الجنة . . وهى اسم للجنة ما أجمل أن نتمسك بهذه التحية . . وأن نعلمها لأولادنا - وأن نذيعها فى مجتمعاتنا . . يقولها الرجل للرجل - والمرأة للمرأة - والرجل للمرأة . . والفتاة للفتاة . . وهكذا نهتف بأنغام السلام لنكون من أهل الاسلام . . ولقد كان الجاهليون يقولون فى تحاياهم : عم صباحا - عم مساء - أبيت اللعن - فلما جاء الاسلام طوى كل هذه التحايا وأحل محلها تحيته الكريمة - التى تحمل اسمه - واسم الله - واسم الجنة فما أجلاها من تحية وما أسماها من مجاملة !!

ولقد طبقها الصحابة فى مجتمع النبوة - وبعده تطبيقا حسنا فما كانت هناك تحية تزاحمها . .

ونبض بها قلب الحياة - وخفق سَعرها . . ولكننا نعيش حتى نسمع على لسان الشباب المسلم اليوم تحايا ما أنزل الله بها من سلطان . . وهى تعبر عن عقدة الضعف

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة .

(٢) آية ٩٤ النساء

والهزال التي تتسرب الى الشعوب المستعمرة . . أو المنحلة .
ينسون ذوقياتهم الرفيعة ويرددون غيرها ترديداً أبله . .

وفي هذا يعلمنا ربنا لفظ التحية - وأدبها - كذوق رفيع
ينبغي الحرص عليه فيقول سبحانه :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن
الله كان على كل شيء حسيباً (١) »

فالمسلم مهما يلحق اليه من التحايا . . يكون رده : وعليكم
السلام ورحمة الله وبركاته . .

بدء السلام سنة ورده فرض . . والزيادة في الرد مطلوبة
قصداً الى الفضل . . فإن لم يتيسر فرد التحية بمثلها . .
ولكن شخصية المسلم لا تنمى ولا تجرى وراء تحايا ما أنزل
الله بها من سلطان وتحيتنا كلها رقة وذوق وجمال من قال لنا :
السلام عليكم قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
أوردنا تحية بمثلها . . وأنت مخير بين العدل - والفضل . .
والفضل أولى وأكرم . . وما دام له فضل لا بدء فليكن لك فضل
الزيادة .

(هـ) تفسحوا في المجالس :

من ذوقيات حضارتنا الرفيعة - أن يتفسح المسلم لأخيه
المسلم في المجلس - مجلس العلم - أو مجلس الرأي والفكر -
أو أى اجتماع يكون مزدحماً بالناس - وقد طبقها الرسول
وصحابته تطبيقاً رائعاً على سماحة أرواحهم واتساع
مشاعرهم ورحابة نفوسهم . . فما كان أحدهم يجلس الا حيث
انتهى به المجلس . . لئلا يزحم الناس ويتخطى الرقاب . .
لكن المكان الضيق يمكن أن يتسع اذا اتسعت الأخلاق - ولهذا

(١) آية ٨٦ - سورة النساء .

كانوا يفسحون لآخوانهم - ويجلسونهم بجوارهم - أو يتخلون لهم عن المكان أن كانوا كبارا . . . وعندما يفسح المسلم لأخيه المسلم في المكان فإنه بذلك يحترم إنسانيته - ويوقر العقيدة التي جمعتها في رحابها - ويوقر ربه بامتثال أوامره ويدل بذلك على نبل شعوره وبسطة عواطفه : لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق .

فالمشكلة ليست في الأماكن المادية - بل في الأخلاق النفسية . ولهذا وجدنا القرآن يهتم بها وينزل بشأنها . . . كخلق عام يكون الذوق الإسلامي الرفيع . . . وكم في الإسلام من تشريعات اجتماعية تدل على رقة الذوق وسلامة القلب - ونبل الأحاسيس يقول ربنا :

(ياأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١)) .

وقد كان القوم يتسابقون في الاقتراب من رسول الله ويزدحمون من حوله في مجالس العلم .

قال قتادة : كانوا اذا أراد أحدهم سبقا جلس - وضمن بمجلسه عند الرسول فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل : نزلت الآية يوم الجمعة - وكان الرسول في الصفة وهي مكان ضيق - وكان من عادته أن يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم وقد سبقوا الى

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

المجالس فوقفوا حيال رسول الله وقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم وظلوا وقوفا فلم يفسح لهم أحد ، ورآهم النبي ، وعرف ما يحملهم على القيام ، فتولى هو ف مسح المكان فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهد بدرا : قم يا فلان وأنت يا فلان فلم يزل يقيمهم حتى أجلس الواقفين . . فشق ذلك على من قام . . وعرف الرسول ذلك في وجوههم . . وانتهاز المنافقون الفرصة لينفسوا عن حقدهم بالنقد والتجريح فقالوا للمسلمين : ألسنتم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ، والله ما رأينا قد عدل مع هؤلاء . . ان قوماً قد أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم فبلغنا أن رسول الله قال : «رحم الله رجلا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لآخوانهم فنزلت يوم الجمعة . .

وهذا السبب معقول . . ولا ينافيه قوله عليه الصلاة والسلام : [لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا (١)] ولا ينافيه أيضاً استنقرار القادم حيث ينتهي به المجلس فلا يتخطى الرقاب ليأخذ مكان الصدارة لأن الذي تم في هذا المقام كان بأمر الرسول فهو تشريع . . والواقفون لم يقيموا أحدا ولا رغبوا في ذلك وإنما قام الرسول عنهم بذلك - بما فيه من شفافية ورقة . . والتقصير إنما كان من الجالسين - ولهذا لقنهم درساً في الذوق . . وفي تصرف رسول الله . . ما يوحى بأن الأحفال العامة يجب تنظيمها . . وأن يوجد فيها من يقيم الناس في أماكنهم - وفيه احترام ذوي العلم - والفضل - والسن

(١) في رواية الصحيحين .

بتقديمهم وفسح المكان لهم . . وفيه أن المبادرة بفسح المكان
لو تمت من الجالسين لكان أفضل . . فمتى رجب القلب فقد
انحل الاشكال - ومتى ضاقت النفوس والأخلاق ساد
الشح . . وتشبت كل واحد بمكانه لا يرفع حرمة كبير ولا
سابقة أولى الفضل ولا كرامة أهل العلم . . وانظر معي في
قوله سبحانه : [تفسحوا يفسح الله لكم] انها تعد بتواب
رائع وهو توسيع الله عليهم توسيعاً عاماً في القلب والنفوس
والخلق والدنيا والآخرة . . وكذلك قوله : [يرفع الله الذين
آمنوا منكم الخ] يعد أيضاً بالرفعة والسمو لمن يترك مكانه
لأخيه فأما قوله : [والذين أوتوا العلم] فمعناه أن العلم نبع
سخي للذوق السليم - وأن مبادرة القيام لشخص ما . .
لاتصدر الا عن علم ومعرفة . . فأما الجهالة فليست مصدر
ذوق بل مصدر فظاظة وغلظة .

وبنزول الآية . . تبطل كلمات المنافقين . . كما تأخذ
المسألة وصفاً اجتماعياً ذوقياً له خطورته لأنها أصبحت
تشريعاً وقانوناً . . وهنا لابد أن نشير الى أن التعاليم
الذوقية التي تصقل مشاعر المسلمين لها أعظم الأثر في خلق
مجتمع موحد تتجانس ذوقياته ومثالياته وتنطبع شخصيته
بطابع واحد فاذا كان أفق الحضارة عالمية كما وضحنا فمعناه
أن ترتبط الأسرة الانسانية عالمياً بتقاليد ذوقية محددة تصنع
منها وحدة رائعة على المستوى العالمي - وقد توحدت فعلاً
مشاعر القوم وأذواقهم وأعمالهم حين توحدت مصادر الهامهم
فصدر عنهم العلم والفن والحكمة والفلسفة والجمال بشكل
متجانس - وأسلوب متشابه . . لاتجد فيه عوجاً ولا أمثاً . .

يقول الفيلسوف اقبال : | ان ثبات العرف الذي ليس له
خطر اجتماعي كبير كالعرف المتعلق بالأكل والشرب والطهارة

والنجاسة يكون له في تطور مجتمع كالمجتمع الاسلامى قيمة حيوية خاصة تجعل له حياة نفسية متميزة - لأنه يكفل لأفراده الانسجام والوحدة في الظاهر والباطن حتى يقاوم عوامل الفرقة بين أفاضل شتى من مجتمعات متنوعة مختلفة ومن هنا يجب فهم مرمى التجربة الاجتماعية التي يرمى اليها الاسلام من حيث قصدها الأكبر الذي يسرى في الانسانية عامة حتى الذوقيات تصبح وحدتها مظهراً اجتماعياً رائعاً يؤلف بين هذه العناصر تاليفاً متناسقاً ينفع ولا يضر | •

أقول : فكيف اذا كانت ذوقيات الاسلام تشريعاً صادراً عن الله • • وتجربة عاشها رسوله ومن معه من الصحابة انها حينئذ تأخذ من عمق التأثير أكبر مما ذهب اليه اقبال من انها تنفع ولا تضر • • بل انها حتماً تنفع وتوحد - وتخلق عالماً راقياً نظيفاً • • له طابع واحد • • وتسرى فيه نغمة واحدة وهو مجتمع متجانس الروح والمادة - متشابه الخلق والسلوك - متناسق الظاهر والباطن • • متماثل الأعمال والعادات والتقاليد والذوقيات • • فاذا جئنا بعد ذلك الى الحضارات الحديثة - وجدنا أنها تعطي هذه الأمور عناية كبرى • • وتجعلها مراسيم مرعية - وذوقيات واجبة • • فاذا قارناها بذوقيات حضارتنا اتضح أننا نملك من التشريعات الذوقية ما لا يملكه سوانا • • وأنها تصدر عنا على أنها عادة ودين ، وتصدر عن باعث العقيدة والايمان • • وتحصل القدوة برسول الله وكفى بذلك قوة لها وتجدد واستمرار في الحياة - على أن معظم ما يروقنا من مظاهر ذوقيات الغرب مأخوذ منا يوم اختلطوا بنا هنا وهناك • • ولم يكن لديهم تقدم ولا ذوق • • بل كانوا يتسترون

بشعورهم ويمشون كالأنعام على أيديهم وأرجلهم – ويعدون
النجاسات زهداً وورعاً . . في هذه الحقبة من حياة القوم
اتصلوا بنا . وأخذوا عنا . ثم طوروا التجربة . . ونموها
. . فازدهرت ثم أثمرت عندهم !!

أما نحن فنسينا . . واستمرأنا النسيان فأصبنا بشيء
من فقد الذاكرة ثم جئنا نقلد القوم . . وما شعرنا أنها
بضاعتنا ردت إلينا . .

كم كنت مشوقاً الى أن نمضى مع تشريعات الذوق في
حضارتنا حتى أترجم عن معظمها . . ولكن الوقت لا يتسع –
والبحث لا يحتمل . . وحسبى أنى أشرت الى كتاب يأخذ
هذا العنوان « من ذوقيات حضارتنا » ثم يقدم الى الحياة التى
فقدت ذوقها فى غمرات الصراع المحموم . . وللمسلمين على
اختلاف ديارهم ليعلموا أن رصيدهم ضخم فى هذا المجال وكم
أحب أن يترجم كتاب كهذا ويقدم للغرب ليذكر ان كان ناسياً
أن مايعده اليوم حضارة ذوقية هو من رصيد المسلمين ومن
وحى كتابهم المنزل . .

وقد يعيننى الله فأقوم ببعض هذا الواجب !!

الباب الخامس

الحضارة القرآنية بين المد والجزر

عهد البقاء والتأسيس : عاش المسلمون عهد النبوة ببناء لهذه الحضارة القرآنية يشيّدون صرحها بالجهد والعرق - ويحملون حماها بالنفوس والروح ، ويذودون عنها بالسواعد الفتية . . ويلتفون حول رائدهم العظيم لينتلقوا منه عن الله أركى التعاليم . . فاذا نزلت آية سارعوا فتمثلوها . . ثم أقبلوا على أنفسهم فطبّقوها - وعلى الحياة من حولهم فجسدوها . . لا يشذ منهم أحد ولا يتخلف انسان .

وكان هيكل حضارتهم يكتمل رويداً رويداً على أناة ومهل . . حاربوا الشرك حتى تزلزلت أقدامه ثم انطوت أعلامه . . وتحملوا في سبيل بناء حضارتهم ضروباً من الأذى والعذاب دون أن يفتنهم ذلك أو يصرفهم عن دينهم . . تحملوا حرب التجويع بأقصى ما يحتمله الأنعام . . حتى أكلوا ورق الشجر . . وصمدوا لحرب الأشاعة والتضليل . . حتى قذف الله بالحق على الباطل . . واتجهوا الى أقاصى الدنيا فراراً بعقيدتهم وتفرقوا في أرض الله فجمعهم الله بفضلته وحوله . . وهانت عليهم في سبيل عقيدتهم أموالهم وأرواحهم وأولادهم فباعوا كل ذلك لله - رائدهم قول ربهم : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم (١) » .

(١) آية ١١١ سورة التوبة .

ثم تحركوا في العالم كله لدعم قضيتهم فاكتمست قوة • •
 ووضح حقهم بعد أن كان باطل قريش سائداً • • ذهبوا الى
 النجاشي وشرحوا أصول دينهم • • فقبل منهم • • واقتنع
 بحديثهم • •

وطرد وفد قريش الذي جاء ليتسلمهم • • ويردهم الى
 قبضة الشرك • • ثم كانت بيعات كريمات لدعم القضية ثم
 استقبل الرسول الوفود • • وكاتب الملوك • • لتوسيع قاعدة
 الاسلام وبسط رقعته • •

وكسب أنصاره • • وقد اثرت كل هذه الأمور في دعم
 القضية • • ولم تكن هجرة الرسول الا ضرباً من التضحية في
 سبيل العقيدة • • وما كانت هجرة أصحابه الا تطبيقاً لذلك
 المبدأ • •

ولقد ضحوا • • حتى بالوطن • • لأن أوطانهم في نظرهم
 حيث تعز عقيدتهم • • ولم يكن ترك مكة سهلاً عليهم • •
 فقد وقف رسول الله يودعها بالعاطفة الجياشة يقول [أعلم
 يامكة أنك أحب بلاد الله الى • • ولولا أن قومك أخرجوني
 ماخرجت] • •

ولقد مرض الصحابة المهاجرون • • وبدا عليهم الضيق
 النفسي • • فدعا لهم الرسول بأن يحبب اليهم المدينة كما
 حبيب مكة • •

والواقع أن الهجرة عمل ايجابي • • حتى يتم بناء قاعدة
 الاسلام بعيداً عن الشرك والوثنية • • ولم تكن مسلكاً
 هروبياً • • ولا سلبياً - لأنها تحمل من بطولة النفس فوق

ما يعرف الناس . . وكيف تكون هروباً أو جبناً . . وقد ضحى القوم فيها بديارهم وأرضهم وممتلكاتهم . . وأموالهم . . حتى ليروى أن صهييا . . عندما أراد أن يهاجر قالت قريش : جئتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك واليوم تريد أن تتركوننى ؟ قالوا : نعم قال : فأنى قد تركت مالى . . فتركوه يهاجر هكذا تهون الأموال والانفس فى سبيل العقيدة . . ثم مى احتمال فوق المعقول من حيث ان القوم معرضون للحاق قريش بهم . . وتمزيقهم كل ممزق . . حقاً انها لتضحية تمنح القدوة لأصحاب المبادئ والمثل والرسالات . . ان الهجرة عمل بطولى يخضع كل شهوات النفس لحكم الله . . . وتمضى الهجرة بأصحاب رسول الله فى مد متتابع لا تتوقف ولا تتلبث . . لأن عقيدة القوم قد نزعت الخوف من قلوبهم وبهذا تم الاستيطان فى بلد آمن . . يمكن للعقيدة أن تتنفس فيه . .

ويمكن للدولة الجديدة أن تشهد ميلادها على أرضه . . ويمكن كذلك بناء الجيش وتمهيد السبل وتخطيط المجتمع . . والاستعداد للفتح الأكبر بالانقضااض على مكة عاصمة الوثنية . . وتخليص الضمير البشرى من الشرك والجهالة وهذا هو الذى حدث . . وماكان الرسول ليدع مكة يتبجح فيها الباطل . . ويتوقع الكفر . .

وتترعرع الجاهلية . . ولكن اقتضت خطته الحاسمة بل حكمته أن يعاجل الوثنية بضربة قاصمة حين زحف عليها فى العام الثامن الهجرى فدخلها مسلماً . . ولم يقتل . . ولم ييسفك دمآ . . وأعلن الرحمة العامة لا الملحة الدامية . . ثم وقف على باب الكعبة يعلن العفو العام ويقر مبادئ الاسلام والواقع أن حضارة العالم كله قد تفجرت عن المدينة . . فقد

شهدت تجربة الاسلام الكبرى تتحول على أرضها الى واقع وسلوك . . فمنها زحفت جيوش الايمان لتضع حداً للعتاة المجرمين . . ولتقر العقيدة في أرض الله . . ومنها تفجرت قيم الحياة وأسس المعرفة - وفي مسجدها تم تهذيب جند الله على الجهاد . . هكذا شهدت الحياة ألواناً من النشاط الحضارى يدب في هذه البقعة من الأرض . . ورأت نوراً ينبثق من ذلك المكان . ثم مالبت النور أن ترامى ومالبت التجربة أن انداحت واتسعت لتغمر العالم كله بل الحياة بأسرها .

وقفة أمام السواعد الفتية :

والهم أن نقف وقفة تأملية أمام أروع ظاهرة اجتماعية في الوجود لنرى كيف بنيت أول مدنية في العالم لتتخذ الحياة من الجهالة . . ولتضع حداً للاستبداد والطغيان ولتعلن أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله . . نعم نقف وقفة خاشعة أمام القوم الكرام وهم يبنون حضارتهم بسواعدهم وإيمانهم - ويترجمون كل آية تنزل من السماء الى عمل مثمر خلاق - ويحدثون أثراً عملياً تهتزله الدنيا . . انها محاولة التغيير الرائد في مجتمع المدنية أولاً ثم الانطلاق بتلك التجربة الى مكة وغيرها من بلاد الله الواسعة لتسترد الحياة كرامتها - وتلتقط البشرية أنفاسها وتتحرك ارادتها من قبضة الجبارين فلا خضوع الا لله ، ولا سلطان الا لحكمه ، ولا تفاضل الا بالتقوى ، ولا مجد الا بالاسلام . . لاعصية - ولا طائفية - ولا جاهلية . . بل مجتمع متساند ترعى فيه الحقوق وتؤدي الواجبات ويحكم القرآن .

ولقد مارس أصحاب رسول الله بناء هذه التجربة بهمة واقتدار بدؤوا فأسسوا المسجد - وبنى فيه رسول الله بنفسه -

وقاد أصحابه بحزم العمل والقيادة معاً • • وكان ذلك ايذاناً
بإنطلاق المدنية الجديدة من المسجد • • لتغمر العالم كله • •
وقد اتخذ الرسول معبداً للصلاة ، ومجمعاً للتشاور ، وملتقى
للدارسة • • ومعهداً للعلوم • • ومنطلقاً للجيش • • ومقراً
للتشاور في كل أمر خطير • • ثم أصلوا مبدأ الشورى فكانت
سياساتهم تقوم عليها وتستند اليها • • ولعلها أول تجربة
« ديمقراطية » يعرفها العالم وقتذاك • • وهل كانت الشعوب
من قبل تستطيع أن تدلى برأيها • • أو تشير على قادتها
وزعمائها ؟ ! لقد كانوا عبيداً للملوك • •

ولقد شاعت تجربة الشورى أن تجعل القوم أحراراً يدلون
بآرائهم مع رسول الله • • ثم مع القيادات المؤمنة من بعده • •
وبذلك تحررت الحياة من رق الرؤساء والزعامات المستبدة •
•

وقد قاموا بعمل اقتصادي رائع حيث وزعوا الأرض ،
وحرروا التعامل من الربا الذي أشاعه اليهود • • ووزعوا الماء
بالتساوي وملكوا الأرض الزراعية لمن يزرعها • • وأطلقوا
نظام التعامل الاسلامي ليأخذ وضعه في مجتمع المدنية فالبيع
والشراء ، والتجارة والقراض يترجم الى نظام اقتصادي رائع •

ثم أعلنوا الحرب على الجهالة فتعلموا • • وتهذبت
مشاعرهم يزيكهم رسولهم • • ويثقفهم نبيهم وتصدر عنهم
الروائع في هذا الباب •

ثم يحلون كل المشكلات في هذا المجتمع بروح القرآن • •
واجتهاد الرسول وصحابته •

فلا استغلال ، ولا ظلم ، ولا احتكار ، ولا تعطل • •
السواعد كلها تعمل ، والأيدى تتحرك • • ويجعلون العمل هو

شعار المجتمع . . فيقبل الجميع عليه ، يدفعهم نبيهم ، ويستحثهم قرآنهم فتزدهر الحياة بجهادهم . . ويصبح الكسل عاراً والقفود عن العمل مهانة . . ويأخذ العمل وضعه في هذا المجتمع . . فهو حياة وهو كرامة وهو شرف .

ويكافحون الفقر والجهل والمرض وكل المشكلات بسماحة الايمان وسخاء النفوس ، ودافع العقيدة . . ولقد اعطى المجتمع الجديد أكثر مما طلب منه فتقاسم الأنصار مع المهاجرين الدور والثمار والنساء مما لم يسبق له وجود في التاريخ .

ويصف رسول الله نبلهم وسماحتهم بقوله : [ان الأشعريين كانوا (١) اذا أرملوا في الغزو أو قل طعامهم بالمدينة جمعوا ما عندهم في ثوب واقتسموه بينهم بالسوية فانا منهم وهم مى] .

وكم من تجربة حديثة تريد أن تهتدى الى حل لمشكلة الفقر . . فلا تستطيع . . لأنها لا تعتمد على العقيدة ، ولا تركز على سماحة النفوس . . ولنتلفت من حولنا لنعرف ماذا فعل العالم الحديث بمشكلاته الاجتماعية - وعلى رأسها الفقر - والبطالة ؟ !

وانتسعت تجربة القوم لتشمل الشئون العسكرية فقد ارتفعت قوة الجيش المحارب من نحو ثلاثمائة في غزوة بدر الى ثلاثين ألفا في تبوك العام التاسع للهجرة ، وارتفعت قوة الفرسان من اثنين في بدر الى عشرة آلاف في تبوك . . ثم

(١) أرملوا : فرغ زادهم أو قارب ، والحديث مروي عن ابي موسى وهو متفق عليه ، ورواه النسائي .

تتطور القوة وتتصاعد الى جيش قادر قوى على الردع والتأديب والقمع . . ويتسع مجال الخبرات فيتحرك الشباب الى جرش لتعلم استعمال العرادات والمجانيق ، والدبابات ، ثم تمضى التجربة حتى تأخذ حجمها الكبير في عهد عمر ، وقد سيطر القوم على طرق القوافل كلها ما بين الحجاز واليمن جنوبا وما وراءه في أرض الحبشة والشام ومصر في الشمال الغربي وأرض فارس في الشمال الشرقي .

انها دراسة تخطيطية منتظمة لما تتطلبه الدولة العصرية الرائدة من وسائل واستحكامات لتنتقل منها القرارات الهائلة الى عالم أرحب يقوم على الايمان والعلم .

مع أبي بكر :

جاء بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه رجال عظماء . حملوا عبء الجهاد . . ونهضوا بكل الواجبات . . لأن الرسول قد رباهم على القرآن وصنعهم على عين الله . . وهم خلفاؤه .

فنهض أبو بكر بالتبعية واستنقام معه سير الحضارة وانطلقت جيوش الاسلام في عهده تقضى على المتمردين - الذين فهموا أن الفرصة سانحة بموت الرسول . . ليتحللوا من الزكاة أو يعطلوا أحكام الله ويرتدوا عن الاسلام . . أو تراودهم المطامع الخسيسة أن يكون لهم الأمر - أو يكون لهم من الملك شيء ، . . كما فهموا . .

وكانت هذه الانتفاضة الشرسة بل الردة المجرمة من بعض العرب اختباراً قاسياً لصلابة البناء الحضارى الذى أسسه رسول الله . . وامتحاناً لقدرات العهد الجديد . . ولكن

الحقيقة الكبرى أن هذه الحضارة لا ترتبط بالأشخاص بقدر ما ترتبط بالمبادئ « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل (١) » ولئن كان محمد قد أسس وأنشأ . . فقد جاء تلاميذ محمد ليتموا البناء . .

ان سير الحضارة الالهية لا يرتبط بموت أحد ولا بحياته فالشريعة باقية - والله حي لا يموت وما هو الا أن نهض أبو بكر بالأمر . . يقوده حزم الايمان - وحزم السياسة والرأى . وعبقريّة القيادة فيمضى جيش أسامة كما قرر رسول الله قبل مماته . . مهما تكن الظروف ويقول في اصرار في مواجهة من يعارضه : والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو أن الطير تخطتني والسباع من حول المدينة - ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين جهزت جيش أسامة ! « وبهذا الاصرار . . نفذ بعث أسامة .

ثم ودع أسامة بنفسه وهو ماش على قدميه . . وشيع تلك البعثة . . وانه لمنظر عجيب حقاً . . الخليفة يمشى . . وأسامة يركب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجوار الصديق .

ويقول أسامة متحرجا : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن فيقول الصديق : والله لا تنزل ولا أركب وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة !!

ثم يقول لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ولا تنقصرن ولقد كان الصديق على حق في توجيه تلك البعثة التي كانت تعبر عن خلق الطاعة والالتزام بما أقره رسول الله ولئن

(١) آية ١٤٣ سورة آل عمران .

كان أسامة صغيراً وفي الجيش من هو أكبر منه فان رسول الله هو الذى وضعه ذلك الوضع . . فلا بد له من حكمة !!

ولئن كان بقاء الجيش بعد موت الرسول بالمدينة واجباً لدفع خطر الردة فان تسييره أيضاً واجب لدفع خطر العدو الخارجى . .

واذا كانت الدولة تستقبل بعد وفاة الرسول عهداً جديداً فما ينبغى أن تظهر أمام العدو بالضعف لابد أن تلقى الرهبة فى قلب الروم . . وتقمع المرتدين فى وقت واحد لذا كان كلا الأمرين لازماً . الاول لتأمين سلامة الدولة من الخارج والثانى لقمع الفتنة من الداخل . .

أما حرب المرتدين فقد واجه معارضيه بقوله : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال [٠٠ ولقد سككت الأصوات المعارضة بعدها ومنها صوت عمر وثابت الى الرشد . . ثم كانت الانتصارات فى الميدانين كليهما . . جيش أسامة يعود وقد أدى رسالته من القاء هيبة الدولة - وحروب الردة تكمل بالنصر .

يقول الأستاذ العقاد : [واذا حسبت (١) لابی بكر بعوث أسامة وبعوث فارس والروم فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل فى باب البعوث ولكنه أقوم للدولة الإسلامية من جميع البعوث لأنه دستور هذه الامة الذى لا تقوم لها قائمة بغيره وهو جمع القرآن . .

ويقول : « خلاصة ما يقال فى سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال

(١) من ١٥١ عبقرية الصديق للعقاد طبعة دار المعارف مصر .

الذى يصغى (١) الى النصيح ممن يرون التصرف والتمييز والافتداء . . فهو ليس افتداء الضعف بل ربما اقتدى بالرسول ليفعل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين » - وهكذا اكتسب الاسلام سمعة سياسية ونال مكانة عالمية . . وشاع أمره بين الروم والفرس . . واتجهت الجيوش صوبهما . . وثبتت قوة البناء الجديد الذى لم تهزه عواصف المرتدين . . وهى خليفة أن تهز أعظم الدول وأقوما . . وبذلك ترجم الاسلام عن شعار رائع . . هو أنه دين القوة فعلا . .

مع عمر : أوقمة الحضارة :

وفى عهد عمر تأخذ التجربة الحضارية امتدادها الرائع . . وتبلغ قممتها . . فالفتوح تتسع والرقعة تنداح . . والحضارة الاسلامية تفرض نفسها على الحياة . . وحضارة الفرس والروم تتهاوى أمام ضربات الدولة القوية . . وتأخذ الشريعة وضعها من التطبيق الواعى . . لتقود عالماً فسيح الرقعة واسع الجنبات . . وتأتى الغنائم من هنا وهناك بعد أن يفتح الله على المسلمين . . ويأخذ الاجتهاد وضعه فى الحضارة القرآنية ليلاحق قضايا العصر ومطالب الحياة الجديدة . . ويضيف عمر الى الفقه الاسلامى ثروة من اجتهاده وفكره . . ويكون المجالس المتخصصة . . وهو عمل حضارى سابق لأوانه . . فهذا مجلس حرب يتبع القيادة العسكرية - وهذا مجلس للاجتهاد فى الأحكام . .

وهذا مجلس قيادة - وهذا مجلس الشورى . . ومجالس الحسبة . . الخ . . ما استحدثه عمر وتتحول الأمة كلها الى

(١) ص ١٥٠ المرجع نفسه .

جيش مقاتل وينشط عمر بذكائه ومافيه من استعداد للقيادة
ليكافح الفساد في كل موقع ويوجه الأمة في كل اتجاه . . فهو
يضع خطط الحرب بنفسه الى الحد الذي يجعل رستم قائد
الفرس يعترف بأنه يهزم بخطط عمر . . وهو يحاسب الولاة
ويطبق عليهم قوانين صارمة لتستقيم الأمور في تلك الدولة
العريضة . . وهو حيناً يقاسم الولاة - وحيناً يصادر أموالهم
التي جمعوها ويعاملهم بمبدأ من أين لك هذا ؟ وهو يؤمم أرض
السياد ويضع نظاماً للأعطيات . . ومجلساً لرعاية أسر
الجنود . . ومن أقواله في ذلك يخاطب الجند : [أنا أبو العيال
حتى ترجعوا] .

ويذشى بعبقريته ما يقترب من « بنك الاقراض والتنمية »
فيمنح أموالاً للتجارة ثم يستردها بعد أعوام تيسيراً على
الخاص ودفعاً لعجلة التنمية . . كما فعل مع هند زوج أبي
سفيان عندما أعطاهما أربعة آلاف درهم وتقاضاهما أباهما بعد
أربع سنوات . . فلم تف لأن التجارة لم تربح ، فهم أن يسجن
أبا سفيان زوجها لأنه ضامناً . . وكان من أقواله : لو كان
المال لعمر لتنازل عنه . . ولكنه مال المسلمين . . فلم يسع
أبى سفيان إلا الدفع !! وقد جعل للجندى المحارب مدة معينة
للخروج عن زوجه يرجع بعدها حتى لاتضار !! وأمر سعد بن
أبي وقاص ببناء مساكن صحية للجند - تدخلها
الشمس وكانت وصاياهم للجند تدور حول تقوى الله والابتعاد
عن المعاصي . . وكان يضع الخطط بنفسه تاركا للقيادة الحربية
أسلوب التنفيذ على أن تطلعه على الأمور أولا بأول . . وكان
يقول لهؤلاء القادة : « نفخوا بما ترون فانكم ترون ما لا أرى »
ويقول لقائده : [أنا الغائب وأنت الشاهد والشاهد يرى ما لا
يرى الغائب] .

والحق أن عمر من بناة الحضارات بطبعه . . ولقد أتيح له وقت طويل في الخلافة يتسع لتنفيذ مشروعاته العمرانية . . ويترجم فيه عن أفكار الحضارية . . أنشأ الدواوين - ورتب العمال من الفرس والروم والقبط - وقسم الولايات - ومصر الأمصار - وضرب الدرهم ووضع التاريخ الهجرى وأنشأ نظام الحسبة وهي تشبه [رقابة المكاييل والموازين والإشراف على الأسواق وتنظيف الطرق - ورعاية الأدب العامة] - وعين القضاة - وكان نظام القضاء العالي على عهده مفعرة عالمية . . بما أمره به من فكر حضارى - وفقه تشريعى . . كعهده لأبى موسى الأشعرى فى القضاء . . وقد اتفق الجميع على أن ذلك العهد من أسس القضاء العالمى . . الذى تقتبس منه دساتير العالم . . وأهم ماكان يتميز به عمر قريحة صافية ومعرفة دقيقة بروح الاسلام ومقدرة على مواجهة الأمور بشجاعة الجندى . . وعبقريّة فذة فى الاستيعاب الحضارى . . وتفنن عجيب فى ابتكار الأساليب العسكرية والعمرانية . . ومبادرات رائعة فى كل ميادين الحضارة ويعتبر عهده قمة المد الحضارى . الذى اتسعت فيه الفتوح وسادت روح الجندية . . وفتح الله على الاسلام والمسلمين . . واتسع المجال لتطبيق الشريعة وتنفيذ أحكامها . . وبناء المؤسسات الاجتماعية فى ظلها . . وإقامة لون من العدالة مايزال حديث الدنيا حتى الآن . . هذا الى جانب الزهد والانضباط والابتعاد عن الترف ومحاسبة المنحرفين والفاستدين والضرب على أيدي العابثين مما يجعله عهد الجلال والعظمة . . ولم يأت بعده من الخلفاء من مضى بالحضارة الى غاية رشيدة سوى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى اقتفى أثره واقتدى به . . فقد سادت الدولة فى عهده . . واستقامت أمور الناس . . ولم تجد الصدقات من يأخذها لأن الامة قد استغنت بمواردها واستتب الامن . . وغلب التدين والورع

وقد وضع حداً لأطماع الامويين من أقاربه وكان قدوة للجميع في الزهد والورع والعمل المخلص لله ورسوله ويعتبر أعظم خليفة نهض بالأمر - وتحمل العبء - وأدى الأمانة لله ورسوله ولذا يعد خامس الخلفاء المهديين .

مع عثمان وعلى أو فترة الجمود

بدأ اصراع يأخذ دوراً عاتياً في عهد الخليفتين العظيمين . وتوقفت تلك الانطلاقة الحضارية الرائعة . . لأن المسلمين قد تفرقوا بين مؤيد ومعارض ، ثم كانت الفتنة الكبرى التي أوقفت المد الحضارى وضللت خطا الأمة على طريق الحضارة . ثم كان هذا الانقسام المروع في الأمة . وهو انقسام بين على ومعاوية . وانصار كل فريق . ولقد قضى ذلك على آمال التقدم والازدهار . وتوقف سير الحضارة وجمدت في مكانها . وكان كل فريق يكيل السباب للفريق الآخر . ويرميه بكل نقيصة وكفر ، ولقد كانت فترة قاسية حقاً أرادها الله لهذه الأمة ليصهر معدنيا في لهيب الأحداث . وقد أتيح لهذه الأمة أن تخرج (في مجموعها الكبير) بدينها وعقيدتها ولكنها لم تصعد في سام الحضارة - قليلا ولا كثيراً - ولو ذهبنا نتتبع سير الأحداث بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، لوجدنا مايؤسف ويديكر ، والحمد لله : أن الحضارة في هذه الحقبة قد احتفظت بمساحتها وإن جمدت في مكانها .

الأسيرة الحضارية بعد الخلاء :

جاء عهد الأمويين - فتميز بالحفاظ على الصبغة العربية - والإعتزاز بالعرب ، وظهرت في هذا العهد أمور أشرت في الحضارة الإسلامية تأثيراً سيئاً ، ولكنها لم توقف مد الفتوح - بعد فترة الجمود في الفترة السابقة ، منها أن الخلافة قد تحولت

الى ملك عضوض يفرض بالقوة ، ومنها احتقار العناصر غير العربية . . ومنها كثرة الأحزاب الدينية السياسية ، ومنها سياسة التفرقة التي كان يتخذها خلفاء بني أمية ، ومنها الخرف الذي أصاب الدولة ، لكن مهما ذهب في تعدد أسباب الضعف والبعد عن روح الاسلام فقد كان ذلك بالنسبة الى الخلفاء وفي بلادهم لكن موجة الفتوح تمتد وتترامى ، وبخاصة في عهد الرايد بن عبد الملك الذي ظهر في عهده قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير - وطارق بن زياد وطريق الشيباني ، ولكل واحد من هؤلاء قصة مجد ، وسجل فخر فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج على خراسان سنة ٨٦ هـ فخرج الى بلخ ، ثم عبر النهر حيث غزا بلاداً خلفه - وأخذ منها الهدايا وقابلة ملوكها ، ثم واصل فتوحاته في كرمينية بين سمرقند ونجاش ثم سار الى بخارى ففتحتها بعد عناء واضطر أهلها على المصالحة . . ثم فتح مدائن خوارزم سنة ٩٣ هـ وما يزال يفتح حتى وصله كتاب من الوليد يقول فيه [أتمم (١) مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك كآني أنظر الى بلادك والشعر الذي أنت فيه] ولقد سار بهذا الطميح حتى وصل الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . وبينما هم سائر جاءه نبأ وفاة الوليد فام بحقه ذلك وسار قريباً منها وأرسل الي ملكها وفد برئاسة عبير ابن الشجر الكلابي وبعد مراسلات بينهما قال ملك الصين [انصرفوا الي صاحبكم فقولوا له ، يند عرف فاني قد عرفت حرصه وقلة ادحابه والا أبعث من يهلككم ويهلكه] .

فقال هبيرة القائد المسلم : | كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ | فأجابه

ملك الصين وماذا يرضى صاحبك ؟ فرد عليه : « انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختتم ملوككم ويعطى الجزية » فلما وجد الملك ذلك الاصرار بعث اليه بتراب من تراب أرضه فوطئه - وبعث ببعض رجاله فختمهم - وبعث اليه بجزية ترنسيه فاستحسن قتيبة ذلك التصرف وفعل ماأشار به الملك .

أما محمد بن القاسم فقد سار الى بلاد السند سنة ٨٩ هـ فافتتحها وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة وهكذا اطرده سير الفتوحات الاسلامية وبدأ نبض الحياة في جسم الحضارة . وعادها النشاط ، ثم جاء عصر العباسيين . وقد تميز بالاعتماد على الأعاجم ، وبدأ بالخلفاء ذوى الهيبة والنشاط والجد . وبخاصة عهد الرشيد والمأمون . ولكن الترف قد تجاوز مداه . . وانقسمت الدولة الاسلامية في آخره الى دويلات وأخذ مد الحضارة ينحسر . بتوقف الجهاد في سبيل الله الذى كان في عهد بنى أمية ، والاغراق في الترف ، حقاً لقد ازدهر العلم والأدب وترجمت المعارف والعلوم ، وكثرت مجالس الحوار والمناظر وشجع الخلفاء كل ذلك ، ولكن لايمكن أن يكون الترف المطغى وسيلة استمرار حضارى ، فقد أخذ يعمل في جسم الدولة الكبيرة ، وكان ذلك تمهيداً للضعف أمام الاعتداء فيما بعد ، ويأبى الله الا أن تقوم الحضارة الاسلامية في افق جديد هو الاندلس الاوربية فتقوم دولة بنى أمية عن العرب والمسلمين في الشرق بنشر رسالة العرب والاسلام وصنع أروع حضارة في هذه الآفاق :

أعداء طامعون - وقيادات مؤمنة :

ثم تبنتلى الأمة الاسلامية بعد ذلك بنكبات شديدة حيث يعتدى عليها أعداء طامعون . . منهم التتر . . والصليبيون

• • ولا تستسلم الأمة لصروف الزمن وانما تقاوم بعقيدة
 الايمان ويمن الله عليها بمن يجدد لها أمر دينها ودنياها من
 وقت لآخر كالمالك المظفر قطز الذى انتصر على التتر بعقيدة
 الايمان وتوحيد الجيوش - وبصلاح الدين الايوبى الذى هزم
 الصليبيين واسترد بيت المقدس وجدد فى الأمة عقيدة الجهاد -
 وقاد جيوش المسلمين قيادة مؤمنة ووحد بينها • • وكان
 أعجوبة الأعاجيب فى ايمانه - ومقدرته • • ثم أصيب العالم
 الاسلامى بعد صلاح الدين بفقر فى القيادة المؤمنة وفى فترة
 الحكم التركى - أو بدتعبير آخر فترة الخلافة الاسلامية بدأت
 الأمة عهداً جديداً من التماسك - والاعتزاز بحضارة الاسلام
 وكانت الدولة التركية فى بادىء الأمر قوية الجانب لها
 جيوشها • • ولها خلفاؤها • • وكانت روح الجهاد مشتتة
 فيها - وكانت تملك وسائل الحرب الحديثة - وكان لهم
 أسطولهم القوى الذى يزايد على ألفين من المراكب الحديثة -
 وكان فى حوزة هذا الأحمر وفارس وكان الأتراك بما تجمع
 لديهم من وسائل روحية ومادية يستطيعون أن يتفوقوا على
 أوربا • • لكنهم لم يسيروا فى خط التطور • • فسرعان ماجمدوا
 وتدهوروا - وقد كان أذكى عقل لديهم - هو محمد الفاتح -
 ولقد كان فتح القسطنطينية التى استعصت على المسلمين
 ثمانية قرون دليلاً على كفاءة الأتراك يومذاك فى العلم والعمل
 معاً •

ولقد صار الأتراك الى لون من الجهل والجمود والتوقف
 عن الاعداد للحرب • • وانطفأت فيهم جذوة الجهاد • • بل
 حاربوا كل جديد من الفكر وغصت البلاد الاسلامية بالشروح
 والحواشى والمتون وكلها تتقيد باللفظ - وتتفنن فى التعقيد • •
 وتجمد على الغباوة والجهل • • ثم سرى الفساد الخلقى فى

كيانها وأخلد الشعب الى الدعة والراحة ودب اليهم داء الأمم قبلهم من الحسد والبغضاء والاستبداد والجور والغلبة وسوء التربية وفساد الطبع مما جعل دولتهم وقبضتهم نهى . .

ثم كان أن صارت تركيا الى « الرجل المريض » وتآلب الاستعمار عليها . . وكانت هي قد مكنت له بما فعلته في العالم العربى من تذبذبح - وتثريك - ومن ظلم ووحشية ومن جمود وطمع وجشع . . فادت كل هذه الانحرافات الى انتهاء الخلافة والقضاء عليها . .

ولست بصدد « تقويم » هذه الخلافة - ولكنى لا أتردد فى أن أضم الأتراك الى أعداء الحضارة الاسلامية - الذين مكفوا للغرب بأفعالهم الشاذة من التدخل . . ودفعوا العرب بحماقتهم « وطورانياتهم » أن يتخلصوا منهم . . لأنهم فعلا قد أوقفوا مد الحضارة القرآنية - حين تخلوا عن روح الجهاد فى سبيل الله . . وانحدروا أخلاقياً - وتعصبوا قومياً - فهل يمكن للحضارة أن تزدهر فى هذه الأجواء ؟

ورد فى مقدمة كتاب حضارة الاسلام لجوستاف النمساوى [ومن أسف أن هذه الحضارة لم تعمر طويلا فما هو الا قربان أو ثلاثة حتى خمد الشرق كله - وأطبقت عليه سحائب الخمول والتأخر والانحطاط على حين نهضت أوروبا تبحث عن هذه الدنيا فشرعت السيف فى وجهه أروع حضارة عرفها التاريخ] . .

[ويرى جوستاف أن العرب قد أعطوا العالم الاسلامى عقيدته وقرآنه ولغته ثم تناولوا مابتلك البلاد من ثقافات فامتصوها وهضموها وأخرجوها للناس فى قالب عربى رائع] .

ونقول تعليقاً على الفقرة السابقة لجوستاف . . بل ان العالم العربي في الواقع لم يقتصر في العطاء، على العالم الاسلامي . . بل سخا في العطاء حتى سمح لأوربا أن تنهل من معين حضارته . . وتنشط في صنع الحياة نم تكافى، المسلمين بالانقضاء على عقيدتهم وحضارتهم وبلادهم . . وماتزال تتآمر عليهم حتى وقتنا هذا .

هل انتهت الحروب الصليبية بعد صلاح الدين ؟

التاريخ يقول لنا : انها لم تنته في نفوس الغربيين بل بقيت جذوة الحقد متقدة تلتهب في أعصابهم يتوارثونها ويؤججون نارها كلما وجدوا فرصة سانحة .

ولقد أثر عن الاسود النبي أنه توقف عند قبر صلاح الدين يوم احتلال سوريا في أعقاب الحرب العالمية وخاطبه جهاراً : اليوم ياصلاح الدين انتهت الحرب بيننا . . وعدنا من جديد !!

كما أن الجنرال غورد عند ما جاء، لاحتلال سوريا سنة ١٩٢٠ ركل قبر صلاح الدين بقدمه معبراً بذلك عن غيظه . . ثم مالبت الاستعمار أن أنشئ مكابله في جسم هذه الحضارة وهو أعرف بخطرهما على مطامعه . .

ووقعت معظم بلاد الاسلام كلها في قبضته . . فأخذ يعمل فيها جميعاً بمخطط واحد . . هو القضاء على تلك الحضارة . . مع اختلاف الأساليب فعبت بالمناهج - وأفسد الثقافة - وبت أفكار حضارته . . وقلل من شأن القرآن واللغة . . وأغرق

البلاد الإسلامية في تيار الاباحية والانحلال . . حتى أصبحت الحضارة الإسلامية جسماً بلا روح . . وعجزت عن تجديد الحياة .

يقول مكدونالد : [مامن أحد يشك في أهمية عقيدة مسلمي اليوم وان كانت تلك العقيدة لم تعمل على تجديد الحياة ولا خرجت بأصحابها الى طور الحركة] .

كان ذلك الحكم على حضارتنا عام سنة ١٩٠٦ - وهو حكم صحيح في جملته .

ولقد كان العدا، دائماً ضد الاسلام . . وحضارته وقرآنه . . وهو عدا، يجمع بين الصهيونية والاستعمار في كل وقت . . فكل هؤلاء، عمل ويعمل ضد هذه الحضارة .

ولن تسكت مؤامراتهم على الاطلاق . . فقد تمكن المستعمر من زرع اليهود في فلسطين كجسم غريب يستنزف كل جهود المسلمين في تلك البقعة . . وما يزال يمدّها حتى اليوم . . لتقوم بدوره في تفتيت وحدة العالم الاسلامي . . وامتصاص كل جهوده وخيراته . .

وما يزال يغرقنا بما يسميه بالآراء الحديثة ويغرق أسواقنا بالضائعات . . لنذهل عن وجودنا ونظل عالة عليه . . ولم تحدثنا أنفسنا أن ننافس مايرد اليّنا عن طريق الغرب كقيم ولم يعد في إمكاننا صنع الحضارة فاكتفينا في معظم بلاد الاسلام بالاستيراد .

ويبدو أن المستعمر قد اطمأن الى النتيجة التي توصل اليها فهي ذاكا مغماير الأستاذ بجامعة برلين يقول :

[هل يستطيع الاسلام أن يستعيد وحدته الداخلية في ظل التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الثقافة الغربية والآداب العصرية - وهل يكون عند ذاك عدواً أم صديقاً ؟ أم أن الاسلام في سبيله الى التفتت الى وحدات قوية تعكس كل واحدة منها التأثيرات الأوربية على طريقته الخاصة وبأسلوبها المستقل . . هل ستكون هناك حينئذ ميول مشتركة بين الشعوب الاسلامية ؟ وهل سيقوم احساس بوحدة العمل ؟ ووحدة الهدف أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة العصرية ستنتج آخر الأمر في تشتت المجتمع الاسلامي وتحطيم وحدته وبعثرة قواه ؟] .

هل يكفي هذا الكلام الحاقداً لتشخيص آمال العدو المتربص وبيان أهدافه ؟

وهل يعقل العالم الاسلامي الآن أن الاستعمار يعمل جاهداً لضرب حضارته وازهاق روحها بأساليب الغزو والثقافي ؟ وباسم الآراء العصرية والتقدمية . . ليخلق أجيالا منحلة تؤمن به - وتهتف بحضارته . وتنسى مبادئها وتقاليدها .

سموم قاتلة « ومانخفي صدورهم أكبر » .

أريد أن أقتبع هنا كلمات المستشرقين - وآراءهم - التي تعكس مطامعهم - وتوضح أهدافهم ضد الاسلام وحضارته وقرآنه . . وسنتبين أن التخطيط مشترك بين الصهيونية والغرب . . وكل العناصر الحاقدة ستعرف ذلك من تصريحاتهم . . التي هي سموم قاتلة لمقومات حضارتنا . . وكلها تنفذ إلينا عن طريق الغزو الثقافي . . ووسائل الاعلام - وتيارات التغريب المختلفة .

هل يجهل أحد أن الغرب قد استغنى عن الدين ؟

هل يجهل أحد موقف هذا الغرب من حضارتنا ؟ • انه يعمل جامداً منذ وطئت أقدامه الدنسة بلادنا على تذويب المقومات الحضارية لنا - وعلى اغراق بلادنا بآرائه وأفكاره التقدمية ؟ !

وهل هناك من يجهل موقف الصهيونية العالمية منا بالذات ؟ من ديننا ومقوماتنا وبلادنا • • وهى التى تحتل أرضنا • • وتنتهك مقدساتنا • • وتخطط مع أمريكا للقضاء علينا ؟

ألسنا نسمع كل يوم أنباء الدعم الأمريكى للصهاينة المعتدين علام يدل هذا ؟

وقد يختلف أعداؤنا فى الظاهر • • ولكنهم كشقى المقص - ونحن دائماً الجزء الذى يراد شقصه الصحافة - والمذيع - والمجلات وكل وسائل الاعلام وسيلة ناجحة فى ترويج مبادئهم فلنستمع الى آمالهم - ووسائلهم فى تلك الأدوات التى تصنع الراى العام •

يقول جب :

1 ان الصحافة هى أقوى الأدوات الاوربية وأعظمها نفوذاً فى العالم الاسلامى لأن معظم مديرى الصحف من التقدمين - ولذا كان معظم الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الأجنبية بشكل يكون الراى العام المطلوب - ويبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة الى التعليم وضرورة الاقتباس من الغرب أن يعود الاسلام الى مكانته الأولى من السيطرة • • ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت رسمياً والثقافات الغربية

قد أخذت وضعها في المدارس والفوارق الاجتماعية قد غدت أكثر وضوحاً . . وحصرت الثقافة الدينية في عدد قليل مع ذلك فالمعاهد الدينية ماتزال قائمة ومايزال حفاظ القرآن ودائرسه لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين - ثم يتابع كلامه - ان الحركات الاسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة وتنفجر انفجارا مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أمارتها ما يدعوهم الى الاستزابة في أمرها وهي اليوم لا ينقصها الا الزعامة والا ظهور صلاح الدين من جديد . .

ونحن لا يسعنا الى أن نشكر لهذا المستشرق . . فقد أبان أولاً عن أعز أمانيه بالنسبة للقرآن وحضارته . . وتتمنى ان يزول القرآن . . وتذهب المعاهد الدينية . . وتأسف لأنها ماتزال موجودة ثم كشف عن وسائله وهي استخدام التقدميين في وسائل الاعلام ليقوموا عنه بمهمة الترويج للغرب وعلومه وآدابه وأعرب في النهاية عن تخوفه من الحركات الاسلامية التي تنفجر فجأة . . ومن ظهور زعامة اسلامية جديدة تجمع الشمل وترأت الصدع ، .

هل يعتبر المسلمون ؟ وهل يتدبرون أمرهم ؟ ويعرفون أن أهم وسائل الدعم الحضارى هو مكافحة من يسميهم « جب » بالتقدميين في وسائل الاعلام . . وهل يتداركون الأمر بوحدة مفاجئة - وزعامة مؤمنة - وانتفاضة سريعة ؟
هل يتجمعون ضد عدوهم الذى يحتل قدسهم - وأرضهم - وهل يتنبهون للغزو الثقافى - والأخلاقى والصناعى الذى يميئ فينا كل جوافز التجديد والابتكار ويجعلنا نكتفى باستيراد الحضارة . . ولا نهتم بصناعتها . . وأخيراً . . هل

ندرك أن كل كلمات الحاقدين تتجه فقط الى الاسلام والقرآن
• • ولا تتجه لشيء سوى هذا ؟

الاسلام هو العدو الأول لهم لانه عدو الاستبداد والرق
والتخلف والظلام • • وهم يريدون لنا هذه المعاني ليسرقوا
حياتنا •

وانستمع الى عدو لثيم منهم هو كامغماير السابق حيث
يقول :

ا ان السبيل الى التغريب الحقيقي هو أن نتبين الى أى
حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى - وعلى المبادئ
الغربية على أن هذا لا يكتفى بل هو الخطوة الأولى - ولا بد من
التسلط على قيادة الاتجاهات السياسية والادارية [•

والك أن تتبين أهداف هذا العدو من خلال كلماته • • انه
يريد أن ينفذ الى وسائل التعليم وأهداف التربية وطرائقها •
حتى ينجح في أسلوب تغريبنا • • ونحن في بلادنا • •

ووسيلته النهائية بعد هذا • • هو التسلط على
السياسة - والادارة عن طريق العملاء والذبول •

المعركة ضد الاسلام :

لم أجد لمن قرأت لهم من أعدائنا تصريحاً واحداً ضد
قروبتنا • • أو عروبتنا • • الجميع يصوب سهامه الى
الاسلام • • وهم متفقون على الوسائل التي بها ينفذون الى
قارب الاسلام • • ويحطمون بها وحدته • • انها ليست
وسائل بدائية يمكن أن نحاربها بقوة السلاح • • ليست
استعماراً ظاهراً لأن العصر لم يعد يساعد عليه • • انهم
سروا التسرب الى مناهج التعليم - وطرائقه وكذلك الى
د. حنا ومجلاتنا ووسائل اعلامنا • ليصنعوا الرأى العام

الذى يؤمن بهم . . ان عنصر تغريب المسلمين هو أنجح وسيلة لديهم . . ولاشك أن الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى من أخطر الوسائل على كياننا . . والتخلص من الفكر الدينى فى بلاد الاسلام أمر يهتمون به جداً . . يعنيه أن يقل حفاظ القرآن لتذهب نغمته المؤثرة وحرارته القوية من العالم الاسلامى - كما يعنيه أن تتناقص المؤسسات الدينية . . لتزول المناعة الفكرية التى يستحيل معها التغريب . . يعنيه ألا يوجد عالم دينى واحد فانه من وجهة نظرهم حجر عثرة فى سبيل التغريب . . ومن عوائق التقدم . . ولأنه يعرف فلسفة الاسلام وأساليب أعدائه . . ويكشف خطط « التقدميين » .

ولم يعد التبشير مجدياً . . لأنه أسلوب مكشوف . . وانما المهم تفتيت وحدة المسلمين ليظلوا على وضعهم من الفرقة والشنات . . والكيان الكبير اذا تجزأ ضعفت فاعليته وأمكن أن يتقبل الأفكار الوافدة - وأن يخضع للفكر الاستعمارى . . وأن يرتبط به فى كثير من شئون الحياة - ان بقاء الفكر الاسلامى فى عزلة بعيداً عن تيار الفكر الأوروبى أمر يزعج الغرب له لان الفكرة الاسلامية ستحتفظ بصفاتها وحرارتها وقوة تأثيرها .

ولذلك يجب من وجهة نظرهم أن تحتك بالأفكار العصرية لتنماع ويبطل تأثيرها . . ثم تحاط من كل جانب بفكر العدو وأسس حضارته كما نحاط قطعة أرض بالأسلاك الشائكة . . كلهم يتنادون . . الاسلام . . الاسلام . . يجب ابادته - واغراق أبنائه فى الفساد والترف ليسهل اخضاعهم . . بعد تأثير الحضارة الخادعة فيهم . . وصرفهم عن واجباتهم - وتحويلهم الى قطعان شاردة لا تعرف لها ربا ولا عقيدة . . فهل تحذر أساليب أعدائنا ؟ !

يقول مسيو شاتلييه . . واضعا الخطة التي يسهل معها
القضاء على الاسلام داخل حصونه :

« لا شك أن ارساليات التبشير تعجز عن نزع العقيدة
الاسلامية من نفوس منتحليها . . ولا يتم ذلك الا ببث الأفكار
التي تتسرب مع اللغات الاوربية فبنشرها تحيك الاسلام
بصحف أوربا . . وتتمهد السبل لتقدم اسلامى مادي ، وتقضى
ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية
التي لا تحتفظ بكيانها وقوتها الا بعزلتها وانفرادها . .
والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام لاثمهد السبل
لأعمال المدنية الاوربية اذ من المؤكد أن الاسلام يضمحل من
الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير وقت قصير حتى يكون
الاسلام فى حكم مدنية محاطة بالأسلاك الاوربية – ولا ينبغي
أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامى أن يتخذ له أوضاعاً
وخصائص أخرى اذ هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه
الاجتماعية – لأن الضعف التدريجى فى العقيدة الاسلامية –
وما يتبعه من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف يقضى
بعد انتشاره فى كل الجهات الى انحلال الروح الدينية من
أساسها لا الى نشاطها بشكل آخر » .

أسمعت ؟ كم مرة تناول هذا الكاتب فكرة اضمحلال
الاسلام ؟ وكم مرة كررها ؟ وكم وسيلة ذكرها لذلك ؟ والى أى
حد استطاع العدو أن ينفذ هذا المخطط الاجرامى ضد دين أول
عمله (تمدين الحياة وتحضيرها) بل تمدين أوربا بالذات
وتحضيرها ؟ !

أهذا هو الجزاء ؟ وتلك هى المكافأة ؟ أن يمهّد السبيل
للتبشير بتقسيم العالم الاسلامى واهدار خصائصه – والغاء

عقيدته واحاطة مدنيته الفاضلة بأسلاك الحضارة المادية الحيوانية ؟ لعمري ان الانسان ليتمزق قلبه أسى ولوعة على ذلك العقوق الفاجر الآثم في حق مدنية أشاعت الثقافة والفكر في ربوع العالم كله . . وان المسلم ليأسف ويبكى بحرارة عند ما يرى أن هذا المخطط ينفذ بكل دقة ، فتقسيم العالم الاسلامي أمر حاصل - واغراقه في شهوات الحضارة المادية وصرفه عن دينه وعقيدته والغاء خصائصه الحضارية . . ومقاومة الفكر الديني . . والنفاذ الى وسائل الأعلام . . كل هذه أمور حدثت وتحدث . . فهل يعرف المسلمون اليوم . . أن وحدتهم . . وعقيدتهم ودينهم هن عوامل الانقاذ . . فهل نتجمع ؟ . كيف السبيل الى أن نستخلص أنفسنا من الغزو الفكرى . . والغزو المسلح ؟ كيف نحرر القدس - والأرض العربية ؟ كيف نحول بين الاستعمار المتواطىء مع الصهيونية والشيوعية لا نستثنى واحداً منهم - وبين التأثير علينا - والاندماج فينا . . ان فلسطين اليوم في أيدي اليهود . . وكذلك الأراضي العربية . . وبالإلحاح ضاعت الاندلس من المسلمين والمخطط واحد والأسلوب واحد والقوم يصرحون ويوضحون وكأنما يثقون في السكر الغليظ الذى ألم بالعالم الاسلامي فحال بينه وبين التفكير - او مناقشة هذه التصريحات المسمومة . . وبالله لو كان الاسلام أعدى أعداء هؤلاء لما كان جديراً بكل هذه المؤمرات . . أما وهو الذى أنقذهم - وعلمهم . . وأخرجهم من الظلمات الى النور ولماذا لم تلق النحل الفاسدة منهم أى مقاومة - أو أى حرب ؟ لماذا الاسلام وحده في المعترك ؟ ولماذا يحارب بتلك الضراوة والوحشية والشراسة ؟ . . أسئلة يجب أن يتدبرها المسلمون ليتدبروا مصيرهم ويتداركون أمرهم أمام عدو لا يغفل ولا ينام .

وأخيرا لنستمع الى الصهيونية الشرسة تتلاقى مع الغرب في اعلان الحرب على الاسلام والقضاء على حضارته . . على لسان كاتب صهيوني هو (ايرل بوغر) في كتابه العهد والسيف الصادر عام ١٩٦٥ يقول بالحرف الواحد : [المبدأ الذي قام عليه وجود اسرائيل منذ البداية هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم الى التعاون معها ولكي يصبح هذا التعاون ممكناً يجب القضاء على جميع العناصر التي تغذى شعور العداة ضد اسرائيل في العالم العربي . . وهي عناصر رجعية رجال الدين - المثاليين - السياسيين القدامى - وغيرهم ممن يخسرون كثيراً اذا سادت في المنطقة اشتراكية اسرائيل النموذجية وقد كان ابن غوريون منذ عام ١٩٥١ شديد الايمان بالقضاء على هؤلاء جميعاً عندما طالب الى الكنيسة في هذا العام أن يتحلى بالصبر لأن السلام لن يكتب لاسرائيل مادام العالم العربي في قبضة الرجعيين والاحل الوحيد الذي يؤدي الى عقد صلح مع اسرائيل هي أن تحل محل الحكومات الرجعية ديمقراطيات شعبية اشتراكية] .

نفس الكلام الذي يردده شاتلييه وحده ، والكفر كله ملة واحدة . . ومن السهل أن نقارن بينهم جميعاً . . « تفطيت الاسلام ، القضاء على الدين ، استدراج أنباء الاسلام الى المروق والاباحية ، الغزو القذر ، الانقلابات ، خلق جبهات متقاتلة متباغضة تتقاذف السباب في عالمنا - انها المعركة بين أعداء الله وأنصاره على أى حال .

كيف السبيل ؟

السبيل واضحة أمام المسلمين لاستنقاذ مابقى من مقدراتهم . . « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا

السبل فتفرق بكم عن سبيله (١) » « ألم أعهد اليكم يا بني آدم
ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين - وأن اعبدوني هذا
صراط مستقيم (٢) » *

انه لاخلص من هذا الوضع الا تجمع المسلمين السريع
من جديد على أساس صادق من كتاب ربهم وسنة نبيهم -
وأن تكون لهم سياساتهم النابعة عن عقيدتهم . . والقرآن
الكريم قادر على أن ينشئ هذه المعجزة - وعلى حد تعبير
أعدائنا قادر على احداث انتفاضة مفاجئة لا يعرف العدو كيف
يتوقعها . . وليس هناك أى رجاء فى تقدم أو قوة ونحن مفتتون
تتخطفنا المطامع والأهواء . . ولا مجال للشيطان فى شريعة
الرحمن . . والشيطان رمز الى قوى الشر كلها التى تتربص
بنا . . والقاء الزمام اليها عبادة لها . . وانصراف عن الله . .
فهل نتخلص - والأمر جد خطير ؟ ! لقد توحد العالم القديم رغم
جهالته وضلاله وانحرافه بالقرآن . . وصنع به حضارته
نريد عالما قرآنيا يحكم شريعة الله فى كل شىء، ويعايش
مبادئ القرآن فى كل حين وليسستقى من نبعه الطهور فى
ثقافته - وبرامج تعليمه - وتقويم مجتمعه - وأصول سياسته
- بهذا نكون على صراط الله . . ومع رحمته وهداه ، والارتقاء،
فى أحضان الأجانب عبادة صارخة للشيطان .

كذلك ينبغى أن تعود، اليينا قوتنا القادرة كما أراد الله لنا
دائما - لنظل نؤثر فى الاحداث ونعيش على مستوى الحياة . .
وسبيل ذلك خلق نهضة صناعية فى العالم الاسلامى ليذب فيه
النشاط وتزدهر قوة أبنائه . . لابد من النهضة المادية فى كل
مرافق الحياة تؤازرها نهضة روحية نستطيع بها أن نعيد

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .

(٢) آيتا ٦٠ ، ٦١ سورة يس

قصة حضارتنا المثالية فما يليق أن نستورد كل شيء ونعجز
عن صنع الحضارة . . . وعالمنا الاسلامي والحمد لله مستودع
الخير كله والثروات كلها .

كما أنه ينبغي أن نصفى وسائل اعلامنا من كل الحركات
والافكار الواردة اليها من العدو . . لاننا نملك رصيذاً ضخماً
من الحكمة والمعرفة والثقافة - لان ذلك هو سبيل التعريب كما
يجب فوراً أن يعاد تخطيط المؤلفات الدينية بلغة العصر وأسلوب
الحياة بحيث نستطيع أن نعطي الفكرة الصافية عن عقيدتنا
وحضارتنا . . ومجدنا العالمي . . ونبتعد عن العقد - والألغاز
والامعان في المصطلحات القديمة - وتلك مهمة الازهر الشريف .

والاجتهاد يجب أن يعود من جديد ليلحق قضايا العصر
ويفتي في المسائل الجديدة وبعث روح الجهاد على المستوى
الاسلامي كله . . الجهاد في سبيل الله . . ليتكون الجيش
الاسلامي القادر المدعم بالسلاح والخبرة . . والوحدة أقوى
سلاح : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (١) » . .
والنبي عجز القرآن عن تحقيق تلك الأمانى . . فليست حياتنا
اليوم أشد جهالة من حياة الجاهلية الأولى . . وقد استطاع
القرآن أن ينشئ من هذه الجاهلية - تقدماً وعلماً وحضارة
ومجداً وقوة . . وعاشت البشرية أسعد أوقاتها في ظل حضارة
القرآن : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن
لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا
يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم
الفاسقون (٢) » ويوم نعود الى مكاننا من قيادة ركب الحياة لن
نسمح للحياة بأن تنحل - ولا للوجود بأن يكون مسرحاً

(٢) آية ٥٥ النور

(١) آية ٩٢ الانبياء .

للشيطان سننقود الحياة باسم الله الى طريق الخير والرفاعيا
والسلام . . ولن نقف من الغرب كما يقف الآن منا لأننا لانعرف
الحقد ولا نؤمن به . .

آفات الحضارة الغربية « من كلامهم » .

سيقول قائل وكيف السبيل الى التجمع واستعادة مجد
القرآن . . والعدو جاثم - وأمره غالب . . وحضارته مزدهرة ؟
وسأرد على هذا بشهادة رجل أمريكي عرف الكثير عن
حضارة الغرب ودرس عناصر ومقوماتها دراسة تمكنه من نقدها
ومحاكمتها وذلك هو الرجل الدكتور ألكسيس كاريل :

يقول : « ان الحضارة العصرية لا تلائم الانسان كائنسان
لأنها تكونت دون معرفة بطبيعتها الحقيقية وعلى الرغم من
أنها أنشئت بمجهوداتنا الا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا -
انا نقوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقلياً . . ان الجماعات
التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي الآخذة
في الضعف والتي ستكون عودتها الى الوحشية والهمجية أسرع
مما سواها - ان العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالة
الانسان الراهنة وانما نحن المسئولون لأننا لم نميز بين
الممنوع والمشروع . . يجب علينا أن نعيد انشاء الانسان في
تمام شخصية ذلك الانسان الذي أضعفته الحياة العصرية
ومقاييسها الموضوعة » .

وبعد هذا الكلام العلمي - يمكن في ضوءه أن نجيب على
السؤال السابق - وهو أن المدنية العصرية جسم ضخم عملاق
لكنه متورم مصاب بأمراض القلب وأوجاع الباطن - ويجب
أن ننظر اليه على هذا الأساس . . وأعراض المرض بدأت
تظهر . . بل أخذت تغزو المجتمع هناك .

لا بد أن نفرق بين الشحم والورم كما يقول أبو الطيب :
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما اغترار أخى الدنيا بناظره اذا استتوت عنده الأنوار والظلم

والصراع بين العالمين الرأسمالى - والشيعوى يستدعى
تأملاً فاحصاً . . هذا الصراع مع مانراه من سوات المدنية
الغربية يهيب ، الفرصة لاقامة مدنية تستكمل أسباب التفوق
المادى وتدعمه بتفوق روحى . . ولن تكون هذه الحضارة الا
حذسارتنا . . ويوم تبدأ العمل الجاد سنعرف الى أى حد
يتشوف العالم اليينا . . لنقوده الى مرأشده . . ونعيد اليه
كرامته وسعادته . .

ويكفى ان (كاريل) يعترف بان العالم الصناعى سيعود
الى الوحشية والهمجية قريباً . . لأنه عالم لا يتناسق مع
الانسان . . عالم لا مجال فيه لو مض الروح وأشواقها . . كله
ضجيج وصخب وآلات ومعدات فأين يجد الانسان راحته . .
وكيف يروى أشواقه الظمأى ؟ انها حضارة لا تناسب الانسان
ومن ثم فانها يراها قريب ! !

وعندما نحلل الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية
الحديثة نرى انها قامت على أساس الفلسفة اليونانية واتجاهها
المادى الوثنى وطابع الابتعاد عن الدين . . وفصله عن الحياة .

وتحت تأثير هذين العاملين كانت تصدر آراء المفكرين
الغربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . . وفى ظل هذين
العاملين نمت المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى ظلت حتى الآن
مسيطرة على عقول الغربيين - ولقد فهمت هذه الحضارة - أنها
بعد أن نبذت تعاليم الكنيسة الرجعية تستطيع أن تمضى فى

رحلة الحياة من غير دين . . . وقد أخطأت في ذلك كل الخطأ لأن
للدين أثره في طبع النفوس على المحبة وازالة القلق وكبح جماح
الشهوات . . . كما أن للعقيدة الالهية أثرها في تحرير النفس من
الخوف وتحريك بواعث الخير في داخلها . . . وربطها باليوم
الآخر . . . الذى يخفف من حدة الصراع في هذه الدنيا لأنها
ليست مطمح آمال المؤمنين وان كانت حقلا خصبا تزدهر فيه
أعمال الانسان وقدراته الابداعية . . . لكنها ليست غاية بل
وسيلة دعم لليوم الآخر . . .

كما أن لهذه العقيدة أثرها في التوازن بين مطالب الجسد
ومطالب الروح . . . فهي كالمنظم الحرارى الذى يحفظ توازن
الموقد فلا ينفجر . . . فكلما جمحت بالانسان شهوات جسمه
ونزوات بدنه وقفت العقيدة حائلا دون التردى والسقوط . . .
وأعادت التوازن الى كيان الانسان كذلك كلما حاول أن يغرق في
الروحانيات أوقفت اتجاهه وردته الى التوازن ، انها تحقق
انسانيته - وتحرر وجوده من ضغط الشهوات . . . والنظم
والتقاليد وتجعله عبدا لله ومتحررا من كل ماسواه . . . فهل
تذهض الحضارة المادية بكل هذه التبعات ؟

لقد أطلقت الجانب الحيوانى من الانسانى ينزو ويعربد -
أمائت مشاعره الطيبة وأحييت شهواته الرعناء فعاش ليومه
وانطلق على هواه وغرق في الاباحية والفجور . . . وسلك مسالك
الرفض والشذوذ . . . وعاش حياة بوهيمية حيوانية . . . ليس
فيها حدود ترعى . . . ولا حرمان تصان وغرقت الكنيسة في هذه
الأجواء . . . بعد أن نبذها الشباب . . . فصارت اليوم تتملقهم -
وتقيم لهم الاحفال الراقصة في نواديها . . . وتهىء الحفلات
للرقص والمخاصرة والشراب تحت اشراف الراهب أو الأسقف .
وهكذا غرق القوم في اللذة والاختلاط الجنسى . . . وهم يعتبروننا

مترمتين لأننا ندخل العنصر الاخلاقي في موضوع اللذة الجنسية - انها عندهم مسألة « بيولوجية » فالحصان والفرس والثور والبقرة والكبش والنعجة والديك والدجاجة لا تفكر احداها في مسألة الأخلاق وهي تحصل متعتها ولذا تمضى حياتها بسيطة سهلة بلا عقد *

ومن تصريحات فتاة أمريكية مثقفة : [ان حياتنا على الأرض قصيرة وليس هناك وقت نصيحه أكثر من الرابعة عشرة] تريد الاستمتاع بلا حدود لأن حياتها قصيرة * *

وانها لحضارة تبيع الحرية للخاططات - كما تبيع العلاقات الجنسية اذا وقعت بالتراضي وكذلك الشذوذ *

ويرى براترند راسل الفيلسوف البريطانى أن الاتصال الجنسى واجب قبل الزواج فان أثبت تجاوباً أبرم الزواج والا نقص *

وتقول سيمون دى بوافوار الكاتبة الوجودية انه يجب اطلاق الحرية للخاططات ففى ١٩٧٢/١/٨ نشرت أخبار اليوم تقول :

١. بدأت الحكاية عندما أضربت مائة وخمسون من الأمهات اللائى لم يتزوجن عن الطعام فى الملجأ الحكومى المخصص لهن - لأن المديرية لا تسمح لهن بالخروج الا فترة قصيرة وتعاملهن بشدة وطالبت الامهات الخاططات وأعمارهن بين ثلاثة عشر وأربعة عشر عاماً بمزيد من الحرية [حرية التسول بالطبع] فى الدخول والخروج والملابس القصيرة * * ورفضت ادارة الملجأ فتدخلت سيمون وطالبت بالحرية الكاملة للخاططات » *

وتصرح سيمون هذه باباحة الخيانة الزوجية . . وحرية
اللذة الجنسية لأن أفراس منع الحمل تسهل الامر . . وتشيد
بثمرات العلم الحديث لأنها تمكن المرأة أن تفجر وهكذا تفقد
الحياة شرفها وحضارتها على يد الغرب وفي ظل حضارته يقول
السيد محمد أسد في كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » (
واسمه ليوبولد فايس) في الأصل وقد أسلم وتسمى بمحمد
أسد :

ان قضية معنى الحياة والغاية منها قد فقدت منذ زمن
بعيد في نظر الأوربي الحديث جميع أهميتها .

ويقول : « ان الاتجاه الديني مبنى دائماً على الاعتقاد بأن
هناك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وانذا كبشر مجبرون على أن
نخضع لمقتضياته ولكن المدنيه الغربيه الحديثه لا تقر الخضوع
الا لمقتضيات اجتماعية واقتصادية وقومية أن معبودها
الحقيقي ليس من نوع روحاني ولكنه الرغاهية - وان فلسفتها
المعاصرة انما تعبر نفسها عن طريق الرغبة والقوة وكلا الأمرين
موروث من المدنيه الرومانية القديمه » .

ويقول : [ان هذه المدنيه لا تجحد الله - ولكنها لا ترى
مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي] .

وهذا جانب جديد من جوانب الشر في تلك الحضارة
المادية . . أنها منافقة تدخل الكنيسة . . وتقيم الحفلات
الدينية وهي لا ترى لله فائدة ولا ثمرة . . وتستغنى عنه
بنظامها الفكري ودستورها الموضوع . . كما أنها تعبد القيم
المادية من مال ولذة وقوة . . وكلها منطلقات للفجور والبغى
والعدوان . . ولا يمكن لعباد الماده أن ينفشوا نظاماً يعد
الانسانية . . ومن ثم كثر في ظل هذه الحضارة - بل أرقى

مدن أوربا | السويد والنرويج | الانحراف - والاباحية -
والاجرام . . كما كثرت الانتحارات في هذه الأجواء المادية
وساء الملل وتمنى القوم الخلاص من حياتهم . . ولا تسئل عن
التمزق الشبابى وحياة (الهيبز والخنافس) المتمرد على نظام
الحياة هناك .

ومشكلة البطالة في أمريكا اليوم تهدد بكوارث ماحقه
رغم الغنى والترف ففى تصريح لنيكسون منذ ثلاثة أسابيع
على التحديد يقول : « ان البطالة ستظل المشكلة التى تهدد
الاقتصاد الأمريكى وان حجمها يتزايد عاماً بعد عام » . .
وأخطر من ذلك أن أغنى دولة في العالم تتلقى المعونات الغذائية
من اليابان ففى ١٥/١/١٩٧٢ نشرت أخبار اليوم تقول :

| ألقى السناتور الأمريكى « فلان » خطاباً بدأه بقوله :
« أصبحت أغنى دولة في العالم تتلقى المعونات من الدول
الأجنبية » وقدهاجم الحكومة بأسلوب غاضب وكلمات لازعة[.

هذه تقدمية القوم . . فسق وعهر ودعارة وانطلاق حيوانى
آثم - ومشكلات لا عدد لها - وتزييف لفطرة الانسان وسحق
لخصائصه واهمال لروحه الظائمة الى الهداية والنور ولعل من
العجب حقاً - أن تكون في أمريكا أزمة بطالة - وأن يكون فيها
فقر وحرمان - وتناقضات عجيبة ومن الغريب أيضاً أن الرجل
الأوربى لا يشعر بالامن رغم الرفاه المادى والمستوى الرائع
الذى وصل اليه . ربما لأن مصدر الامن هو الدين . الذى
يعتصم به الأفراد في الشدائد . وماذا تصنع كل وسائل
الترقى - اذا سلب من الانسان دينه ؟ !

والحصارة الأوربية منحت الانسان ترفاً وسلبته ديناً يلوذ
به في الكوارث والملمات من أجل ذلك نرى ظاهرة القلق والخوف
تسيطر على الحضارات المادية في الشرق والغرب .

نشرت جريدة الاخبار بتاريخ ١١/١/١٩٧٢ تحت
عنوان - الأمريكيون لا يشعرون بالامن نقول :

[أعلن ٧٨٪ من بين ٤٣ ألف قارئ رداً على أسئلة نشرتها
مجلة لايف الأمريكية عن الجريمة . . انهم يشعرون أحياناً
بأنهم غير آمنين داخل بيوتهم وقال ٣٠٪ انهم يحتفظون
ببنادق للدفاع عن أنفسهم وأوضح ٨٠٪ من سكان المدن الكبرى
أنهم يخافون السير ليلاً في الشوارع وقال ٤١٪ انهم يعتبرون
حماية البوليس غير كافية] .

ولعل هذه الاحصائية تؤكد أن الجريمة قد غدت أمراً
طبيعياً في ظلة حضارة القطيع حضارة القتل والسفاحين ،
والعجيب أن هذه النسبة تقل بل تكاد تتلاشى في البلاد ذات
المستويات المتخلفة مادياً لا توجد عصابات ولا توترات ولا
انتحارات كما توجد في قلب أغنى دولة في العالم ! ! فانظر كيف
هيأت هذه الحضارة الشيطانية مسارح للرذيلة والاباحية
والجريمة ؟ وكيف غرقت في الخمر - وتاهت في الهلوسة
والمخدر . . وكيف اقترب القوم من الجنون ثم لننظر كيف
عجزت أمريكا - أن تكافح نزعات التعصب العنصري فما زالت
تحتقر الرجل الأسود وتنشئ الأحياء الخاصة والمدارس
والمتشافي والمطاعم للزنج . . وتعاملهم بقوانين ظالمة . .
وتحاكمهم في محاكم خاصة . . أهذه حضارة ؟

ومن منطلق الجريمة . . تنبعث كل النزعات البربرية
والوحشية . والاستعمارية وكل الشرور في العالم . . فقوة
أمريكا تستخدم كلها في الشر . . ويكفى أنها لم تعدل يوماً
ما ، بهذه الفترة تعيش إسرائيل - وتعربد - وتنتهك المقدسات
والقيم وتسخر بمجلس الأمن والمنظمات الدولية - وعلى هذه
القوة تعتمد في احتلال القدس - والأرض العربية . . تؤازرها

أمريكا أولا • • وكل قوى الشر • • لان هذه القوى هي التي
أنشأت اسرائيل وأحلقتها أرض فلسطين • وجعلتها وطناً قومياً
للبعث الاجرامى المرتقب •

من أنشأ اسرائيل ؟ هذا سؤال يجب أن نفهم جوابه لنعرف
من هم أعداءنا متكاملين ولا نخطئهم في ساعة من ليل أو نهار !!
ومن خسائس هذه الحضارة أنها لم تستطع صنع الذات
الاصيلة الثابتة • • وانما أنشأت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها
بين شتى الديمقراطيات • وأنها صنعت الاشياء ثم انكفأت
تعبدوها وذهلت عن الله • • ولا تستقيم حضارة تعبد المادة •
ومن ثم فالانسان في الوسط الامريكى • • يجد في بيته المدفأة -
والثلاجة - والمروحة - ووسائل التكييف • • ويجد السيارة
وكل الوسائل المريحة التي هيأتها له الحضارة • • ولكنه رغم
ذلك ظامى ، قلق ، ضائع ، شقى ، معذب يود الانسلاخ من
حاضره ليفر الى عوالم طبيعية • • يجد فيها رياء لهذا الظمأ
الذى يوشك أن يحترق له جوفه • • ويجد أنسا من هذا الشقاء
الذى يوشك أن يجتاح روحه • • ويجد أمناً من هذا القلق الذى
يملأ نفسه • • فهو ظامىء والماء من حوله زلال !!

وعندما تخلى القوم عن الدين - وعبدوا الشهوة والمادة
والقوة • نبتت أخلاقهم في تلك الأرض النكدية « والبلد الطيب
يخرج نباته باذن ربه والذى خبت لا يخرج الا نكدا (١) » •

فصارت هذه الأخلاق متخصصة في النفاق والخداع
والادعاء • • والكذب • • تعتمد على الازدواج والتنائية فلديهم
أخلاق محلية وأخلاق للتصدير • • ومن ثم تحولت وسائل
اعلامهم الى أدوات للكذب والدس والادعاء تنشر سمومها وتنفت

(١) آية ٥٨ الاعراف •

حقدها في بلادنا لتزيدها تمزيقاً واضطراباً . . وتأبى حضارة
الايمان الا أن تخضع الحياة كلها لله . . فالأخلاق عليها رقيب
منه سبحانه - والمنشآت مرتبطة به جل جلاله : « سبحانه
الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١) » .

هذا منطق المؤمنين وهم في ذروة الانتصار الحضارى . .
يذكرون ربهم ليذهب غرورهم . . ويفر الشيطان من آفاقهم . .
فلا يعبد من دون الله . .

وفي ضوء ما مضى كله نستطيع أن نؤكد بأن الاسلام قادر
على أن يسترد مجده - ويستعيد حضارته . . ويعيش أبنائه
كراماً في وطن اسلامى عزيز . . بالرجوع الى الله ورسوله . .
ونفض اليد من الأجانب - والاعتماد على الله وعلى أنفسنا في
تخطيط حياتنا - وتنمية مجتمعاتنا - وأن نستشعر في كل
لحظة أن الرجعى الى الله - وأن حياتنا قصيرة . . فعلينا
جميعاً أن نحقق مشيئة الله في الأرض ونتنازل عن حظوظ
أنفسنا - ونصفي قلوبنا من كل ضغينة وحقد . . ونضع أيدينا
في يد بعض كى يتم البناء - وينهض الصرح . . وما ذلك على
الله بعزیز .

ولا قوة ولا مناعة ولا هيبة لآى حضارة تنسلخ عن الله . .
لأنها من عمل الشيطان وكيد الشيطان ضعيف جداً ضعيف فما
ينبغي أن ترهبنا كل قوى الشر من حولنا فهي سراب . . وقد
خاب من افترى !! وهى حضارات بشهادة أبنائها مزيفة
حيوانية سريعة الانهيار . . « ففروا الى الله انى لكم منه نذير
مبين (٢) » .

(١) آية ١٣ الزخرف .

(٢) آية ٥٠ الذاريات .

ماذا قدمنا للحياة ؟

يطلب لنا ونحن في لحظة المحاكمة لما أحدثه حضارة الغرب من خلق عالم فاجر بعيد عن الله أن نشاءل بانصاف ماذا قدمنا للعالم وللحياة . . . وبتعبير أدق ماذا قدمت حضارة القرآن للحياة ؟

والذين يقفون على الفصول الأولى من هذا الكتاب ووصف عالم ما قبل القرآن ثم يتابعون النقلة الرائعة التي انتقلت اليها الحياة يدركون جيداً ماذا قدمنا للحياة ؟

لقد أصبحت الجاهلية بعد نزول القرآن حركة رجعية في العالم كله - تدل على الجمود والغباوة - بعد أن أحدث الاسلام أثره في النفوس كما يحدث الربيع أثره في الحياة فغير عقائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم الى الكون والى الطبيعة والى الحياة ونقلهم من صميم الظلمات الى منطقة الضوء والاشعاع وانتشلهم من وهاد الفساد الى قمة الصلاح . . . وصيرهم أساتذة العالم وسادة الوجود كما اختنقت الكهانة وأصبحت حركة مهينة بعيدة عن روح الحياة والعلم . . . ورأى العالم منا الأعاجيب فعلمنا الجاهل - وأعزنا الذليل وقومنا المعوج . . . وعالجنا المريض وأهدينا الى البشرية الخائفة المذعورة أمنها وسلامها واستقرارها وكرامتها . . . وأطلقنا مواهب الانسان وخصائصه لتصنع التقدم وتتفاعل مع الكون - ونعبد الله ، كما أفضنا على العالم حرية طلاقة . . . لا تستذل رقباب البشر ولا تخضعهم الا لله . . . وسرت هذه الحرية منا الى الكنيسة والى المجتمع المسيحى فثار على الجمود والرجعية

ونشأ من احتكاك هؤلاء، بحضارتنا أن ترجموها الى مجتمعاتهم ، يقول الأستاذ أحمد أمين : [ظهر بين النصارى نزعات تنعكس عليها آثار الاسلام - من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادى ظهر في مقاطعة سمبانيا في جنوب فرنسا جماعات تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسيس . . وأن ليس للقسيس حق في ذلك وأن الصراع لله وحده الذى يملك غفران الذنوب] .

وفي سنة ٢١٢هـ قام الأسقف الاندلسى « تورين » باحراق الصور والصلبان ونهى عن عبادتها بأسقفيته - ووجدت طائفة أخرى من النصارى تشرح التثليث بما يقترب من الوجدانية وتنكر تأليه المسيح . . وكان من آثار الاسلام أيضا تلك الدفعة الثورية التى جعلت لوثر وصحبه من رجال الإصلاح يشتطون في مهاجمة الكنيسة ويتهمونها بالرجعية والفساد ويعلنون الانفصال عنها - ولعل ما ساد العالم بعد نزول القرآن من احترام المرأة - ومنحها حقوقاً كريمة - انما كان أثراً من آثار الاسلام . . وهكذا ما من ناحية من نواحي التقدم والفكر والفلسفة والتدين والعلم سادت أوربا الا وللعرب فيها يد بيضاء وفضل مشكور وقد أقام العرب بالاندلس قرابة ثمانية قرون . . وتعاقب عليها ملوك عظماء لهم طموحهم وفقهم الحضارى على رأسهم تسعة عشر خليفة من أولاد عبد الرحمن الداخل وحفدته في أربعة وثمانين ومائتى عام . .

نشرُوا فيها من العلوم والمعارف والثقافات ما ألهم أوربا وعلمها يقول دوزى المؤرخ : [ان عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى] ويقول ستانلى لاين بول : [ان حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب خمسين سنة أدخل على أحوال أسبانيا تجديداً لا يلُم الخيال على أجمع ما يكون بحقيقة فحواه] .

وان حنين الوطنيين الغلاة من أبناء أسبانيا ليشترد ويتزايد الى تلك الفترة المتألفة التي عاشوها في أحضان الحضارة القرآنية . . فهذا الكاتب الموهوب بلاسكوا أباينز الذى توفي منذ سنوات يقول : [لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا اليها من القارة الافريقية وأسلمتهم أزمتهما من غير مقارنة ولا عداة فما هو الا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب احدى البلاد حتى تفتح لهم أبوابها وتتلقاهم بالترحاب - وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ - ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستعد معه تلك الثقافة الفتية الموحدة الأركان نابضة بالحياة بعيدة الشوط ولدت منتصرة - وبث فيها النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) حمية قدسية واجتمع اليها أفضل ما فى وحى بنى اسرائيل وعلم بيزنطة وتراث الهند وذخائر فارس والصين وهكذا تسرب الشرق الى أوربا على نهج غير نهج داردا وزركسيس من قبل أثينا الذى قاومته خوفا على حريتها - وفى خلال سنتين استولى العرب على ملك قضى مستردوه سبعة قره ن كاملة فى استرداده ولم يكن فى الواقع فتحاً فرض بقوة السلاح بلى حضارة جديدة بسطت شعابها على كل آفاق الحياة ولم يتخل أبناء هذه الحضارة عن فضيلة حرية الضمير ، هى الدعامة التى تقوم عليها عظمة الشعوب فقبلوا فى المدن التى ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود ولم يخش المسجد معابد الأديان التى سبقته فعرف لها حقاً واستقر الى جانبها غير حاسد لها ولا راغب فى السيادة عليها ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها فى القرون الوسطى . وكان سكان أسبانيا يتزايدون وتنمو فيهم عناصر التقدم وتنسجم جميع العناصر البشرية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التى عرفها تاريخ الجماعات البشرية » . .

وهذا حديث منصف يغنى قليله عن كثير مما نقول . .
فانها شهادة القوم . . وهى تعطى الصورة الصحيحة لواقع
حضارتنا على الأرض الاندلسية ونتناول مفاخر شتى من
تسامح دينى ، وازدهار علمى ، وفقه حضارى ، وحب للمسلم ،
وايثار للمعرفة والعلم ، وايثار للمعرفة والعلم ، ونشاط فى
الاجتماع وهكذا . .

ويقول المسيو ليبرى : | امح العرب من التاريخ تتأخر
نهضة الآداب فى أوربا قرونا طويلة . . | .

ويقول ملر فى كتابه ملخص التاريخ : | هب العرب
يظهرون ماخفى من مواهبهم فبهروا العالم بما أوتوه من
معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم
من مراقدها ونفخوا فيها من روحهم الحياة والقوة فجعلوا بذلك
سلسلة العلوم متصلة الحلقات محكمة الرد لا يمسها ومن ولا
انقطاع - وما جانا العلم والمدنية الا عن طريقهم لا عن طريق
اللاتين » .

وبعد فماذا نأخذ وماذا ندع من روائع تلك الحضارة
وآثارها العالمة - ان لذلك كتباً معينة قد تكفلت بتوضيح تلك
الآثار ؟ !

أنتحدث عن الطب والكيمياء والفسوف والفلك وعلوم
الحياة وكيف أخذها الغرب عن طريقنا ؟

أنتحدث عن الفلسفة والعلوم الأدبية - وآثارها فى أوربا
والحياة كلها ؟

أنذكر تلك الظاهرة الرائعة التى جعلت أوربا تتلمذ على
العرب فى كل شئ ، فى جامعات الأندلس ؟ وكيف أن القوم

حذقوا العربية ونظموا الشعر وألفوا القصص باللغة العربية
ونسوا لغة آبائهم - وزهروا فيها !! حتى لم يوجد بينهم من
يتكلم باللاتينية . .

وكيف أن التقليد قد تجاوز ذلك الى اللباس ونظام
الأكل وطريقة الحديث وأساليب الحياة . . لعمري ما يستطيع
هذا الفصل القصير أن يلم بكل ذلك وحسبنا أن نؤكد بأن هذه
الحضارة من قبل ومن بعد حضارة القرآن تنعكس أنواره عليها
وتتمند قوته دائماً اليها . وتفيض معارفه وثقافته فيها . .
وتسقى تقاليدها وآدابها بمائه فهل يجف لها زرع أو يصوح
نبت أو يجذب وجود ؟

ذلك رهن بتمسكنا بالقرآن وتطبيقنا لشريعته واعتزازنا
بمبادئه وإن القرآن الذي بدأ التجربة أول مرة والحياة مظلمة
والجهل غامر والغى سادر لقادر على أن يعيدها من جديد وهو
أهون عليه !!

من وراء أربعة عشر قرناً

لكأنى أسمع الصوت الجهير - وهو يتردد واثقاً بين
الجماهير المؤمنة - هناك في عرفات عند جبل الرحمة يحذر
هذه الأمة عوادي الانقسام والفرقة ، وأسباب النزاع والبغى
ويؤكد لها تلك المعالم الحضارية لتمضى على نور في صنع
حضارة القرآن .

انه صوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو يلقي
خطبة الوداع في نحو مائه ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر
موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم .

كان ذلك في العام العاشر للهجرة . . . وكأنما أحس
الرسول باقتراب أجله فأحب ألا يلقي ربه الا وقد أدى حق
البلاغ لهذه الأمة الكريمة التي صنعها على عين الله . . .
لتستمر المسيرة الحضارية على صراط العزيز الحميد . . . وقد
أكد صلوات الله وسلامه عليه على مجموعة من القيم الحضارية
. . . وكأنما كان ينظر من خلال الغيب الى مستقبل هذه
الحضارة . . . وما سينالها من أصحابها . . . قال : ' أيها
الناس اسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد
عامي هذا في موقفى هذا ! أيها الناس أن دماءكم وأموالكم
حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم
هذا . . . ألا هل بلغت . . . اللهم فاشهد . . . ومنها : ان ربا
الجاهلية موضوع وان مآثر الجاهلية موضوع . . . أيها الناس
ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن
يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . . . ومنها :

أيها الناس : ان لكم على نسائكم حقاً – ولهن عليكم حقاً ، لكم
 عليهم ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين
 بفاحشة مبينة واستوصوا النساء خيراً •

أيها الناس : انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مال
 أخيه الا عن طيب نفس منه اللهم فاشهد فلا ترجعوا بعدي
 كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان
 أخذتم به • • لم تضلوا بعدي أبداً • • كتاب الله ألا هل
 بلغت !!

أيها الناس أن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم
 و آدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل
 على عجمي الا بالتقوى ألا بلغت ؟ ! اللهم فاشهد [•

اقتطفنا من هذه الخطبة الكريمة تلك المعاني العظيمة
 التي تشير كل فقرة منها الى قيمة حضارية لها أثرها في حياة
 الجماعة الانسانية – ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان
 أصحابه الذين احتشدوا لسماع الخطاب • • لأنها قد وردت
 في القرآن وتأكدت بتطبيق الرسول ولكنه أحب أن يركز على
 هذه القيم بالذات قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل متوهجة
 ساطعة لا يتسرب اليها اهمال أو نسيان • • ونحن نستطيع
 أن نسجل بعض انطباعاتنا عن تلك الموضوعات فيما يلي :

١ – حرمة الدماء البشرية – وقداسة الحقوق الانسانية
 فلا تنتهك هذه الحقوق ولا يعتدى عليها وبهذا تتأكد كرامة
 الحياة وتمضى في طريق الأمن ويتجه الانسان لاداء دوره
 الحضارى في الحياة • • موفور الكرامة – عزيز الجانب –
 مرفوع الجبين لا يستغل ولا يستغل ولا يعتدى عليه قد ضمن
 له الرسول حقوقه المقدسة وركز عليها لأن الانسان أهم ركن في

بناء الحضارة * * وكأنما كان الرسول ينظر من خلال الغيب الى تلك الحضارات التي امتهنت خصائص الانسان وأذلت كرامته وحولته من عبادة الله الى عبادة الآلة وأنشأت له حضارة صناعية عاش بينها غريباً مبتذل الكرامة مستبعد الروح * *

انه الحرص البالغ - من الرجل العظيم - الذى أرسى بيده دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ * * الحرص على كرامة الانسان وحقوقه ليعيش عبد الله سيداً لكل عناصر الكون مرفوع الجبين * *

٢ - أشار صلوات الله وسلامه عليه الى عنصر أساسى له أثره فى استمرار الحضارة الربانية - وهو عنصر منع الاستغلال - ومكافحة الربا - ليتحرر اقتصاد المجتمع من البوائق والآفات التى تهدد وجوده * * فاذا رأينا اليوم تلك المعاملات الربوية التى تشيع فى الحضارات العالمية وكيف تخلق المنازعات - وتحريك المؤامرات - وتسيطر على الحكم عرفنا سر العظمة فى تلك التوجيهات الرائدة * * التى يهدف الرسول الكريم من ورائها الى تطهير المجتمع الاسلامى من أضرار الربا وشروره !! ولقد تأصل الربا فى حضارة الغرب حتى صار قاعدة الاقتصاد هناك وطفح بشور الاحتكار والمضاربة وبرزت آثارها المادية فى تلك المجتمعات * *

٣ - أكد صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك الموقف الرهيب مثانة البناء الحضارى الذى صنعه مع أصحابه على عين الله - وأنه لم يعد الشيطان سبيلاً عليه بعد أن أتم الله النعمة وأكمل بناء الدين - وكأنما يرمز صلوات الله وسلامه عليه الى أن هذه الحضارة فى مأمن من أعدائها على مر الأيام مادام أصحابها

متمسكين بها • • مطبقين لأحكام الله فيها • • ملتزمين بأوامره ونواهيه حتى اذا انحرفوا عن الجادة • فقد فسحوا للشيطان طريقاً ينفذ منه اليهم • • ويتمكن من القاء العداوة والبغضاء بينهم • • وما أكثر قوى الشر وعملاء الشيطان التي تتربص بنا الدوائر على مر الأيام !! وما أقل ما تنتبه لها – أو نسد الطريق عليها • • قبل أن تمزقنا كل ممزق •

٤ – أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم « حقوق المرأة » لأنها قد لقيت من قبله ضروباً من العنت وألواناً من المهانة • • فجاء ليرد عليها كرامتها – ويحفظ آدميتها • ويبين لها حقوقها التي لا ينبغي أن تتجاوزها • • وحقوق زوجها عليها وحقوقها عليه • • بما لا يدع مجالات للبس أو خفاء وكأنما كان ينظر من وراء الغيب الى تلك الحضارات المنحلة التي عبثت بكرامة المرأة • • وأطلقتها لتسابق الشيطان • • ونفخت فيها روح الغرور فخدعتها عن نفسها فاذا هي تحتقر رسالتها في الحياة وتتمرد على البيت وتنطلق في ميادين الاباحية والسهرات المبتذلة • •

يقول بعض الأساتذة الجامعيين السويديين واصفاً حال المرأة في تلك البلاد المتحضرة : | اننا نعلم أبناءنا في المدارس الثانوية وفي سن مبكرة كل شيء عن الجنس واضحا صريحا ليست لدينا مشكلة جنس ، ان المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذة والملابس الأنيقة والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج أمر طبيعي وعادى وما يباح للشباب يباح للفتاة] •

اذا قرأنا عن تلك الحالة المتدهورة للمرأة في أرقى بلاد العالم اليوم عرفنا الى أي حد كانت وصية الرسول رائعة وملهمة • • لتظل المرأة في ظل حضارتنا نظيفة كريمة تؤدي رسالتها • • وتحفظ بحيويتها وترعى الأطفال وتصنع البيت المسلم • •

وتتلقى من العلوم والمعارف ما ينير عقلها ويحفظ عليها دينها
وشرفها لئلا تصير يوماً الى هذا المنحدر السحيق فتصبح لعبة
للشيطان وملهامة للمجتمع .

٥ - ثم يهتف صلوات الله وسلامه عليه بتلك الحقوق
الانسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية : « كل المسلم
على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

هل وعيت ايحاء تلك الفقرة الرصينة المتماسكة التي
تؤكد حرمة الأعراض الانسانية فلا تنتهك ، والاموال
فلا تستغل ، والدماء فلا تسفك وآدمية البشر فلا تمتهن !!
وخصائصهم العليا فلا تزيف ؟ !

وعندما تقرأ هذه الحقوق . . الموثقة . . في كلمات
الرسول الصافية . . وننظر في واقع الحياة التي عاشها مع
أصحابه نرى أن هذه المعاني قد ترجمت الى عمل ، وتحولت
الى سلوك ، ونفذت بكل دقة . . وأنها لم تكن عبارات
مرصوفة للاستهلاك ، ولا كلمات براقية للعرض - ولا شعارات
رئانة للتباهي !! بل تحولت بتطبيق الرسول الى واقع حي
ماموس . . يظهر أثره في قوله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد
سرقتم لقطع محمد يدها » .

وعندما نقارن بين حقوق الانسان في واقع حضارتنا - وبين
حقوق الانسان في حضارة الغرب - وفي دساتير العالم المتحضر
نرى أن هناك شعارات ، مجرد شعارات صنعت بلباقة
وفطنة ، وليس وراء ذلك شيء . ، هل رأيت النور يوماً من
الأيام ؟ هل طبقت في واقع الحياة ؟ مبلغ علمنا أن الانسان
كله ضائع هناك فهل تكون له حقوق ؟

انهم فقط يختلفون بها كل عام ويجعلون لها عيداً . .
يلقون فيه الخطب والكلمات !!

أما حقوق الإنسان عندنا وفي حضارة القرآن فواقع
عاشت البشرية تجربة حضارية رائدة أحس فيها كل فرد
بكرامته فانطلقت مواهبه تبني الحياة وتبدع في صنع
الحضارة .

وما أروع نداء الرسول المجلل في آفاق الحياة .
(أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد الخ)

هكذا في فقرة رائعة يعلن الرسول المساواة العامة بين
البشر في الحقوق والواجبات ، ويقرر أن أساس التفاضل بين
الإناس ليس هو الحسب أو النسب أو المال أو اعتبارات الدم
أو العرق أو الجنس أو الوطن أو القومية . . وانما التقوى التي
تسند في الضمائر والقلوب أية ديمقراطية من ديمقراطيات
العالم قد أكدت على تلك القيمة العليا ؟ وصاغت لها عبقرياً
بجز القلوب والمشاعر ؟ ثم طبقتها تطبيقاً عملياً أحس فيه كل
فرد بدمته في الحياة فانطلقت القوى البناءة في ظل هذه
الكرامة تبني المجد والحضارة - لعمري - لكنما كان الرسول
الأعظم ينظر من وراء القرون الى تلك العنصريات المزدولة
الطائفية الحاكمة - والإقليميات الضيقة وخرافات العرق
والجنس واللون !! كأنما كان يرصد بمنظاره الثاقب ما
تعايشه البشرية في عصر الذرة والصاروخ . والصعود الى
الفضاء من تفرقة عنصرية تمارسها أرقى الدول
وأعرقها في الديمقراطية وصرنا نسمع كل يوم مشكلات
الإنسان وكرامتهم الضائعة - وحقوقهم المتهناة . . في عالم
يعتبرهم حيوانات ليس لها حق الوجود الحر والكرامة العزيزة

• • وصرنا نسمع حكومة الاقلية البيضاء، في روديسيا
وحضارة الرجل الأبيض وخرافة الدم النقي والعنصر الذكي
وشعب الله المختار !!

يارب الناس : أين حقوق الانسان في ظل هذه التفرقة
المهينه ؟ وأين كرامته في ظل المنظمات الدولية ؟ • نم هانئاً
يارسول الله يارسول الكرامة والحرية وشرف الحياة •

لقد هتفت بصوتك الجهير من أعماق التاريخ في أفق
البشرية كلها معلناً أن لا استغلال – ولا استغلال – ولا بغى ولا
امتهان لكرامة الانسان « الناس سواسية كأسنان المشط » •
وقد تركت أمتك على المحجة البيضاء، بعد أن قررت وأكدت
وطبقت وسارت أمتك بقيادتك على الحرب ، فحررت العبيد
وصنعت كرامة الحياة واستنقذت شرف الانسان وكرامته من
النبلاء والأشراف ورجال الدين • • وصنعت عالماً متكافئاً ،
الملك فيه لله – والكرامة للبشر – ولا تفاضل الا بالتقوى
والعمل الصالح •

نعم ما أروع قولك يارسول الله ألا هل بلغت ؟ تكررهما
عقب كل فقرة وتشهد الله على ذلك • ، نعم بلغت يارسول الله
وأديت الأمانة وحملت أعباء الرسالة ! ؟ وتحملت من الجهد
الواصب فوق ما يتحمل البشر • • وانك لحريص على أن تؤكد
نلك القيم لتظل في وعى أمتك • • تقاوم بها عوامل الشر –
وتصد غوائل الشيطان • • وتستعصى على الفرقة والضياغ !!
أنت يارسول الله حريص على أن تسمو مشيئة الله – وتحرر
ارادة الانسان ويعيش في عالم نظيف بعيد عن الشرك والفساد
• • ولهذا وقفت وخطبت وأشهدت الله • • نم هانئاً يارسول
الله • • فقد أديت أمانة ربك وصنعت أمة هادية نقلتها بوحى

الله من سفح الجهالة فوضعتها في قمة الايمان ولم تكتف بأن
تصبرغها على هذا النحو - وانما جعلت منها أمة رائدة معلمة
ترشد الناس وتهديهم الى سواء السبيل *

فعليك من ربك صلوات وتحيات بقدر ما أخلصت في حمل
الرسالة وأداء الأمانة ، وبقدر ما تحملت من عناء وأذى * *
وبقدر ما أنت حريص علينا بالمؤمنين رعوف رحيم *

وقفت أمام ضريحك الطاهر في لحظة من لحظات الحياة
المباركة * * خاشع القلب دامع العين تموج نفسى بشتى
الاحاسيس وينبض قلبي بمختلف المشاعر وازدحمت في خاطري
ذكريات غالية ذكرياتك يا رسول الله وأنت تبني دولة الايمان
بالجهد والعرق * * وأنت تؤسس مجد الاسلام ترفع
مع أصحابك قواعد أكرم حضارة عرفها الانسان * * ذكريات
الامجاد الاسلامية الطامحة يوم انطلقت كتائب التحرير تسحق
الباطل وتدمر الشرك وتمكن لكلمة الله في الأرض * * وتحرر
الحياة من قبضة الجبارين ذكريات الصحابة الذين هجعوا على
مقربة منك في البقيع * * وكيف ارتفعوا بآيمانهم وجهادهم
الى مستوى كريم لا يدركه سعى ولا تلحقه همة وكيف صنعت
منهم باقة زهر نضير ملأت جو الحياة بالعطر ونضرت وجهها
بالجمال فأسرعت بالخصب وجادت بالربيع !! ذكرياتك
يا رسول الله وأنت قائم في مسجدك المبارك تتلو آيات الله
وترددها في أفق الحياة لتطهر الوجود وتصنع الرجال وتعلم
الحياة الجاهلة *

قلنت لنفسى وأنا في موقفى هذا :
من هنا تفجر نبع الحضارة الانسانية ومن قلب هذا
الرجل العظيم تدفق الهدى والنور من قلب محمد محرر
الوجود صانع الأبطال رائد الانسانية محطم الوثنية، وبسواعد

أصحابه الهاجعين على مقربة منه قام ذلك البناء الكبير وكتب
للوجود شأن آخر وقلبت في سجل الحياة صفحة مشرقة
بيضاء !!

يا صناع الحضارات !! أين تقع حضاراتكم من حضارة
قوم عاشوا لله وتجردوا من مظاهر الجاه – وكانت قيمهم
ومبادئهم ومنزلهم رصيذا مباركا لكل الناس ولجميع البشر . .
لأنها سادت وازدهرت فأنت أكلها ضعفين !

يامسلمون في شرق الدنيا وغربها !! هذا نبيكم محمد عزيز
عليه ما عنتم حريص عليكم ، لكانما ينظر اليكم حزينا وقد
لعب بكم الشيطان فمزق وحدتكم وفرق كآمتكم وصيركم أعداء
متنابذين يضرب بعضكم رقاب بعض . . أنسيتم ما حذركم
إياه في خطبة الوداع من أن يلعب بكم الشيطان أن قوى الشر
تتألب عليكم – وأن حضارة الشيطان افترست حضارتكم . .
لأنكم ذهلتكم عن وجودكم . . ونمتكم عن أمجادكم . . وأسلمتكم
زمامكم للشيطان !!

لكأني أسمع صوت النبوة الهادر وأنا واقف أمام الضريح
انطامر ينادىكم أن اجتمعوا فهذا القرآن معكم وامامكم . .
وهو قادر على أن يصنع وحدتكم ويرجع مجدكم فهيا عيشوا
نظامه وطبقوا أحكامه تكن لكم العزة في الحياة : (تركت فيكم
ما أن تمسكنم به لن تضلوا أبداً كتاب الله) .

هكذا تماوجت الخواطر في وجداني وهكذا نقلتني الى
عالم أكرم ثم ردتني الى واقع مر فهل نستجيب ؟

وانطلقت أدعو وأدعو !!

اللهم يارب محمد يارب الكعبة يارب هذه الجموع
البشرية التي يموج بها المسجد بصر المسلمين بدينهم –
من سبّاتهم – واجمعهم على كتابك لتعود اليهم أمجادهم •

اللهم اكتب لنا النصر على أعدائك حتى نسترد القدس
ونستعيد الأرض • • ونظهر الوجود كله •

اللهم ألف بين قلوب المسلمين – وأذهب عنهم كيد
الشیطان ليعزوا دينك وينشروا هداك •

اللهم ان يهلك هؤلاء فلن تعبد في الأرض •

اللهم ألهنا الحق – ودلنا عليه – وقدنا الى الخير
ووجهنا اليه حتى نؤسس دولة العلم والايمان على تقوى من
الله ورضوان •

والحمد لله أولا وآخرا له المجد كله وله الحمد كله وهو على
كل شيء قدير •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

توفيق محمد سبع

كلمة ختامية

أحمد الله عز وجل - أن اتاح لى تلك الفرصة الهادئة
الطيبة لأحقق أملا عزيزاً طالما صبوت اليه - وهو الكتابة فى
موضوع « قيم الحضارة القرآنية » - وابرز أسرارها الرائعة
- وآثارها العالمية من وجهة نظر معينة . . تختلف عما كتب
فى هذا الموضوع من قبل . . وهو الاستمداد من القرآن الكريم
مباشرة . . والاصغاء الى سر الايحاء الكامن فى الفاظه وتراكيبه
. . لاستنباط مايدعم الحياة وينفع الناس .

وقد ركزت الأضواء على مجتمع الايمان الذى أسسه
سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه . والذين معه بالجهد
والعرق . . ووضحت كيف استطاعوا بقدراتهم الطبيعية -
ومواردهم المحدودة أن يملأوا كل فراغ . . وأن يسدوا كل عوز
. . وأن يقدموا للعالم كله نموذج حضارة انسانية رائدة
تملأ الحياة بالأمل والنور . . وتومض فى جنباتها المعتمدة كما
تومض المنارة فى ظلام المحيط . . ووقفت طويلاً أمام السواعد
الفتية التى صنعت تلك التجربة . . مستهدية بمنهج الله
وقيادة رسوله العظيم . . وبيئت كيف امتدت تلك التجربة
وترامت حتى شملت العالم . . وأضاءت الحياة بنور الله . .
وكيف عاشت الانسانية أسعد أيامها فى أحضان تلك الحضارة
الربانية وكيف تفجرت مواهبها الخصبة لتبنى الحياة وتصنع
التقدم وترعى كرامة الانسان !!

ثم وضحت كيف استنقت أوروبا من نبعنا الطهور وكيف
كافأتنا على ذلك فى النهاية ؟ !

وربطت بين أطماع المتربصين بتلك الحضارة • • وأكدت،
أنهم لا يستهدفون إلا الاسلام ومهما تختلف وجهاتهم أو
مظاهرهم فهم يجتمعون على الكيد للقرآن وحضارته كأن لم
ينهلوا يوماً من معينها ولم يتحرروا بمبادئها •

وكنت حريصاً على أن أستنطق المستشرقين الحاقدين -
وأدعهم يتحدثون عن آمالهم في القضاء علينا • • ووسائلهم في
تحقيق هذه الغايات • • وذلك حتى تعرفهم أمتنا المجاهدة •
ولا تخدع بحركاتهم وظواهرهم •

وقد اكتملت فيما أعتقد - صورة حية ونابضة لقيم
حضارتنا الخالدة - أود أن أكون قد وفقت في عرضها والتعبير
عنها •

والله أسأل أن يمنحنا الصديق في القول والاخلاص في
العمل • • انه ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ٥

توفيق محمد سبع

مراجع الكتاب

أولا : كتب التفسير :

- (١) تفسير الكشاف
- (٢) تفسير الفخر الرازى
- (٣) ابن كثير الدمشقى
- (٤) المنار للسيد رشيد رضا
- (٥) تفسير أبى السعود *

ثانياً : كتب التاريخ :

- (١) عصر ما قبل الاسلام للاستاذ مبروك نافع *
- (٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار *
- (٣) تاريخ الاسلام السياسى للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن *
- (٤) السيرة النبوية للاستاذ الخضرى *
- (٥) سيرة ابن هشام (٦) مروج الذهب للمسعودى
- (٧) تاريخ العرب قبل الاسلام للاستاذ جورجى زيدان *

ثالثاً : من كتب الحضارات :

- (١) الاسلام فى المعتزك الحضارى الاستاذ عمر بهاء الدين نقله محمد عاصم حداد *
- (٢) أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة للاستاذ أبى الأعلى المودودى *
- (٣) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للاستاذ عباس محمود العقاد *
- (٤) القرآن والعلم للدكتور جمال الدين الفندى *

- (٥) بين الديانات والحضارات للاستاذ طه مرور
- (٦) الاسلام والطاقت المعطلة ظلام من الغرب للاستاذ محمد الغزالي
- (٧) من روائع حضارتنا للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي
- (٨) المستقبل للاسلام للاستاذ مالك بن نبي
- (٩) الاسلام والحضارة العربية محمد كرد علي
- (١٠) حضارة الاسلام لجوستاف النمسواوى ترجمة الاستاذين عبد العزيز توفيق جاويد و عبد الحميد العبادى
- (١١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام للفيلسوف محمد اقبال ترجمة عباس محمود ومراجعة الدكتور مهدى علام
- (١٢) تعليقات الأستاذ شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامى
- (١٣) الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين للاستاذ محمد الغزالي
- (١٤) الحضارة الاسلامية لابي الاعلى المورودى
- (١٥) نحن والحضارات الغربية لابي الاعلى المودودى وكذلك كتاب نظام الحياة فى الاسلام لنفس الكاتب
- (١٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ لأبى الحسن الندوى
- (١٧) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد
- (١٨) تاريخ الادب العربى للاستاذ أحمد حسن الزيات
- (١٩) انسانية الاسلام للاستاذ أحمد عبد الغفور
- (٢٠) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين
- (٢١) عبقريتنا الصديق وخالد للاستاذ عباس محمود العقاد
- (٢٢) مواقف اسلامية للدكتور عبد العزيز كامل

محتوى الكتاب الجزء الثانى (قيم حضارية)

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
	تقديم لفضية الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
	الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (شيخ الأزهر
٨	فيما بعد)
١١	مقدمة المؤلف

الباب الأول

١٨	البعث الجديد
٢٢	رسول من أنفسكم
٣٤	قيادة ومنهج
٤١	من خصائص البعث الجديد
٥٣	من آثار هذا البعث
٥٤	بين النظامين !!
٦١	لماذا سهل تقبل الناس الدعوة الجديدة ؟
٦٤	من أقوال المستشرقين

الباب الثانى

٦٨	من خصائص الحضارة القرآنية
٦٨	(أ) استمدادها من القرآن وتجديدها المستمر
٦٨	بين الكتب السماوية والقرآن
٧٥	القرآن نبع حضارى متجدد

الصفحة	الموضوع
٨٠	مكانة العقل في حضارة القرآن
٨٢	من آثار العقل في حضارة القرآن
٨٤	حركات الإصلاح الدينى
٨٩	الاجهاد وأثره في تطور الفكر
١٠٠	(ب) ثبات صبغتها وابتعادها عن أهواء البشر
١١٢	(ج) انفتاحها على جميع الحضارات الانسانية
١٢٢	شخصية الحضارة الاسلامية
١٢٤	(د) ملاءمتها للطبيعة البشرية
١٣٥	من عجائب المنهج القرآنى
١٣٨	(هـ) تكامل جوانبها واتساق عناصرها
١٤٤	الرسول ومسئولية الجماعة
١٤٥	بين النزعة الفردية والجماعية

الباب الثالث

قيم الحضارة القرآنية

١٥١	(أ) القيمة الايمانية
١٥٤	العقيدة والضمير
١٥٥	(ب) القيمة العلمية
١٦٤	(ج) العمل قيمة عليا في هذه الحضارة
١٦٧	(د) الجهاد في حضارتنا تعبير عن العقيدة
١٧٢	العبادة وقيم الأخلاق في حضارتنا
١٧٩	(هـ) الحرية في مجتمعنا الحضارى
١٨٥	مجتمع القرآن

الباب الرابع

الصفحة	الموضوع
١٩٤	ذوقيات الحضارة القرآنية
١٩٤	صياغة الذوق وعجائبها
١٩٨	الرسول والتجربة الذوقية
٢٠٦	من الروائع الذوقية في القرآن
٢٠٦	(أ) النظافة والطعام
٢٠٩	(ب) توفير القيادات
٢١٨	(ج) رعاية احرمات
٢٢٣	(د) أدب اتحية
٢٢٥	(هـ) تفسحوا في المجالس

الباب الخامس

٢٣١	الحضارة القرآنية بين المد والجزر
٢٣٤	وقفه أمام السواعد الفتية
١٣٧	مع أبى بكر
٢٤٠	مع عمر أو قمة الحضارة
٢٤٨	هل انتهت الحروب الصليبية بعد صلاح الدين ؟ ...
٢٥٣	المعركة ضد الاسلام
٢٥٧	كيف السبيل ؟
٢٦٠	آفات الحضارة الغربية (من كلامهم) ..
٢٦٩	ماذا قدمنا للحياة ؟
٢٧٤	من وراء أربعة عشر قرناً !!
٢٨٤	كلمة ختامية
٢٨٤	مراجع الكتاب
٢٨٨	محتوى الكتاب
٢٤٣	المسيرة الحضارية بعد عهد الخلفاء

رقم الايداع ٤٢١٦ / ٨٤

دار الفتح الاسلامى للطباعة
٧ شارع خالد بن الوليد ارض اللواء — المهندسين

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	دوربه	دروبه
١٦	٨—	وكنما	وكانما
٢١	١٠—	محمد	محمد
٢٢	٢—	فيمنها	قيمتها
٢٣	٦—	للبريه	للبرية
٢٤	٩	ترزت	برزت
٢٥	٢	خبيثا	خبيبا
٢٦	٨	تنقله	تنقله
٢٦	١٢	مانهج	مناهج
٢٧	١	حاء	جاء
٢٨	٦	رساله	رسالة
٣١	٦—	بيضها	بينها
٣٢	٧	يوضعها	يوضعها
٣٥	١	النريه	النريه
٣٦	٧—	فخسعت	فخسعت
٣٩	١٥	بما	بما
٤٣	١٠	ولا يعطها	ولا يعطها
٤٤	١٠	وبذك	وبذلك
٤٩	٥—	تقبه	تقبله
٥٠	١٠—	ابقظ	ابقظ
٥٤	٢	ابراعم	البراعم
٥٦	٣	احديث	الحديث
٥٨	٨—	اد	اذ
٦٢	٢—	بجسيدا	تجسيدا
٦٦	٢—	نرتبط	ترتبط
٧١	٣	للدين	للدين
٧٢	٢	الامين	الامين
٧٢	٦	جميعا	جميعا
٧٣	٦—	قضاياها	قضاياها
٧٦	٥	النى	النى
٨١	٣—	الفرآنية	القرآنية
٩٣	٩—	متينه	متينه
٩٤	الآخر	ذلك	ذاك
٩٥	١١	أبضا	أيضا
٩٥	٧—	مكروه	مكروه
٩٧	١٠—	المحتزاد	المحتزات
٩٧	٧—	منا	بنا

رقم الصفحة	المصدر	الخطا	الصواب
١٠٠	٥	اهوا -	اهواء
١٠٥	٥	بيجاويون	ينجاويون
١٠٥	٩	والايحل	واليسر فل
١٠٦	١٣	عليه	عليه
١١٠	٧	النسهر	النسمير
١١١	٢	انسطابها	انطراها
١١٢	١	نحدها	نحدها
١١٣	١٣	ناخذ	ناخذ
١١٦	الآخر	البي	البي
١١٧	٧	نسرزف	نسرزف
١١٨	١٤	واروماني	والرومان
١١٨	١	نقدم	نقدم
١١٩	١	ينطلق	ينطلق
١١٩		الأحطار - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ زائدة	
١٢١	١٢	نقلدس	نقلدس
١٢٣	٣	فلبا	قلبا
١٢٤	٩	راحت	فراحت
١٢٥	١٠	ناذير	تأثير
١٢٥	٧	بالأخرى	بالأخرى
١٢٦	٤	تغير	تغير
١٢٦	٤	نهية	نهائية
١٢٨	٦	الموعد	المواد
١٢٨	١٢	مسطر	اننا نعرف ان كل واحد منا مرتب من الانسج
١		والأعضاء	
١٢٨	٢	بأنفسنا	بأنفسنا
١٢٩	٦	حقيقة	حقيقة
١٢٩	١٣	ونعرف	ونعرف
١٢٩	٤	بحاياتها	بحاياتها
١٣٣	٧	مدينة	مدينة
١٣٣	١٠	والملكات	والملكات
١٣٣	١٠	انتمت	انتمت
١٣٦	١٢	فقال الرب	فقال الرب
١٤١	٤	وتفجرت	وتفجرت
١٤٢	٧	فنجالت	فنجالت
١٤٥	١٤	نؤد	نؤد
١٤٨	١١	ان	ان
١٤٨	١٢	ضرب	ضرب
١٤٨	٢	وحسن	وحسن
١٥٠	الآخر	فأنقذك	فأنقذك
١٥٤	١١	الدنيا	الدنيا

رقم الصفحة	المسطر	الخطا	الصواب
١٥٦	١	خلفه	خلقاه
١٦٢	٦—	نطره	فطره
١٧٤	الآخر	تنخاونها	ينخاونها
١٧٩	٩—	رقبنا	رقابنا
١٨٢	(١) الهامش	آية ٤ سورة المدثر	آية ١٣ سورة الشورى
١٨٢	(٢) الهامش	آيتا ٣٢، ٣١	
		سورة الأعراف	وصينا
١٨٢	١٣	وصنيا	آية ٢٨٥ سورة البقرة
١٨٣	٦	أنباء	أنساء
١٨٧	٨—	العصبيات	العصبيات
١٩٤	١٠	الراقبه	الراقيه
١٩٦	٣	ودوقيات	ودوقيات
١٩٦	١٣	الرص	الروص
١٩٦	١٥	اعتنق	اعتنق
١٩٨	٥—	العيد	العين
٢٠٠	٩	وغلهم	أوغلهم
٢٠١	١٢	من يسر اليه الا اذا بدأ هو . .	يؤثر القادم عليه بالوسادة
٢٠٣	٥	لا خلقه	ولا خلقه
٢٠٦	٩	ونضر	وتنضر
٢١٠	١١	آلهه	آلهه
٢١٣	٥—	استقباب	استقباب
٢٢٥	١١	لا تمنع	لا تمنع
٢٣٦	١٣	مى	منى
٢٣٧	٧—	سانجا	سانحة
٢٣٨	١١	تخطيتى	تخطفتنى
٢٤٢	١٥	عيب	عجيب
٢٤٣	٦	اسراع	الصراع
٢٤٤	١٣	سهرقيد ونجارى	سهرقند وبخارى
٢٥٢	٧	أبارتهام	أمر أتهام
٢٥٢	٩—	وترأت	وترأب
٢٥٢	٢—	جوافز	جوافز
٢٦٢	١١—	عبدا الله	عبدا لله
٢٦٦	٥	آمين	آمين
٢٦٦	١٠	ظله	ظل
٢٦٩	٣	نشاعه	نسل
٢٧٥	٢	هليم	عليهن

❖ اذا سبق رقم المسطر علامة (ـ) يبدأ الممد من أسفل الصفحة .
❖ اذى الكريم نرجو أن تصحح نسختك من هذه الأخطاء المطبعية .

